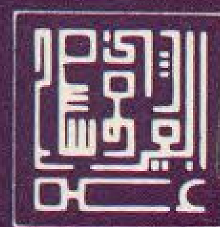
الصهيونية في زمن الديكتاتورية

ليني برينر

التاريخ الموثق لعلاقات الصهيونية بالفاشية والنازية

ترجمة وتقديم: د. محجوب عمر





مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

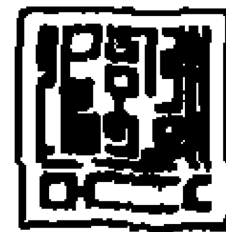
ليني برينر

الصهيونية في زمن الديكتاتورية

التاريخ الموثق لعلاقات الصهيونية بالفاشية والنازية

ترجمة وتقديم: د. محجوب عمر





مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* ليني برينر : الصهيونية في زمن الديكتوتورية
التاريخ الموثق لعلاقات الصهيونية بالفاشية والنازية
* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٥

* الناشران : مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان
هاتف : ٨١٠٠٥٥/٦ تلكس : ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان
دار البيادر للنشر والتوزيع
٣٥ ش جزيرة العرب ـ المهندسين
* مراجعة وإعداد : غانم بيبي
* الغلاف : عن ملصق للفنان البريطاني ليونارد برين
تضم الطبعة العربية هذه الترجمة الكاملة لكتاب :
Lenni Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators,* Cawrence Hill - Croom Helm, 1983.

تقديم

بقلم د: محجوب عمر

١ ـ لا تزال الحرب مستمرّة بين الفكر الصهيوني وبين الأفكار الإنسانية والثورية والتقدمية على ساحة الرأي العام العالمي.

ولا شكّ أن الصهاينة يملكون غلبة واضحة على أجهزة الإعلام ووسائط النشر في العالم الصناعي على الأقلّ ممّا مكّنهم، وما زال يمكّنهم، من التأثير بدرجة خطيرة على الرأي العام العالمي، بحيث أصبح معلوماً أن اختراق حاجز التعتيم الإعلامي الصهيوني لصالح النضال العربي العادل لم يعد ممكنا بالوسائل السلميّة في معظم الأحيان. وحتى عند اللجوء إلى عمليّات الدعاية المسلّحة فإن النفوذ الصهيوني في وسائط الإعلام العالميّة ـ بتقاطعه وتعامله وخدمته للمصالح الاستعمارية العالميّة ـ قادر على تشويه عمليّات الدعاية المسلّحة هذه، بل وعلى اتّهام القائمين بها بما هو في الحقيقة من صفات الصهاينة أنفسهم سواء كانت التهمة هي الإرهاب أو حتى معاداة الساميّة.

إن الرأي العام العالمي لم يألف بعد اتهام الصهاينة و«دولة إسرائيل» بتهمة اللاساميّة. فلاتزال أجهزة الدعاية الصهيونية والاستعمارية تستثمر ما ترسّخ في الذاكرة الإنسانية عن بشاعة ما قامت به الفاشية والنازية قبل وخلال الحرب العالمية الثانية بل إن أجهزة الدعاية الصهيونية نجحت إلى حدّ كبير في أن تروّج وهماً مضلّلاً يصوّر ضحايا النازيّة والفاشيّة بأنهم كانوا من اليهود فحسب، بينما كان هؤلاء الضحايا الذين فاق عددهم العشرين مليونا يضمّون أجناسا وأدياناً وجنسيّات شتّى، فلم تفلت مجموعة

بشرية واحدة من بطش النازيين والفاشيين وعنصريتهم.

ويكفي أن يتأمّل المرء جوهر فكر النازيّة والفاشية فيدرك كيف أن جميع الشعوب كان لا بدّ وأن تصبح ضحايا لهذا الفكر العنصري. فجوهر فكر الفاشيّة والنازية يقول **بتفوّق عرق على غيره، وبنقاء هذا العرق وبإعطائه حقوقاً يحرم منها غيره.** لذلك كان لا بدّ وأن يتحالف العالم كلّه ضدّ محور هتلر وموسوليني العنصري الفاشي النازي. كما يكفي أن يعرف الإنسان أن الكيان الصهيوني يقوم على أيديولوجية عرقية دينية تقول بالتفوّق لكي يدرك أن هذا الكيان عنصري لا يختلف عن الفاشية والنازية.

من هنا تنبع أهمية كتاب ليني بْرينَر الذي نقدّمه. ففي هذا الكتاب وثائق تثبت **تعاون الحركة الصهيونية بأجنحتها المختلفة وفي مراحل متتالية مع هتلر وموسوليني. بل إن الكاتب يسوق مع أفكار الصهاينة ـ موثّقة ـ ما يؤكد تطابقها مع أفكار النازيين والفاشيين في الجوهر كما في الأسلوب.**

وليست هذه هي المرّة الأولى التي يوجّه فيها يهودي شريف تهمة اللاساميّة للفكر الصهيوني، ومن ثم «للدولة إسرائيل». وليني بْرينَر يفعل ذلك ليس من منطلق تحوّله عن العقيدة اليهودية التي يتمسّك بها بشدّة، ولا حتى بدافع من تبنّيه لفكر «أممي» من الواضح انحيازه إليه، وإنما هو يفعل ذلك لمقاومة معاداة الساميّة، ويعلن انه يهودي معادٍ للصهيونية، ويأخذ على عاتقه تتبّع الحركة الصهيونية منذ نشأتها وفضح حقيقتها العنصرية وتحالفاتها مع النازية والفاشية.

*

٢ ـ ولقد أثار هذا الكتاب ما يستحقّه من اهتمام فور صدوره في عام ١٩٨٣. ولا شكّ أن ما تضمّنه الكتاب من حقائق موثّقة لم تكن معروفة من قبل، يجعل منه سلاحا لا غِنى عنه لكلّ مناضل ضدّ الصهيونية وبوجه خاص في مجالي التصدّي الفكري والحرب الإعلامية، بالإضافة إلى مجال تصحيح التاريخ المكتوب والكشف عن حقائقه.

والكتاب يجيب ايضاً عن تساؤل هام مطروح حول طبيعة الحركة الصهيونية وهل هي نتاج للتطوّر الإجتماعي للمجتمع الرأسمالي العالي النمو شأنها شأن الحركة الفاشية والحركة النازية، أم أنها «تقليد» و«توحّد» (identification) من جانب بعض اليهود المضطهدين في أوروبا مع هاتين الحركتين؟

فالتوحّد بما هو «وسيلة يتحلّى بها شخص ما بصفات شخص آخر ويجعلها جزءاً مشتركا من شخصّيته هو»[١] كان هو المخرج الذي فسّر به البعض ـ بنية حسنة أو بسوء قصد ـ الوحشيّة الاسرائيلية ضدّ العرب في المناطق التي احتلّوها وفي البلدان التي يغيرون عليها. ذلك ان «التوحّد» ـ من ناحية علميّة ـ «يتمّ بلا وعي وليس كما يبدو بقصد واع»[٢] ومن ثم يكون المتوحّد بريئاً من الناحية المعنوية على الأقلّ عند ممارسته لأفعال الشخص الذي توحّد به.

و«التوحّد» يغلب بين المعتدى عليه والمعتدي ويسمّى في هذه الحالة «التوحّد بالمعتدي». وعندما يوصف سلوك الصهاينة العنصري بأنه توحّد بالمعتدين النازيين والفاشيين فإن ذلك يتضمّن تبرئة الصهيونية ذاتها من صفة العدوان.

يذكر كتاب «The Handbook of Social Psychology) المجلّد الثالث العبارة الآتية: «. . تشمل الأمثلة التوضيحيّة . . كيف تبنّى . . بعض نزلاء معسكرات الاعتقال الألمانية أنماط وسلوك حرّاسهم القساة، وظهور معاداة السامية بين اليهود أنفسهم»[٣] والتقييم نفسه يتردّد في جميع موسوعات علم النفس تقريباً ويشيع كثيراً في الكتابات المعاصرة التي تتناول الوقائع الوحشية للسلوك الاسرائيلي.

من هنا الأهميّة الكبرى لكتاب ليني بْرينَر الذي تناول ابتداء الفكر الصهيوني، والحركة الصهيونية منذ أيام هرتزل وبيّن كيف أنها، منذ البداية، كانت أيديولوجية إنعزالية تقوم على فكرة الدم والأرض فتسبق بذلك هتلر وموسوليني في استخدامها لها، وأنها ليست مجرّد «توحّد» معها وإن تشابهت الأساليب.

٣ ـ ناقش ليني بْرينر تفصيلا تصرّفات القيادات الصهيونية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها لكي يثبت أن الصهيونية ليست فقط عنصرية في الفكر وإنما هي أيضاً عنصرية في التطبيق، وان ذلك لا يضير غير اليهود فحسب، بل أضرّ ويضير اليهود في المقام الأوّل.

إن الفقرة التي أوردها وأثبتها على لسان دافيد بن غوريون في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٨ والتي تحدّث فيها عن الخيارات المتاحة أمامه من أجل إنقاذ أطفال اليهود تدمغ مؤسّس «الدولة الصهيونية» بجرم قد يفوق جرم هتلر في حقّ الشعب الألماني. يقول دافيد بن غوريون: «لو أنني عرفت أن من الممكن إنقاذ كلّ الأطفال في ألمانيا بإحضارهم

إلى إنجلترا، أو إنقاذ نصفهم فقط بنقلهم إلى أرض إسرائيل (Eretz Israel) لكنت قد اخترت البديل الثاني».

ومثل هذه الفقرة كثير يسوقه ليني برينر في كتابه! وننبّه القارىء المعني إليه. ذلك أن الدعاة الصهاينة قد استقبلوا كتاب ليني برينر بالحرب ضدّه على مستويات عدّة كان أوّلها هو التعتيم المعتاد، وكان من بينها الإتّهام بالتحيّز المسبق وبادّعاء الحكمة بأثر رجعي. ولقد وقع عدد من الكتّاب في شرك التشكيك هذا، وأصبح التساؤل حول ما إذا كانت هناك خيارات أخرى في ذلك الوقت أمام القيادات الصهيونيّة، هو الثغرة التي تنفذ منها الحملة الصهيونية لتشويه الكتاب وإفقاده مصداقيّته.

وكمثال على ذلك فإن كاتباً مثل لويس كامف (Louis Kampf) الذي يقدّم نفسه «كمحظوظ هرب من أوروبا في عام ١٩٤٢»، يكتب في مجلّة معروفة بخصومتها للصهيونية هي **Merip Reports**، عدد يناير/كانون الثاني ١٩٨٥، عارضاً الكتاب، فيصفه بأنه غاية في الأهميّة. ولكنّه يعود فيتساءل ما إذا كانت هناك بدائل أخرى في ذلك الوقت. ولعلّ الكاتب متأثّر بسلوكه الذاتي، ولكن الكتاب وما ورد فيه من وثائق يجيبان عن هذا التساؤل بوضوح. **فعنصرية الصهيونية جعلت الصهاينة يختارون بدم بارد التعاون مع النازيين على قتل اليهود في سبيل دفع «بعضهم» نحو فلسطين**. إن قضيّة إيخمان وما كشفت عنه من تواطؤ صهيوني معه ليست هي الوحيدة في هذا المجال كما ينبئنا الكتاب.

*

٤ ـ واجهت الصهيونية العالمية صدور كتاب ليني بْرينَر عن علاقة الصهيونية والصهاينة بالنظم الديكتاتورية الفاشيّة والنازية بسبل عدّة، من أخبثها تبنّي جزء مما قاله وإعادة تقديمه إلى القرّاء ولكن من وجهة نظر تصوّره وكأنه إنجاز عظيم وتراث مشرّف يستحقّ الحفظ والتسجيل.

فبعد صدور كتاب بْرينَر في عام ١٩٨٣ صدر كتاب آخر في عام ١٩٨٤ لكاتب يهودي آخر يدعى ادوين بلاك بعنوان **«إتفاق التحويل»** وكما سيتبيّن القارىء يورد بْرينَر أخبار وتفاصيل هذا الإتفاق بإعتباره دليلاً على الجريمة العنصرية للصهيونية التي عقدت اتفاقاً مع هتلر حطمّ جهود المعادين للنازية ومن بينها جهود اليهود أنفسهم لمقاطعة الرايخ الثالث (النظام النازي). وقدّم بلاك كتابه قائلاً: «كان قلقي عظيماً لكون ما سيكشف عنه الكتاب يمكن أن يستغلّه أعداء الشعب اليهودي. ولكون أن هذا الإتفاق سيكون

ذخيرة صالحة لأولئك الذين يريدون إدانة الحركة الصهيونية بأنها عنصرية ونازيّة». ثم يستطرد قائلاً: «ولكن القضيّة غير ذلك، فلكي نتعلّم من الماضي يجب أن نفهم حقيقة هذا الإتفاق»(٤).

غني عن الذكر طبعاً أن وسائل الإعلام الصهيونية وتلك التي يسيطر عليها الصهاينة أو ينفذون إليها قد رحّبت بهذا الكتاب وروّجت له. ولقد كانت لعبة ذكيّة إذ أثار الكتاب وما ورد فيه من أنصاف حقائق جدلاً واسعاً ساعد الصهاينة على إذكائه بحيث يتمّ التعتيم على الكتاب الأصلي الذي فجرّ هذه القضية، وهو كتاب ليني بْرينَر، وبحيث ينتقل الحوار من مجمل قضيّة الصهيونية إلى تقييم جزء من تطبيقاتها ومن ثم يتمّ إخفاء ما لا يمكن الدفاع عنه عن أنظار القرّاء.

وفي نفس السياق حرّكت أجهزة الدعاية الصهيونية من جديد كل آلتها الإعلامية ـ وبشكل خاص بمناسبة الذكرى الأربعين للإنتصار على النازيّة ـ فأعادت نشر مئات من الكتب حول ما وقع على اليهود من اضطهاد نازي وفاشي دون الإشارة بالطبع إلى الحقائق التي كشف عنها ليني بْرينَر.

ومع ذلك فليس من المبالغة القول بأن وطأة تأنيب الضمير لدى الرأي العام الأوروبي والأمريكي، والتي سمحت في الماضي بالمبالغة الصهيونية وبإخفاء الحقائق وتشويه التاريخ، هي في تراجع مع تقدّم الزمن. وأن الأجيال الجديدة تبرز متحرّرة من عقدة الذنب تلك ومن ثم فهي متفتّحة أمام ما تكتشفه من حقائق.

ذلك ما يزيد من أهمّية كتاب بْرينَر في هذه الظروف.

*

٥ ـ هل تغيّر الحال؟ هل أمكن لذلك التجمّع الذي تمّ جلبه من المجتمع الأوروبي الغربي.وزرعه في قلب الوطن العربي أن يفلت من المصير المحتوم لكل تجمّع يقوم على أساس عرقي أو طائفي؟

لم يتغيّر شيء. لا تزال الصهيونية عنصريّة وستظلّ، ولا تزال «دولة إسرائيل» دولة عنصرية عدوانية وستظلّ.

لنقرأ معا بعض ما يقوله البروفيسور دان هوروفيتش في مقال له نشرته جريدة دافار

-في ٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٤ متحدّثا عن «إسرائيل» وكيف أنها «**ناضجة للفاشية. فالتطابق الحالي بين القومية القبليّة والتعصّب الديني والشعبويّة اليمينية ترسي الأسس السياسية للفاشية الإسرائيلية**». وبعد أن تحدّث هوروفيتش تفصيلاً عن هذه السمات بما يذكّر القارىء بمكتشفات بْرينَر القديمة ينبّه إلى أن الفاشية الإسرائيلية التي توجّه الآن ضدّ العرب والتي تسعى «**بقسوة لطرد العرب من البلاد**» لها «جدلها الداخلي» ككلّ فاشيّة. ولن يقف الأمر عند هذا الحدّ، فليس ثمة «فاشيّة للترف» (de luxe fascism)، وأن ذلك «الجنّي الذي سيطلقونه من قمقمه سيبتلعهم أيضاً».

وقد يتساءل البعض عما إذا كانت الفاشيّة التي يلحظها دان هوروفيتش هذه الأيام في التجمّع الإسرائيلي كلّه هي وليدة تطوّر هذا التجمّع ذاته مثلما حدث مع هتلر وموسوليني؟

إن كتاب ليني برينَر يجيب عن هذا التساؤل بالنفي ويقدّم ما يقطع بأن العنصرية هي في قلب هذا التجمّع منذ ابتداء تشكيله قبل الإعلان عن قيام الدولة. وبذلك فإن بروز الوجه العنصري لهذا التجمّع ليس مرجعه في الأساس إلى أزمة داخلية ناتجة عن تطوّر اقتصادي في مرحلة معيّنة وإن كان ذلك أحد العوامل، وانما يرجع إلى بروز النقيض العربي الفلسطيني الذي اعتمد الكيان الصهيوني على تغييبه لكي يبدو ليبرالياً وديمقراطياً. ولقد كان ـ ولا يزال ـ التقبل السلبي بالوجود الصهيوني هو السبيل إلى تفريغ عوامل الأزمة الداخلية الاسرائيلية المغذيّة للفاشية، ومن ثم إلى تأجيل لحظة التفجّر الداخلي لهذا الكيان.

إن التصدّي المسلّح واستمراره على مدى السنوات العشرين الماضية تقريبا، قد أدّى إلى سقوط الواجهات الليبرالية الزائفة، والكل يشهد الآن اتجاه التجمّع الإسرائيلي «نحو اليمين» ونحو الفاشية بالمقياس الأوروبي. ذلك معناه المزيد من الأخطار على العرب داخل وخارج فلسطين المحتلّة، أخطار الإبادة بالطرد والقتل والتهجير، وايضا بتغذية نيران الإقتتال الطائفية والقبلية والإقليمية.

إن الكيان العنصري قد تبنّى ـ بحجّة الأمن ـ نظرة ضرورة التفوّق العسكري على الدول العربية، وهي في الحقيقة تطبيق لفكرة العنصرية عن التفوّق العرقي لسكانه. والطريق للقضاء على هذه العنصرية الفاشية الجديدة/القديمة هو بمحاولة ضرب هذا الكيان من داخله ومن خارجه، بحيث لا تتاح له فرصة العودة لارتداء أقنعة التقدّم

والليبرالية والإنسانية.

ذلك هو السبيل ليس فقط لردّ شروره عن العرب عامة والفلسطينيين خاصة، وإنما أيضاً لردّها عن اليهود أنفسهم الذين يعبّر ليني بْرينَر عن قطاع واع بالتاريخ من بينهم.

إن كتاب ليني بْرينَر وإن كان يستجّل حقائق تاريخية تثبت عنصرية الكيان الصهيوني، فانه أيضاً يشير إلى المستقبل المظلم لهذا الكيان المصنوع، وهو نداء للضمير العالمي لكي يهبّ لإنقاذ ضحاياه..

ولعلّ نشر هذا النداء على أوسع نطاق يمهم في تبصير المخدوعين بالحقائق وفي اختصار طريق الآلام وفي تسليح المناضلين بنظرة دقيقة تسدّد بنادقهم، كلّ بنادقهم نحو منتصف الهدف، نحو العدو الصهيوني الجاثم على أرض فلسطين المحتلّة.

م.ع.
١٩٨٥/٧/١٤

(١) Calvin S. Hall and Gardener Lindzey: «*Theories of Personality*», John Wiley and Sons Inc. New York, 2nd edition, 1978 - p. 45.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

(٣) «The Handbook of Social Psychology», V. III - Addison - Wesley Publishing Company, U.S.A. 1968.

(٤) *Jewish Monthly* - May 1984

المقدمة

لماذا يصدر كتاب آخر عن الحرب العالمية الثانية التي ربما كانت أكثر المواضيع في التاريخ البشري عرضة للكتابة؟ لماذا يصدر كتاب آخر حول المحرقة ـ هولوكوست ـ التي ربما كان كثير ممن عاشها وكثير من الباحثين قد وصفوها بشكل مثير. من المؤكد أنه قد تمت تغطية عصر الديكتاتوريين، والحرب العالمية، والمحرقة كموضوع عام. ولكن هل تم الكشف بما يكفي عن التفاعل بين الصهيونية وبين الفاشية والنازية؟ فإن لم يكن ذلك قد تم، فلم؟

إن الإجابة غاية في البساطة. لقد تمت معالجة أوجه مختلفة للموضوع العام ولكن لا يوجد ما يعادل العمل الحالي، وهو العمل الذي يحاول تقديم نظرة شاملة على النشاطات العالمية للحركة خلال ذلك العصر. وبالطبع ليس الأمر مصادفة وإنما هو علامة على أن هناك الكثير مما يؤلم سياسياً سنجده في هذا السياق.

إن تناول هذه القضايا يؤدي إلى مشاكل صعبة، بل هي من أكثرها صعوبة إذ تنشأ عن الانفعالات التي تستثيرها المحرقة. هل هناك أيّ شك في أن كثيراً من وفود الأمم المتحدة التي صوتت لصالح خلق دولة إسرائيل في عام ١٩٤٧، كانت تحركهم الرغبة في أن تعوض إلى حد ما اليهودَ الذين بقوا على قيد الحياة بعد المحرقة؟. لقد أحاطت هذه الوفود، كما فعل الكثيرون من محبّي إسرائيل الآخرين، الدولة بمشاعر إنسانية قوية كانت لديهم تجاه ضحايا جرائم هتلر الوحشية. ولكن هنا كان يكمن خطأهم: لقد أقاموا دعمهم لاسرائيل والصهيونية على ما فعله هتلر في اليهود، بدلاً من أن يقيموه على ما

فعله الصهاينة لليهود. إن القول بأن مثل هذا المنحى لا يمكن التسامح معه سياسياً أو فكرياً لا يسيء إلى المشاعر العميقة التي تولدها المحرقة.

ومع ذلك فإن الصهيونية هي أيديولوجية، ويتحتم فحص تتابع أحداثها بذات العين النقدية التي يقرأ بها القراء تاريخ أيّ توجه سياسي. إن الصهيونية ليست الآن، ولم تكن أبداً، مطابقة في امتدادها لا لليهودية ولا للشعب اليهودي. إن الأغلبية الساحقة من ضحايا هتلر اليهود لم يكونوا صهاينة. وبنفس القدر من الصواب ـ كما سيجد القراء المدعوّين لكي يروا بأنفسهم ـ فإن أغلبية اليهود في بولندا بالذات رفضوا الصهيونية عشية المحرقة كما مقتوا بشدة سياسات مناحم بيجين في عام ١٩٣٩، وهو واحد من الذين نصّبوا أنفسهم للحركة «التصحيحية الصهيونية» في العاصمة البولندية. إن الكاتب كيهودي معاد للصهيونية، قد تعوّد على تهمة أن معاداة الصهيونية تعادل معاداة السامية وكراهية الذات اليهودية.

يكاد يكون من الضروري اضافة أن كل محاولات تسوية اليهود بالصهاينة ومن ثم مهاجمة اليهود كيهود هي محاولة إجرامية وأنه من الضروري رفضها بحزم. ولا يمكن أن يكون هناك أقل خلط بين النضال ضد الصهيونية وبين معاداة اليهود أو اليهودي. إن الصهيونية تزدهر على مخاوف أن اليهود قد يلاقون محرقة أخرى. إن الشعب الفلسطيني يقدر بعمق التأييد الحازم الذي يقدمه له اليهود التقدميون سواء المتدينون منهم مثل السيدة روشا بلاو، وإلمر برْجر، وموشي مينوحين، واسرائيل شاحاك، أو من غير المتدينين مثل فيليسيا لانجر، وليئا تسميل، وآخرون من اليسار. لا يمكن أن يسمح للقومية أو للعقائد الدينية أو لأي نظرية اجتماعية أن تقف حجر عثرة أمام أقدام أولئك اليهود في اسرائيل، وفي أيّ مكان آخر، العازمين على السير مع الشعب الفلسطيني ضد الظلم والعنصرية. ويمكن القول بيقين علمي أنه بدون وحدة لا تنفصل بين التقدميين العرب واليهود فان الانتصار على الصهيونية ليس صعباً فحسب، وإنما هو مستحيل.

ولكي لا يتحول هذا الكتاب إلى موسوعة كان من الضروري انتقاء المادة بكل العناية المتأنية لكي يمكن أن تخرج صورة مكتملة. ومن المحتم أن الباحثين العاملين في المواضيع المتعددة المعالجة سيشكون من عدم كفاية الاهتمام المعطى لتخصصاتهم بالذات. وهم على صواب بالتأكيد فإن كتباً كاملة كُتبت عن جوانب معينة في المشاكل الأوسع التي تمت معالجتها هنا، والقارىء مدعو للغوص أكثر في المصادر التي تذكرها

الهوامش. وهناك صعوبة أخرى تنشأ من حقيقة أن الكثير من المادة الأصلية هو في ضيافة لغات يرجّح أن قليلين من القراء يعرفونها. لذا، وكلما كان ذلك ممكناً، تم ذكر المصادر والترجمات الانجليزية ومن ثم توفّر للقراء المتشككين فرصة حقيقية للتمعن في جهاز البحث الذي اعتمدنا عليه.

وكما سيكتشف القراء بالضرورة عند قراءتهم هذا الكتاب، فان مضاعفات الأيديولوجية الصهيونية تستحق الدراسة والكشف. هذا هو ما نحاوله هنا. وإنني أعلن بوضوح، كمعادٍ للصهيونية لا يتردد، أن الصهيونية خاطئة تماماً وأن هذا هو قراري الذي استخلصته من الأدلة. إن الخلاصة باختصار هي خلاصتي. أما بالنسبة لدرجة إقناع الحجج المستعملة للوصول إلى هذه الخلاصة فإن القراء مدعوّون للحكم على ذلك بأنفسهم.

١ ـ الصهيونية ومعاداة السامية قبل المحرقة(*)

منذ الثورة الفرنسية حتى توحيد ألمانيا وإيطاليا ظهر أن المستقبل ينبىء باستمرار تحرير اليهود في أعقاب مزيد من تطور الرأسمالية وقيمها الليبرالية الحديثة. حتى «مذابح التطهير»(**) الروسية في ثمانينات القرن التاسع عشر يمكن النظر إليها باعتبارها الأنفاس الأخيرة لماضٍ إقطاعي يموت، لا باعتبارها نذراً لأشياء ستأتي. ومع ذلك فعندما نشر ثيودور هرتزل كتابه **الدولة اليهودية** في عام ١٨٩٦ لم يعد من الممكن تصور مثل هذا السيناريو المتفائل واقعياً. فهو في عام ١٨٩٥ كان قد شاهد شخصياً الدهماء في باريس وهم يصرخون مطالبين بموت دريفوس. وفي نفس العام سمع صيحات الوحشية تعبر عن فرح الطبقة الوسطى في فيينّا وهي تحيّي كارل لويجر المعادي للسامية بعد أن اكتسح «برغو مايستر» في انتخاب رئاسة البلدية.

كانت الإدعاءات الصهيونية الحديثة، التي ولدت وسط أمواج من هزائم اليهود ليس فقط في روسيا المتخلفة وإنما أيضاً في قلب مراكز أوربا الصناعية، هي الأكثر نبلاً وإقناعاً: خلاص الشعب اليهودي المسحوق على أرضه هو. ولكن منذ البداية كانت الحركة تمثل قناعة جزء من الطبقة الوسطى اليهودية بأن المستقبل هو للذين يكرهون اليهود، وأن معاداة السامية هي حتمية، وطبيعية. ولما كانت **المنظمة الصهيونية العالمية** الجديدة مقتنعة بشكل حازم بأن معاداة السامية لا يمكن هزيمتها فإنها لم تحاربها أبداً.

---

* من الآن فصاعداً سنترجم كلمة هولوكوست Holocaust بالمحرقة ـ المترجم.

** Pogroms.

وأصبح التكيف مع معاداة السامية، واستعمالها البراجماتي من أجل هدف الحصول على دولة يهودية، هو الحيلة المركزية للحركة، وقد ظلت مخلصة لمفاهيمها الأولى حتى المحرقة وخلالها. وفي يونيو/حزيران ١٨٩٥ أرسى هرتزل في مداخلاته الأولى في يومياته الصهيونية الجديدة هذه البديهة الثابتة في الصهيونية:

في باريس، كما قلت، حققت موقفاً أكثر إنطلاقاً تجاه معاداة السامية التي بدأت الآن أتهمها تاريخياً وأغفر لها. فوق كل شيء تعرفت على فراغ وعقم محاولة «التغلب» على معاداة السامية(١).

بأبسط المعاني، كان هرتزل ابن زمانه وطبقته. مؤمن بالملكية ويعتقد أن أفضل الحكام هو «المستبد العادل»(٢). وقد زعم كتابه **الدولة اليهودية** بصراحة أنه: «ولا أمم العصر الحالي تصلح فعلاً للديمقراطية، واعتقد أنها ستصبح أقل صلاحية لها أكثر فأكثر؛ . ليست لديّ ثقة في الفعالية السياسية لشعبنا لأننا لسنا أفضل من بقية الإنسانية الحديثة»(٣).

لقد أدى به تشاؤمه العالمي إلى أن يخطىء الحكم تماماً على الجو السياسي في أوربا الغربية في أواخر القرن التاسع عشر. ولقد أساء هرتزل فهم قضية دريفوس بالذات. إن سرية المحاكمة وإصرار دريفوس الشجاع على براءته أقنعت الكثيرين بأن ظلماً ما وقع. وقد أثارت القضية موجة ضخمة من تأييد الأغيار (غير اليهود) وناقش الملوك القضية وخافوا على سلامة فرنسا. وصلى اليهود في القرى البعيدة على نهر البريبت(*) من أجل إميل زولا. وسار المفكرون في فرنسا تأييداً لدريفوس. وعبأت الحركة الإشتراكية الشعب العامل. وانفضح الجناح اليميني في المجتمع الفرنسي وتلطخ الجيش وسحبت الدولة اعترافها بالكنيسة. ودفع بمعاداة السامية في فرنسا إلى عزلة استمرت حتى انتصار هتلر. ومع ذلك فإن هرتزل وهو أكثر الصحفيين شهرة في فيينا لم يفعل شيئاً ليحرك ولو مظاهرة واحدة لصالح دريفوس. وعندما ناقش الأمر كان دائماً يتناوله باعتباره مثلاً مفزعاً لا باعتباره قضية تعبوية. وفي عام ١٨٩٩ فرضت الاحتجاجات إعادة المحاكمة. وأكدت محكمة عسكرية إدانة الكابتن دريفوس بأغلبية خمسة ضد اثنين ولكنها وجدت ظروفاً مخففة فخفضت العقوبة إلى عشر سنوات. ولكن هرتزل لم ير سوى الهزيمة وقلل إلى حد

---

* Pripet، رافد من روافد نهر الدنيبر بين أوكرانيا وبيلوروسيا (المترجم).

كبير من مغزى تعاطف الأغيار الضخم مع الضحية اليهودية.

لو أن وحشاً أعجم عذب علناً ألم تكن الناس لتصبح ساخطة؟ هذا هو معنى المشاعر الموالية لدريفوس في البلدان غير الفرنسية هذا إذا كانت منتشرة بالفعل كما يقدر العديد من اليهود. . . . . ولتلخيص الأمر في كلمات يمكننا القول بأن الظلم الواقع على دريفوس كان من الكبر بحيث نسينا أننا نتعامل مع يهودي. . . هل هناك من يجرؤ إلى درجة الزعم أن من بين أي سبعة أشخاص هناك اثنين أو حتى واحداً يفضل اليهود؟. . . إن دريفوس يمثل الحصن الذي كان ولا يزال موضع النضال. وما لم نكن مخدوعين فإن هذا الحصن قد ضاع(٤).

لقد فهمت الحكومة الفرنسية الواقع أفضل مما فهمه هرتزل وتصرفت لتقطع الطريق على مزيد من الإثارة وذلك بتخفيض ميزان العقوبة. وانطلاقاً من نجاح النضال من أجل دريفوس رأى اليهود الفرنسيون، يمينهم ويسارهم، أن الصهيونية غير ملائمة للعصر. وهاجمهم هرتزل بوحشية في يومياته: «إنهم يطلبون الحماية من الاشتراكيين ومحطمي النظام المدني الحالي. . حقا إنهم لم يعودوا يهوداً. ومن المؤكد أنهم ليسوا فرنسيين أيضاً. ومن المحتمل أن يصبحوا قادة الفوضوية الأوربية»(٥).

وجاءت فرصة هرتزل الأولى لكي يطور استراتيجيته البراجماتية الخاصة حول عدم مقاومة معاداة السامية، بنجاح كارل لويجر في فيينا، وقد ضاعف هذه الفرصة هجرة قسم من اليهود إلى الدولة اليهودية الآخذة في التشكل. كان هذا الانتصار الديماغوجي هو الانتصار الكبير الأول للموجة الجديدة للأحزاب المعادية للسامية خاصة في أوربا، ولكن أسرة هبسبورج عارضت بحزم انتخابات البلدية الجديدة. كان حوالى ٨٪ من جنرالاتهم من اليهود وكان اليهود من الموالين للنظام بشكل فج وسط بحر من القوميات الساخطة التي تمزق الامبراطورية النمساوية ـ المجرية إرباً. ولم تكن معاداة السامية لتفعل شيئاً سوى المشاكل للنظام الضعيف بالفعل. ورفض الامبراطور مرتين تثبيت لويجر في منصبه، وكان هرتزل واحداً من اليهود القلائل في فينا الذين حبذوا التثبيت. وبدلاً من محاولة تنظيم معارضة للديماغوجي الاشتراكي المسيحي، التقى برئيس الوزراء الكونت كاسيمير باديني يوم ٣ نوفمبر/تشرين ثاني عام ١٨٩٥ وقال له (صراحة) أن يتقبل لويجر:

أعتقد أن انتخاب لويجر كعمدة لا بد أن يقبل. إذا لم تنجح في ذلك في المرة

الأولى فإنك لن تكون قادراً على التثبيت في أي فرصة تالية، وإذا فشلت في القبول بذلك للمرة الثالثة فإن الوحوش سيركبون. ابتسم الكونت قائلاً: هكذا! - بتعبير ساخر(٦).

كان الفقر في جاليشيا، في امبراطورية الهابسبورج، وكذلك التمييز في روسيا هما اللذان يدفعان اليهود إلى فيينا ثم إلى أوربا الغربية وأمريكا. جاءوا بمعاداة السامية معهم في أمتعتهم. أصبح المهاجرون الجدد «مشكلة» لحكام المجتمعات المضيفة وللتجمعات اليهودية المحلية الموجودة بالفعل الذين خشوا ظهور معاداة سامية محلية. كان لدى هرتزل جواب جاهز الصنع على موجة الهجرة التي ظن أنها قد تسعد كلاً من الطبقة العليا لليهود المحليين والطبقة الحاكمة للرأسمالية الغربية: سيحملهم جميلاً بأن يأخذ اليهود الفقراء عنهم. وكتب إلى باديني: «ما أهدف إليه هو... ليس بأي معنى هجرة كل اليهود... ومن خلال الباب الذي أحاول أن أدفعه لينفتح أمام الجماهير الفقيرة من اليهود، سيدخل رجل دولة مسيحي يلتقط هذه الفكرة بشكل صحيح، في تاريخ العالم»(٧).

لقد فشلت جهوده الأولى لتحويل رياح المعارضة للهجرة اليهودية الى شراع الصهيونية فشلاً كاملاً ولكن ذلك لم يمنعه من المحاولة ثانية. وفي عام ١٩٠٢ ناقش البرلمان البريطاني مشروع قانون استبعاد الغرباء الموجه ضد المهاجرين، وسافر هرتزل إلى لندن ليدلي بأقواله حول هذا المشروع. ولم يكتف بالمطالبة بتمرير المشروع بل ناقش وجوب تأييد الحكومة البريطانية للصهيونية. قابل اللورد روتشيلد، ولكن، وبالرغم من كل حديثه العلني حول إحياء شباب اليهودية واليهود، فقد استدار في هذا الحديث الخاص بنفاق كبير يخبر روتشيلد أنه «سيكون في الواقع واحداً من أولئك الأشرار الذين يمكن أن يقيم له اليهود الانجليز تمثالاً لأنني أنقذتهم من تدفق يهود أوربا الشرقية وربما أيضا من معاداة السامية»(٨).

أعاد حاييم وايزمان في سيرته الذاتية، **التجربة والخطأ**، المكتوب في ١٩٤٩ - وكان أول رئيس لدولة اسرائيل الجديدة حينئذ - أعاد النظر في الجدل حول مشروع قانون الغرباء. وكان، كمهاجر إلى بريطانيا وكيميائي شاب لامع، أحد المثقفين الذين يقودون الحركة الصهيونية الجديدة في عام ١٩٠٢، وقد قابل السير وليم ايفانز جوردون الذي كتب التشريع المعادي لليهود. وحتى مع إدراكه لما حدث، ومع أن ذكريات المحرقة طازجة لا تزال في عقله، فإن رئيس إسرائيل عندئذ ظل يصر على أنه:

«كان شعبنا أميل إلى القسوة عليه (إيفانز جوردون). إن قانون الغرباء في انجلترا والحركة التي تمت حوله كانا ظاهرة طبيعية... فعندما تصل كمية اليهود في أي بلد إلى نقطة التشبع فإن هذا البلد يتحرك ضدهم كرد فعل.. إن حقيقة أن العدد الفعلي لليهود في انجلترا، وحتى نسبتهم إلى المجموع الكلي للسكان، كان أصغر مما هو عليه في بلدان أخرى، لا علاقة لها بالأمر. إن العامل المحدد في هذا الأمر ليس قابلية اليهود للذوبان وإنما قدرة البلد على الإذابة.. لا يمكن النظر إلى ذلك باعتباره معاداة للسامية بالمعنى المعتاد أو الفج لهذه الكلمة. إنه أمر عالمي ملازم إجتماعياً وإقتصادياً للهجرة اليهودية وليس في امكاننا أن نلغيه... وبالرغم من أن آرائي حول الهجرة كانت بطبيعة الحال في تناقض حاد مع آرائه فإننا ناقشنا هذه المشاكل بطريقة موضوعية تماماً بل وَ وَدُودَةٌ»(٩).

وبالرغم من كل حديثه حول التناقض الحاد مع إيفانز جوردون، لا توجد أي إشارة على أن وايزمان قد حاول قط تعبئة الجمهور ضده. ماذا قال وايزمان له في نقاشهما «الودود»؟ لم يختر أحدهما أن يبلغنا بشيء ولكن في إمكاننا شرعاً أن نخمن: كما هو الحال مع السيد هرتزل، يكون الأمر مع الحواري وايزمان. يمكننا أن نستخلص بشكل معقول أن الدعاة الأمناء للتوافق البراجماتي قد طلبوا من المعادي للسامية أن يؤيد الصهيونية. لم يحدث ولا مرة واحدة، لا حينئذ ولا في المستقبل، أن حاول وايزمان قط تحريك الجماهير اليهودية ضد معاداة السامية.

«نبعد اليهود عن الأحزاب الثورية»:

كان هرتزل يأمل أساساً في إقناع سلطان تركيا في أن يهب له فلسطين كولاية تابعة ذات حكم ذاتي مقابل تحمل المنظمة الصهيونية العالمية للديون الخارجية للامبراطورية التركية. وسرعان ما اتضح بجلاء أن آماله غير واقعية. فالسلطان عبدالحميد كان يعرف جيداً أن الحكم الذاتي يؤدي دائماً إلى الاستقلال. وهو قد عزم على أن يحتفظ ببقية امبراطوريته. لم يكن للمنظمة الصهيونية العالمية جيش ولم يكن في إمكانها أبداً السيطرة على بلد لها. كانت فرصتها الوحيدة هي في أن تجد قوة أوربية لتضغط على السلطان لصالح الصهيونية. عندئذ ستكون أي مستعمرة صهيونية تحت حماية هذه القوة وسيكون الصهاينة عملاءها في داخل الحكم العثماني المتفسخ. ولقد عمل هرتزل بقية حياته في

سبيل هذا الهدف، واستدار أولاً نحو ألمانيا. بالطبع كان القيصر أبعد من أن يكون نازياً. لم يحلم أبداً بقتل اليهود وسمح لهم بحرية اقتصادية كاملة، ولكنه مع ذلك جمدهم كلية خارج مراتب الضباط والشئون الخارجية، وكان هناك تمييز شديد في الخدمة المدنية. وبحلول نهاية التسعينات في القرن الماضي كان القيصر غليوم قلقاً جداً بشأن الحركة الاشتراكية المتزايدة النمو. وجذبت الصهيونية أنظاره لأنه كان مقتنعاً بأن اليهود يقفون وراء أعدائه. كان يعتقد بسذاجة أن «العناصر الاشتراكية الديمقراطية ستتدفق إلى فلسطين»[١٠] وقد استقبل هرتزل في القسطنطينية يوم ١٩ اكتوبر/تشرين أول ١٨٩٨. وفي هذا اللقاء طلب الزعيم الصهيوني تدخله الشخصي عند السلطان وتكوين شركة امتياز تحت الحماية الألمانية. كان لفكرة «دائرة نفوذ» في فلسطين ما يكفي من الجاذبية ولكن هرتزل أيقن أن لديه طعماً آخر يمكنه أن يلوح به أمام السادة اليمينيين المحتملين «أوضحت أننا نبعد اليهود عن الأحزاب الثورية[١١]».

وبالرغم من اهتمام القيصر العميق بالتخلص من اليهود فلم يكن من الممكن فعل شيء من خلال برلين. كان دبلوماسيّوه يعرفون دائماً أن السلطان لا يمكن أن يوافق على المشروع. وبالإضافة إلى ذلك فإن وزير الخارجية الألماني لم يكن بنفس حماقة سيده. كان يعرف أن يهود ألمانيا لن يتركوا وطنهم بإرادتهم أبداً.

بحث هرتزل عن مكان آخر، بل استدار نحو نظام القيصر الروسي من أجل الدعم. وفي البداية كانت الصهيونية مقبولة في روسيا فقد كانت الهجرة هي الأمر المطلوب. ولفترة من الزمن طور سيرجي زوباتوف رئيس مكتب المباحث في موسكو استراتيجية تقسيم معارضي القيصر سرا. ونظراً للقمع المزدوج الواقع على العمال اليهود، فقد خرج منهم أول تنظيم إشتراكي جماهيري روسي، وهو الرابطة العامة للعمال اليهود، البوند. وأعطى زوباتوف تعليماته لعملائه اليهود لكي يحركوا مجموعات من «عمال صهيون» (بوعالي تسيون) الجدد لمعارضة الثوريين[١٢]. (الصهيونية ليست حركة أحادية التوجه، والمنظمة الصهيونية العالمية مقسمة منذ البداية تقريباً إلى فرق معترف بها رسمياً. أنظر المقدمة للحصول على قائمة بالمنظمات الصهيونية واليهودية الموجودة هنا). ولكن عندما ردت عناصر داخل الصفوف الصهيونية على ضغوط النظام القمعي والغضب المتنامي وبدأوا في الاهتمام بالحقوق اليهودية في روسيا، تم حظر نشاط البنك الصهيوني ـ الاتحاد الاستعماري اليهودي. جاء ذلك بهرتزل الى سان بطرسبورج

لعقد لقاءات مع الكونت سيرجي فيتّه، وزير المالية، ومع فياشِسْلاف فُون بْليفي، وزير الداخلية. كان فون بْليفي هو الذي نظم أول مذابح تطهير منذ عشرين عاماً في كشينيف في باسارابيا في فصح عام ١٩٠٣ وفيها مات خمسة وأربعون شخصاً وجرح أكثر من ألف وأوقعت كشينيف الرعب والرهبة في قلوب اليهود.

لقيت مفاوضات هرتزل مع القاتل فون بليفي معارضة حتى من معظم الصهاينة. ذهب إلى بطرسبورج لكي يعيد فتح شركة «الاتحاد الاستعماري» ويطلب أن تستخدم ضرائب اليهود في دعم الهجرة ومن أجل التدخل لدى الأتراك. ولكي يخفف من حدة ناقديه اليهود سعى ليس من أجل إلغاء المقاطعات الغربية التي كان محكوماً على اليهود بالبقاء فيها، ولكن من أجل توسيعها لكي تظهر بوضوح الصفة الإنسانية لهذه الخطوات، كما ادّعى[١٣]. وقال إن «ذلك سيضع نهاية لتهييج معين[١٤]». وقد قابله فون بليفي في ٨ أغسطس/آب، ومرة أخرى ١٣ أغسطس/آب. وهذه الأحداث معروفة من يوميات هرتزل وقد شرح فون بليفي اهتمامه بالاتجاه الجديد الذي رأى الصهيونية تتخذه:

لقد تطور الوضع مؤخراً إلى الأسوأ لأن اليهود كانوا يلتحقون بالأحزاب الثورية. لقد كنا عادة متعاطفين مع حركتك الصهيونية طالما كانت تعمل في اتجاه الهجرة. ليس من الضروري أن تبرر الحركة لي، أن تعظ شخصاً اهتدى وآمن. ولكن منذ مؤتمر مينسك لاحظنا حدوث تغيرات في أقسام كبيرة. الحديث عن الصهيونية الفلسطينية الآن أقل من الحديث عن الحضارة والتنظيم والقومية اليهودية. هذا لا يناسبنا[١٥].

ولقد حصل هرتزل على إعادة فتح شركة الاتحاد الاستعماري وعلى خطاب موافقة على الصهيونية من فون بليفي، ولكن التأييد أُعطي بشرط وحيد وهو أن تحصر الحركة نفسها في الهجرة وأن تتجنب تبني الحقوق الوطنية داخل روسيا. وبالمقابل أرسل هرتزل لفون بليفي نسخة من رسالته إلى اللورد روتشيلد التي تقترح أنه: «مما سيساهم بشكل أساسي في مزيد من تحسين الوضع، هو أن تتوقف الصحف المؤيدة لليهود عن استعمال مثل تلك النغمة البغيضة عن روسيا. من الواجب أن نحاول العمل في إتجاه هذا الهدف في المستقبل القريب»[١٦].

وتحدث هرتزل علناً في روسيا ضد محاولات تنظيم مجموعات اشتراكية داخل

في فلسطين. . . أرضنا فإن مثل هذا الحزب سيبعث الحياة في حياتنا السياسية، وعندئذ سأقرر موقفي الشخصي تجاهه. ستظلمونني إذا أنتم قلتم إنني أعارض الأفكار الاجتماعية التقدمية. ولكن الآن وفي ظروفنا الراهنة فإن الوقت مبكر جداً لتناول مثل هذه الأمور. إنها أمور عرضية. والصهيونية تتطلب انغماساً كاملاً لا جزئياً(١٧).

وعندما عاد هرتزل إلى الغرب مضى إلى أبعد من ذلك في تعاونه مع القيصرية. ففي ذلك الصيف وخلال انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في بازل كان له لقاء سري مع حاييم زِتْلوفسكي وهو شخصية قيادية في ذلك الوقت في الحزب الاشتراكي الثوري. (المؤتمرات الصهيونية العالمية تعقد كل عامين في السنين الفردية، ومؤتمر عام ١٩٠٣ كان هو السادس). وقد كتب زِتْلوفسكي فيما بعد عن هذه المحادثة غير العادية. قال له الصهيوني:

لقد جئت للتو من عند بليفي. وقد حصلت على وعده الايجابي الملزم أنه في خلال خمسة عشر عاماً على أقصى تقدير فإنه سيضع موضع الفعل بالنسبة لنا ميثاقاً من أجل فلسطين. ولكن هذا مرتبط بشرط واحد: يجب أن يوقف اليهود الثوريون نضالهم ضد الحكومة الروسية. فإنْ لم ينفذ بليفي الميثاق خلال خمسة عشر عاماً من تاريخ الاتفاق فإنهم يكونون أحراراً مرة أخرى ليفعلوا ما يرونه ضرورياً(١٨).

وبالطبع رفض زتلوفسكي هذا الاقتراح باحتقار. لم يكن اليهود الثوريون على استعداد لوقف النضال من أجل حقوق الانسان الأولية مقابل وعد غامض بدولة صهيونية في المستقبل البعيد. ومن الطبيعي ان الروسي أي زتلوفسكي كانت لديه كلمات ممتازة قليلة ليقولها عن مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية:

كان بشكل عام شديد «الولاء» للسلطات الحاكمة ـ كما يليق بدبلوماسي عليه التعامل مع السلطة القائمة ـ بحيث لم يكن مهتماً أبداً بالثوريين وبإشراكهم في حساباته. . . لقد قام بالرحلة طبعاً لا من أجل التدخل لصالح شعب اسرائيل وتحريك التعاطف من أجلنا في قلب بليفي. لقد سافر كسياسي

لا يشغل نفسه بالمشاعر، ولكن بالمصالح . . . ان سياسات هرتزل مبنية على الدبلوماسية البحتة التي تعتقد بشكل خطير أن التاريخ السياسي للإنسانية صنعته قلة من الناس، وقلة من الزعماء وقلة من القادة، وإن ما يرتبونه فيما بينهم يصبح محتوى التاريخ السياسي(١٩).

هل كان هناك أي مبرر لمقابلات هرتزل مع فون بليفي؟. لا يمكن أن يكون هناك إلا رأي واحد. فحتى وايزمان كتب فيما بعد أن «الخطوة لم تكن مذلة فحسب ولكنها كانت بلا هدف تماماً . . . ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر لاواقعية»(٢٠). لم يكن للقيصر أدنى نفوذ لدى الأتراك الذين كانوا ينظرون له كعدو لهم. وفي الوقت نفسه، في عام ١٩٠٣، قبل هرتزل اقتراحاً أكثر لا واقعية من جانب بريطانيا لإقامة مستعمرة صهيونية في مرتفعات كينيا كبديل لفلسطين. وبدأ الصهاينة الروس يعارضون هذه المقترحات الشاذة وهددوا بترك المنظمة الصهيونية العالمية إذا ما بحثت أوغندا. كان هرتزل يرى في نفسه أنه سيسيل رودس اليهودي ولم يكن يهمه أين ستوضع مستعمرته. ولكن بالنسبة لمعظم الصهاينة الروس فإن الحركة كانت إمتداداً لتراثهم التوراتي ولم تكن أفريقيا تعني لهم شيئاً. وقد حاول صهيوني روسي مختل أن يغتال نائب هرتزل، وهو ماكس نورداو، كما أن وفاة هرتزل المبكرة وحدها هي التي منعت الانهيار الداخلي للحركة.

ومع ذلك فإن الاتصالات المباشرة مع القيصرية لم تتوقف عند هرتزل. وبحلول عام ١٩٠٨ كانت القواعد مستعدة للسماح لخليفة هرتزل، دافيد وُلْفْسُون بمقابلة رئيس الوزراء بيوتْر سْتُولِيبين ووزير الخارجية ألكسندر إيزْفُولْسكي حول تجدد المضايقات لبنك «الاتحاد الاستعماري». وقد توصل إيزفولسكي بسرعة إلى اتفاق مع وُلفسون حول المطالب الدنيا، ومن المؤكد أن مناقشاته مع زعيم المنظمة الصهيونية العالمية دارت في جو من الصداقة، وكتب ولفسون منتشياً بالنصر: «يمكنني أن أقول إنني صنعت منه صهيونياً»(٢١). ولكن لا حاجة للقول إن زيارة ولفسون لم تؤد إلى أي تغير في التشريع الروسي المعادي لليهود.

الحرب العالمية الأولى

لم يحلّ السجل الدبلوماسي الفاضح للصهيونية في فترة ما قبل الحرب دون أن

تحاول المنظمة الصهيونية العالمية الاستفادة من كارثة الحرب العالمية الأولى. كان معظم الصهاينة مناصرين لألمانيا إنطلاقاً من العداء للقيصرية باعتبارها أكثر القوى المتصارعة عداءً للسامية. وحاولت قيادة المنظمة الصهيونية العالمية في برلين أن تجعل المانيا وتركيا تؤيدان الصهيونية في فلسطين كحيلة دعائية تمكن من تعبئة يهود العالم إلى جانبهما. ورأى آخرون أن تركيا كانت ضعيفة وأنه من المؤكد أنه سيتم تفكيكها في الحرب، وجادلوا بأنهم إن أيدوا الحلفاء فإن الصهيونية يمكن أن تقام في فلسطين كمكافأة. بالنسبة لهؤلاء لم يكن يهمهم أن يهود روسيا الذين يشكلون أغلبية يهود العالم لن يكسبوا شيئاً إذا انتصر قاهرهم وحلفاؤه الأجانب. وسعى وايزمان الذي كان يقيم في لندن إلى كسب السياسيين البريطانيين إلى جانبه. وقد اتصل بالفعل مع آرثر بلفور الذي كان كرئيس للوزراء قد تحدث في عام ١٩٠٥ ضد الهجرة اليهودية. عرف وايزمان المدى الكامل لمعاداة بلفور للسامية عندما باح بلفور لهذا الصهيوني بما يحمل من فلسفة في ١٢ ديسمبر/كانون أول عام ١٩١٤. كتب وايزمان في رسالة خاصة يقول: «لقد قال لي كيف أنه أجرى ذات مرة حديثاً مطولاً مع كُوزيما فاجنر في بايروت(*) وأنه شاركها العديد من مقولاتها المعادية للسامية»(٢٢).

وبينما كان وايزمان يتآمر مع السياسيين في لندن حصل فلاديمير جابوتنسكي على تأييد القيصر لتشكيل فرقة يهودية من المتطوعين لمساعدة بريطانيا في أخذ فلسطين. كان هناك آلاف من اليهود الشباب في بريطانيا لا يزالون مواطنين روس ومهددين بالإبعاد إلى روسيا القيصرية من جانب هربرت صمويل وزير الداخلية اليهودي، وذلك إن هم لم يتطوعوا في الجيش البريطاني. لم ترهبهم التهديدات، فهم لا يريدون أن يحاربوا من أجل القيصر ولا من أجل حلفائه. وتراجعت الحكومة. وكانت فكرة الفرقة اليهودية مخرجاً للحلفاء الذين أحرجهم الأمر.

وساعد الأتراك على جعل هذا المشروع واقعاً بطردهم كل اليهود الروس من فلسطين كغرباء معادين. وهؤلاء أيضا لم يكونوا راغبين في أن يحاربوا مباشرة من أجل القيصر، ولكن الصهيونية قادتهم لأن يتبعوا يوسف تْرُمْبِلْدور شريك جابوتنسكي في

---

* Bayreuth = بايرويت، مدينة ألمانية يجري الاحتفال سنوياً على مسرحها بعرض أعمال الموسيقار ڤاجنر. وكوزيما هي زوجة ريتشارد ڤاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) المتهم بمعاداة السامية لاعتماده الواسع على الخرافات والميتولوجيا الجرمانية (المترجم).

الفكر، إلى «فرق البغالة الصهيونية» مع البريطانيين في جَالِيبُولي. وتفاخر جابوتنسكي فيما بعد كيف أن فرق البغالة ـ ومساعدة المعادين للسامية في بطرسبورج ـ ساعدوه في الحصول على هدفه:

كانت «كتيبة الحمير» تلك التي سخر منها كل الظرفاء في اسرائيل والتي قدمت من الاسكندرية، هي التي فتحت أمامي أبواب مكاتب الحكومة في هوايت هول. ولقد كتب عنها وزير الشئون الخارجية في سان بطرسبورج الى الكونت بِنْكِنْدوف، السفير الروسي في لندن. وأرسلت السفارة الروسية تقارير عنها إلى وزارة الخارجية البريطانية، ورتب لي المستشار الرئيسي للسفارة المرحوم قسطنطين نابوكوف الذي خلف السفير فيما بعد، اجتماعات مع الوزراء البريطانيين(٢٣).

إعلان بلفور والحرب ضد البلشفية

شهدت نهاية الحرب اليهودية والصهيونية وقد أصبحتا في عالم جديد تماماً. أخيراً أثمرت مناورات المنظمة الصهيونية العالمية لصالح الصهيونية، ولكن ليس لصالح اليهود. كان إعلان بلفور هو الثمن الذي كانت لندن على استعداد لدفعه حتى يستعمل اليهود الأمريكيون نفوذهم لكي تدخل الولايات المتحدة الحرب ولكي تحتفظ باليهود الروس موالين للحلفاء. ولكن بالرغم من أن الإعلان قد أعطى الصهيونية الدعم العسكري والسياسي من جانب الأمبراطورية البريطانية فإنه لم يكن له أدنى تأثير على مجرى الأحداث في الأمبراطورية القيصرية السابقة، وهي الأرض الأم لليهود. كانت البلشفية وهي أيديولوجية معارضة للصهيونية مبدئياً، قد استولت على السلطة في بطرسبرورج وتواجه التحديات من جانب الحرس الأبيض القيصري والقوات الاوكرانية والبولندية والبلطيقية، التي تمولها بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا واليابان. كانت الثورة المضادة تتشكل من عديد من العناصر ذات التاريخ الطويل في معاداة السامية ومذابح التطهير. وقد استمر ذلك بل تطور أكثر خلال الحرب الأهلية، وقتل ما لا يقل عن ستين ألف يهودي على يد القوات المعادية للبلشفية. وبالرغم من أن إعلان بلفور أعطى الصهيونية تأييداً فاتراً من جانب مساندي السفاحين في الحرس الأبيض، فإنه لم يفعل شيئاً لوقف هذه المذابح ضد اليهود. كان الإعلان في أفضل الأحوال تعهداً غامضاً بالسماح للمنظمة الصهيونية العالمية بمحاولة بناء وطن قومي في فلسطين. وكان محتوى

هذا الالتزام لم يزل غير محدد تماماً. وفهم قادة المنظمة الصهيونية العالمية أن الحكومة البريطانية ترى أن سحق البلاشفة له الأولوية الأولى وأن عليهم أن يكونوا على أفضل سلوك، ليس فقط فيما يتعلق بفلسطين التي لا أهمية لها وإنما أيضاً بالنسبة لنشاطاتهم في ساحات شرق أوربا الملتهبة.

يطلق المؤرخون الغربيون على الثورة البلشفية اسم الثورة الروسية، ولكن البلاشفة أنفسهم كانوا يعتبرون أنها تطلق الثورة على النطاق العالمي. كذلك اعتبرها الرأسماليون في بريطانيا وفرنسا وأمريكا الذين رأوا أن النجاح الشيوعي يقوّي الجناح اليساري في طبقاتهم العاملة. ومثلهم مثل كل النظم الاجتماعية التي لا يمكنها الإقرار بحقيقة أن الجماهير لها حق في الثورة فإنهم سعوا لأن يفسروا الانتفاضات، لأنفسهم وللناس، باعتبارها مؤامرة من جانب اليهود. ففي ٨ فبراير / شباط عام ١٩٢٠ تحدث وينستون تشرشل وزير الحربية آنذاك لقراء مجلة الصنداي هيرالد المصوَّرة، عن «تروتسكي... (و)... مشاريعه للدولة الشيوعية على النطاق العالمي تحت السيطرة اليهودية». ومع ذلك كان لدى تشرشل يهوده المختارون المعارضون للبلشفية، ألا وهم الصهاينة. وكتب بحرارة عن «الغضب الذي هاجم به تروتسكي الصهاينة عموماً ودكتور وايزمان بشكل خاص». وأعلن تشرشل «أن تروتسكي تعرقله وتعوقه هذه الفكرة الجديدة مباشرة. ... إن النضال الذي يبدأ الآن بين اليهود الصهاينة وبين اليهود البلاشفة يكاد يكون صراعاً على روح الشعب اليهودي»[٢٤].

في نهاية الأمر رست الستراتيجية البريطانية الخاصة باستعمال المعادين للسامية والصهاينة معاً ضد تروتسكي على استعداد الصهيونية للتعاون مع بريطانيا بالرغم من التورط البّريطاني مع السفاحين الروس البيض. لم تكن المنظمة الصهيونية العالمية تريد مذابح تطهير في أوربا الشرقية ولكنها لم تفعل شيئاً لتعبئة يهود العالم لصالح اليهود المحاصرين هناك. وتفيدنا بيانات وايزمان في ذلك الوقت وكذلك مذكراته عن كيفية رؤيتهم للوضع. لقد مثل أمام مؤتمر فرساي في ٢٣ فبراير / شباط عام ١٩١٩؛ وهناك أعلن مرة أخرى الخط التقليدي لليهود والذي يشارك فيه المعادون للسامية والصهاينة، لم يكن اليهود هم الذين لديهم مشاكل بالفعل، كان اليهود هم المشكلة:

كان اليهود واليهودية في وضع ضعيف بشكل مخيف مشكّلين بالنسبة لأنفسهم وللأمم مشكلة صعبة الحل جداً. وقلت إنه لم يكن هناك أمل على الإطلاق في

مثل هذا الحل ـ طالما أن المشكلة اليهودية تدور أساساً حول عدم وجـود وطن للشعب اليهودي ـ بدون خلق وطن قومي(٢٥).

بالطبع لم يشكل اليهود مشكلة حقيقية لا للأمم ولا لأنفسهم، ولكن وايزمان كان لـديه حـل للمشكلة غير المـوجودة. لقـد قدمت الصهيـونية نفسهـا مرة أخـرى للقوى الرأسمالية المجتمعة باعتبارها حركة معادية للثورة. فالصهيونية «ستحول الطاقة اليهودية إلى قوة بنّاءة بدلاً من أن تبددها في الاتجاهات المدمرة»(٢٦). وحتى في أعوامه الأخيرة لم يكن وايزمان قادراً على رؤية المأساة اليهودية في أثناء الثورة الروسية إلا من عدسة التلسكوب الصهيوني:

ما بين إعلان بلفور وصعود البلاشفـة إلى السلطة ساهم اليهـود الروس بمبلغ ضخم حينذاك بلغ ٣٠ مليون روبل لإقامـة بنك زراعي في فلسـطين. ولكن ذلك وكثيراً غيره لا بد من التغاضي عنه الآن. . فيهـود بولنـدا. . . كانـوا لا يزالون يعانون كثيراً في الحرب المنفـردة الروسيـة ـ البولنـدية بحيث لم يكـونوا قادرين على القيام بأي مساهمة ذات قيمة في المهام التي كانت تواجهنا(٢٧).

كان وايزمان يرى الصهيونية ضعيفة في كافة النواحي وليس لها سوى مـوطىء قدم بسيط في فلسطين. كانت أوربا الشرقية «مأساة لم تكن الحركة الصهيونية في ذلك الوقت تملك القدرة على تخفيفها»(٢٨). آخرون لم يكونوا بمثل هذا التشاؤم. فقد نظمت النقابات البريطانية مقاطعة لعمليات شحن الأسلحة للبيض. وشن الشيوعيون الفرنسيـون تمرداً في الأسطول الفرنسي في البحر الأسود. وبالطبع كان الجيش الأحمر هو الذي حاول حماية اليهود ضد قاتليهم البيض. ولكن المنظمة الصهيونية العالمية لم تستعمل أبداً نفوذها لا في الجالية اليهودية الإنجليزية ولا في قواعد السلطة لمسـاندة النقـابيين المنـاضلين. وشارك وايزمان سادته البريطانيين كليةً في عقليتهم المعادية للشيوعية. ولم يغـير رأيه أبـداً حول هذه المرحلة. حتى في كتابه **التجربة والخطأ** لا يزال يبدو كواحـد من كبار المحـافظين، فيكتب عن «زمن كانت فيه فظائع الثورة البلشفية حيّة في عقل كـل **إنسان**» (التشـديد لنا)(٢٩).

إتفاقيات الأقليات في مؤتمر فرساي للسلام

خـرجت روسيا عن السيـطرة، ولكن الحلفاء وزبـائنهم المحليين كـانوا لا يـزالون

يسيطرون على بقية أوروبا الشرقية، والآن وقد تحولت المنظمة الصهيونية العالمية بناءً على إعلان بلفور إلى صوت رسمي لإسرائيل، لم يعد في الإمكان أن تستمر في تجاهل مصير الجاليات اليهودية الضخمة هناك. كان عليها أن تتصرف كمتحدث رسمي باسمها. وكان ما تريده هو أن يتم الاعتراف باليهود كأمة لها استقلالها الذاتي، لها مدارسها ومؤسساتها اللغوية وكذلك الاعتراف بيوم السبت اليهودي كيوم راحة لهم. ولما كان الاعتماد على الامبريالية هو أساس االستراتيجية الصهيونية فإن لجنة الوفود اليهودية ـ المشكّلة أساساً من المنظمة الصهيونية العالمية بالاشتراك مع اللجنة اليهودية الأمريكية ـ قدمت مذكرة حول الحكم الذاتي القومي إلى مؤتمر فرساي. وكان على كل الدول الجديدة التي خلفت الأمبراطوريات المنهارة ـ فيما عدا ألمانيا وروسيا ـ أن توقع اتفاقيات حقوق الأقليات كشرط مسبق للاعتراف الدبلوماسي بها. في البداية تقبل الحلفاء الفكرة إذ أيقنوا أن حقوق الأقليات كانت حيوية إذا أُريد للمتعصبين القوميين المختلطين ببعضهم بعضاً في أوربا الشرقية ألا يمزقوا بعضهم إرباً ويمهدوا الطريق لانتصار البلاشفة. وقّع البولنديون والمجريون والرومانيون، الواحد تلو الأخر، ولكن توقيعاتهم كانت لا معنى لها. فقد رأت الطبقات الوسطى المسيحية في تلك البلدان والتي أخذت تنمو بسرعة، رأت في اليهود منافسيها المتمرسين وكانت عازمة على إبعادهم. كان البولندي الذي وقع اتفاقيتهم هو أسوأ المعادين للسامية سمعةً في البلاد، وأعلن المجريون أن يوم توقيع اتفاقيتهم هو يوم حداد قومي، ورفض الرومانيون التوقيع إلى أن تم استبعاد العبارات التي تضمن حقوق السبت والمدارس اليهودية من اتفاقيتهم.

لم تكن هناك أدنى فرصة لنجاح هذه الخطة الخيالية. وأدرك بلفور بسرعة أية مشاكل ستخلقها الاتفاقيات للحلفاء في أوربا الشرقية. وفي يوم ٢٢ أكتوبر / تشرين أول أبلغ عصبة الأمم أن الدول التي تثير الاتهامات ستكون كمن يقوم بواجب لا شكر عليه إذا ما حاولت فرض التزامات الاتفاقية. ثم احتج قائلاً بأنه طالما أن الاتفاقيات قد سبقت قيام العصبة فإن هذه الأخيرة لا يجب أن تلزم نفسها بفرضها(٣٠). عندئذ قبل المحامون المجتمعون المسؤولية القانونية للاتفاقية ولكنهم لم يتقدموا بأية آلية لفرضها.

لم يشغل اليهود أنفسهم باستعمال اتفاقيات لا معنى لها، ولم يُرسَل من عرائض الالتماسات الجماعية سوى ثلاث. واتضح في العشرينات أن المجر وضعت قيوداً على قبول اليهود في الجامعات. وفي عام ١٩٣٣ شعر هتلر الذي كان لا يزال ضعيفاً بأنه مضطر لاحترام ميثاق الأقليات الألماني البولندي، والذي كان الاتفاقية الوحيدة من هذا

النوع المطبقة في ألمانيا. واحتفظ عشرة آلاف يهودي في سيليزيا العليا بكل الحقوق المدنية حتى انتهاء أجل الاتفاق في يوليو / تموز عام ١٩٣٧[٣١]. ووجدت رومانيا مذنبة بانتهاك حقوق المدنيين اليهود في عام ١٩٣٧. ولكن مثل هذه الانتصارات القانونية الصغيرة لم تغير شيئاً على المدى الطويل.

والطريق الوحيد الذي كان يمكن لليهود من خلاله تحقيق أي نجاح في النضال من أجل حقوقهم في أوربا الشرقية، كان في التحالف مع حركات الطبقة العاملة، التي رأت في معاداة السامية في كل هذه البلدان، بما هي عليه فعلاً، سكيناً فكرية في أيدي أعدائهم الرأسماليين. ولكن وبالرغم من أن الثورة الاجتماعية كانت تعني المساواة بالنسبة لليهود كيهود فإنها كانت تعني أيضاً مصادرة الطبقة الوسطى اليهودية كرأسماليين. لم يكن ذلك مقبولاً من جانب الامتدادات المحلية للمنظمة الصهيونية العالمية الذين كانوا إلى حد كبير طبقة وسطى في تركيبهم لا يتبعهم عملياً أي طبقة عاملة. إن الحركة الصهيونية العالمية التي كانت تهتم دائماً برأي الطبقة الحاكمة البريطانية لم تدفع أبداً بمجموعاتها المحلية في اتجاه اليسار بالرغم من أن الراديكاليين كانوا هم القوى الجماهيرية الوحيدة على الأرض المستعدة للدفاع عن اليهود. وبدلاً من ذلك خلص قادة المنظمة الصهيونية العالمية إلى أنهم يفتقرون للقوة من أجل النضال في سبيل الحقوق اليهودية في المهاجر (الدياسبورا)*، وبناء صهيون الجديدة في الوقت نفسه. وبحلول العشرينات تخلّوا عن كل إدعاء بالعمل لصالح يهود المهاجر في أماكنهم تاركين امتداداتهم المحلية والجاليات اليهودية في تلك البلدان، للعناية بأمورهم بأنفسهم.

التحالف الصهيوني مع معاداة السامية في أوربا الشرقية

لم ينظر معظم اليهود في شرق أوربا إلى البلاشفة على أنهم غيلان، كما اعتقد تشرشل ووايزمان أنهم كذلك. فتحت قيادة لينين لم يعط البلاشفة اليهود مساواة كاملة فحسب وإنما أقاموا المدارس، وفي النهاية المحاكم، باللغة اليديشية. ومع ذلك فقد كانوا معارضين بشكل مطلق للصهيونية ولكل القومية الأيديولوجية. وعلّم البلاشفة قائلين: إن الثورة تحتاج وحدة العمال في كل الأمم ضد الرأسماليين. إن القوميين يفصلون «عمالهم» عن إخوانهم الطبقيين. والبلشفية بوجه خاص تعارض الصهيونية باعتبارها مناصرة

* Diaspora = من الآن فصاعداً ستترجم كلمة «دياسبورا» إلى «مهجر» أو «مهاجر» حسب السياق. (المترجم).

لبريطانيا وباعتبارها معارضة للعرب بشكل جوهري. لذا فإن القيادة الصهيونية المحلية كانت مضطرة للتوجه نحو القوميين كحلفاء محتملين. وكان معنى ذلك في أوكرانيا مجلس الرادا بزعامة سيمون بِتْلِيُورا الذي كان مثله مثل الصهاينة يجند على أسس إتْنِيّة صارمة: لاروس، ولا بولنديين، ولا يهود.

أوكرانيا

كانت جمعية الرادا (المجلس) تقوم على مدرِّسي المدارس القروية وغيرهم من المتحمسين للغة، والغارقين في التاريخ «المجيد» لأوكرانيا، أي في ثورة القوزاق ضد بولندا التي قامت في القرن السابع عشر بقيادة بوجدان زِينُوفِي كْمِيْلِنْتْشِي، وهي الثورة التي ذبح الريفيون الغاضبون خلالها مائة ألف يهودي رأوا أنهم كوسطاء يعملون لصالح النبلاء البولنديين. وقد عززت الأيديولوجية القومية من سموم فكرة «قتلة المسيح» التي عَزَّزها النظام القديم بين الجماهير الريفية الأمية. كانت الانفجارات المعادية للسامية أمراً حتمياً في مثل هذا المناخ الأيديولوجي، ولكن الصهاينة كانوا مأخوذين بالوعود الخاصة بالحكم الذاتي القومي، فاندفعوا إلى الرادا. وفي يناير/كانون الثاني عام ١٩١٩ قبل آبراهام رِيفوسْكي وهو من جمعية بوعالي صهيون (عمال صهيون)، وزارة الشئون اليهودية في وزارة بِتْلِيُورا[٣٢]. وسافر مئير جْرُوسْمان من اللجنة التنفيذية لصهاينة أوكرانيا إلى الخارج لتعبئة الدعم اليهودي لصالح النظام المعادي للبلشفية[٣٣].

وبدأت المذابح المحتومة مع أول هزيمة أوكرانية على يد الجيش الأحمر في يناير / كانون ثاني عام ١٩١٩. واضطر ريفوسكي إلى الاستقالة خلال شهر لأن بتليورا لم يفعل شيئاً لوقف الفظائع. ولقد حطمت فترة بتليورا القاعدة الجماهيرية للصهاينة بين اليهود السوفييت، من نواح عدة. وخسر تشرشل رهانه: فقد كان تروتسكي، لا وايزمان ولا ريفوسكي، هو الذي «ربح روح الجماهير اليهودية».

ليتوانيا

وبالمثل كان تورط الصهاينة اللتوانيين مع المعادين للسامية فشلاً آخر بالرغم من أنه، ولحسن الحظ، لم تتولد في ليتوانيا مذابح. كان القوميون هناك في وضع ضعيف للغاية، إذ لم يكونوا يواجهون فقط تهديداً من الشيوعية، وإنما كان عليهم أيضاً أن يناضلوا ضد بولندا في نزاع على الأراضي حول فِلْنا. وقد شعروا بأنهم مضطرون للعمل مع الصهاينة

لاحتياجهم الى دعم الأقلية اليهودية الكبيرة في فلنا، وكذلك فقد قدروا النفوذ الصهيوني مع قوات الحلفاء بأكثر من حجمه. وكانت الموافقة الدبلوماسية للحلفاء مطلباً ضرورياً إذا كان لهم أن يكسبوا المدينة. بأي حال، وفي ديسمبر/كانون أول عام ١٩١٨ دخل الحكومة المؤقتة التي شكلها أنْتَناس سْميْتونا وأجوستيناس فُولْدمَراس ثلاثة صهاينة وأصبح يعقوب وِيْجودْسْكي وزيراً للشئون اليهودية، ون. راشْميلُوفتش نائباً لوزير التجارة، وشمشون روزينبوم نائباً لوزير الشئون الخارجية.

مرة أخرى كان الحكم الذاتي هو الطعم. سيعطي اليهود تمثيلاً نسبياً في الحكومة وحقوقاً كاملة لاستعمال اليديش، وسيعطي مجلساً يهودياً قومياً حق فرض ضرائب إجبارية على كل اليهود لأغراض دينية وثقافية. ولن يسمح بعدم دفع الضريبة إلا للذين يتحولون عن اليهودية إلى المسيحية. وتحمس ماكس سلوفتشك، الذي خلف ويجودمسكي كوزير للشئون اليهودية وقال: «إن لتوانيا مصدر خلاق للأشكال المستقبلية للحياة اليهودية»(٣٤).

وبحلول أبريل/نيسان عام ١٩٢٢ شعرت الحكومة اللتوانية أن في إمكانها أن تبدأ التحرك ضد اليهود. كان ممر فلنا قد ضاع قطعا لصالح بولندا، وكان الجيش البولندي يقف بين الشيوعية وحدود لتوانيا. وكانت حركة سمتِونا الأولى هي رفض ضمان الدستور لمؤسسات الحكم الذاتي واستقال سولوفتشك احتجاجاً وسافر للانضمام إلى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية في لندن. وحاول الصهاينة المحليون التعامل مع المشكلة بتشكيل كتلة انتخابية مع الأقليات البولندية والألمانية والروسية. وقد أدت هذه الوقفة الصغيرة الإضافية إلى أن تبطىء الحكومة في خطواتها، وأعطى روزنبوم الوزارة اليهودية في حكومة إيرنستاس جلفانوسكس رئيس الوزراء الجديد. وفي عام ١٩٢٣ بدأت المذبحة ثانية بمنع استعمال اللغة اليديشية في الخطب البرلمانية. وفي يونيو/حزيران عام ١٩٢٤ ألغيت الوزارة اليهودية. وفي يوليو/تموز حرم قانوناً استعمال اللغة اليديشية في لافتات المحلات، وفي سبتمبر/أيلول فرطت الشرطة عقد المجلس القومي وانتقل روزنبوم ورشميلوفتش إلى فلسطين. وفي عام ١٩٢٦ أقام سميتونا نظاماً شبه فاشي استمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين أطاح به ستالين. وفي الأيام الأخيرة قام فولدمراس وجلفانوسكس علناً بدور عملاء النازية في السياسة اللتوانية.

التوافق الصهيوني مع معاداة السامية

أرسيت أساسيات العقيدة الصهيونية حول معاداة السامية تماماً قبل المحرقة بفترة طويلة: إن معاداة السامية حتمية ولا يمكن محاربتها، والحل هو هجرة اليهود غير المرغوب فيهم إلى دولة يهودية تحت التكوين. إن عدم قدرة الحركة الصهيونية على الاستيلاء على فلسطين عسكرياً اضطرها إلى البحث عن سيد إمبريالي توقعت أن تحركه معاداة السامية إلى حد ما. وبالإضافة إلى ذلك رأى الصهاينة أن الماركسية الثورية هي عدو تذويبي (تمثّلي)(*) مما حثّهم على التحالف ضدها مع رفاقهم الانفصاليين من حركات الجناح اليميني القومي المعادي للسامية في أوربا الشرقية.

وقد ثبت أن هرتزل وخلفاءه كانوا على صواب. فقد كان بلفور، وهو معاد للسامية، هو الذي مكّن الصهاينة من توطيد أقدامهم في فلسطين. وبالرغم من أن اسرائيل أقيمت في النهاية من خلال هبّة مسلحة ضد بريطانيا فإنه لولا وجود الجيش البريطاني في السنوات الأولى من الحماية لما كان لدى الفلسطينيين أدنى مشكلة في طرد الصهيونية.

ولكننا هنا ضحايا لخفة اليد. لقد أعطى بلفور الصهاينة بالفعل موطىء قدم في فلسطين ولكن هل قدمت الحماية البريطانية أي حماية لليهود ضد أعدائهم في أوربا؟

لقد كان من الممكن محاربة معاداة السامية دائماً. بل إنها لم تحارب فحسب بل وهزمت في فرنسا وروسيا وأوكرانيا بدون أية مساعدة من جانب المنظمة الصهيونية العالمية. ولو أن شعوب تلك البلدان اتّبعت ما يمليه الصهاينة لما كان في الإمكان أبداً إلحاق الهزيمة بالمعادين للسامية.

إن سياسات المنظمة الصهيونية العالمية الأولى بكل أساسياتها استمرت في ظل حاييم وايزمان زعيم المنظمة الأساسي خلال مرحلة هتلر. وفي المنظمة الصهيونية العالمية وجدت العناصر التي أرادت أن تتخذ موقفاً ضد النازية في الثلاثينات، ووجدت دائماً في رئيس حركتها هي العدوّ الداخلي الرئيسي. وقد وصف ناحوم جولدمان نفسه الذي أصبح رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بعد المحرقة، وصف فيما بعد في خطبة له، المناقشات

---

* assimilation = تمثُّل، أي «الذوبان» و«الاندماج الكامل»، وهو تعبير يستخدم لوصف اليهود الذين يندمجون في مجتمعات أوطانهم (المترجم).

العنيفة حول الموضوع بين وايزمان وبين الحاخام ستيفن وايز، وهو شخصية قيادية في الصهيونية الأمريكية:

أتذكر نقاشات عنيفة جداً بينه وبين وايزمان الذي كان زعيماً عظيماً جداً في مجاله، ولكنه كان يرفض كل اهتمام بالأمور الأخرى. كان مهتماً فعلاً بانقاذ اليهود الألمان في مرحلة السنين الأولى للنازية، ولكن أن يحارب المؤتمر اليهودي العالمي من أجل حقوق اليهود فذلك ما لا يجد وقتاً له بحكم عمله الصهيوني، ولا يعني ذلك أنه ينكر عليهم هذه الحقوق. وقد جادله ستيفن وايز: «ولكن الأمر جزء من المشكلة، وهو المشكلة نفسها. إذا فقدت المهجر اليهودي فلن تحصل على فلسطين وليس أمامك سوى أن تتعامل مع كلية الحياة اليهودية»(٣٥).

تلك كانت الصهيونية وذلك كان قائدها عندما قفز أدولف هتلر إلى مسرح التاريخ.

هوامش الفصل الأول

1. Marvin Lowenthal (ed.), *The Diaries of Theodor Herzl*, p. 6.
2. Desmond Stewart, *Theodor Herzl*, p. 141.
3. Ludwig Lewisohn (ed.), *Theodor Herzl: A Portrait*, pp. 293–4.
4. Ibid., pp. 219–20.
5. Raphael Patai (ed.), *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, vol. II, pp. 672–3.
6. Lowenthal, *Diaries of Theodor Herzl*, p. 71.
7. Ibid., p. 100.
8. Ibid., p. 366.
9. Chaim Weizmann, *Trial and Error*, pp. 90–1.
10. David Yisraeli, 'Germany and Zionism', *Germany and the Middle East, 1835-1939* (Tel Aviv University, 1975), p. 142.
11. Patai, *Complete Diaries of Theodor Herzl*, vol. III, p. 729.
12. George Gapon, *The Story of My Life*, p. 94.
13. Patai, *Complete Diaries of Theodor Herzl*, vol. IV, p. 1521.
14. Ibid.
15. Ibid., p. 1525.
16. Ibid., p. 1538.
17. Amos Elon, *Herzl*, pp. 381–2.
18. Samuel Portnoy (ed.), *Vladimir Medem – The Life and Soul of a Legendary Jewish Socialist*, pp. 295–8.
19. Ibid.
20. Weizmann, *Trial and Error*, p. 82.
21. Emil Cohen, *David Wolffsohn*, p. 196.
22. Meyer Weisgal (ed.), *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Letters*, vol. VII, p. 81.

بعد المحرقة لم يعد بامكان وايزمن أن يكشف النزعة المعادية للسامية لدى راعي الصهيونية الأكبر. فغيّر السجل في كتابه: «ذكر السيد بلفور أنه كان في بيروُيْت قبل ذلك بعامين وانه تحدث إلى السيدة كوزيما ڤاجنر أرملة الموسيقار، التي أثارت موضوع اليهود. قاطعت السيد بلفور. .» (ص ١٥٣).

23. Vladimir Jabotinsky, *The Story of the Jewish Legion*, p. 74.
24. Winston Churchill, 'Zionism versus Bolshevism', *Illustrated Sunday Herald* (8 February 1920), p. 5.
25. Weizmann, *Trial and Error*, p. 243.
26. Leonard Stein, *The Balfour Declaration*, p. 348.
27. Weizmann, *Trial and Error*, pp. 240-1.
28. Ibid., p. 242.
29. Ibid., p. 218.
30. Jacob Robinson *et al.*, *Were the Minority Treaties a Failure?*, pp. 79-80.
31. Jacob Robinson, *And the Crooked shall be made Straight*, p. 72.
32. 'Abraham Revusky', *Encyclopedia Judaica*, vol. 14, col. 134.
33. 'Meir Grossmann', *Encyclopedia Judaica*, vol. 7, col. 938.
34. Samuel Gringauz, 'Jewish National Autonomy in Lithuania (1918-1925)', *Jewish Social Studies* (July 1952), p. 237.
35. Nahum Goldmann, 'Dr Stephen S. Wise', *A Galaxy of American Zionist Rishonim*, pp. 17-18.

٢ ـ «الدم والتراب»: جذور العنصرية الصهيونية

كانت معاداة السامية هي ـ وحدها ـ التي ولدت الصهيونية. لم يستطع هرتزل أن يقيم حركته على أي شيء مؤكد في يهوديته. وبالرغم من سعيه للحصول على تأييد الحاخامين فانه لم يكن شخصياً متديناً ورعاً. ولم يكن لديه اهتمام خاص بفلسطين ذلك الوطن القديم، بل كان متحمساً بالفعل لقبول مرتفعات كينيا، على الأقل على أسس مؤقتة. ولم يكن لديه اهتمام بالعبرية، وكان يرى دولته اليهودية كسويسرا لغوية. كان لا بد أن يفكر في أمر العِرق إذ كان ذلك أمراً مثاراً. كان التويثونيُّون(*) المعادون للسامية يتكلمون عن اليهود باعتبارهم عِرقاً، ولكنه سرعان ما تخلى عن هذه العقيدة وقدم حواراً ينطوي على مفارقات مع اسرائيل زَنْجوِيل، وهو واحد من أوائل أتباعه، كمثال على رفضه لفكرة العرق. لقد صور الكاتب اليهودي الانجليزي بأنه:

> طويل الأنف زنجيّها، مع شعر صوفي عميق السواد... ومع ذلك فإنه يحمل وجهة نظر عرقية وهو الأمر الذي لا يمكنني قبوله إذ يكفي أن أنظر له ولنفسي. وكل ما أقوله هو: نحن وحدة تاريخية، أمة واحدة ذات تنوعية أنثروبولوجية[1].

ولأنه لم يكن معنياً بالدين فقد اقترح أن ملحداً مثل ماكس نورْدَاوْ وهو الكاتب

---

* التويثونيُّون: تعبير عام يقصد به الشعوب التي تتحدث اللغات التويثونية كالألمانية والانجليزية والفلافية.. الخ (المترجم).

المشهور عالمياً في ذلك الوقت، يجب أن يخلفه كرئيس للمنظمة الصهيونية العالمية. هنا أيضاً كان التلميذ أقل ليبرالية من سيده. كان نورداو متزوجاً من مسيحية وكان يخاف من أن زوجته ستكون مرفوضة من الأرثوذكس داخل صفوف المنظمة[٢]. كان متزوجاً بالفعل عندما تحول وآمن بالصهيونية. وبالرغم من أن زوجته كانت غير يهودية إلا أنه سرعان ما أصبح يهودياً عنصرياً مصمماً. وفي ٢١ ديسمبر/كانون أول عام ١٩٠٣ صرح في مقابلة مع جريدة إدوارد درومونت المتطرفة المعادية للسامية المسماة الكلمة الحرة «لو ليبر بارول» قائلاً إن الصهيونية «ليست مسألة دين» ولكنها مسألة عرق بشكل مطلق ولا يوجد من أنا على اتفاق معه حول هذه النقطة أكثر من السيد درومونت نفسه[٣]».

وبالرغم من أن فرعاً قومياً واحداً للمنظمة الصهيونية العالمية (هو الاتحاد الهولندي في عام ١٩١٣) هو الذي تورط في مشكلة محاولة استبعاد اليهود الذين يعيشون في زيجات مختلطة، بشكل رسمي، فان الصهيونية الكوزموبوليتية [العالمية] ماتت في وقت مبكر مع هرتزل في عام ١٩٠٤[٤]. ولم يحدث أبداً أن اتخذت المنظمة الصهيونية العالمية بصفتها الخاصة موقفاً ضد الزيجات المختلطة، ولكن أولئك الذين كانوا يؤمنون بهذه الزيجات نادراً ما كانوا يفكرون في الالتحاق بالصهاينة الذين كان عدم تعاطفهم واضحاً. وكانت الحركة في أوروبا الشرقية، وبالذات قاعدتها الجماهيرية، تشاطر الجاليات الأورثوذكسية الموجودة حولها المشاعرَ المتعصبة العفوية الدينية الشعبية. وبالرغم من أن قدماء اليهود كانوا يرون في التبشير وفي الزواج مع الأغيار (غير اليهود) ما يضيف الى قوتهم فإن الضغوط الأخيرة من جانب الكنيسة الكاثوليكية جعلت الحاخامين يرون في المؤمنين الجدد «حكاكاً يثير المشاكل»، ومن ثم تخلوا عن التبشير والتجنيد. ومع مرور القرون أصبح التمايز الذاتي علامة مميزة لليهود. ومع الزمن أصبحت الجماهير تنظر إلى الزيجات المختلطة باعتبارها خيانة للأرثوذوكسية. وبالرغم من أن بعض اليهود في الغرب طوروا العقيدة الدينية وشكلوا مذاهب «إصلاحية» وأن آخرين تركوا إله آبائهم الأولين، فإن اتجاه الحركة كان في الأساس يمضي بعيداً عن اليهودية. قليلون هم الذين التحقوا بالعالم اليهودي إما بالإيمان أو بالزواج. ومع أن الصهيونية الغربية تطورت في جو أكثر علمانية من جو أوربا الشرقية إلا أن الكتلة الأساسية من أعضائها ظلت ترى الزواج المختلط باعتباره يؤدي باليهود بعيداً عن الجالية بدلاً من إحضار إضافات جديدة لها.

وطور خريجو الجامعة الألمان الذين تولوا أمر الحركة الصهيونية بعد موت هرتزل،

ايديولوجية عنصرية حديثة للانفصالية اليهودية. كانوا متأثرين بقوة بـزملائهم الـطلاب أنصار المانيا الكاملة وأعضاء حركة «الطيور الجوالة» أو «الأرواح الحرة» (فـاندَرفـوجِل) الذين سيطروا على ساحات جامعات ألمانيا قبل عام ١٩١٤. كان هؤلاء المتعصبون قوميا يرفضون اليهود باعتبارهم ليسوا من «دم» ألماني لذا لا يمكن أن يكونوا جزءاً من «الشعب» الألماني وكانوا غرباء بشكل كـامل عن «التـراب» التويتـوني وكان كـل الطلاب اليهـود مضطرين لمناقشة هذه المفاهيم التي أحاطت بهم. قليلون تحركوا ناحية اليسـار والتحقوا بالاشتراكيين الديمقراطيين. بالنسبة لهم كان ذلك مجرد قومية أكثر برجوازيـة ولا بد من الحرب ضدها بهذه الصفة. وبقي معظمهم تقليدياً مخلصين للقيصر، قوميين متمسكين يصرون على أن ألف عام من التراب الألماني قد جعلت منهم «ألماناً مختلفي الطوائف». ولكن قسماً من الطلاب اليهود تبنّى أيديولوجية «الطيور الجوالة» بشكل كامل وترجمها ببساطة إلى تعبيرات صهيونية، فوافقوا المعادين للسامية على عدة نقاط رئيسية: اليهود لم يكونوا جزءاً من «الشعب» الألماني، وبالطبع لا يجب أن يختلط اليهود والألمان جنسياً لا لأسباب دينية تقليدية ولكن من أجل خاطر تفردية «دم» كل منهم، هم. ولأنهم ليسوا من «الدم» التويتوني فإنهم بحكم الضرورة لا بد أن يكون لهم «تراب» خاص بهم: فلسطين.

قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن الطلاب اليهود من الطبقة الوسطى يتأثرون بالفكر المعادي للسامية، خصوصاً إذا كانت الاشتراكية في الوقت نفسه، بما لها من مواقف تمّثلية تجاه اليهود، تكسب تأييداً كبيراً في المجتمع من حولهم. ومع ذلك فان الاشتراكية كانت تتوجه أساساً للعمال وليس للطبقة الوسطى. وفي محيطهم ساد التعصب القومي بالرغم من أنهم فكرياً رفضوا ارتباطهم بالشعب الألماني فإنهم في الحقيقة لم يحرروا أنفسهم أبداً من الطبقة الألمانية الرأسمالية. وخلال الحرب العالمية الأولى كلها أيـد الألمان الصهـاينة حكومتهم بحماس. وبالرغم من كل ادعاءاتهم الفكرية المتضخمة فإن صهيونيتهم كانت ببساطة تقليداً للأيديولوجية القـومية الألمـانية. وهكـذا كان الفيلسـوف الشاب مـارتن بُوبرْ(*) قادراً على الجمع بين الصهيونية وبين الوطنيـة الألمانيـة المتأججـة خلال الحـرب العـالمية الأولى. قـال بوبـر في كتابـه **ثلاث مقـالات عن اليهوديـة**، الذي نشر في عـام

* مارتن بوبر: (١٨٧٨ ـ ١٩٦٥)، فيلسوف ديني يهودي من أصل نمساوي. أستاذ الدين في جامعة فرانكفورت. نادى بتعزيز «اليهودية الألمانية» في مواجهة اللاسامية النازية. عرف بتأثيره على اللاهوت البروتستانتي، انتقل إلى فلسطين بعد مجيء النازية إلى السلطة، ونادى «بالتعاون العربي اليهودي» وبدولة «ثنائية القومية» (المترجم).

١٩١١، عن شاب أنه:

يعي في خلود الأجيال هذا رابطة من الدم، يشعر بأنها أسلاف ذاته وحافظتها في الماضي اللانهائي. إلى ذلك يضاف الاكتشاف، الذي يعززه هذا الإدراك، بأن الدم هو قوة تغذية عميقة الجذور داخل الانسان الفرد وأن الطبقات الأعمق ليكنونتنا يحددها الدم كما يلوّن دخائل تفكيرنا وإرادتنا. والآن يجد أن العالم من حوله هو عالم الانطباعات والتأثيرات، في حين الدم هو جوهر مادة قادرة على أن تنطبع وتتأثر، مادة تمتص وتتمثل الكلّ في شكلها هي... وأي انسان يواجه الخيار بين البيئة والمادة، ويقرر اختيار المادة سيكون عندئذ يهودياً حقيقياً في داخله، وسيعيش كيهودي مع كل التناقضات، كل المأساة، وكل ما يعد به دمه للمستقبل[٥].

لقد كان اليهود موجودين في أوربا لآلاف السنين، لفترة أطول كثيراً من فترة وجود قبائل المجريين مثلاً. ولا يمكن لأحد أن يحلم بالإشارة إلى المجريين على أنهم آسيويون. ومع ذلك فإن يهود أوربا بالنسبة لبوبر كانوا لا يزالون آسيويين ويفترض أن يظلوا كذلك دائماً. يمكنك أن تخرج اليهودي من فلسطين ولكن لا يمكنك أبداً أن تخرج فلسطين من اليهودي. وقد كتب في عام ١٩١٦ أن اليهودي:

قد دفع به خارج أرضه ووزع في بلاد الغرب.. ومع ذلك وبالرغم من كل ذلك فقد ظل شرقياً.. إن المرء يمكن أن يلمس كل ذلك في أكثر اليهود تمثّلاً إذا ما عرف المرء كيف ينفذ إلى روحه... الدافع التوحيدي اليهودي الخالد ـ وهو ما سيتحقق فقط باستمرار الحياة في فلسطين.. ما أن يلامس الأرض الأم فانه سيصبح خلاقاً مرة أخرى[٦].

ومع ذلك فإن صهيونية بوبر الشعبوية بكل جدائلها المرتبة من الحماس الأسطوري كانت على درجة كبيرة من الروحانية لا تسمح بجذب أتباع على نطاق واسع. كان المطلوب طبعة صهيونية شعبية من الداروينية الاجتماعية التي اكتسحت العالم الفكري البرجوازي في أعقاب الانتصارات الأوربية الامبريالية في أفريقيا والشرق. وقد تم تطوير الطبعة الصهيونية التي لها هذا التوجه على يد إيجْناتْس زُولْشان، وهو أنثروبولوجي نمساوي بالنسبة له كانت القيمة السرية لليهودية أنها، ولو عن غير قصد، عملت من أجل إنتاج عجيبة العجائب:

إن أمة من دماء نقية لم تمسسها أمراض الوفرة أو غياب القيم ولديها شعور متطور عال بالنقاء العائلي وعادات فضلى عميقة الجذور، ستطور نشاطاً فكرياً استثنائياً. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحظر على الزواج المختلط على أساس أن هذه الكنوز الإتنية العليا لا يجب أن تضيع من خلال الاختلاط مع العروق التي تتربى بعناية أقل. . سيؤدي إلى انتقاء طبيعي لا مثيل له في تاريخ الجنس البشري. . فإذا ما توفرت لعرق على هذه الدرجة العالية من الموهبة فرصة تطوير قوته الأصلية ثانية عندئذ لا شيء يمكن أن يضاهيه قياساً بالقيم الحضارية(٧).

حتى ألبرت أينشتين ساهم في المفاهيم العرقية الصهيونية، وهو بذلك دعم العنصرية وأعطاها من مكانته وسمعته. إن مساهماته في الحوار تبدو عميقة ومناسبة ولكنها تقوم على ذات اللغو:

إن الأمم التي تختلف عرقياً تبدو وكأن لها غرائز تعمل ضد التحامها. إن تمثل اليهود في الأمم الأوربية لا يمكنه إزالة الشعور بغياب الندية بينهم وبين أولئك الذين يعيشون بينهم. وفي نهاية المطاف فإن الشعور الغريزي بغياب الندية يرجع إلى قانون المحافظة على الطاقة. ولهذا السبب لا يمكن إزالته بأي كمية كانت من الضغط الموجه بنية طيبة(٨).

لم يكن بوبر وزولشان وأينشتين إلا مجرد ثلاثة من بين الصهاينة الكلاسيكيين الذين قدّسوا علم النقاء العرقي. ولكن على صعيد التعصب المطلق، فإن قليلين يمكنهم أن يضاهوا الأمريكي موريس صمويل. كان كاتباً معروفاً في أيامه، وفيما بعد، في الأربعينيات كان عليه أن يعمل مع وايزمان في كتابه عن سيرته الذاتية. وقد خاطب صمويل الرأي العام الأمريكي في عام ١٩٢٧ في كتابه أنا، **اليهودي** فأدان بفزع مدينة أقرّ بالفعل أنه لا يكاد يعرفها إلا من سمعتها ـ وقد تقودنا الأدلة لأن نظن أنه يقصد مستعمرة الفنانين الذين يعيشون عيشة حرّة في **تاوس**، في **نيو مكسيكو**:

جاء إلى هذا المكان الصغير ممثلون عن الزنوج الأفارقة والأمريكيين والمغول الصينيين، وعن الساميين والآريين. . . وساد الزواج الحر. . لماذا ملأتني هذه الصورة الحقيقية في جانب والخيالية في آخر باشمئزاز غريب، موحيةً بالبذاءة وبالوحشية الغامضة؟. . . لماذا إذن تثير مثل هذه القرية التي يستحضرها

خيالي، تثير في عقلي صورة كومة من الزواحف تتناسل في جدول بشكل مقرف؟[٩].

«لكي يكون المرء صهيونياً جيداً عليه أن يكون معادياً للسامية إلى حد ما»

بالرغم من أن مقولة الدم كانت مقولة متكررة في الأدبيات الصهيونية في فترة ما قبل المحرقة فانها لم تكن على نفس القدر من المركزية في رسالتها مثل التراب. فطالما ظلت شواطىء أمريكا مفتوحة تساءل يهود أوربا: إن لم يكن من الممكن محاربة السامية على أرضها هي فلماذا لا يلحقون بالجمع إلى امريكا. كان الجواب الصهيوني مزدوجاً: إن معاداة السامية ستصحب اليهود أينما ذهبوا، والأكثر من ذلك أن اليهود هم الذين خلقوا معاداة السامية بحكم صفاتهم هم. وأصر الصهاينة على أن السبب الجذري لمعاداة السامية كان وجود اليهود في المنفى. فاليهود يعيشون بشكل طفيلي على «مضيفيهم». من الناحية العملية لم يكن هناك فلاحون يهود في المهاجر (الدياسبورا). عاش اليهود في المدن وكانوا بعيدين عن العمل اليدوي، أو بصراحة أكثر فانهم احتقروه وشغلوا أنفسهم بالاهتمامات الفكرية والتجارية. وفي أحسن الأحوال كانت مزاعمهم حول الوطنية فارغة وهم يتجولون إلى ما لا نهاية من بلد إلى بلد. وعندما كانوا يتصورون أنفسهم اشتراكيين أو أمميين فإنهم كانوا في الواقع لا يزالون وسطاء في الثورة لا أكثر، يحاربون «معارك الناس الآخرين». كل هذه المعتقدات مجتمعة كانت تعرف باسم: **شليلات هاجالوت** (نفي ـ إلغاء ـ المهجر). وكان يؤمن بها كل ألوان الصهاينة الذين كانوا يختلفون فقط على أمور تفصيلية. كانت هذه الأمور تناقش بشدة في الصحافة الصهيونية حيث كانت السمة المميزة لمقالات عديدة هي عداؤها لكل الشعب اليهودي. وأيّ إنسان يقرأ هذه المقطوعات دون أن يعرف مصدرها سيفترض أتوماتيكياً أنها جاءت من صحافة معادية للسامية فالنظرة العالمية لمنظمة الشباب **هاشومير هاتسائير (الحارس الفتى)** كتبت في الأصل في عام ١٩١٧، ولكن أعيد نشرها في أواخر عام ١٩٣٦ وكانت نموذجاً لهذه الإفرازات:

> إن اليهودي هو كاريكاتير للانسان الطبيعي العادي مادياً وروحياً. وهو كفرد في المجتمع ينتفض ويلقي عنه نير الالتزامات الاجتماعية ولا يعرف النظام أو الانضباط[١٠].

وبالمثل، ففي عام ١٩٣٥ كان في إمكان كاتب أمريكي هو بن فْرومِر، وهو من الجناح اليميني المتطرف للتصحيحيين الصهاينة، أن يعلن عن ستة عشر مليوناً على الأقل من إخوانه اليهود أنهم:

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن اليهود بشكل جماعي ليسوا أسوياء، وهم عصابيون. وأولئك اليهود المهنيّون الذين يجرحهم ذلك في الصميم، وينكرون بسخط هذه الحقيقة، هم أعظم أعداء لجنسهم لأنهم بذلك يقودونهم في سبيل البحث عن حلول زائفة أو في أفضل الأحوال عن مسكنات[١١].

هذا الأسلوب من كراهية اليهود الذاتية نفذ إلى قدر كبير من الكتابات الصهيونية. ففي عام ١٩٣٤ أثار حزقيال كَوفْمان، وكان مشهورا وقتئذ كباحث في التاريخ التوراتي في الجامعة العبرية بالقدس، وكان هونفسه صهيونيا ـ وإن كان معارضا للنظرية الشاذة الخاصة بنفي المهجر ـ أثار جدلاً عنيفا بأن اختار من الكتابات العبرية أمثلة أسوأ. فبالعبرية يمكن أن يهاجم ذوو الصوت العالي بالفعل إخوانهم اليهود دون خوف من اتهام بأنهم يزوِّدون الذين يكرهون اليهود بالذخيرة. لقد نقل كوفمان في كتابه **محرقة الروح** عن ثلاثة من المفكرين الصهاينة الكلاسيكيين.

فبالنسبة لميكا يوسف بِرْدِتْشِفْسكي لم يكن اليهود «أمة ولا شعباً ولا بشراً». وبالنسبة ليوسف حاييم بْرينَر لم يكونوا أكثر من «غجر وكلاب قذرة ومن غير البشر، ومجروحين، وكلاب». وبالنسبة لـ أ. د. جوردون لم يكن شعبه أفضل من «طفيليات، وشعب لا نفع منه أساساً»[١٢].

وبالطبع كان على موريس صموبل أن يستعمل يده الرقيقة في إلصاق الصفات البذيئة بأخوانه اليهود. ففي عام ١٩٢٤ وفي كتابه **أنتم يا أغيار**، اصطنع مجموعة من اليهود اضطرت بحكم طبيعتها الفاسدة الى معارضة النظام الاجتماعي المسيحي:

نحن اليهود، نحن المدمرون، سنبقى مدمرين الى الأبد. لاشيء ستفعلونه يمكن أن يلبي حاجاتنا ومطالبنا. سندمر إلى الأبد لاننا نريد عالماً لنا، عالم الله، وليس من طبيعتكم أن تبنوه... أولئك الذين هم منا ويفشلون في فهم هذه الحقيقة سيوجدون دائماً مع فرقكم المتمردة حتى يتحقق التحرر من الوهم. فإن القدر البائس الذي نشرنا بينكم قد ألقى هذا الدور غير المرحب به علينا[١٣].

انتجت الصهيونية العمالية توليفاتها الخاصة الفريدة من الكراهية اليهودية للذات. وبالرغم من اسمها وإدعاءاتها فإن الصهيونية العمالية لم تكن أبداً قادرة على أن تكسب أي قطاع ذي دلالة من الطبقة العاملة اليهودية في أي بلد من بلاد المهجر. كان لدى أعضائها حجة لهزيمة الذات: زعموا أن العمال اليهود كانوا يعملون في صناعات «هامشية» مثل صناعة الابر، وهي صناعات غير أساسية في إقتصاد الأمم «المضيفة»، ولذا فإن العمال اليهود سيظلون دوماً هامشيين بالنسبة لحركة الطبقة العاملة في البلدان التي يقيمون فيها. وقيل أن العمال اليهود لا يمكنهم أن يشنوا نضالاً طبقياً صحياً إلا في أرضهم هم. وطبيعي إن فقراء اليهود أظهروا قليلاً من الاهتمام فيما سمّي بالحركة العمالية التي لم تقل لهم بأن يبذلوا كل جهودهم في النضال في الحاضر المباشر من أجل ظروف أفضل وإنما أن يهتموا بفلسطين التي هي بعيدة عنهم. ومن المفارقة أن الصهيونية العمالية جذبت في البداية اليهود الشباب من الطبقة الوسطى الذين سعوا للإنفصال عن أصولهم الطبقية ولكنهم لم يكونوا مستعدين للانتقال إلى عمال البلد الذي يسكنون فيه. وأصبحت الصهيونية العمالية نوعاً من نِحَل الثقافة المضادة، تدين الماركسيين اليهود لأمميتهم، والطبقة الوسطى اليهودية باعتبارها مستَغِلَّة طفيلية للأمم «المضيفة». وفي الواقع فإنهم قد ترجموا معاداة السامية التقليدية إلى اللغة اليديشية(*): اليهود كانوا في البلاد الخطأ، وفي المهن الخطأ ولديهم السياسات الخطأ. لقد تطلب الأمر «المحرقة» لكي تعيد هؤلاء المتشائمين (أنصار إرميا النبي) إلى رشدهم. عندئذ فقط قدروا قيمة الصوت المشترك في رسالتهم هم أنفسهم وفي الدعاية النازية المعادية لليهودية. وفي مارس/آذار ١٩٤٢ أقر حاييم غرينبيرغ الذي كان رئيس تحرير المجلة الناطقة بلسان الصهيونية العمالية في نيويورك، **الجبهة اليهودية** (جويش فرونتير) أقر بألم أنه كان هناك بالفعل.

> وقت كان من المعتاد فيه أن يعلن المتحدثون الصهاينة (بمن فيهم الكاتب) من على المنصة «أنه لكي تكون صهيونياً جيدا يجب أن تكون معادياً للسامية إلى حد ما»... وحتى هذا اليوم فإن دوائر الصهيونية العمالية لا تزال تحت تأثير فكرة أن العودة إلى صهيون تتضمن عملية تطهُّر من نجاستنا الاقتصادية. وكل من لم يشترك فيما يسمى عملاً يدوياً «منتجاً» يعتقد أنه خاطىء في حق اسرائيل وفي حق البشرية(١٤).

* اليديشية: من «يوديش Juedish» أي يهودي بالألمانية. لغة خليط من الألمانية واللغات السلافية. (المترجم).

«الخطة في طواحين الدعاية النازية»

إذا قيل لأي إنسان، بدون حقائق أخرى، أن الصهاينة الأُول كانوا عنصريين، فسيفترض أتوماتيكياً أن ذلك كان جزءاً من الجوانب الاستعمارية للصهيونية في فلسطين. واقع الأمر ليس كذلك. فصهيونية الدم كانت ستنشأ حتى ولو كانت فلسطين فارغة تماماً. والحماس للدم والتراب كان جزءاً من الصهيونية حتى قبل أن يغادر أوربا أول صهيوني حديث.

إذن الصهيونية العرقية كانت نتاجاً مثيراً لمعاداة السامية العرقية. صحيح أن اليهود، هكذا يقول هؤلاء الصهاينة، كانوا عرقا نقيا، ومن المؤكد أنهم أنقى على سبيل المثال من الألمان الذين - كما يقرّ حتى المؤمنين بألمانيا الكبرى - لديهم اختلاط ضخم بالدم السلافي. ولكن بالنسبة لهؤلاء الصهاينة فإن نقاءهم العرقي لا يمكن أن يتغلب على النقيصة الوحيدة في الوجود اليهودي: أن ليس لديهم ترابهم اليهودي. فإذا كان العنصريون التويتونيون في إمكانهم أن يروا أنفسهم كبشر متفوقين (سوبرمان) فإن العنصريين العبريين لا يرون اليهود على هذا النحو بل على العكس. انهم يعتقدون أنهم بسبب افتقادهم لترابهم فإن اليهود هم من الناس الأدنى ولذا فانهم بالنسبة لمضيفيهم أكثر قليلا من ديدانِ العلق. انهم طاعون العالم.

فإذا اعتقد المرء بصحة الوحدانية العرقية [النقاء العِرقي] فإن من الصعب أن يعترض على عنصرية أي أنسان آخر. وإذا اعتقد المرء بالإضافة إلى ذلك أنه من المستحيل على أي شعب أن يكون صحياً إلا في وطنه هو، عندئذ لا يمكن أن يعترض المرء على أي إنسان آخر يستبعد «الغرباء» من أرضه. وفي الحقيقة فان الصهيوني المتوسط لم يتصور قط أنه سيغادر أوربا المتمدنة إلى براري فلسطين. ففي مجرى الحياة من الواضح أن الدم والتراب الصهيونيين وفرا مبرراً ممتازاً لعدم محاربة معاداة السامية على أرضها. لم تكن غلطة المعادين للسامية بل كانت بسبب سوء حظ اليهود أنفسهم لوجودهم في المنفى. وكان بإمكان الصهاينة أن يجادلوا بضراوة بأن فقدان فلسطين كان هو السبب الجذري لمعاداة السامية، وأن استعادة فلسطين كانت هي الحل الوحيد للمسألة اليهودية. وكل شيء ما عدا ذلك لن يكون سوى مسكّن أو عقيم.

وقد سأل والتر لاكِيْر، وهو عميد المؤرخين الصهاينة في كتابه، «**تاريخ الصهيونية**»، عما إذا كان الإصرار الصهيوني على طبيعة معاداة السامية لم يكن سوى وضع «الخطة في

طواحين الدعاية النازية»[١٥] لقد كانت كذلك بالتأكيد. وإن أفضل جواب على سؤال لاكير هو سؤال آخر: هل كان من الصعب فهم موقف قارىء ساذج لجريدة نازية استخلصت أن ما يقوله النازيون ويوافق عليه الصهاينة ـ اليهود ـ لا بد أن يكون صحيحاً؟

هناك ما هو أسوأ: إن أي حركة يهودية تهذي بطبيعة معاداة السامية، سعت ـ بنفس القدر من «الطبيعة» ـ للوصول إلى إتفاق مع النازيين عندما وصلوا إلى السلطة.

هوامش الفصل الثاني

1. Marvin Lowenthal (ed.), *The Diaries of Theodor Herzl*, p. 78.
2. Amos Elon, *Herzl*, p. 255.
3. Desmond Stewart, *Theodor Herzl*, p. 322.

٤ ـ إن المنظمة الصهيونية العالمية مبنية على الدول القومية، والانتخابات للمؤتمر الصهيوني العالمي تجري على أسس قومية، والاتجاهات الأيديولوجية المتنوعة والتي لها بنية عالمية النطاق تخوض مختلف الانتخابات القومية لتحديد المندوبين.

5. Martin Buber, *On Judaism*, pp. 15–19.
6. Ibid., pp. 75–7.
7. Ignatz Zollschan, *Jewish Questions* (1914), pp. 17–18.
8. Solomon Goldman, *Crisis and Decision* (1938), p. 116.
9. Maurice Samuel, *I, the Jew*, pp. 244–6.
10. 'Our Shomer "Weltanschauung",' *Hashomer Hatzair* (December 1936), p. 26.
11. Ben Frommer, 'The Significance of a Jewish State', *Jewish Call* (Shanghai, May 1935), p. 10.
12. Yehezkel Kaufman, 'Hurban Hanefesh: A Discussion of Zionism and Anti-Semitism', *Issues* (Winter 1967), p. 106.
13. Maurice Samuel, *You Gentiles*, p. 155.
14. Chaim Greenberg, 'The Myth of Jewish Parasitism', *Jewish Frontiers* (March 1942), p. 20.
15. Walter Laqueur, *A History of Zionism*, p. 500.

٣ ـ الصهيونية الألمانية وانهيار جمهورية فَيمار

كان اليهود الألمان شديدي الولاء لجمهورية فَيمـار(*) التي كانت قـد وضعت حداً للتمييز القائم في عصر ويلهلم. كان يهود ألمانيا (٠,٩٪ من مجموع السكان) بشكـل عام أثرياء: ٦٠٪ كانوا رجال أعمال أو مهنيين، والباقون كانوا حرفيين وكتبة وطلابا مع أعداد لا تذكر من العمال الصناعيين. كان أغلبهم يؤيد الرأسمالية الليبرالية ومنهم ٦٤٪ يصوتون للحزب الألماني الديمقراطي. ولقد صوت ٢٨٪ للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، وهو حزب معتدل، وفقط ٤٪ صوتوا للحزب الشيوعي الألماني، والباقون كانوا يمينيين متفرقين. وبدت جمهورية فيمار آمنة لهم جميعا وهم يشاهدون سقوط التصـويت للنـازي من ٦,٥٪ في عام ١٩٢٤ إلى ٢,٦٪ فقط في عـام ١٩٢٨. ولم يظن أحـد أن الرعب كامن على الطريق.

وحتى أواخر العشرينات كان هتلر قد بدد وقته في محاولة لتجنيد الطبقة العـاملة في حـزبه المسمى حـزب العمال الاشتـراكي الوطني الألمـاني، ولكن قليلين أبدوا اهتمـاماً بذلك. فقد كان هتلر يدعو للحرب وكانوا هم قد انتفضوا في نهاية الأمر ضدها، وكان هتلر ضد الاضرابات وكانوا هم نقابيين جيدين. وعندما أتاه الكساد الاقتصادي في نهاية الأمر بأتباع جماهيريين كان الفلاحون لا العمال هم الذين تدفقوا على حركته. ولم تكن فيمـار قد غيـرت أي شيء لهم. كان ٢٧٪ منهم لا يـزال يفلح أقل من هكتـار واحـد

* جمهورية فيمار: نسبة إلى مدينة فيمار الألمانية، حيث جرى في عام ١٩١٩ تأسيس أول جمهورية ديمقراطية ألمانية، وهي الجمهورية التي انتهت باستيلاء النازيين على السلطة عام ١٩٣٣.

(٢,٤٧١ فـدان)، و٢٦٪ يعمـل في أقـل من خمس هكتـارات ١٢,٥ فداناً) وبسبب الديون للبنوك ـ حتى قبل الأزمة ـ كان من السهل حث هؤلاء المسيحيين الريفيين عـلى التركيز على اليهود الذين كانوا ولقرون يقترنون بالسمسرة والـربا. كـذلك كـانت طبقة المهنيين المسيحيين الغارقين بالفعل في شعبوية «البيـرة والسيف»(**) منذ أيـام دراستهم الجامعية، وصغـار أصحاب الـدكاكـين الناقمـين على منـافسيهم المتفوقـين في المحلات اليهودية الكبرى، هم الذين بعد الفلاحين، انفصلوا عن التحالف الـذي حكم فيمار قيامها وانضموا إلى النازي. وارتفعت أصوات النازيين من ٢,٦٪ في عام ١٩٢٨ إلى ١٨,٣٪ في انتخابات ١٤ سبتمبر/أيلول عام ١٩٠٣.

عاد اليهود المتـدينون إلى تنـظيمهم الدفـاعي التقليدي، وهو «الجمعيـة المركـزية للمواطنين الألمـان ذوي العقيدة اليهـودية»، وفي ذلـك الوقت بـدأ لأول مرة أصحـاب المحلات الكبرى الذين كانوا الهدف الأول لهجمات «القمصان البنية» النازيين، بدأوا في المساهمة في جهود هذه الجمعية. ولم تتمكن القيادة المسنـة لهذا التنـظيم أن تفهم انهيار الرأسمالية بل إنهم دهشوا عندما اندفع حزبهم، الحزب الديمقراطي الألماني، فجأة وحوّل نفسه إلى حزب الدولة المعتدل والمعادي للسامية. ومع ذلك فإن الأعضاء الأصغر سنا في هذا التنظيم أزاحوا جانباً القيادة القديمة وكانوا قادرين على أن يجعلو الجمعيـة تستعمل نقود المحلات الكبرى في دعم الدعاية المضادة للنازيةالتي يقوم بهـا الحزب الاشتـراكي الديمقراطي الألماني. فبعد خيـانة الحـزب الديمقـراطي الألماني التقط الحـزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ما يقرب من ٦٠٪ من أصوات اليهود. فقط ٨٪ تحولوا إلى شيوعيين ولم يتلقوا من الجمعية المركزية أية هبات باعتبار ما استقـر عليه الأمـر من أنهم يعملون بنشاط ضد الله، لكن القلق الفعلي كان نابعاً من أنهم كانوا يناضلون بنفس القدر ضد وجهات النظر المالية عند الجمعية المركزية.

نظرت كل جمعية يهوديـة ألمانيـة الى صعود هتلر من خـلال مرآتهـا الخاصـة. رأى العاملون الشباب في الجمعية المركزية أن القاعدة العمالية للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ظلت على ولائها له وأن اليهـود استمروا في انـدماجهم داخـل الحزب عـلى كل

** إشارة إلى الفرق الطلابية التي نشأت على أسس قومية توحيدية في نهاية الحروب النابوليونية. بعد ١٨٧١ تحولوا إلى اتجاه قومي متعصب واتهموا بمعاداة السامية. منعها هتلر ثم عادت إلى الظهور بعد الحرب العالمية الثانية. لسيف المبارزة والبيرة مكانة خاصة في طقوس اجتماعاتهم (م).

مستوى. ولكن ما لم يدركوه هو أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي لم يكن قادراً على الحاق الهزيمة بهتلر.

قبل الحرب العالمية الثانية كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي أكبر حزب إشتراكي في العالم وفخر الأممية الاشتراكية. ولكنه لم يكن أكثر من حزب إصلاحي. وخلال فترة جمهورية فيمار فشل في إقامة القاعدة الاشتراكية الصلبة التي كان من الممكن أن تسمح للطبقة الألمانية بمقاومة النازية. وعندما جاء الكساد كان الاشتراكي الديمقراطي هِرمان مُولر رئيساً للوزراء (مستشاراً). وسرعان ما قرر شركاؤهم اليمينيون في التحالف أن على العمال أن يتحملوا ثقل الأزمة، واستبدلوه بهاينْرش بْرُونِنْج من «حزب الوسط» الكاثوليكي. ورفع «مستشار الجوع» الضرائب على سعداء الحظ الذين لديهم وظائف للتمكن من دفع إعانات متصاعدة للملايين المتزايدة من العاطلين. وكان قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي يعرفون أن ذلك انتحار، ولكنهم «تحملوا» برونج خوفاً من أن يأتي بهتلر إلى تحالفه إن هم ابتعدوا عنه. لذا لم يحاربوا ضد الاستقطاعات في الإعانات الحكومية للعاطلين. ولم يكن لدى برونج أيّ شيء يقدمه للطبقة الوسطى الفزعة، وكثيرون منهم ارتدوا «القمصان البنية». ووقفت قواعد الحزب الاشتراكي الديمقراطي من اليهود وغير اليهود على السواء، موقفا سلبيا، تتفرج وحزبها يتقوّض.

كذلك هزم الحزب الشيوعي الألماني نفسه. فبلشفية لينين كانت قد انحطت إلى «المرحلة الثالثة» من يسارية ستالين المفرطة وحركة روزا لكسمبورج «عصبة سبارتاكوس» الى «الجبهة الحمراء» بقيادة إرِفْست تِلِمْان. بالنسبة لهؤلاء الحلقيين كان كل إنسان آخر فاشياً. وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي قد أصبح بالنسبة لهم **فاشية اشتراكية لا** سبيل إلى الوحدة معه.

في عام ١٩٣٠ تفوق حزبا الطبقة العاملة مجتمعَين في الانتخابات على هتلر إذ حصلا على ٣٧,٦٪ مقابل ١٨,٣٪. كان في الإمكان وقفه. ولكن فشلهم في الاتحاد حول برنامج نضالي للدفاع الفعلي المشترك ضد «القمصان البنية»، وللدفاع ضد إعتداءات الحكومة على مستوى معيشة الجماهير، هو الذي جعل هتلر يصل إلى السلطة. ومنذ الحرب العالمية الثانية والدارسون الغربيون يميلون إلى اعتبار أن الحزب الشيوعي الألماني قد «خان» الحزب الاشتراكي الديمقراطي من خلال تعصبية ستالين. وفي المعسكر الستاليني نجد الأدوار معكوسة. فاللوم يوجه للحزب الاشتراكي

الديمقراطي لإعتماده على مِزمار محطم مثل بْرونِنج. ولكن كلا الحزبين يجب أن يتحملا معاً مسئولية الكارثة.

«من الحق إذن أنهم يجب أن يحاربوا ضدنا»

إذا كان لا بد أن يتحمل الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الشيوعي الألماني نصيبهما كاملاً من الذنب لانتصار هتلر، كذلك يجب أن يتحمله **الاتحاد الصهيوني في ألمانيا**، فبالرغم من أن الحكمة المتداولة افترضت دائماً أن الصهاينة، مع ما لهم من رأي كئيب في معاداة السامية، قد حذروا اليهود من كارثة النازية فإن ذلك في الحقيقة ليس صحيحاً. ففي عام ١٩٦٩ كان يُواحيم بْرنْتْسْ، الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الأمريكي، وكان في شبابه حاخاماً صهيونياً متهوساً في برلين، كان لا يزال يصر على أنه:

منذ اغتيال وَالْتر رَاثِنَوْ في عام ١٩٢٢ لم يكن هناك أي شك في عقولنا في أن التطور الألماني سيكون نحو نظام شمولي معادٍ للسامية. عندما بدأ هتلر في الظهور، وعندما أخذ كما قال هو «يوقظ» الأمة الألمانية الى الوعي العرقي والتفوق العرقي، لم يكن لدينا شك في أن هذا الرجل سيصبح زعيم الأمة الألمانية إن آجلاً أو عاجلاً[1].

ومع ذلك فإن البحث الدؤوب في صفحات مجلة «**رُونْدْشَاو اليهودية**»، وهي المجلة الاسبوعية للاتحاد الصهيوني في ألمانيا لا يكشف عن مثل هذه التنبؤات. فعندما قتل يهودي ونهبت بضع مئات من المحلات اليهودية في نوفمبر/تشرين ثاني ١٩٢٣، أثناء إضطرابات الجوع في برلين قلل كُورتْ بْلُومِنْفِيلْد، سكرتير (الرئيس فيما بعد) الاتحاد الصهيوني في ألمانيا، قلل بوعي من حجم الواقعة:

من الممكن أن يكون هناك نوع من رد الفعل رخيصاً جداً وفعالاً، ونحن. . . . نرفضه بحزم. إن المرء يمكن أن يستثير قلقاً عميقاً بين اليهود الألمان. ويمكن للمرء أن يستعمل هذه الإثارة لتجنيد المتذبذبين. ويمكن للمرء أن يقدم فلسطين والصهيونية كملجأ للذين لا وطن لهم. نحن لا نرغب في أن نفعل ذلك. نحن لا نرغب في أن نُنهي بالديماغوجية أولئك الذين وقفوا بعيداً عن الحياة اليهودية بحكم اللامبالاة. ولكننا نرغب في أن نوضح لهم من خلال قناعاتنا المخلصة أين يكمن الخطأ الأساسي المتعلق بوجود المنفى اليهودي

(الجالوث). نحن نرغب في أن نوقظ إدراكهم القومي الذاتي. نحن نرغب. . من خلال العمل التعليمي الصبور والدؤوب في إعدادهم للمشاركة في إعلاء بناء فلسطين[٢].

والمؤرخ سِتِيْفِن بُوِبلْ، وهو بالتأكيد ليس عدواً للاتحاد الصهيوني في ألمانيا يقر صراحة في كتابه، **الصهيونية في ألمانيا ١٨٩٧-١٩٣٣**، أنه بعد عام ١٩٢٣ فإن مجلة **روندشاو** «لم تبدأ في تسجيل منتظم وتفصيلي للإثارة والعنف المعاديين لليهود إلا في عام ١٩٣١»[٣]. إن الصهاينة البارزين لم يكتفوا بعدم تحذير اليهود والدفاع عنهم وإنما عارضوا كل نشاط معاد للنازية.

لقد كان الصهاينة الألمان هم الذين صاغوا بشكل كامل تقريباً أيديولوجية المنظمة الصهيونية العالمية قبل عام ١٩١٤، وطوروا، في العشرينات، الحجة لنهايتها المنطقية: إن اليهودية في المهجر ليس لها آمال. لم يكن هناك دفاع ممكن ضد معاداة السامية ولا فائدة في محاولة تطوير ثقافة يهودية ومؤسسات للجالية في ألمانيا. لقد ابتعد الاتحاد الصهيوني في ألمانيا عن المجتمع الذي يعيش فيه. وكانت هناك مهمتان صهيونيتان فقط: غرس الوعي القومي في أكبر عدد من اليهود يمكن أن يستمع إلى ذلك، وتدرب الشباب على مهن نافعة في التطور الاقتصادي لفلسطين. وكل شيء عدا ذلك لا فائدة منه ومسكين.

في عام ١٩٢٥ سجل يعقوب كْلاتْزِكِيْن، أكثر الدعاة حماسا للامتناعيّة الكلية، والمحرر المساعد «للموسوعة اليهودية» الضخمة، سجل المترتبات الكاملة على التناول الصهيوني لمعاداة الصهيونية.

إن لم نقر بصوابية معاداة السامية فإننا ننكر صوابية قوميتنا نحن. فإذا كان شعبنا يستحق ويعتزم أن يعيش حياته القومية الخاصة، فهو إذن جسم غريب مزروع في الأمم التي يعيش بينها، وهو جسم غريب يصر على هويته الخاصة المتميزة مقتطعاً من مجال حياتهم هم. من الحق إذن أن يحاربوا ضدنا من أجل وحدتهم الوطنية. . وبدلاً من إقامة جمعيات الدفاع ضد المعادين للسامية الذين يريدون تقليص حقوقنا، يجب أن نقيم جمعيات للدفاع ضد أصدقائنا الذين يرغبون في الدفاع عن حقوقنا[٤].

كانت الصهيونية الألمانية متميزة في المنظمة الصهيونية العالمية بمعارضة قادة الاتحاد الصهيوني في ألمانيا في لعب أي دور في السياسات المحلية. وبالنسبة لبلومينفلد كان تخطّي الحدود خطيئة قاتلة. ولقد قبل بلومينفيلد تماماً الخط المعادي للسامية القائل بأن ألمانيا تنتمي للعرق الآري وأنه بالنسبة لتولي يهودي منصبا في الأرض التي ولد فيها فإن ذلك لم يكن أكثر من تدخل في شئون شعب آخر. نظرياً، أصر الاتحاد الصهيوني في ألمانيا على أن كل فرد من أعضائه يجب أن يهاجر في نهاية الأمر إلى فلسطين. ولكن ذلك كان بالطبع غير واقعي تماماً. لقد ذهب حوالي ألفين من المستوطنين من ألمانيا إلى فلسطين فيما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٣٣، ولكن كثيرين من هؤلاء كانوا من الروس الذين ألقت بهم الرياح هناك بعد الثورة. وفي عام ١٩٣٠ كان الاتحاد الصهيوني في ألمانيا لديه ٩٠٥٩ عضواً يدفعون الاشتراكات ولكن هذه المستحقات كانت شكلية ولا تشير بأي حال إلى التزام عميق. فمع كل حماس بلومينفيلد، لم تكن الصهيونية عنصراً هاماً في جمهورية فيمار.

وعندما ظهرت شارات التحذير من الاندفاع النازي في انتخابات يونيو/حزيران عام ١٩٣٠ في ولاية ساكسونيا حيث حصلوا على ١٤,٤٪ من الأصوات، مارست الجالية اليهودية في برلين الضغط على الاتحاد الصهيوني في ألمانيا لكي يشترك في لجنة لانتخابات الرايخستاج مع «الجمعية المركزية للألمان ذوي العقيدة اليهودية» والتمثّليين الآخرين. ولكن التزام الاتحاد الصهيوني كان لفظياً فقط، وشكا التمثليون من أن الصهاينة لا يبذلون أيّ وقت أو مال للجنة، وقد حُلت اللجنة مباشرة بعد الانتخابات. وتظهر مقالة نشرت في مجلة **روندشاو** بقلم سِيجْفْرِيد موسى، وهو الذي يخلف بلومينفيلد فيما بعد كرئيس للإتحاد، تظهر لا مبالاة الصهاينة فيما يتعلق ببناء دفاع نشط:

> لقد اعتقدنا دائماً أن الدفاع ضد معاداة السامية هو مهمة تهم كل اليهود، وأعلنّا بوضوح الوسائل التي نوافق عليها وتلك التي نعتبرها غير ملائمة أو غير فعالة. ولكن من الصحيح أن الدفاع ضد معاداة السامية ليس هو مهمتنا الرئيسية، وهو لا يهمنا بنفس القدر ولا بنفس الأهمية كما يهمنا العمل من أجل فلسطين، وكما يهمنا الى حد ما، وبمعنى مختلف، العمل من أجل الجاليات اليهودية(٥).

حتى بعد الانتخابات في سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٠ جادل الصهاينة ضد فكرة خلق جبهة فعالة ضد النازيين. وأصرّ أ. و. رُوْمْ في مجلة **روندشاو** على أن أي دفاع لا يمكن إلا

أن يكون مضيعة للوقت. وبالنسبة له «فإن أهم درس تعلمناه من هذه الانتخابات هو أنه من المهم تقوية الجالية اليهودية في ألمانيا من داخلها أكثر بكثير من خوض حرب خارجها»[٦].

لم يتمكن قادة الاتحاد الصهيوني في ألمانيا من الاتحاد بفعالية مع التمثليين حول عمل دفاعي. كانوا امتناعيين سياسياً بشكل كامل كما كانوا شعبويين. ولم يكونوا يؤمنون بالمقولات الأساسية لتنظيم «الجمعية المركزية» والقائلة بأن اليهود هم من الألمان. كان ما يهمهم هو أن اليهود يجب أن يؤكدوا يهوديتهم. وفسروا ذلك بأنه إذا بدأ اليهود في اعتبار أنفسهم أقلية قومية منفصلة وكفّوا عن التدخل في الشئون «الآرية»، فسيكون من الممكن جعل المعادين للسامية يقبلون بهم على أساس التعايش «الكريم». لم يكن لدى التمثليين شيء من ذلك، فبالنسبة لهم كان الموقف الصهيوني هو مجرد صدى للخط النازي. ولا شك أن التمثليين كانوا على صواب. ولكن حتى لو أن الصهاينة أقنعوا كل يهودي بتأييد موقفهم فلم يكن ذلك سيفيد. لم يكن هتلر يهتم بما يظن اليهود في أنفسهم. كان يريدهم خارج ألمانيا والأفضل أن يكونوا موتى. لم يكن الحل الصهيوني حلاً. ولم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله اليهود لكي يلطفوا من معاداة السامية. فقط هزيمة النازية كانت يمكن أن تساعد اليهود وذلك كان يمكن أن يحدث لو أنهم اتحدوا مع الطبقة العاملة المعادية للنازية على أساس برنامج للمقاومة الفعالة. ولكن ذلك كان محرماً بالنسبة لقيادة الاتحاد الصهيوني لألمانيا التي اختارت في عام ١٩٣٢ ـ عندما كان هتلر يزداد قوة يوم بعد يوم ـ أن تنظم اجتماعات معادية للشيوعية لكي تحذر الشباب اليهودي من «التمثل الأحمر»[٧].

الأقليات الصهيونية

مع صعود هتلر إلى السلطة أخذت الأقليات داخل الاتحاد الصهيوني في ألمانيا تتجاهل بشكل متزايد قيود بلومينفلد على العمل السياسي، وعملت إما مع المنظمة المركزية أو بحثت عن عناصر سياسية أخرى من أجل خلاصها. كان جورج كارِسْكي، وهو مصرفي على خلاف منذ وقت طويل مع بلومينفلد حول لامبالاة رئيس الاتحاد الصهيوني في ألمانيا بالسياسات الداخلية للجالية اليهودية، شكّل في عام ١٩١٩ حزب الشعب اليهودي ليدخل انتخابات الجالية اليهودية في برلين على أساس برنامج يؤكد بشكل أكبر على يهودية مدارس اليهود. وفي عام ١٩٣٠ برز كارسكي على الساحة

الألمانية السياسية الأكبر كمرشح للرايخستاج على قائمة «الوسط الكاثوليكي» (خسر). وأقام الذين يشاركونه أفكاره تنظيماً اسمه «منظمة ناخبي حزب الوسط اليهودي». وقد أعجبت هذه الواقعة ساخراً من الاشتراكيين الديمقراطيين فقال:

إن البرجوازية اليهودية المشردة تسعى إلى حد كبير للحصول على مأوى في حزب الوسط ـ لقد كان المسيح والبابا الأول يهوديين، فلم لا؟ إن أفراداً بؤساء يضرون بأفكارهم وأهدافهم بسبب القلق من «المصادرات الاشتراكية». إن ما يمثله هتلر بالنسبة للمسيحيين يمثله حزب الوسط بالنسبة لليهود[٨].

إن «الصراع الثقافي» الذي شنه بسمارك ضد الكنيسة الكاثوليكية قد جعل الكهانة الكاثوليكية الألمانية لا تثق في معاداة السامية بشكل كبير جدا. كانوا يخشون أنها قد تمهد الطريق لمزيد من الهجمات على الأقلية الكاثوليكية كذلك. وبالإضافة إلى ذلك فإن أفراداً من الأساقفة الذين كانوا يضعون في اعتبارهم أن المسيح كان يهودياً وأن معاداة السامية على أساس عرقي لا تتفق بالتالي مع المسيحية، قد رفضوا حتى القيام بالخدمات الدينية للأعضاء النازيين. ولكن كان هناك دائماً معادين للسامية بين قادة الوسط وبعد عام ١٩٢٠ واتفاق لاتيران مع موسوليني كان هناك ضغط متزايد من جانب الفاتيكان من أجل تقارب بين النازي والوسط بدعوى الحرب ضد الشيوعية. على أي حال، لم يكن في إمكان كارسكي أن يرى الاتجاه الذي كانت المصالح الطبقية تدفع فيه الطبقة العليا الكاثوليكية، وقد أخطأ تماماً في الحكم على فرانزفون بابن الذي احتل منصب مستشار الوسط بعد برونتج. وطمأن كارسكي أصدقاءه اليهود الأغنياء بأن «حكومة بابن رفعت راية حماية اليهود»[٩]. وفي الواقع فإن فون بابن كان دائماً معادياً للسامية، وفي نهاية الأمر بعد أن فقد منصب المستشارية كان جزءاً من البطانة التي أقنعت الرئيس هندنبرج بأن يأتي بهتلر إلى السلطة.

أما على ساحة اليسار الصهيوني فإن الفرع الألماني «لعمال صهيون» (بوعالي صهيون) ساند القيادة غير الكفؤة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. وكان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني قد رفض قبل عام ١٩١٤ أن يقرن نفسه مع الصهيونية التي رأى أنها تفصل اليهود عن غيرهم من العمال. ولم يشجع الصهيونية العمالية إلا تلك العناصر من أقصى اليمين في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني الذين أيدوا الإمبريالية الألمانية في أفريقيا، والذين رأوا في العمالية الصهيونية زملاء كمستعمرين

اشتراكيين. أما الأممية الاشتراكية فقد أقامت علاقات طيبة مع عمال صهيون (بوعالي صهيون) خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها عندما التحقت القوى اليسارية المعادية للاستعمار بالأممية الشيوعية. لقد انضم الصهاينة العماليون إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني بهدف مركزي وحيد: هو الحصول على تأييد للصهيونية. وطالما كان لدى قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي كلمات طيبة يقولونها عن الصهيونية فان الآخرين كانوا يجيبون أيضا بذات التحبب. وفي عام ١٩٣١، بدأ قادة الصهيونية العمالية في فلسطين يستشرفون انتصار هتلر، ولكن لم يكن لديهم أي بديل للحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولا يوجد أي سجل لأي خلاف علني بين قادة بوعالي صهيون في فلسطين وبين رفاقهم السابقين في قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

«الألمان ذوو العقيدة الموْزوية هم ظاهرة مضعِفة للمعنويات غير مرغوب فيها»

إن الموقف الأساسي الصهيوني نحو النازي كان هو أنه لا يمكن بالفعل عمل شيء لوقفهم، ولكنهم شعروا بأنهم ملزمون بعمل شيء. وتفيدنا **موسوعة الصهيونية واسرائيل** بشكل شديد الغموض أن الصهاينة الألمان حاولوا حث المستشار برونج على إصدار إعلان قويّ ضد لاسامية النازيين (مشددين على نفوذ الصهاينة على حكومات أمم مختلفة). ولكن برونج لم يستجب أبداً (ولا نجح الصهاينة في محاولاتهم الحصول على الدعم الحكومي للهجرة إلى فلسطين كمخرج للضغط الداخلي»[١١].

ولقد كان أي بيان مثل هذا من جانب برونج سيكون بلا معنى إلا إذا كان على استعداد لسحق النازيين. فأي إعلان بأن الحكومة كانت تساعد اليهود على الرحيل كان سيأتي بنتائج معاكسة بتشجيع النازيين على زيادة جهودهم متيقنين أن النظام كان يضعف في دفاعه عن حقوق اليهود. ومع ذلك فان برونج لم يفعل شيئاً لأن الصهاينة كانوا يبلفون فيما يتعلق بنفوذهم على «حكومات أمم مختلفة» وبشكل خاص بريطانيا.

أما وايزمان، وهو العالم ذو المكانة ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية وذو الصلات الجيدة مع لندن فإنه لم يفعل شيئاً لليهود الألمان. فهو لم يحبهم أبداً ولا كان لديه أي تعاطف مع جهودهم ضد معاداة السامية. ومنذ وقت مبكر في ١٨ مارس/آذار عام ١٩١٢ كان وايزمن قد أصبح عمليا على قدر من الصفاقة جعلته يبلغ اجتماعاً في برلين بأن «كل بلد يمكنه فقط استيعاب عدد محدود من اليهود إذا لم يكن يريد متاعب في

معدته. ألمانيا لديها بالفعل الآن يهود أكثر من اللازم»[11]. وفي حديثه مع بلفور في عام ١٩١٤ ذهب إلى أبعد من ذلك قائلاً له: «نحن أيضاً نتفق مع المعادين للسامية ثقافياً بقدر ما نؤمن بأن الألمان ذوي العقيدة الموزوية هم ظاهرة مضعِفة للمعنويات وغير مرغوبة»[13]. ولقد زار ألمانيا عدة مرات في السنوات الأخيرة من جمهورية فيمار. وأخبره أصدقاؤه هناك أنهم حتى لا يريدون أي يهودي في أي مكان آخر أن يتظاهر لصالحهم. وبدلاً من ذلك فإنه جعل المحافظين البريطانيين يعلنون ان هتلر سيسيء إلى نفسه عندهم بأعمال معادية للسامية ولقد اتصل وايزمان بروبرت بُوتْبي، وهو عضو مجلس عموم محافظ، الذي أخبره بصراحة تامة أن معظم المحافظين يدرون أن هتلر ينقذ ألمانيا من الشيوعية وأنهم أقل اهتماماً بكثير بمعاداته للسامية[12]. وبحلول يناير/ كانون ثان ١٩٣٢ توصل وايزمان إلى استنتاج بأن هجرة بعض يهود ألمانيا هي على الطريق. وبالرغم من أنه كان قد فقد تأييد المؤتمر الصهيوني العالمي في عام ١٩٣١ وتنحى عن رئاسة المنظمة، ومن ثم لم يكن تحت أعباء المنصب، فإنه لم يفعل شيئا لتعبئة العالم أو اليهود ضد هتلر.

في ألمانيا نفسها حاول الاتحاد الصهيوني في ألمانيا دفع اليهود إلى الشوارع ولكن مجلة روندشاو شعرت أنها حرة في التهديد بأن اليهود قد يخرجون الى الشوارع - في نيويورك. وفي الواقع لم تخرج تظاهرة واحدة ضد هتلر في أمريكا من جانب الصهاينة قبل أن يصل إلى السلطة. ولقد انضم الحاخام وايز زعيم المؤتمر اليهودي الأمريكي إلى التمثليين في اللجنة اليهودية الأمريكية لكي يسأل قادة اليهود الألمان كيف يمكن أن يقدموا المساعدة. واكتفت البرجوازية اليهودية الألمانية بمجرد شكرهم على هذه اللفتة وأكدت للأمريكيين أنه سيتم الاتصال بهم إذا ما سارت الأمور إلى الأسوأ. وحاول وايز الحصول على بيان من الرئيس هوفر. ولكن حتى هذه المحاولة كانت راديكالية أكثر من اللازم في نظر اللجنة اليهودية الأمريكية، وتخلى وايز عن الأمر. ولقد نظم وايز وناحوم جولدمان بالفعل مؤتمراً يهودياً عالمياً في جنيف في صيف عام ١٩٣٢، ولكن جولدمان المتطرف الالتزام لم يكن مستعدا للعمل مع التمثليين[14]. كانت الصهيونية في ذلك الوقت حركة أقلية بين اليهود، ولم يفعل المؤتمر أكثر من وعظ الذين آمنوا بها، بل أقلية من الذين آمنوا بها طالما أنه لا وايزمان ولا ناحوم سوكولوف الذي خلفه كرئيس للمنظمة الصهيونية العالمية قد حضرا. لم يخرج شيء عن هذا الاجتماع. ومن المؤكد أنه لا وايز ولا جولدمان قد قدرا الخطورة الكاملة للوضع. لقد أبلغ جولدمان، وهو المؤمن دائماً بنفوذ القوى العظمى،

مؤتمر الاتحاد الصهيوني في ألمانيا في عام ١٩٣٢ ان بريطانيا وفرنسا وروسيا لن تسمح بوصول هتلر إلى السلطة[١٥]. بل إن ستيفن وايز تراجع أكثر من ذلك إلى حيث العالم الذي قد لا تكون فيه الأمور «سيئة كما نخشى». فعند سماعه بوصول هتلر إلى السلطة شعر أن الخطر الحقيقي الوحيد يكمن في فشل هتلر في الحفاظ على وعوده الأخرى، عندئذ «يمكن أن يقرر في نهاية الأمر أن عليه التسليم لزملائه النازيين في أمر معاداة السامية[١٦]».

«الليبرالية هي العدو، وهي كذلك عدو النازية»

لما كان الصهاينة الألمان يتفقون مع الأيديولوجية النازية في عنصرين أساسيين ـ وهما أن اليهود لن يكونوا أبداً من الشعب الألماني، وأنهم لذلك لا ينتمون إلى التراب الألماني ـ كان حتمياً أن بعض الصهاينة سيؤمنون بإمكانية التفاهم. فاذا كان وايز قد تمكن أن يوهم نفسه بأن هتلر كان هو الوسط في صفوف النازيين، فلما لا يقنع الآخرون أنفسهم للإيمان بأن هناك عناصر داخل حزب العمال الاشتراكي الوطني الألماني يمكنهم كبح جماح هتلر؟ لقد ألمح ستيفن بوبل إلى هذا الجدل داخل الاتحاد الصهيوني في ألمانيا.

> يظن بعض الصهاينة أنه قد يكون هناك عناصر معتدلة ومحترمة داخل الحركة النازية يمكنهم أن يكونوا أطرافاً مفاوضة مناسبة للوصول إلى نوع من التفاهم اليهودي ـ الألماني. كان هناك انقسام خطير حول هذه الإمكانية، حيث يقف ولتش (رئيس تحرير مجلة روندشاو) على سبيل المثال مجادلاً لصالحها، بينما يعارضها بلومنفيلد بشكل حاد[١٧].

لم يكن روبرت ولتش وحده. فجوستاف كرويَانْكر، محرر «دار النشر اليهودية»، وهي أقدم دار نشر صهيونية في أوربا، رأى أيضاً الجذور المشتركة للحركتين في اللاعقلانية الشعبوية، واستنتج أنه على الصهاينة أن ينظروا بايجابية إلى الأوجه القومية في النازية. وبرر رأيه بسذاجة قائلاً إن التوجه الحميد نحو الزملاء الشعبويين يمكن أن يؤدي إلى موقف حميد مقابل، تجاه الصهاينة من جانب النازيين[١٨]. وبالنسبة لكرويَانكر وصهاينة كثيرين آخرين من المعنيين، كانت أيام الديمقراطية قد ولت. وشرح هاري سَاشر وهو بريطاني، وأحد قادة المنظمة الصهيونية العالمية في تلك المرحلة، نظريات كرويانكر عند عرضه لكتابه«حول مسألة القومية الألمانية الجديدة»

بالنسبة للصهاينة فإن الليبرالية عدو، وهي كذلك عدو للنازية، ومن ثم يجب أن يكون لدى الصهيونية تعاطف وتفهم كبيرين تجاه النازية التي ربما كانت معاداة السامية فيها واقعة عارضة(١٩).

لم يرغب صهيوني واحد في أن يصل هتلر إلى السلطة، ولم يصوت له صهيوني واحد. كما أنه لا ولتش ولا كرويانكر تعاونا مع النازيين قبل ٣٠ يناير/كانون الثاني من عام ١٩٣٣. ولم يظهر التعاون إلا فيما بعد. ولكن هذه الأفكار كانت النتيجة المنطقية لعقود من التبرير الصهيوني لمعاداة السامية والفشل في مقاومتها. ولا يمكن القول في الدفاع عن ذلك أن القادة الصهاينة لم يعرفوا ماذا كان سيحدث عندما جاء هتلر الى السلطة. لقد قال هتلر أكثر مما يكفي لكي يضمن أنه على الأقل سيتم تنزيل اليهود إلى مواطنين من الدرجة الثانية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانوا يعرفون أن هتلر كان من المعجبين بموسوليني، وأن عشرة أعوام من الفاشية في ايطاليا كانت تعني الرعب والتعذيب والديكتاتورية. ولكن في عدائهم لليبرالية والتزامها بالتمثل اليهودي، وكمعارضين لاستعمال اليهود لحقوقهم الديمقراطية كاملة داخل النظام البرلماني، فإن الوجه الفاشي للنازية لم يقلق بشكل فعال زعماء الاتحاد الصهيوني في ألمانيا قط. ولم يتضح أبداً لهؤلاءَ الحَلَقيين أن عليهم واجباً تجاه الديمقراطية هو التعبئة من أجل الدفاع عنها. إن المترتبات التعيسة لنظام فاشي آخر، يقوم هذه المرة على موقف معلن معاد لليهود، وفي قلب أوربا، قد فاتهم رؤيتها تماماً.

يوجد عند دانتي عرّافون يمشون إلى الخلف وقد انعكست وجوههم فوق أعناقهم وتتدفق العبرات من مآقيهم. إلى الأبد. هكذا الحال مع كل الذين أخطأوا فهم هتلر.

هوامش الفصل الثالث

1. Herbert Strauss (ed.), *Gegenwart Im Ruckblick* (Heidelberg, 1970), p. 231.
2. Stephen Poppel, *Zionism in Germany 1897-1933*, p. 119.
3. Ibid.
4. Jacob Agus, *The Meaning of Jewish History*, vol. II, p. 425.
5. Margaret Edelheim-Muehsam, 'Reactions of the Jewish Press to the Nazi Challenge', *Leo Baeck Institute Year Book*, vol. V (1960), p. 312.
6. Ibid:, p. 314.
7. Donald Niewyk, *The Jews in Weimar Germany*, p. 30.
8. Donald Niewyk, *Socialist, Anti-Semite and Jew*, p. 213.
9. Leonard Baker, *Days of Sorrow and Pain*, p. 209.
10. Eliazer Livneh, 'Germany: Relations with Zionism and Israel', *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. I, p. 385.
11. Benyamin Matuvo, 'The Zionist Wish and the Nazi Deed', *Issues* (Winter 1966/7), p. 9.
12. Chaim Weizmann to Ahad Ha'am, in Leonard Stein (ed.), *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Letters*, vol. VII, p. 81.
13. Shlomo Shafir, 'American Jewish Leaders and the Emerging Nazi Threat (1928-1933)', *American Jewish Archives* (November 1979), p. 172.
14. Ibid., p. 175.
15. Walter Laqueur, *History of Zionism*, p. 499.
16. Shafir, 'American Jewish Leaders and the Emerging Nazi Threat', p. 181.
17. Poppel, *Zionism in Germany*, p. 161.
18. Herbert Strauss, *Jewish Reactions to the Rise of Anti-Semitism in Germany*, p. 13.
19. Harry Sacher, review of Gustav Krojanker, *Zum Problem des Neuen Deutschen Nationalismus, Jewish Review* (London, September 1932), p. 104.

٤ ـ الصهيونية والفاشية الايطالية، ١٩٢٢ ـ ١٩٣٣

كان موقف المنظمة الصهيونية العالمية من الفاشية الايطالية قد تحدد بعامل واحد: موقف ايطاليا من الصهيونية. فعندما كان موسوليني معادياً لهم كان وايزمان ينتقده. ولكن عندما أصبح موسوليني مؤيداً للصهيونية، أيدته القيادة الصهيونية بحماس. وفي اليوم الذي وصل فيه هتلر إلى السلطة، كانوا أصدقاء بالفعل مع الزعيم الفاشي الأول.

كان موسوليني كثوري يعمل دائما مع اليهود في الحزب الاشتراكي الإيطالي، ولم يبدأ لأول مرة في ترديد الأفكار المعادية للسامية التي أطلقها اليمين في أوربا الشمالية إلا عندما ترك اليسار. فبعد أربعة أيام من استيلاء البلاشفة على السلطة أعلن أن انتصارهم كان نتيجة لمؤامرة بين أعضاء «الكنيس»، وهم «كيوربوم» (لينين) و«برونشتين» (تروتسكي)، وبين الجيش الألماني. وبحلول عام ١٩١٩ كانت الشيوعية واضحة لديه: المصرفيون اليهود ـ روتشلد، وورنبرج، وشيف، جوجنهيم ـ وراء اليهود الشيوعيين[٢]. ولكن موسوليني لم يكن معادياً للسامية بالقدر الذي يجعله يستبعد اليهود من حزبه الجديد، وكان هناك خمسة منهم بين مؤسسي الحركة الفاشية. كذلك لم تكن معاداة السامية مهمة في أيديولوجيته، وفي الواقع فإن أتباعه لم يستقبلوها استقبالاً حسناً.

لقد كانت معاداة السامية في ايطاليا دائما مقترنة في أذهان العامة بالظلامية الكاثوليكية. كانت الكنيسة هي التي دفعت اليهود إلى داخل الجيتو، وقد أيد القوميون الإيطاليون دائما اليهودَ ضد البابوات الذين رأوا فيهم معارضين لوحدة ايطاليا. في عام ١٨٤٨ حطمت جمهورية روما الثورية جدران جيتو روما. وعندما هزمت عاد الجيتو إلى

ما كان عليه. ولكن الانتصار النهائي لمملكة ايطاليا القومية في عام ١٨٧٠ وضع حدا للتمييز ضد اليهود. وقد ألقت الكنيسة باللوم على اليهود فيما يتعلق بالانتصار القومي واستمرت مجلة «اليسوعيين» الرسمية «سِيفِيلْتا كاتُوليكا» في الإصرار على أنهم لم يُهزموا إلا «بالمؤامرات» مع اليهود التي عقدها مِتْزيني وغاريبالدي وكافور وفاريني ودي بْريْتِسْ[٣]. ولكن هذا التبجح من قبل الكهانة ضد أبطال القومية الايطالية لن يفعل سوى تشويه سمعة «معاداة السامية» وبالذات بين الشبيبة المعادية للكهانة من البرجوازية الصغيرة القومية. ولما كان جوهر الفاشية هو تعبئة الطبقة الوسطى ضد الماركسية فقد استمع موسوليني باهتمام لاعتراضات أتباعه: ما الهدف من إدانة الشيوعية كمؤامرة يهودية، إذا كان اليهود أنفسهم ليسوا مكروهين؟

«اليهود الحقيقيون لم يحاربوا ضدكم أبداً»

وكما حدث مع كثيرين آخرين فقد جمع موسوليني في الأصل بين معاداة السامية وبين تأييد الصهيونية. واستمرت جريدة «بوبولو ديتاليا» في تحبيذ الصهيونية حتى عام ١٩١٩ عندما خلص هو إلى أن الصهيونية لم تكن سوى مخلب قط للبريطانيين وبدأ في الإشارة إلى الحركة الصهيونية المحلية بـ «الا`بطاليين المزعومين»[٤]، وقد شاطره كل السياسيين الايطاليين شكوكه في الصهيونية. بما في ذلك وزيران للخارجية من اصل يهودي ـ سيدني سُونِّينو، وكارلو شانْزار. كان الخط الإيطالي بالنسبة لفلسطين هو أن بريطانيا البروتستانتية ليس لها موقع حقيقي في البلاد حيث لا يوجد محليون بروتستانت هناك. كان ما يريدونه في فلسطين هو «أرض مقدسة» دولية. وعندما كان موسوليني يوافق على موقف حكومات ما قبل الفاشية حول فلسطين والصهيونية كان محركه الأساسي هو التنافس الإمبريالي والعداء لأي تجمعات سياسية في ايطاليا لديها ولاء لأي حركة دولية.

أقلقت مسيرة موسوليني إلى روما في اكتوبر/تشرين الأول ١٩٢٢ الاتحاد الصهيوني الإيطالي. لم يكونوا يحبون حكومة فاكْتا السابقة بالنظر إلى معاداتها للسامية، ولكن الفاشية لم تكن أفضل في هذا المجال. وكان موسوليني قد كشف بوضوح عن معاداته للسامية. ولكن قلقهم بشأن معاداة السامية زال مباشرة، فقد أسرعت الحكومة الجديدة لابلاغ أنْجِيلو ساسِيرْدُوتِي، الحاخام الرئيسي لروما وهو صهيوني نشط أنها لن تؤيد معاداة السامية لا في البلاد ولا في الخارج. عندئذ حصل الصهاينة على اجتماع مع موسوليني في ٢٠ ديسمبر/كانون أول ١٩٢٢، وأكدوا للدوتشي ولاءهم وكتبت رُوثْ بُوندي وهي

كاتبة صهيونية من اليهود الإيطاليين عن هذا الأمر قائلة: «قال الوفد من جانبه إن اليهود الإيطاليين سيظلون دائما على ولائهم لأرضهم الأصلية، ويمكنهم أن يساعدوا على إقامة علاقات مع الشرق (الليفانت) من خلال التجمعات اليهودية هناك»(٥).

وأبلغهم موسوليني صراحة أنه لا يزال يرى الصهيونية كأداة للبريطانيين ولكن تعهدهم بالولاء خفف عداءه إلى درجة ما، ووافق على مقابلة حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية الذي حضر لمقابلته في ٣ يناير/كانون الثاني ١٩٢٣. إن المسيرة الذاتية لوايزمان غامضة عن قصد، وهي غالباً مضللة، فيما يتعلق بعلاقته بالإيطاليين. ولكن من حسن الحظ أنه من الممكن أن نعرف بعض الأمور عن الاجتماع من التقرير الذي قدم في حينه إلى السفارة البريطانية في روما. وهذا يوضح كيف حاول وايزمان التعامل مع الاعتراض القائم على أساس ان الصهيونية ترتدي زي الخدم البريطانيين: «قال الدكتور وايزمان، في حين انه ينكر أن الأمر كان كذلك بأي حال، فانه حتى لو كان الأمر صحيحاً، فان ايطاليا يمكنها أن تكسب مثلما تكسب بريطانيا العظمى من إضعاف سلطة إسلامية»(٦).

لا يمكن أن تكون مثل هذه الإجابة قد أوحت بثقة كبيرة عند موسوليني، ولكنه كان سعيداً عندما طلب وايزمان الإذن في تسمية صهيوني إيطالي إلى البعثة التي تدير مستوطناتهم في فلسطين. كان وايزمان يعرف أن الجمهور الإيطالي سيرى ذلك كقبول فاشي للمنظمة الصهيونية العالمية مما يسهل الأمر للصهيونية بين اليهود القلقين الخائفين من فكرة الدخول في صراع مع النظام الجديد. أما موسوليني فقد رآها من ناحية أخرى، فبمثل هذه الإيماءة الرخيصة يمكنه كسب التأييد في الداخل والخارج من الجالية اليهودية.

لم يؤد اللقاء الى أي تغيير في السياسة الايطالية تجاه الصهيونية أو البريطانيين. وواصل الإيطاليون عرقلة الجهود الصهيونية بتكتيكات تضايق لجنة الإنتداب التابعة لعصبة الأمم. ولم يحدث أبدا، لا في ذلك الوقت ولا بعد ذلك، أن عبأ وايزمان المعارضة ضد ما فعله موسوليني للايطاليين ولكن كان عليه أن يقول شيئاً عن نظام عارض الصهيونية بنشاط، فتكلم في أمريكا في ٢٦ مارس/آذار ١٩٢٣ قائلاً:

هناك اليوم موجة سياسية عارمة تُعرف بالفاشية تكتسح كل إيطاليا. وكحركة إيطالية فإنها أمر لا يخصنا، إنها من شأن الحكومة الإيطالية. ولكن هذه الموجة تصطدم الآن بالجالية اليهودية الصغيرة، والجالية الصغيرة التي لم

تفرض على الآخرين الاعتراف بها أبداً، تعاني اليوم من معاداة السامية[٧].

لم تتغير السياسة الايطالية تجاه الصهيونية إلا في منتصف العشرينات عندما خلص قناصل إيطاليا في فلسطين إلى أن الصهيونية هناك لتبقى، وأن بريطانيا لن تترك البلاد إلا عندما يحصل اليهود على دولتهم الخاصة. ودُعي وايزمان ثانية إلى روما لحضور مقابلة ثانية في ١٧ سبتمبر/أيلول عام ١٩٢٦. كان موسوليني أكثر من متعاطف. فقد عرض مساعدة الصهاينة في تقوية اقتصادهم. وبدأت الصحافة الفاشية في طبع مقالات تحبذ الصهيونية الفلسطينية.

بدأ الزعماء الصهاينة في زيارة روما. وظهر ناحوم سوكولوف، الذي كان عندئذ رئيساً للجنة التنفيذية الصهيونية، وفيما بعد في فترة عام ١٩٣١ عام ١٩٣٣ رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية، ظهر يوم ٢٦ اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٢٧. ووصف ميشيل لِيْدِيْن، وهو متخصص في الفاشية والمسألة اليهودية، وصف النتيجة السياسية لمحادثات سوكولوف ـ موسوليني:

بهذا اللقاء الأخير احتفت الصهيونية بموسوليني. لم يمتدح سوكولوف الزعيم الإيطالي فحسب بصفته إنساناً، ولكنه أعلن اعتقاده الجازم بأن الفاشية محصنة ضد الأفكار المسبقة المعادية للسامية. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك: «في الماضي ربما كانت هناك تساؤلات حول الطبيعة الحقيقية للفاشية، ولكننا الآن بدأنا نفهم طبيعتها الحقيقية. . . إن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا ضدكم أبداً». .

هذه الكلمات التي تعادل تصديقاً صهيونياً على النظام الفاشي رددتها الدوريات اليهودية في جميع أنحاء العالم. وتدفقت، في تلك الفترة التي شاهدت إقامة علاقة شرعية جديدة بين الجالية اليهودية وبين الدولة الفاشية، التعبيرات عن الولاء وعن التعلق بالفاشية من المراكز اليهودية في إيطاليا[٨].

لم يكن كل الصهاينة سعداء بملاحظات سوكولوف. كان للصهاينة العماليين امتدادات غير محددة مع الحزب الاشتراكي الايطالي السري من خلال الأممية الاشتراكية وقد شكوا من هذه الملاحظات، ولكن الصهاينة الإيطاليين كانوا مسرورين للغاية. لقد وجد هؤلاء المحافظون الأثرياء المتديّنون المتطرفون في موسوليني سندهم ضد الماركسية وقرينها في التمثّل. وفي عام ١٩٢٧ قال الصحفي جْوِيْدو بِيْدَاريدا عن الحاخام ساسردوتي في مقابلة معه:

إن البروفيسير ساسردوتي مقتنع بأن كثيراً من المبادىء الأساسية للعقيدة الفاشية مثل: مراعاة قوانين الدولة، واحترام التقاليد، ومبدأ السلطة، وإعلاء القيم الدينية، والرغبة في نظافة الأسرة والفرد معنويا وماديا، والنضال من أجل زيادة الانتاج، ومن ثم النضال ضد المالتُسِّيَّة(*)، هي مبادىء يهودية لا أكثر ولا أقل(٩).

كان الزعيم الأيديولوجي للصهيونية الايطالية هو المحامي ألفونسو باسِيِّفِتْشي. كان رجلاً شديد الورع، وقد ضمن بأن الصهاينة الإيطاليين سيصبحون أكثر الفروع تديّناً في الحركة العالمية. وفي عام ١٩٣٢ ذكر صحفي آخر كيف أن باسيفتشي أيضاً:

عبّر لي عن قناعته بأن الظروف الجديدة ستؤدي إلى إحياء اليهودية الايطالية. وقد زعم أنه طور بالتأكيد فلسفة لليهودية تماثل النزعة الروحية للفاشية قبل أن تصبح هذه النزعة بوقت طويل قاعدة الحياة في الحكومة الإيطالية(١٠).

إقامة العلاقات بين موسوليني وهتلر

إذا كان الصهاينة على الأقل ترددوا حتى اشتد عليهم موسوليني قبل أن يستجيبوا، فإن هتلر لم تكن لديه مثل هذه المعوقات. فمنذ بداية الانقلاب، الفاشي استعمل هتلر نموذج موسوليني كبرهان على أن ديكتاتورية الرعب يمكنها أن تطيح بديمقراطية برجوازية ضعيفة وان تنطلق لتسحق حركات العمال. فبعد أن جاءإلى السلطة أقر بدينه لموسوليني في حوار مع السفير الايطالي عام ١٩٣٣: «تعرفون سعادتكم مدى إعجابي العظيم بموسوليني الذي اعتبره الزعيم الروحي «لحركتي» كذلك، ذلك أنه لو لم ينجح في الإمساك بالسلطة في ايطاليا، فإن الاشتراكية الوطنية لم تكن لتحظى بأي فرصة في ألمانيا»(١١).

كان لهتلر خلافين تافهين مع الفاشية: إن موسوليني قمع الألمان بوحشية في إقليم التيرول الجنوبي الذي كسبه الايطاليون في مؤتمر فرساي، وأنه رحب باليهود في الحزب الفاشي. ولكن هتلر رأى، وكان على صواب تماماً في ذلك، أن ما كان يريده الإثنان

* توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٩٧٦)، عالم اقتصاد انجليزي دعا إلى وقف التعاظم لعدد سكان العالم عن طريق الحد من النسل. (المترجم).

متشابه بحيث أنه يمكنهما في النهاية الوقوف معاً. وأصر على أن أي عراك مع الايطاليين حول سكان إقليم التيرول لن يخدم سوى اليهود، ولذا وخلافاً لمعظم اليمينيين الألمان كان على الدوام مستعداً للتخلي عن التيروليين(١٢). وبالإضافة إلى ذلك، وبالرغم من حقيقة أنه لم يكن يعرف بملاحظات موسوليني المبكرة المعادية للسامية، ففي ١٩٢٦، أعلن هتلر في كتابه كفاحي أنه في أعماق أعماقه يعتقد أن الزعيم الايطالي كان معادياً للسامية:

إن النضال الذي تشنه إيطاليا الفاشية، بالرغم من كونه في التحليل النهائي بدون إدراك ذلك (وهو ما لا أعتقده شخصيا) موجهاً ضد الأسلحة الرئيسية الثلاثة لليهود (هو أفضل دليل، ولو حتى بشكل غير مباشر، على أن المخالب السامة لهذه السلطة التي تعلو الدولة يتم تقليمها. إن حظر الجماعات الماسونية السرية ومنع الصحافة فوق القومية، وكذلك استمرار تدمير الماركسية الأممية، وعلى العكس من ذلك، التعزيز المستمر لمفهوم الدولة الفاشية ستؤدي في مدى سنوات بالحكومة الايطالية إلى أن تخدم مصالح الشعب الإيطالي أكثر فأكثر دون النظر إلى فحيح الأفعى اليهودية العالمية(١٣).

ولكن إذا كان هتلر مؤيداً لموسوليني، فإن ذلك لا يعني بالتبعية أن موسوليني مؤيد للنازية. فخلال العشرينات ظل الدوتشي يردد عبارته المشهورة: «الفاشية ليست مادة للتصدير». ومن المؤكد أنه بعد فشل انقلاب «صالة البيرة» ونسبة ٦,٥٪ الهزيلة التي حصل عليها النازيون في انتخابات ١٩٢٤، لم يكن هتلر يمثل شيئاً. وتطلب الأمر حدوث الكساد العالمي ونجاح هتلر الانتخابي المفاجىء، قبل أن يبدأ موسوليني في التنبه بجدية لقرينه الألماني - حينئذ بدأ في الحديث عن أوربا المتجهة للفاشية خلال عشر سنوات، وبدأت صحافته تنشر تقارير صحفية تحبذ النازية. ولكنه، في الوقت نفسه، رفض عنصرية هتلر ومعاداته للسامية القادمة من الشمال. وكان لدى الصهاينة أمل وقد ضللتهم تماماً محبته للسامية في أن يكون موسوليني عاملاً مؤثراً مخففاً عند هتلر عندما يصل إلى السلطة(١٤). وفي أكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٢، وفي الذكرى العاشرة للمسيرة إلى روما تحدث باسيفيشي بحماس عن الاختلافات بين الفاشية الحقيقية في روما وبين تقليدها في برلين. قال:

هناك اختلافات جذرية بين الفاشية الحقيقية الأصلية - الفاشية الإيطالية - وبين الحركات الفاشية المزيفة. في البلدان الأخرى التي. . . كثيرا ما تستعمل

أكثر المخاوف المَرَضية رجعيةً، وبوجه خاص الحقد الأعمى الهائج تجاه اليهود كوسيلة لحرف الجماهير عن مشاكلها الحقيقية، وعن الأسباب الفعلية لبؤسها وعن المجرمين الحقيقيين(١٥).

فيما بعد، بعد المحرقة، حاول وايزمان في كتابه عن سيرته الذاتية **التجربة والخطأ**، محاولة عرجاء لعمل سجل لمعاداة الفاشية من جانب الصهاينة الايطاليين: «كان من المعروف عن الصهاينة، واليهود عموماً بالرغم من أنهم لم يعبروا بصوت عال عن آرائهم حول الموضوع، أنهم معادون للفاشية(١٦). ونظراً لموقف موسوليني المعادي للصهيونية في السنوات الأولى من حياته الفاشية، وكذلك تعليقاته المعادية للسامية، فإن الصهاينة لم يؤيدوه أبداً تقريباً في عام ١٩٢٢. ولكن وكما رأينا فإنهم تعهدوا بالولاء للسلطة الجديدة ما أن طمأنهم موسوليني بأنه غير معاد للسامية، وفي السنوات الأولى من نظامه عرف الصهاينة أنه يرفض امتداداتهم الأممية ولكن ذلك لم يؤدِّ بهم إلى معاداة الفاشية، ومن المؤكد أنه بعد البيانات التي أدلى بها سوكولوف وساسر دوتي، لم يكن من الممكن الظن إلا بأن الصهاينة أصدقاء طيبون لموسوليني.

هوامش الفصل الرابع :

1. Meir Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 12.
2. Ibid., p. 13.
3. Daniel Carpi, 'The Catholic Church and Italian Jewry under the Fascists', *Yad Vashem Studies*, vol. IV, p. 44n.
4. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 14.
5. Ruth Bondy, *The Emissary: A Life of Enzo Sereni*, p. 45.
6. Daniel Carpi, 'Weizmann's Political Activities in Italy from 1923 to 1934', *Zionism* (Tel Aviv, 1975), p. 225.
7. Chaim Weizmann, 'Relief and Reconstruction', *American Addresses* (1923), p. 49.
8. Michael Ledeen, 'Italian Jews and Fascism', *Judaism* (Summer 1969), p. 286.
9. Guido Bedarida, 'The Jews under Mussolini', *Reflex* (October 1927), p. 58.
10. Paul Goodman, 'Judaism under the Fascist Regime', *Views* (April 1932), p. 46.
11. Carpi, 'Weizmann's Political Activities in Italy', p. 238.
12. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, p. 628.
13. Ibid., p. 637.
14. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 49.
15. Ibid., p. 29.
16. Weizmann, *Trial and Error*, p. 368.

٥ ـ الصهيونية الألمانية تعرض التعاون مع النازية

أبدى فيرنَر سينَاتُور، وهو صهيوني ألماني قيادي، ذات مرة، ملاحظةً عن الصهيونية بأنها مع كل ما لها من قومية يهودية عالمية، فإنها على الدوام تتمثل سياسياً مع البلدان التي تعمل فيها. ولا يوجد برهان أفضل على هذه الملاحظة من التكيّف السياسي للإتحاد الصهيوني في ألمانيا مع نظريات وسياسات النظام النازي الجديد. ولقد سعى الاتحاد الصهيوني في ألمانيا للحصول على حماية أدولف هتلر، لا مرة واحدة، وإنما بشكل متكرر بعد عام ١٩٣٣، لاعتقادهم أن التشابهات الأيديولوجية بين الحركتين ـ رفضهما الليبرالية، وعنصريتهما الشعبوية المشتركة، وبالطبع قناعتهما المتبادلة بأن ألمانيا لن تكون أبداً وطناً ليهودها ـ يمكن أن تحفز النازيين لتأييدهم.

وأصبح هدف الإتحاد الصهيوني في ألمانيا هو «التراجع المنظم»، أي تأييد النازيين لهجرة جيل اليهود الأصغر سناً على الأقل إلى فلسطين، وسعوا مباشرة للاتصال مع عناصر في الجهاز النازي ظنوا أنهم قد يكونون مهتمين بمثل هذه الترتيبات على أساس من التقدير الشعبوي للصهيونية. وألح كُورتْ توخْلر، وهو عضو اللجنة التنفيذية للإتحاد الصهيوني في ألمانيا، على البارون لِيوبُولد إتْزإدْلِرْ فون مِيلْدِنْشْتَيْنْ من «قوات العاصفة» (إس إس) أن يكتب مقالة مؤيدة للصهيونية في الصحافة النازية. ووافق البارون بشرط أن يزور فلسطين أولاً، وبعد شهرين من وصول هتلر إلى السلطة سافر الرجلان وزوجتاهما إلى فلسطين، وبقي فون ميلدنشتين هناك ستة أشهر قبل أن يعود ويكتب مقالاته[1].

وحدث الاتصال مع شخصية مركزية في الحكومة الجديدة في مارس/آذار ١٩٣٣ عندما استدعى هِرمان جُورِنْج قادة المنظمات اليهودية الكبرى للاجتماع به. ففي بداية مارس/آذار كان جوليوس شْتْرايْشِر، وهو رئيس تحرير مجلة «دير شْتُورْمر» قد أعلن أنه في أول أبريل/نيسان ستتم مقاطعة جميع المحلات والمهنيين اليهود. ومع ذلك فقد اصطدمت هذه الحملة بعقبة مباشرة. فإن مؤيدي هتلر الرأسماليين قلقوا للغاية من إعلان الحاخام وايز عن تدبير مظاهرة مضادة تسير في نيويورك يوم ٢٧ مارس/آذار إذا ما استمر النازيون في مقاطعتهم. كان اليهود يحتلون موقعاً بارزاً في تجارة التجزئة في أمريكا وأوربا، وإذ خشي سادة هتلر الأغنياء من الثأر من شركائهم هم فقد ألحوا عليه أن يوقف هذا العمل. ولكن النازيين لم يكن في إمكانهم ذلك دون أن يفقدوا ماء وجوههم وقرروا استعمال اليهود الألمان في مواجهة وايز، وهكذا دعا هيرمان جورنج الزعماء اليهود.

لم يثمر نفوذ الصهيونية الألمانية في جمهورية فَيمار أي مشاركة لزعمائها، ولكن ولأنهم قدموا أنفسهم باعتبارهم الطرف المفاوض الطبيعي الوحيد مع النازي فقد حصلوا على دعوة متأخرة. ولقد روى مارتن رُوزِنْبلوت، وهو صهيوني قيادي، عن هذه الواقعة في سيرته الذاتية التي كتبها بعد الحرب بعنوان **تقدم واخدم**. أربعة من اليهود قابلوا جورينج: جوليوس بْرودِنتْز من المنظمة المركزية، وهنريش ستاهل من الجالية اليهودية في برلين، وماكس ناوْمان، وهو متعصب مؤيد للنازية من **الاتحاد القومي اليهودي**، وبْلومْنفِلد عن الصهاينة. وشن جورنيج هجومه في ثلاثة إتجاهات: إن الصحافة الأجنبية تكذب بشأن الفظاعات ضد اليهود، وما لم تتوقف هذه الأكاذيب فإنه لن يتمكن من ضمان أمان اليهود الألمان. والأكثر أهمية أن مظاهرة نيويورك لا بد أن تتوقف: «إن الدكتور وايز هو واحد من أكثر أعدائنا خطورة وتجردا من الضمير(٢)، ولا بد أن يذهب وفد إلى لندن للاتصال بيهود العالم».

تنحى التمثليون زاعمين أنهم كألمان ليس لهم تأثير على اليهود الأجانب. لم يكن هذا صحيحاً، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن يساعدوا في تحطيم أنفسهم. وحده بلومنفلد هو الذي تطوع ولكنه أصر على أن يسمح له بالكلام بصدق عن معاملة النازي لليهود. لم يكن جورينج يهمه ما يقال لكي توقف المظاهرة. وربما كان وصف الوضع السيىء يجعل اليهود الأجانب يتوقفون خوفاً من إستثارة ما هو أسوأ. ولم يكن يهمه من سيذهب أو أي الحجج سيستخدم، طالما أن المندوبين وافقوا على أن «يقدموا تقاريرهم بشكل منتظم إلى

السفارة الألمانية»[٣].

وفي النهاية أرسل الاتحاد الصهيوني في ألمانيا مارتين روزنْبلوت وريتشارد لِيشْتْهايْم ولخشيتهم من أن تقع مسئولية هذه المهمة الغريبة عليهم وحدهم فانهم ألحوا على المنظمة المركزية واقنعوها بأن تسمح لهم بإصطحاب الدكتور لودْفيج تِيتْز. وبالرغم من أن الرجل لم يكن شخصياً صهيونياً، فإن رجل الأعمال الغني هذا، كان «صديقاً جيداً لنا»، وقد وصل الثلاثة إلى لندن يوم ٢٧ مارس/آذار وقابلوا من فورهم أربعين زعيماً يهودياً في إجتماع رأسه ناحوم سوكولوف الذي كان عندئذ رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية. وقابلوا فيما بعد مجموعة من الرسميين البريطانيين. كان أعضاء الوفد يرون أمامهم مهمتين: إستعمال صعوبة الوضع لتأكيد أن فلسطين هي «المكان المنطقي كملجأ»، ووقف كل الجهود المضادة للنازية في الخارج. واتصلوا بوايْز في نيويورك ووصف روزنبلوت هذه الواقعة في مذكراته كما يلي:

كنا نذكر إتهامات جورينج . . . حين نقلنا الرسالة . . . وكان نقل الجزء السري الباقي من رسالتنا له أكثر صعوبة إلى حد ما حيث كان علينا أن نتحدث بعبارات مبهمة حتى نموّه على أي متصنتين محتملين. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أننا قد أوضحنا طلبنا المخفي وأن الدكتور وايز فهم أننا نطلب منه أن يقف بحزم وألا يلغي الاجتماع تحت أي ظرف كان[٥].

لا يوجد أي دليل على أن هناك أي جهد قد بذل للإشارة على وايز بهذا المعنى. وخلال البحث الذي قام به الباحث الاسرائيلي شاؤول إش، أصبح معروفاً الآن أن المبعوثين حاولوا وقف المظاهرات في نيويورك وفلسطين. وطبقاً لإش فانهم قد أرسلوا فيما بعد ذلك المساء برقيات:

ليس بأسمائهم، بل باسم اللجنة التنفيذية الصهيونية في لندن. وطلبت البرقيات من مستلميها أن يرسلوا فوراً إلى مستشارية الرايخ الثالث بيانات تفيد بأنهم لن يوافقوا على أي مقاطعة منظّمة ضد الألمان. . ولقد علمت اللجنة التنفيذية الصهيونية في لندن بهذه البرقيات بعد عدة ساعات وأرسلت برقية إلى القدس لتأخير إرسال إعلان رسمي إلى هتلر[٦].

وفيما بعد ذكر ستيفن وايز في سيرته الذاتية، **سنوات التحدي**، أنه تسلم برقيتهم

ولكنه لم يسجل أي رسالة سرية من الوفد(٧). ومن المعقول الافتراض أنه كان سيسجلها لو أنه اعتقد أن مثل هذه المحاولة قد بذلت. وفي الواقع فقد انفجر وايز غضباً على الاتحاد الصهيوني عدة مرات في السنوات التالية لمعارضته المستمرة لكل محاولة من اليهود الأجانب للنضال ضد نظام هتلر.

كان ما تمّ في لندن نموذجاً لكل مسلك الإتحاد الصهيوني لألمانيا فيما بعد. وفي عام ١٩٣٧ كتب الحاخام يُواخيم بْرِنْتْسْ بعد مغادرته برلين إلى أمريكا عن تجاربه في ألمانيا وألمح إلى مذكرة، أصبحت اليوم معروفة، أرسلت إلى الحزب النازي من الاتحاد الصهيوني لألمانيا في ٢١ يونيو/حزيران ١٩٣٣. وتصف مقالة برنتس بشكل صريح المزاج الصهيوني في الأشهر الأولى من عام ١٩٣٣:

> كان كل واحد في ألمانيا يعرف أن الصهاينة فقط هم الذين يمكن أن يمثلوا بشكل مسئول اليهود في الإتفاقات مع الحكومة النازية. ولقد شعرنا جميعاً بأنه من المؤكد أن الحكومة سترتب يوماً مؤتمر مائدة مستديرة مع اليهود ـ بعد أن تكون حوادث الشغب وفظائع الثورة قد مرت ـ حيث تتم دراسة وضعية اليهود الألمان الجديدة. لقد أعلنت الحكومة بشكل رزين جداً أنه لا يوجد بلد في العالم حاول حل المشكلة اليهودية بالجدية التي تفعلها المانيا. حل المسألة اليهودية؟ كان ذلك حلمنا الصهيوني. لم ننكر أبداً وجود المسألة اليهودية. تباين؟ كان ذلك هو اشتهاءنا. . . وفي بيان مشهور بكبريائه وكرامته دعونا إلى عقد مؤتمر(٨).

بقيت الوثيقة مدفونة حتى عام ١٩٦٢ حين تم طبعها أخيراً باللغة الألمانية في اسرائيل. كانت كلمتي الكبرياء والكرامة عرضة للتفسير، ولكن من المأمون القول إنه لم تكن هناك كلمة يمكن أن تكون قابلة للتأويل بهذه الدرجة اليوم. إن هذه المذكرة غير العادية تحتاج إلى اقتباس كبير. لقد طلب من النازيين بكل أدب جم:

> لذا هل يمكن أن يُسمح لنا بتقديم آرائنا التي تجعل من الممكن في نظرنا، الوصول إلى حل بالحفاظ على مبادىء الدولة الألمانية الجديدة في اليقظة القومية، والتي يمكن في الوقت نفسه أن تشكل لليهود تنظيماً جديداً لظروف وجودهم. . . ليس لدى الصهيونية أية أوهام حول صعوبة الظروف اليهودية والتي تتكون قبل كل شيء في نمط خط مهني غير طبيعي وفي خطأ موقف فكري

وأخلاقي ليس له جذور في تقاليد المرء الخاصة . . .

. . . لا يمكن الوصول إلى إجابة على المسألة اليهودية مرضية بحق للدولة القومية إلا بالتعاون مع الحركة اليهودية التي تهدف إلى تجديد اليهود إجتماعياً وثقافياً ومعنوياً . . . إن إعادة مولد الحياة القومية، كما يحدث في الحياة الألمانية من خلال تلاحم قيم المسيحية والقومية، يجب أن يحدث أيضاً في المجموعة القومية اليهودية، لأنه بالنسبة لليهودي أيضاً يجب أن يكون الأصل والعقيدة ووحدة المصير والوعي بالجماعة دلالات حاسمة في تشكيل حياته . . .

وعلى أساس الدولة الجديدة التي أقامت مبدأ العرق نرغب أيضاً في أن نوائم مجتمعنا في البنية الكليّة بحيث يكون لنا أيضاً في الدائرة المخصصة لنا نشاط مثمر في أرض الآباء . . . إن إقرارنا بالقومية اليهودية يوفر علاقة واضحة ومخلصة بالشعب الألماني وبحقائقه الواقعية القومية والعرقية. لأننا على وجه الدقة لا نرغب في أن نزيِّف هذه الحقائق، ولأننا أيضا ضد الزواج المختلط ونعمل من أجل تحقيق نقاوة المجموعة اليهودية . . .

. . . . إن وفاء اليهود لنوعهم الخاص ولثقافتهم الخاصة يعطي قوة داخلية تمنع أي مساس باحترام المشاعر القومية والقيم التي لا تقدَّر في القومية الألمانية. كما أن تعميق الجذور في روحانية المرء الخاصة تحمي اليهودي من أن يصبح ذلك الناقد الذي لا جذور له للأسس القومية للروح الألمانية. إن التفوق القومي الذي ترغب فيه الدولة سيتحقق عندئذ بسهولة نتيجة تطور عضوي . .

وهكذا فإن اليهود ذوي الوعي الذاتي الذين نصفهم هنا ونتحدث باسمهم يمكن أن يجدوا مكاناً في بنية الدولة الألمانية لأنهم لن يكونوا ممتعِضين داخلياً، وسيكونون خالين من أي شعور بالضيق لا بد أن يشعر به اليهود المتمثّلون عندما يقررون أنهم ينتمون إلى اليهودية، إلى العرق والماضي اليهوديين. نحن نؤمن بإمكانية قيام علاقة ولاء أمينة بين اليهود الواعين بجماعتهم وبين الدولة الألمانية . . .

إن الصهيونية تأمل، في سبيل أهدافها العملية، في أن تكون قادرة على كسب التعاون حتى مع حكومة معادية في الأساس لليهود، لأنه عند التعامل مع

المسألة اليهودية فإن العواطف لا تتدخل وإنما المشكلة الواقعية التي يهم كل الشعوب حلها، وفي اللحظة الراهنة، فإنها تهم الشعب الألماني خاصة.

إن رفض اليهود في الخارج للتطور الألماني لن يفعل سوى الإضرار بتحقيق الصهيونية. إن الدعاية للمقاطعة ـ مثلما يحدث حالياً ضد ألمانيا بطرق عديدة ـ هي في الجوهر غير صهيونية لأن، الصهيونية لا تريد أن تقيم عراكاً بل أن تقنع وأن تبني... إن ملاحظاتنا التي نقدمها هنا تقوم على القناعة أنه عند حل المشكلة اليهودية على ضوئها، فإن الحكومة الألمانية سيكون لديها فهم كامل لموقف يهودي صريح وواضح ينسجم مع مصالح الدولة(١٩).

هذه الوثيقة التي تعد خيانة لليهود في ألمانيا كتبت بالعبارات الصهيونية المعتادة: نمط مهني غير طبيعي، مفكرون لا جذور لهم في حاجة كبيرة للتجدد الأخلاقي، الخ. وفيها عرض الصهاينة الألمان تعاوناً محسوباً بين الصهيونية والنازية يكرسه هدف الدولة اليهودية: لن نشن معركة ضدكم، فقط ضد أولئك الذين قد يقاومونكم.

وإذ سيطرت عليهم مهمتهم الغريبة، فإن قادة الاتحاد الصهيوني في ألمانيا فقدوا كل شعور بالمنظور اليهودي الأممي، بل حاولوا أن يجعلوا المنظمة الصهيونية العالمية توقف مؤتمرها العالمي المقرر انعقاده في أغسطس / آب ١٩٣٣. وأرسلوا، لقيادتهم العالمية رسالة بأنه سيكون «عليها أن تعبر عن احتجاجات حادة»، وأن حياتهم يمكن أن تكون على المحك في الوقت الذي «مكننا وجودنا القانوني من تنظيم الآلاف وتحويل كميات كبيرة من المال إلى فلسطين»(١٠). ولقد تم عقد المؤتمر كما سنرى ولكن لم يكن هناك ما يخشاه الاتحاد الصهيوني لألمانيا، لأن النازيين اختاروا استعمال المناسبة لكي يعلنوا أنهم قد عقدوا صفقة مع الصهيونية العالمية.

«ملتمسة مثاليتها القومية الخاصة في الروح النازية».

لا يعرف الجمهور اليهودي شيئاً عن رحلة فون ميلدنشتين إلى فلسطين بصحبة عضو من اللجنة التنفيذية الصهيونية، ولا عن رحلة روزنبلوت وليشتهايم إلى لندن، ولا هو يعرف شيئاً عن المذكرة ولا عن طلب وقف عقد المؤتمر الصهيوني. ومع ذلك فلا يمكن أن يكون قد فاته ـ أي الجمهور اليهودي ـ ما كان يظهر في مجلة **روندشاو** حيث التمثليين اليهود الألمان يهاجمون باستمرار. لقد شكت المنظمة المركزية بمرارة من نفخ أبواق النصر

الصهيونية عندما اندفعت مجلة روندشاو لتدين اليهود المذنبين[١١]. . وانتهز روبرت فلتش محرر المجلة فرصة مقاطعة الأول من إبريل / نيسان ليهاجم بعنف يهود ألمانيا في مقال افتتاحي تحت عنوان: «ارتدي الشارة الصفراء بفخر»(*).

> في أوقات الأزمات عبر التاريخ واجه الشعب اليهودي مسألة ذنوبه هو. وتقول أهم صلاة من صلواتنا، «لقد طردنا من بلادنا بسبب خطايانا». . . . واليهود يتحملون ذنباً عظيماً لأنهم فشلوا في تلبية نداء تيودور هرتزل. . ولأن اليهود لم يكشفوا عن يهوديتهم بفخر، ولأنهم يريدون الإفلات من المسألة اليهودية لا بد أن يتحملوا نصيبهم من اللوم على تدهور اليهود وانحطاطهم[١٢].

حتى عندما كان النازيون مشغولين بإلقاء اليسار في معسكرات الاعتقال هاجم فلتش الصحفيين اليهود اليساريين:

> إذا كانت الصحف الإشتراكية الوطنية والألمانية الوطنية تشير اليوم مراراً إلى ذلك النوع من الخرابيش اليهودية وما يسمى بالصحافة اليهودية. . لا بد من تبينّ. . . أن اليهود الجيدين كانوا على الدوام ساخطين على الاستهزاء والكاريكاتير اللذين يوجههما يهود مهرجون ضد اليهود بنفس الدرجة أو ربما بدرجة أكبر مما يوجهونه للألمان والآخرين[١٣].

وبالرغم من أن الصحافة اليسارية كانت محط الهجوم منذ يوم وصول النازيين إلى السلطة فإن الصحافة اليهودية كانت لا تزال قانونية. ومن الطبيعي أنها كانت مراقبة، فإنْ نشرت جريدة شيئاً غير مناسب كان يتم إغلاقها مؤقتاً على الأقل. ومع ذلك فإن النازيين لم يرغموا الصهاينة على إدانة إخوانهم اليهود.

بعد المحرقة كان فلتش نادماً جداً على هذه الافتتاحية قائلاً إنه كان لزاماً عليه أن يبلغ إخوانه اليهود بضرورة الإفلات بحياتهم، ولكنه لم يزعم أبداً أن النازيين جعلوه يكتب هذه المقالة. لم يكن فلتش فاشياً ولكنه كان حليفاً صهيونياً متعصباً لدرجة منعته من أن يكوّن أفكاره عن العالم بأفق واسع. كان مقتنعاً تماماً، شأنه في ذلك شأن معظم قادة الاتحاد الصهيوني في ألمانيا، بأن «الليبرالية الأنانية» والديمقراطية البرلمانية قد ماتتا، على الأقل في ألمانيا. دولياً، كانوا لا يزالون مع وجود البريطانيين في فلسطين، ولكن

* الشارة الصفراء التي كانت تميز المواطنين اليهود.

مراسل مجلة **روندشاو** في ايطاليا، كُورْتْ كُورنينكر، كان موالياً للفاشية بشكل علني تماماً(١٤). وأصبح قادة الاتحاد الصهيوني لألمانيا مقتنعين بأن الفاشية هي موجة المستقبل، وفي وسط أوربا بالتأكيد، وأنه في داخل ذلك الإطار كانوا يقارنون بين فاشية موسوليني الطيبة وتجاوزات الهتلرية التي ظنوا انها ستتضاءل بمساعدتهم بمرور الزمن.

كانت العنصرية هي المنتصرة الآن، وسار الاتحاد الصهيوني لألمانيا مع الرابح. وبدأ الحديث عن الدم يترسخ مع البيان الذي أصدره بلومينفيلد في أبريل / نيسان عام ١٩٣٣ بأن اليهود كانوا في الماضي يقبعون وراء قناع تمايزهم المثّبت بالدم عن الألمان الحقيقيين. ولكن ذلك بلغ معدلات فاجْنرية(*) في عدد ٤ أغسطس/آب من مجلة **روندشاو** في مقالة طويلة بعنوان «العِرق كعامل ثقافي» التي دارت حول المترتبات الفكرية لانتصار النازيين بالنسبة لليهود. وقالت المقالة بأن اليهود لا يتوجب عليهم فحسب مجرد القبول بصمت بما يمليه عليهم سادتهم الجدد، ولكن عليهم أيضاً أن يوقنوا أن التمايز العرقي هو أمر طيب كلية:

> نحن الذين نعيش هنا «كعِرق أجنبي» علينا أن نحترم الوعي العرقي والمصلحة العرقية للشعب الألماني بشكل مطلق. ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد أن يتعايش سلمياً شعبٌ له أصول عرقية مختلفة. وكلما قلت إمكانية أي اختلاط غير مرغوب فيه، فستقل بشكل أكثر الحاجة إلى «الحماية العرقية»... هناك تمايزات لها في التحليل النهائي جذورها في الأسلاف. وحدها الصحف العقلانية التي فقدت الشعور بالأسباب الأعمق وبأعماق الروح، وبأصول الوعي الطائفي، هي التي يمكنها أن تنحّي جانباً الأسلاف ببساطة في مجرى «التاريخ الطبيعي».

واستمرت الصحيفة تقول إنه كان من الصعب في الماضي جعل اليهود يقيّمون العنصرية تقييماً موضوعياً. ولكن الوقت قد حان، بل قد مرّ، من أجل قدر ما من التقييم الهادىء: (إن العرق هو بلا شك زخم هام جداً، نعم، زخم حاسم. فمن «الدم والتراب» بالفعل يتقرر وجود شعب وإنجازاته. وإنه يجب على اليهود أن يعوضوا «الأجيال الأخيرة حيث تم إغفال الوعي العرقي اليهودي إلى حد كبير» وحذرت المقالة

---

* نسبة إلى فاجنر الموسيقي المشهور.

من العرقية التافهة وكذلك من «المنظمة المركزيـة» التي كانت قـد بدأت في التخـلي عن أيديولوجيتها التمثّلية التقليدية في خضم الكارثة ولكن دون أن تتغير بشكل أساسي).

لم يكن تحدي الصدق العرقي لمنافسيهم كافياً، ولكي تثبت مجلة **روندشاو** أن «حركة النهضة اليهودية» كانت على الدوام عرقية فقد أعادت طبع مقالتين سبق نشرهما قبل عام ١٩١٤، تحت عنوان «أصوات الدم». الأولى بعنوان «**غناء الدم**» بقلم شتيفان تسفايج، والثانية بعنـوان «**أنشودة الـدماء**»، بقلم هُـوجُو سـالُوسْي وهمـا تتحدثـان عن كيفية أن اليهودي الحديث. . . يعترف بيهوديته. . من خلال تجربة داخلية تعلّمه اللغة الخاصة بدمه بأسلوب صوفي.

ولكن بالرغم من أن مقلّدي النازيين هؤلاء كـانوا عنصـريين مصممـين، فإنهم لم يكونوا متعصبين قومياً (شوفينيين) ولم يعتقدوا أنهم كانوا متفوقين عرقياً على العرب. بل كان الصهاينة ينوون إنهاض أبناء عمومتهم الساميين الـذين أدركهم التجهيل. كـانت شعبـويتهم مجرد إجـابة ملتـوية عـلى «مشكلة شخصيتهم» هم، كما عبـروا عنها: لقـد سمحت لهم بأن يهيئوا أنفسهم للتوائم مع وجود معاداة السامية في ألمانيا بدون محاربتها. ولقد أسرعوا لطمأنة قرّائهم بأن كثيراً من الأمم والدول الحديثة مختلطة عرقياً ومع ذلك يمكن للعروق أن تعيش في انسجام. وتم تحذير اليهود: الآن وهم يصبحون عرقيين يجب عليهم ألا يصيروا متعصبين قومياً: «فالإنسانية فوق العرق»[١٥].

وبالرغم من أن العرقية قد نفذت في أدبيات الاتحاد الصهيوني لألمانيا فإن المـراقبين اليهود الأجانب كانوا يرون دائماً في يواخيم برنتس داعيتها المسموعة. ومع أن برنتس كان من الذين صوتوا للإشتراكيين الديمقراطيين قبل عام ١٩٣٣ فإنه قد أصبح شعبوياً بشكل مسعور في السنوات الأولى من الرايخ الثالث. وكان من الممكن إدخال بعض من العداوة العنيفة تجاه اليهود الواردة في كتابه «**نحن اليهود**» مباشرة في الدعـاية النـازية الخـاصة. فبالنسبة لبرنتس كان اليهودي مصنوعاً من «تواجد في غير موضعه وشذوذ واستعراضيـة ودونيّة وعجرفة وخداع للذات وحب معقد للحقيقة وكراهية ووطنية وعالميـة ممرضـة لا جذور لها. . ترسانة من المرض النفسي بوفرة نادرة»[١٦].

كان برنتس يحتقر بعمق الاتجاهات العقلانية والليبرالية التي كانت الأساس المشترك لكل التفكير التقـدمي منذ الثـورة الأمريكيـة. فبالنسبـة له فـإن الضرر الـذي أحدثتـه الليبرالية لم يكن يعوّضه سوى حقيقة أنها كانت تموت:

إن البرلمان والديمقراطية في تلاشٍ مستمر. إن التأكيد الضار المبالغ فيه على قيمة الفرد يجري الإقرار بأنه خطأ. ومفهوم حقيقة الأمة و «الشعب» هو الذي يكسب، وهو ما يسرنا، مواقع أكثر فأكثر[17].

كان برنتس يعتقد أن التوفيق بين النازيين واليهود ممكن وإن يكن فقط على أساس الاتفاق الصهيوني ـ النازي: «إن دولة مبنية على مبدأ نقاوة الأمة والعرق لا يمكن إلا أن تحترم أولئك اليهود الذين ينظرون لأنفسهم بنفس الطريقة»[18].

أيقن برنتس بعد أن جاء إلى الولايات المتحدة أن لا شيء مما كان يقوله في ألمانيا يبدو معقولاً في السياق الديمقراطي وتخلى عن أفكاره الشاذة، وهذا دليل آخر على أن الصهاينة الألمان كانوا ببساطة قد تواءموا أيديولوجياً مع النازية[19]. ولكن ربما كان أفضل توضيح على تحول الصهاينة إلى نازيين هو البيان المثير الذي أصدره أحد محرري مجلة **روندشاو** وهو أرنولد تْسفايْج والذي ورد في كتابه «**مُهان ومنفي**» والذي كتب بالطبع خارج ألمانيا ونشر في عام ١٩٣٧:

من بين كل الصحف التي نشرت في ألمانيا، كانت الأكثر استقلالية والأكثر شجاعة، والأبدع هي مجلة **روندشاو** اليهودية، وهي المجلة الرسمية للاتحاد الصهيوني في ألمانيا. وبالرغم من أنها أفرطت أحياناً في موافقتها على الدولة القومية ملتمسةً مثاليتها القومية الخاصة في الروح النازية، فقد خرج منها تيار من الطاقة والاتزان والدفء الذي كان يهود ألمانيا ويهود العالم في أمس الحاجة إليه[20].

السيطرة المنفردة على الحياة اليهودية الألمانية

حتى قوانين نورمبورج الصادرة في ١٥ سبتمبر / أيلول ١٩٣٥ لم تهز القناعة الصهيونية الألمانية الأساسية في إمكان التوصل في نهاية الأمر إلى صيغة معايشة مع النازيين. وخلص «مركز هي شالوتس» (الرائد) المسؤول عن تدريب الشبيبة في حركة الكيبوتز إلى أن إعلان القوانين التي تجعل الزواج المختلط جريمة هو فرصة مناسبة لاقتراب جديد من النظام. وخرج الرواد بخطة للهجرة لكل الجالية اليهودية خلال فترة ١٥ ـ ٢٥ سنة. وفسر أبراهام مَرجَلْيوت وهو باحث في «معهد يادفاشيم الإسرائيلي عن المحرقة»، فسّر تفكير المركز في تلك السنة:

إن قادة مركز هي شالوتس افترضوا أن هذا الهدف الأساسي سيثبت أنه مغرٍ للألمان بحيث أنهم سيوافقون على تقديم العون على مزيد من الهجرة إلى الخارج بالتخفيف من قيود القوانين التي تحكم نقل النقد الأجنبي إلى الخارج، وبتقديم فرص للتدريب المهني، و «بوسائل سياسية»[٢١].

ونشرت صحيفة **روندشاو** مقتطفات من خطاب أعلن فيه هتلر أن حكومته ما تزال تأمل في العثور على أساس لموقف أفضل تجاه اليهود[٢٢]. ونشرت الصحيفة بياناً من آ. إي. براندْت، وهو رئيس رابطة الصحافة النازية الذي أبلغ العالم الذي كان مندهشاً لدرجة ما بلا شك، أن القوانين هي:

عقيدة وبناءة لليهودية كذلك. فبإعطاء الأقلية اليهودية فرصة قيادة حياتها الخاصة، وضمان التأييد الحكومي لهذا الوجود المستقل فإن ألمانيا تساعد اليهودية على تقوية طابعها القومي وتسهم في اتجاه تحسين العلاقات بين الشعبين[٢٣].

أصبح هدف الاتحاد الصهيوني في ألمانيا هو الحكم الذاتي القومي. كانوا يريدون من هتلر إعطاء اليهود حق وجود اقتصادي ما، والحماية من الهجمات على شرفهم والتدريب لإعدادهم للهجرة. وأصبح الاتحاد الصهيوني في ألمانيا مستغرقاً في محاولة تعبئة المؤسسات اليهودية المنفصلة لتطوير روح قومية يهودية. وكلما شدد النازيون القيود على اليهود كلما زاد اقتناعهم بأن صفقة ما مع النازيين هي ممكنة، فهم حسبوا أنه كلما استبعد النازيون اليهود من كل جوانب الحياة الألمانية كلما أصبحوا في حاجة للصهيونية لتساعدهم على التخلص من اليهود. وفي ١٥ يناير/كانون الثاني ١٩٣٦ نشرت مجلة **بالستاين بوست** تقريرها المذهل بأن: «طلباً صريحاً بأن يعطَى الاتحاد الصهيوني لألمانيا اعترافاً من الحكومة بأنه هو الأداة الوحيدة للسيطرة المنفردة على الحياة اليهودية الألمانية، قد قدمته اللجنة التنفيذية لهذا الاتحاد في بيانها اليوم»[٢٤].

لم تتلاشَ آمال الصهاينة الألمان في الاتفاق إلا في وجه الإذلال والإرهاب المتزايدين. وحتى عندئذ، لا توجد أية إشارة على أي محاولات للنشاط ضد النازي من جانب زعماء الاتحاد الصهيوني لألمانيا. وخلال كل الفترة السابقة للحرب لم يكن، هناك سوى اشتراك طفيف في النشاط السري المعادي للنازي. وبالرغم من أن حركتي «هي شالوتس»

و«هاشومير» (الحارس الصغير) كانتـا تتحدثـان عن الإشتراكيـة فإن النـازيين لم يكـونوا مهتمين. وأقر يِشيْل جْريْنبرج من حركة «الحارس» في عام ١٩٣٨ بأن «اشتراكيتنا كانت تعتبر مجرد فلسفة للتصدير»(٢٥). ولكن الحزب الشيوعي الألماني السري كان قد أرسل، منذ بداية الدكتاتورية تقريباً، سعياً وراء مجندين جدد، بعضاً من كوادره من اليهود إلى الحركات الشابة. وطبقاً لما يقوله أرنولد بَوْكَر - وهو الآن رئيس تحريـر «كتاب لِيُـوبِيْك السنوي» بلندن - فإن بعض الصهاينة الشباب أصبحوا متورطين مع المقاومة على الأقل إلى حد إلصاق ملصقات غير قانونية في السنوات الأولى للنظام(٢٦). ومن المستحيل تقدير أي حجم من هذا العمل كان بتأثير المتسللين الشيوعيين وأي حجم كان عفـوياً. ومـع ذلك فإن البيروقراطية الصهيونية قد هاجمت بشدة الحزب الشيوعي الألماني(٢٧). وكما في إيطاليا، كذلك في ألمانيا: سعت القيادة الصهيونية للحصول على تأييد النظام للصهيونية وقاومت الشيوعية، ولا يمكن التفكير في أن ذلك كان في أي من البلدين جزءاً من المقاومة المضادة للفاشية.

إن العلاقة المتداخلة بين الاتحاد الصهيوني لألمانيا وبين المنظمـة الصهيونيـة العالميـة ستوصف فيما بعد. ويكفي القول الآن بأن قادة المنظمة الصهيونية العـالمية وافقـوا على الخط العام لفرعهم الألماني. ومع ذلك فقد كان هناك في صفوف الحركة العالمية كثيرون ممن رفضوا البقاء صامتين بينما لم يكن فرعهم الألماني يقبل فحسب مواطنيّةً من الـدرجة الثانية باعتبار أن اليهود ليس من حقهم توقع أكثر من ذلك، ولكن، بل والأسـوأ، أنه كان يشجب اليهود في الخارج لمقاطعتهم ألمانيا. وقد تكلم بوريس شْمولار، وهو رئيس المراسلين الأوربيين لوكالة البرقيات اليهوديـة «**جويش تلغـرافيك أجنسي**»، وهـو جهاز الخدمة السلكية الصهيوني، تحدث عن كل ذلك عندما كتب غاضباً في عام ١٩٣٥:

> إن المرء يمكن أن يفهم أن جريدة يهودية تظهر في ألمانيـا قد لا تكـون في وضع تؤيد فيه تأييداً تاماً مطالب يهود العالم فيما يتعلق بـالاستعادة الكـاملة للحقوق اليهودية. ومع ذلك فإن هذا لا يبرر أن تخرج علينا أي صحيفة رسمية وتوافق عملياً على القيود المعادية لليهود المـوجودة في ألمـانيا. وهـذا هو مـا فعلته مجلة **روندشاو اليهودية** بالفعل(٢٨).

قبل النازي لم تكن الصهيونية الألمانية أكثر من نحلة سياسية برجوازية معزولة. بينما كان اليساريون يحاولـون محاربـة ذوي «القمصان البنيـة» في الشوارع، كـان الصهاينـة

مشغولين بجمع المال من أجل «الأشجار في فلسطين». فجأة في عام ١٩٣٣، اعتبرت هذه المجموعة الصغيرة نفسها بأنها مؤهلة تاريخياً للتفاوض سراً مع النازيين لمعارضة الكتلة الضخمة من يهود العالم الذين أرادوا مقاومة هتلر، كل ذلك على أمل الحصول على تأييد عدو شعبهم من أجل بناء دولتهم في فلسطين. لقد رأى سمولار ونقادهم الصهاينة الآخرون أن الاتحاد الصهيوني في ألمانيا مجرد جبناء. ولكنهم كانوا مخطئين تماماً. فليس بوسع أي نظرية استسلام أن تشرح شيئاً من تطور العنصرية الصهيونية قبل هتلر، ولن تصل إلى حد تفسير تشجيع المنظمة الصهيونية العالمية لموقفهم. إن الحقيقة أكثر إيلاماً من الجبن. إن الحقيقة الواضحة هي أن الصهاينة الألمان لم يكونوا يرون أنفسهم كمستسلمين، ولكن على العكس كشركاء محتملين في اتفاق أقرب ما يكون إلى الاتفاقات بين الدول. كانوا واهمين تماماً. لم ينتصر يهود على يهود آخرين في ألمانيا النازية. ولم تكن هناك أبداً إمكانية قيام صيغة تعايش بين هتلر وبين اليهود ولو من بعيد. فما أن انتصر هتلر داخل ألمانيا حتى أصبح وضع اليهود ميؤوساً، ولم يبق أمامهم سوى الذهاب إلى المنفى والاستمرار في القتال من هناك. كثيرون فعلوا ذلك ولكن الصهاينة استمروا يحلمون في أن يكسبوا حماية أدولف هتلر لهم. لم يحاربوا هتلر قبل مجيئه للسلطة عندما كانت لا تزال هناك فرصة لهزيمته. ليس بسبب أي درجة من الجبن ولكن نتيجة اقتناعهم العميق الذي ورثوه عن هرتزل بأن معاداة السامية لا يمكن محاربتها. ونظراً لفشلهم في المقاومة أيام جمهورية فيمار، ونظراً لنظرياتهم العرقية، كان من المحتم أن ينتهي بهم الأمر كأذناب أيديولوجيين للنازية.

هوامش الفصل الخامس

1. Jacob Boas, 'A Nazi Travels to Palestine', *History Today* (London, January 1980), p. 33.
2. Martin Rosenbluth, *Go Forth and Serve*, p. 253.
3. Ibid., p. 254.
4. Ibid., p. 255.
5. Ibid., p. 258.
6. Yisrael Gutman (in debate), *Jewish Resistance during the Holocaust*, p. 116.
7. Stephen Wise, *Challenging Years*, p. 248.
8. Joachim Prinz, 'Zionism under the Nazi Government', *Young Zionist* (London, November 1937), p. 18.
9. Lucy Dawidowicz (ed.), *A Holocaust Reader*, pp. 150-5.
10. Ruth Bondy, *The Emissary: A Life of Enzo Sereni*, pp. 118-19.
11. Jacob Boas, 'The Jews of Germany: Self-Perception in the Nazi Era as Reflected in the German Jewish Press 1933-1938', PhD thesis, University of California, Riverside (1977), p. 135.
12. Dawidowicz, *A Holocaust Reader*, p. 148.
13. Ibid., p. 149.
14. Meir Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 122.
15. 'Rasse als Kulturfaktor', *Judische Rundschau* (4 August 1933), p. 392.
16. Koppel Pinson, 'The Jewish Spirit in Nazi Germany', *Menorah Journal* (Autumn 1936), p. 235.
17. Uri Davis, *Israel: Utopia Incorporated*, p. 18.
18. Benyamin Matuvo, 'The Zionist Wish and the Nazi Deed', *Issues* (Winter 1966/7), p. 12.
19. Author's interview with Joachim Prinz (8 February 1981).
20. Arnold Zweig, *Insulted and Exiled* (London, 1937), p. 232.
21. Abraham Margaliot, 'The Reaction of the Jewish Public in Germany to the Nuremberg Laws', *Yad Vashem Studies*, vol. XII, p. 89.
22. Ibid., p. 85.
23. Ibid., p. 86.
24. 'German Zionists Seek Recognition', *Palestine Post* (15 January 1936), p. 1.
25. Yechiel Greenberg, 'Hashomer Hatzair in Europe', *Hashomer Hatzair* (November 1937), p. 13.
26. Author's interview with Arnold Paucker, 28 October 1980.
27. Giora Josephthal, *The Responsible Attitude*, p. 88.
28. Boris Smolar, 'Zionist Overtures to Nazism', *Jewish Daily Bulletin* (8 March 1935), p. 2.

٦ ـ المقاطعة اليهودية المعادية للنازية، والاتفاق التجاري الصهيوني ـ النازي

إن ما سمح لهتلر بالوصول إلى السلطة لم يكن سوى عجز أخصامه، وكان على المستشار الجديد أن يثبت لسادته الرأسماليين أن في إمكانه القيام بمسؤوليات تسيير ألمانيا. لم يكن موقفه آمناً تماماً بأي حال: كان العمال لا يزالون ضده، وكان الصناعيون لا يزالون ينتظرون أن يروا أنه قادر على تحريك الاقتصاد. وتذبذب الرأسماليون في الخارج بين الشعور بالراحة من أنه قد سحق الشيوعيين وبين الخوف من أنه في نهاية الأمر سيبدأ حرباً أخرى، وبات الرأي العام الخارجي حيوياً الآن: كانت ألمانيا تعتمد على السوق العالمي، وأصبحت معاداة هتلر للسامية مشكلة، فاليهود كانوا أقوياء في الأسواق التجارية في العالم وبالذات في اثنتين من أكبر أسواق ألمانيا ـ أوربا الشرقية وأمريكا ـ وكانت دوائر رجال الأعمال الألمان غير حاسمة في مسألة ولائها للمستشار الجديد بأي حال. فربما كان عليهم مع أصدقائهم في الجيش أن يلجموه أو، حتى أن يطيحوا به إذا ما عانوا هم أنفسهم من خسائر يسببها اليهود أو أخصامه الأجانب الآخرون المتحدون في مقاطعة صادرات ألمانيا. وناقش خبراء الاقتصاد التابعون للنظام نفسه بصراحة ضعفهم المخيف، وكانوا قلقين للغاية من أن النظام الجديد قد لا يتمكن من الاستمرار في وجه معارضة خارجية حاسمة.

تحرك اليهود ببطء شديد، ولكن في النهاية أعلن «المحاربون القدماء اليهود في نيويورك»، بعد دراسة المضاعفات بالنسبة ليهود ألمانيا، مقاطعة تجارية في يوم ١٩ مارس/آذار عام ١٩٣٣ ونظّموا مسيرة احتجاج ضخمة في اليوم الثالث والعشرين.

وشارك عمدة نيويورك، وكذلك شارك الشيوعيون الذين رفض الجنود السابقون أن يسمحوا لهم بالدخول في المظاهرة إلا بعد إنزال أعلامهم. إن إزدراء آلاف الشيوعيين في الجالية اليهودية في نيويورك حكم على جهود مجموعة المحاربين القدماء الصغيرة بالفشل. كانوا سياسيا ساذجين للغاية، ولذلك تجاهلوا الحقيقة الأولية أنه لكي تكون هناك ولو أصغر فرصة لنجاح مقاطعة ما، فلا بد أن تحظى بأوسع ما يمكن من وحدة منظمة وراءها. وبعد فشل المحاربين القدماء بوقت قصير نظم آبي كسورالْنِك، وهو صهيوني، وصمويل أنترماير وهو متعاطف كان قد تبرع بالمال للاستاذ الجديد في الجامعة العبرية في القدس، نظما معاً ما أصبح في النهاية «الرابطة غير الحَلَقية المعادية للنازية». ومع ذلك فإن تنظيم مسيرات تؤيد المقاطعة كانت غير قانونية، ولم يكن من الممكن أن يخرج أنترماير، وهو محام تاماني(*)، على القانون. وبالطبع لم يكن ممكناً بدون تنظيم مسيرات جماهيرية فرض أي مقاطعة، وتحول أولئك الذين كانوا في الجالية اليهودية مصممين على فرض المقاطعة، الى الحاخام واينر و«المؤتمر اليهودي الصهيوني الأمريكي» لتولي القيادة. في البداية عارض واينر المظاهرات والمقاطعات، ولكن بحلول ٢٧ مارس/آذار كان حتى هو عازماً على ان يملأ حديقة ماديسون سكوير من أجل المسيرة التي أقلقت جورنج. واستنكر جمع كبير من السياسيين ورجال الكنيسة وإداريو النقابات في حينه، الطغيان في برلين. ولكن شيئاً ما لتنظيم دعم جماهيري لم يتم. لم يكن واينر، الذي لم يعبىء الجماهير قبل وصول هتلر إلى السلطة، ليفعل ذلك الآن. على العكس، فقد كتب لصديق: «لا يمكنك أن تتخيل ما أفعله لأقاوم الكتل الجماهيرية، إنهم يريدون مشاهد عارمة في الشوارع»(١). عارض المقاطعة على أمل أن عدداً قليلاً من المظاهرات فحسب يمكن أن يضغط على روزفلت للتدخل، ولكن وزارة الخارجية كانت ترى هتلر كمناطح قوي ضد الشيوعية، وكان السياسيون المحليون المتلهفون على إنهاء الركود يتطلعون بلهفة لألمانيا كسوق. والنتيجة هي أن الديمقراطيين لم يفعلوا شيئاً لا ضد هتلر ولا من أجل اليهود. واستمر واينر، وهو نفسه ديمقراطي، على موقفه ضد المقاطعة، ولكنه عندما كان في أوربا في أغسطس/آب عام ١٩٣٣ للتشاور مع الزعماء اليهود الألمان ولحضور المؤتمر الصهيوني العالمي؛ أمكن للعناصر الأكثر نضالية في المؤتمر اليهودي الأمريكي أن تدعو إلى المقاطعة. ولكن المؤتمر اليهودي الأمريكي كان لا يزال في مجمله

* تاماني: هو إسم جمعية نافذة للدفاع عن القانون في نيويورك. في الأصل أخوية معادية للأرستقراطية تأسست في القرن ١٨ وسيطرت على سياسات نيويورك حتى ثلاثينات القرن العشرين (المترجم).

برجوازياً بلا خبرة في تعبئة الجماهير، ومثله مثل «الرابطة المعادية للنازية»، كان يعارض تنظيم المسيرات. لم يفعل مدير المقاطعة فيه أكثر من إصدار احصائيات رائعة عن كيفية تضرر التجارة النازية من المقاطعة[٢]. ولم يسمح المؤتمر اليهودي الأمريكي لفروعه بتنظيم مسيرات لمقاطعة التجار المتمردين إلا بعد ان تمردت في النهاية مجموعة من الشباب فنظمت مسيرة حول سلسلة من المحلات الكبرى في خريف عام ١٩٣٤.

في معظم الأحوال لم تحقق المقاطعات أي نجاح. إن أغلب الناس يظن أنه قد فعل ما يكفي بتوقفه عن شراء البضائع ولكن المقاطعة لا تنجح إلا عندما يكون هناك تنظيم صلب مستعد لتعطيل التجارة بشكل خطير. اللوم على الفشل في بناء مثل تلك الحركة يقع على الكثيرين من اليهود وغير اليهود. ومن المؤكد أن قادة النقابات الذين تعاهدوا على معارضة هتلر ولكنهم لم يفعلوا شيئاً لتعبئة صفوف نقاباتهم كانوا مسؤولين بدرجة كبيرة عن غياب حملة مقاطعة جدية. ومن المؤكد أن تلك المجموعات اليهودية ـ مثل «المحاربين القدماء اليهود، والرابطة المعادية للنازية» و«المؤتمر اليهودي الأمريكي» ـ كانوا غير فعالين، لكن كان هناك أيضاً في الجالية اليهودية في أمريكا وبريطانيا من عارض بشكل خاص فكرة المقاطعة ذاتها. كذلك رفضت «اللجنة اليهودية الامريكية» وجمعية «بْناي بريث» (أبناء العهد) و«هيئة مندوبي اليهود البريطانيين» مساندة المقاطعة. كانوا يخشون أنه إذا ما استقرت فكرة محاربة هتلر في رؤس العمال اليهود، والعمال الآخرين كذلك، فربما استمروا في حركتهم ولاحقوا أغنياءهم الأقربين في البلاد. هؤلاء الأفاضل حصروا أنفسهم في جهود الصداقة لليهود الألمان واللاجئين منهم وتمنوا أن لا تنتشر الهتلرية. وعارض تنظيم «أجودام يسرائيل» (اتحاد اسرائيل)، وهو الجناح السياسي لأكثر أجنحة الأرثوذكسية التقليدية تطرفاً، عارض المقاطعة على أسس دينية وكذلك لأنهم محافظون إجتماعياً. وزعموا أنه منذ أن دمر الرومان المملكة اليهودية القديمة فإن التلمود منع اليهود من الثورة ضد سلطة غير اليهود (في المهجر). وفسروا المقاطعة بأنها نوع من التمرد ومن ثم فهي ممنوعة. ومع ذلك فمن بين كل المعارضين اليهود النشطين لفكرة المقاطعة كانت المنظمة الصهيونية العالمية هي الأهم. لم تكن تشتري فقط بضائع ألمانية، بل كانت تبيعها، بل وبحثت عن زبائن جدد لهتلر ومؤيديه الصناعيين.

جاذبية فكرة الدم

نظرت «المنظمة الصهيونية العالمية» لانتصار هتلر إلى حد كبير بنفس الطريقة التي نظر

إليه بها «الاتحاد الصهيوني لألمانيا»: ليس كهزيمة لكل اليهود في الأساس، وإنما كبرهان إيجابي على إفلاس التمثّلية والليبرالية. كانت ساعتهم قد حانت. بدأ الصهاينة يبدون مثل دعاة إحياء الهيكل: إن هتلر كان عصا التاريخ لسوق اليهود العنيدين مرة أخرى إلى جنسهم وأرضهم. وفي حديث مع زميل صهيوني أثناء زيارة لأمريكا، عبر أحد الذين آمنوا بالصهيونية حديثاً، وهو كاتب السير الشعبية المشهور عالمياً إميل لودّفيج، عن الموقف العام للحركة الصهيونية:

«سيطوي النسيان هتلر في سنوات قليلة، ولكن سيكون له تمثال جميل في فلسطين. كما تعرف (وهنا بدأ كاتب السير المؤرخ متقمصاً دور اليهودي البدائي القديم) ـ فإن وصول النازي كان أمراً مرحباً به، كثيرون من يهودنا الألمان كانوا يتذبذبون بين شاطئين. كثيرون منهم كانوا يركبون التيار بين نار التمثّليين، ونار المعرفة الضئيلة بالأمور اليهودية. آلاف من الذين بدا أن اليهودية قد فقدتهم تماماً أعيدوا إلى مكانهم بواسطة هتلر، لذلك فإنني شخصياً ممتن له جداً»(٣).

كان لودفيج وافداً جديداً على الحركة ولكن آراءه كانت تتفق تماما مع آراء، أولئك القدامى مثل الشهير حاييم ناحْمان بياليك، الذي كان يُعتقد حينئذ أنه شاعر صهيون المفوّه. وبسبب سمعته هذه فإن تصريحاته كانت تحظى بانتشار واسع من جانب الحركة الصهيونية وخصومها اليساريين. كان هم الشاعر منذ زمن طويل هو تحطم الوحدة اليهودية بسبب تراجع الإيمان الديني التقليدي، والآن ليس في إمكانه أن يخفي سعادته بأن هتلر قد جاء في الوقت المناسب لإنقاذ اليهود الألمان من دمارهم هم.

يشعر الشاعر بأن الهتلرية قد قدمت على الأقل خدمة في عدم رسم أي خطوط بين اليهودي المؤمن واليهودي المرتد. ولو أن هتلر كان قد استثنى اليهود المعمّدين لنشأ، كما توقع بياليك، مشهد ركض آلاف اليهود نحو أحواض العماد. ربما انقذت الهتلرية اليهود الألمان الذين كانوا يتمثّلون حتى العدم. وفي الوقت نفسه فإنها جعلت العالم يعي بشدة المشكلة اليهودية التي لم يكن في إمكانه تجاهلها أكثر من ذلك(٤).

كان بياليك ينظر إلى اليهود، مثل صهاينة آخرين كثيرين، على أنهم شيء ما من عِرقٍ متفوق، وتمنى لو أنهم يعودون إلى رشدهم في النهاية ويكفون عن تبديد أنفسهم في إنسانية جاحدة، ويبدأون العمل في كرْمهم هم:

من المؤكد أنه صحيح تماماً أن اليهودية بنفاذها إلى كل الأمم فإنها قوضت بالفعل بقايا ذلك النوع من الوثنية. . . ولكن ربما كانت أقوى القوى في هذه العملية هي يهودنا المرتدين أو المتمثلين من كل الأنواع الذين دخلوا إلى جسم المسيحية ذاته وحركوا احشاءه ومضوا ببطء يقوضون بقايا الوثنية نتيجة ارادتهم اليهودية ودمهم اليهودي. أنا أيضاً، مثل هتلر أؤمن بقوة فكرة الدم. هؤلاء هم الرجال ـ بالرغم من أن أسماء العظماء غير اليهود غالبا ما تُذكر بدلاً منهم ـ الذين مهدوا الطرق أمام الحركات الكبرى، في كل انحاء العالم: النهضة، والليبرالية، والديمقراطية، والاشتراكية، والشيوعية. . . إن المعادين للسامية لديهم بصيرة واضحة أحياناً، وبالتأكيد فإن النفوذ اليهودي كان ولا يزال قوياً في هذا المضمار. لا يجب أن ننكر ذلك(٥).

ومع ذلك، فبحلول عام ١٩٣٤ كانت الصهيونية حركة تزعم أن لها أكثر من مليون عضو في أنحاء العالم لم يكونوا كلهم ممن يقبلون الفكرة المقلوبة بأن هتلر كان بالفعل، نعمة لليهود. واعترض البعض على هذه الفكرة المجنونة التي كانت لا تزال واسعة الانتشار حتى في أواخر عام ١٩٣٦، ومنهم الحاخام الامريكي أبراهام جاكوبسون:

كم من مرة سمعنا تلك الرغبة الضالة التي تقال في يأس بسبب لا مبالاة اليهود الأمريكيين بالصهيونية، بأن يهبط هتلر على رؤوسهم؟ عندئذ يعرفون الحاجة لفلسطين(٦).

المعاملات الأولى مع النازيين

من المؤكد أن المنظمة الصهيونية العالمية كانت مستعدة تماماً لأن تحاول استعمال النازيين لأغراضها الخاصة. وقد تمت المفاتحات الأولى مع النازيين لتصدير الحمضيات في تل أبيب تدعى «هانوتناه». فحتى في عهد المستشار برونسج كانت الحكومة الألمانية قدفرضت ضريبة عالية على رأس المال الذي يترك البلاد، واقترح كوهين أن يسمح للمهاجرين الصهاينة بتجنب هذه الضريبة بشراء سلع في ألمانيا يمكن تحويلها مرة أخرى إلى نقد بعد بيعها في فلسطين. لم يكن برونسج مهتماً بالفكرة ولكن كوهين من جانبه قدم هذه الخطة الثانية في عام ١٩٣٣. كان النازيون قلقين بالفعل بسبب تأثير المقاطعة المنظمة على ميزان تجارتهم حتى وإن كانت عفوية وغير ناجحة. والتقط هنْريش وُلْف،

القنصل الألماني في القدس، بسرعة كيف يمكن أن يكون اقتراح كوهين مفيداً. كتب إلى وزارته قائلاً: «وبهذه الطريقة يحتمل أن يكون ممكناً شن حملة ناجحة ضد المقاطعة اليهودية لألمانيا. ويحتمل أن يكون ممكناً عمل ثغرة في الجدار(٧).

وقال إن اليهود سيضعون في مأزق. فإن الاستمرار في المقاطعة سيبدو وكأنه يفرض مشاكل على المهاجرين الذين يسعون للعثور على أوطان جديدة لأنفسهم سواء في فلسطين أو في غيرها. وبسبب من موقعه، كان وولف واحداً من أوائلالألمان الذين أدركوا الأهمية المتنامية لفلسطين في المعادلة اليهودية، وفي يونيو/حزيران كتب مرة أخرى إلى برلين:

بينما كان أليشوف(*) في أبريل/نيسان ومايو/أيار ينتظرون تعليمات المقاطعة من الولايات المتحدة، يبدو الآن أن الوضع قد تحول. إن فلسطين هي التي تعطي التعليمات الآن.. من المهم أن نحطم المقاطعة أولاً وأساساً في فلسطين، ومن المحتم أن التأثير سيكون محسوساً على الجبهة الرئيسية في الولايات المتحدة(٨).

وفي أوائل مايو/ايار عام ١٩٣٣ وقع النازيون إتفاقاً مع كوهين بمقدار مليون مارك ألماني (٤٠٠,٠٠٠ دولا امريكي) من الثروة اليهودية لشحنها إلى فلسطين على شكل ماكينات زراعية. عند هذه النقطة تدخلت المنظمة الصهيونية العالمية. كان الركود قد أثر بشكل سيء على التبرعات، وفي مارس/آذار عام ١٩٣٣ أبرقوا في جزع لأتباعهم في أمريكا معلنين أنه إن لم تكن الأموال في طريقها للوصول فوراً فإنهم يتجهون نحو إنهيار مالي وشيك. عندئذ جعل مناحيم أوسشكين، رئيس الصندوق القومي اليهودي، كوهين يرتب من أجل إخراج أموال الصندوق القومي اليهودي المجمدة في ألمانيا عن طريق مؤسسة «هانوتثاه». كان الطعم بالنسبة للنازيين هو أن النقود كانت مطلوبة لشراء أراضٍ لليهود الذين كان هتلر يطردهم إلى الخارج. كذلك أكد كوهين لهنريش وولف أنه سيعمل «خلف الكواليس» في مؤتمر يهودي قادم في لندن من أجل إضعاف أو إلحاق الهزيمة بأي قرار خاص بالمقاطعة(١٠). وقد كتب الدكتور فريتس رايشرت، ، عميل

---

* اليشوف: تجمع اليهود الذين هاجروا وأقاموا في فلسطين في ذلك الوقت. (المترجم).

الجستابو في فلسطين، فيما بعد لقيادته يذكرهم بالأمر:

لقد تم نسف مؤتمر لندن للمقاطعة من تل أبيب لأن المسئول عن النقل في فلسطين، وهو على صلة وثيقة بالقنصلية في القدس أرسل برقيات إلى لندن. إن عملنا الرئيسي هنا هو أن نمنع من فلسطين توحد يهود العالم على أساس معادٍ لألمانيا. . . يُنصح بتدمير القوة السياسية والاقتصادية لليهود ببذر الشقاق في صفوفهم(١١).

سرعان ما حل محل سام كوهين في هذه المفاوضات الدقيقة الصهيوني العمالي حاييم أرلوسوروف، وهو السكرتير السياسي «للوكالة اليهودية» التي هي مركز «للمنظمة الصهيونية العالمية» في فلسطين. كان أرلوسوروف يعي بدقة مشاكل الحركة. وكان قد خلص في عام ١٩٣٢ إلى أنهم فشلوا في جذب ما يكفي من المهاجرين للتفوق على أعداد العرب وأنهم لم يكونوا يجذبون ما يكفي من الرأسمال اليهودي، وأن وجود هتلر في السلطة قد يعني حرباً خلال عشر سنوات. وكان الاستمرار في الحياة في فلسطين وحل المشكلة اليهودية في هذه الفترة يعنيان عملاً شديداً وسريعاً. وفكر أنه صار لديه في هذا الوقت طريقة تحل بها الصهيونية مصاعبها: فبموافقة بريطانيا يمكنهم الحصول على المهاجرين وعلى رأس المال المطلوب من خلال توسيع مشروع كوهين. وفي مقالة في صحيفة **روندشاو** وفي غيرها، شرح في بُرود أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بالتعاون الكامل مع برلين:

من الطبيعي أن ألمانيا لا يمكن أن تعرض نفسها لخطر إرباك عملتها وميزانها للتبادل لكي ترضي اليهود، ولكن من الممكن إيجاد مخرج يلبي هذه المصالح المختلفة. . وسيكون من المفيد أن نترك كل المشاعر خارج المشكلة لكي نصل إلى مثل هذا الإتفاق مع ألمانيا.

عندئذ اقترح الصهيوني الاشتراكي المزيف التحالف الأقصى، أي صفقة بين الصهاينة والنازيين والفاشيين والامبراطورية البريطانية لتنظيم إجلاء اليهود من ألمانيا:

كذلك من الممكن تأسيس شركة بمشاركة الدولة الألمانية ومصالح أوربية أخرى، بريطانية وإيطالية في الأساس، يمكنها أن تصفي الممتلكات الخاصة بإصدار خطابات اعتماد. . [وخلق]. . . صندوق للضمان(١٢).

وقد شعر أن فكرته جاءت في وقتها بشكل خاص لأن الرأي العام العالمي قد يؤيد «معالجة بناءة للمسألة اليهودية في ألمانيا»(١٣). ولما كان يعرف أن اليهود الألمان قد لا يرغبون في وضع كل أموالهم في أيدي هتلر، لذلك اقترح أن يختار البريطانيون مدير الصندوق. وقد كتب رفيقه اسحاق لوفبان فيما بعد أن «أرلوسوروف اقترح عدة أسماء وأن وزارة المستعمرات اختارت واحداً منها»(١٤). وفي أوائل مايو/آيار عام ١٩٣٣ توصل أرلوسوروف والنازيون إلى تفاهم أولي لتوسيع ترتيبات كوهين. وزار برلين مرة أخرى في يونيو/حزيران وعاد إلى تل ابيب في الرابع عشر منه. وبعد ليلتين قُتِل بسبب تعامله مع النازيين. وستتم مناقشة واقعة القتل فيما بعد، ويكفي القول هنا بأنه لم يبطىء من تفاهم المنظمة الصهيونية العالمية مع النازيين. وأعلن النازيون عن إتفاق صهيوني ـ نازي في الوقت الملائم عندما انعقد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في أغسطس/آب في براغ.

المنظمة الصهيونية العالمية تبرر الاتفاق مع النازيين

سيطر ظل هتلر تماماً على مؤتمر براغ. كان زعماء المنظمة الصهيونية العالمية يعرفون أن النازيين مهتمون بعقد صفقة، وكانوا مصممين على تجنب إغضاب المانيا بالحد من النقاش حول الوضع هناك إلى أدنى حد ممكن(١٥). لم يُدَنْ النظام كنظام، وطُلب من عصبة الأمم المساعدة في «النضال من أجل إستعادة حقوق اليهود في ألمانيا»، ولكن هذا الطلب دُفن في نقاش مطول عن الهجرة وفلسطين. ولم تُقترح أي خطة لممارسة الضغط على الهيئة العالمية ولا طُلب من العصبة أن تقوم بأي عمل محدد من جانبها.

أصبح الاتفاق الصهيوني ـ النازي علنياً قبل يوم واحد من مناقشة قرار المقاطعة، ويمكن الاستنتاج بأن النازيين فعلوا ذلك لكي لا يتم تشجيع المقاطعة. وقدم زعيم «التصحيحيين اليمينيين»، فلاديمير جابوتنسكي قضية المقاطعة، ولكن لم تكن هناك فرصة لكي يجد إقتراحه آذاناً صاغية. كان البريطانيون قد ألقوا القبض على عدد من «تصحيحيّيه» بسبب مقتل أرلوسوروف، وكان المدعي يقدم الأدلة أمام المحكمة بينما كان المؤتمر منعقدا. ولما كان للتصحيحيين تاريخ من العنف ضد منافسيهم الصهاينة فإن معظم المندوبين كانوا مقتنعين بإشتراكهم في قضية أرلوسوروف، وتعززت سمعتهم الكريهة عندما رافق جابوتنسكي إلى داخل القاعة أتباعه من ذوي القمصان البنية في تشكيل عسكري كامل، مما إضطر الرئاسة إلى تحريك الأزياء الرسمية خوفا من أن تستفز رفاق أرلوسوروف العماليين إلى القيام بشغب. وتم رفض تأييد جابوتنسكي للمقاطعة

ومعارضته للاتفاق باعتباره هيجاناً من معارض إرهابيٍّ ضد القيادة المعتدلة المنتخبة ديمقراطياً. وهزم قراره بأغلبية ٢٤٠ صوتا ضد ٤٨ صوتاً.

ومع ذلك فإن هزيمة قرار جابوتنسكي لم تكن تعني بالضرورة أن المندوبين يحبذون إتفاقاً مع هتلر. وعندما أعلن النازيون أنهم قد وقعوا إتفاقاً مع الصهاينة يسمح لليهود الألمان بشحن ما قيمته ٣ ملايين مارك ألماني من الثروة اليهودية إلى فلسطين على شكل سلع ألمانية للتصدير، فإن معظم المؤتمر لم يلتفت إلى هذا البيان لاعتباره دعاية بهلوانية. وعندما أصبحت الحقيقة واضحة انفلت عقال الغضب. كانت القيادة قد أخطأت تماماً في حساباتها وتوقعت أصلا أن يكون الاتفاق شعبياً إلى درجة كبيرة. أما وقد فوجئت بالمعارضة المعادية فقد لجأت إلى الكذب الصريح لكي تحمي نفسها. وزعم القائد العمالي بِيرْل لوكِر بصفاقة: «إن اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية لا علاقة لها بالمفاوضات التي أدت إلى اتفاق مع الحكومة الألمانية[١٧]». ولم يصدق أحد هذا التلفيق الفج.

مندوبون كثيرون، وبالذات الامريكيون، كانوا يحبذون المقاطعة وصوتوا ضد جابوتنسكي، أساساً لأنهم شعروا بأن المنظمة الصهيونية العالمية كانت مشغولة جداً بفلسطين بدرجة لا تسمح بمهام إضافية. عندئذ قدم ستيفن وايز إلى القيادة إنذاراً نهائياً: أوضحوا «كيف يمكن منع الدعاة.. الألمان من الاستفادة من الاتفاق». و«نوقش طلبه» بحرارة طوال النهار.. في اللجنة السياسية[١٨]. وفي النهاية لم يجرؤ الزعماء على تحمل المسئولية الرسمية عن «الهاآفارا»، أو إتفاق النقل، وادعوا بأنه اتفاق يلزم فقط ألمانيا والموقع رسميا وهو البنك الانجليزي الفلسطيني. ولكن لما كان البنك هو بنكهم فإنهم لم ينجحوا سوى في جعل أنفسهم يظهرون كسخفاء في نظر الأعداء والأصدقاء على السواء.

استمر الجدل حول الاتفاق الصهيوني ـ النازي غاضباً حتى عام ١٩٣٥. ونما مشروع «الهاآفارا» بسرعة ليصبح بيتا كبيراً للأعمال المصرفية والتجارة، يعمل في مكتبه في القدس ١٣٧ متخصصا في ذروة نشاطاته. كانت التعليمات تتغير دائما استجابة لضغط النازيين، ولكن الاتفاق بقي كما هو من ناحية الجوهر: يمكن لليهود الألمان وضع النقود في بنك داخل ألمانيا، تستعمل هذه النقود في شراء صادرات تباع خارج ألمانيا، عادة في فلسطين وإن لم تكن وحدها في ذلك. وعندما كان المهاجرون، يصلون أخيراً إلى

فلسطين كانوا يتسلمون ما دفعوه مقابل السلع التي سبق لهم شراؤها بعد أن تكون قد بيعت في نهاية الأمر. ووسعت البراعة المالية عمليات «الهاآفارا» في إتجاهات متعددة ولكن جاذبيتها بالنسبة لليهود الألمان خلال كل العملية ظلت كما هي: كانت هي الطريقة الأقل إيلاماً لنقل الثروة اليهودية خارج ألمانيا. ومع ذلك فإن النازيين هم الذين عددوا القواعد، وطبيعي أنها كانت تزداد سوءاً مع الوقت. فبحلول عام ١٩٣٨ كان المستفيد المتوسط يخسر على الأقل ٣٠٪ أو حتى ٥٠٪ من نقوده. وبالرغم من ذلك فإن هذه الطريقة أفضل ثلاث مرات، وخمس مرات في النهاية من الخسائر التي تكبدها اليهود الذين كانت أموالهم تذهب إلى أي مكان آخر[١٩].

كان الحد الأعلى من خلال مشروع «الهاآفارا» هو ٥٠ ألف مارك ألماني (٢٠ ألف دولار أمريكي، أو ٤ آلاف جنيه استرليني) للمهاجر الواحد مما جعل «الهاآفارا» غير جذابة بالنسبة لليهود الأغنى. لذا فإن مبلغ ٤٠,٤١٩,٠٠٠ دولار أمريكي ذهب إلى فلسطين عبر «الهاآفارا»، بينما ذهب مبلغ ٦٥٠ مليون دولار أمريكي إلى الولايات المتحدة، و٦٠ مليون دولار امريكي إلى المملكة المتحدة ومبالغ كبيرة أخرى إلى أماكن أخرى. ومع ذلك فإذا كانت «الهاآفارا»، بمقاييس ثروة اليهود الألمان، غير حاسمة بأي حال، فانها كانت حيوية بالنسبة للصهيونية. فحوالى ٦٠٪ من كل رأس المال المستثمر في فلسطين بين أغسطس/آب عام ١٩٣٣ وسبتمبر/أيلول عام ١٩٣٩ كان يمر في قنوات عبر الاتفاق مع النازيين[٢٠]. وبالإضافة إلى ذلك فإن البريطانيين قد حددوا نسبة المهاجرين اليهود السنوية مستعملين قدرة البلاد الضعيفة على الامتصاص الاقتصادي للحد من عددهم. ومع ذلك فان «الرأسماليين» ـ أولئك الذين كانوا يحضرون معهم أكثر من ألف جنيه استرليني (٥٠٠٠ دولار) ـ كان يسمح لهم بالدخول خارج النسبة. وهكذا كان الـ١٦٥٢٩ رأسمالياً هم مصدر إضافي للمهاجرين وكذلك حصاد اقتصادي بالنسبة للصهيونية. ولقد ولّد رأسمالهم رواجاً مما أعطى فلسطين ازدهاراً مصطنعاً تماماً في قلب الركود العالمي.

في البداية حاولت المنظمة الصهيونية العالمية أن تدافع عن نفسها ضد الإتهامات بخرق المقاطعة وبالتعاون المباشر بأن أصرت على أن تحويلات الهاآفارا» لا تخرق المقاطعة فعلاً طالما أن ألمانيا لم تتلقَّ عملة أجنبية مقابل بضائعها التي تشترى كلها داخل البلاد بالمارك. ومع ذلك فسرعان ما طلبت برلين دفع جزء من مدفوعاتها لبعض السلع

بالعملة الأجنبية، وسرعان أيضا ما بدأت المنظمة الصهيونية العالمية في إجتذاب زبائن جدد لألمانيا في مصر ولبنان وسوريا والعراق. وفي النهاية بدأ الصهاينة يصدرون البرتقال إلى بلجيكا وهولندا مستعملين سفن النازي(٢١). وبحلول عام ١٩٣٦ بدأت المنظمة الصهيونية العالمية في بيع سلع هتلر في بريطانيا(٢٢).

لم تكن المنظمة الصهيونية العالمية مهتمة بمحاربة النازيين، وكل دفاع عن مشروع «الهاآفارا» يُظهر ذلك. ولقد وبخ سِيليج برودتسكي، وهو أحد أعضاء «اللجنة التنفيذية الصهيونية» وأصبح في عام ١٩٣٩ رئيس «هيئة المندوبين البريطانيين»، وبخ العالم لأنه يحتقرهم:

لقد بلغ المؤتمر مستوى لم يكن ليبلغه إلا قليل من الهيئات اليهودية. كان من السهل جدا استعمال كلمات عنيفة وتنظيم اجتماعات والدعوة لمقاطعات، ولكن كان من الأصعب بكثير التحدث بهدوء واستعمال التفكير البارد. لقد قيل أن القرارات المتعلقة بألمانيا كانت ضعيفة جداً. لا! إن غير اليهود يمكنهم تحمل إستعمال الكلمات القوية ولكن اليهود لا يمكنهم ذلك(٢٣).

لم يكن الصهاينة هم الخونة وإنما كان الخونة هم كل شخص آخر خارج على هذه الخطوة - أو هكذا على الأقل أراد موشيه بيْلنسون، وهو قيادي صهيوني عمالي، أن يصدق العالم، لم تكن هذه هي محاولته الأولى للتعاون مع الفاشية. ففي عام ١٩٢٢ كان واحداً من المندوبين الذين تعهدوا بولاء الصهيونية الايطالية لموسوليني. وها هو يحاول الآن تقديم دفاع نظري عن الاتفاق مع النازي:

بعد أن تمت الإطاحة بجدران الجيتو كان سلاحنا الرئيسي للدفاع عن أرواحنا وحقوقنا هو الاحتجاج.. ولم تنجح كل احتجاجاتنا عبر العقود في تدمير نير الاضطهاد ليس فقط في امبراطورية القياصرة الضخمة بل حتى في رومانيا الصغيرة نسبيا... إن المؤتمر لم «يخن»، لقد انتصر. لم يكن خائفا، بل على العكس كانت لديه الشجاعة لكي يبدأ كيانية يهودية جديدة. ولا ريب أن المؤتمر الثامن عشر كانت لديه الشجاعة لتدمير الاتجاه التمثّلي الذي يتصف بشكل رئيسي بالاعتماد على الآخرين ومناشدة الآخرين... لقد حاربنا الأجيال بوسائل الاحتجاجات. نحن الآن لدينا سلاح آخر في ايدينا، وهو سلاح قوي وأكيد وموثوق: التأشيرة إلى فلسطين(٢٤).

عارضت الأغلبية الكبرى من اليهود «الهاآفارا». لم يكن للمشروع أي مدافعين خارج المنظمة الصهيونية العالمية ولم تكن التجارة مع النازيين شعبية بالنسبة للكثيرين داخل صفوف المنظمة. وبدأت الاحتجاجات تنصب بينما كان مؤتمر براغ لا يزال منعقداً. كان الاتفاق غير شعبي للغاية في بولندا حيث خشي اليهود أنه إذا لم تكن هناك مقاومة لمعاداة السامية عند الجيران فان الحاقدين على اليهود عندهم هم سيبدأون في المطالبة بأن تقلد الحكومة البولندية الألمان. وفي أمريكا وبريطانيا، وفي كل منها تقليد ديمقراطي إلى حد ما، فإن كثيرين من الصهاينة بما في ذلك بعض الأسماء القيادية في الحركة عارضوا، كان حاخام كليفلاند البارز أبّا هِليل سِلفر واحدا من الأوائل الذين شكوا، فكتب في أغسطس/آب ١٩٣٣:

لم لا يمكن تصور مجرد فكرة يهود فلسطين يفاوضون هتلر حول المال والأعمال بدلاً من طلب العدالة لليهود المضطهدين في ألمانيا. إن المرء يمكن أن يظن أن الأمر كله هو أوكازيون إفلاسي، وأن يهود فلسطين يسعون إلى تمرير قليل من المساومات لأنفسهم(٢٥).

سُمعت أصوات العويل حتى من أركان الأرض البعيدة. واحتجت مجلة **«جويش ويلكي نيوز»** في ميلبورن: «سيجعلوننا أضحوكة بين الألمان الذين سيكونون قادرين على الإعلان أنه عندما يصل الأمر إلى نزاع بين التجارة اليهودية والمشاعر، تكسب التجارة دائماً»(٢٦). وعاد الحاخام وايز إلى الموضوع في مناسبات لا حصر لها. وأشار في سبتمبر/أيلول ١٩٣٣ إلى «الهاآفارا» بأنها «العجل الذهبي الجديد ـ البرتقالة الذهبية» واستطرد: «اعتقد أنني أتكلم بما يفكر فيه كل اليهود في كل مكان عندما أقول أننا نشمئز من أي يهودي سواء كان داخل أو خارج فلسطين، يقرر أن يقيم أي ترتيبات تجارية مع الحكومة النازية لأي سبب كان»(٢٧).

وهاجم وايز في خطاب له في المؤتمر اليهودي العالمي المنعقد في صيف عام ١٩٣٤ العماليين الذين أصبحوا القوة المسيطرة في الصهيونية الفلسطينية:

لقد قالها فلسطيني بارز وكررها مرات في براغ: فلسطين لها الأولوية. هذا المؤتمر يجب أن يقرر بوضوح أنه بينما لفلسطين الأولوية على كل العوامل الأخرى في المعاملة فان أولويتها تتوقف عندما تدخل في نزاع مع قانون أخلاقي أعلى(٢٨).

وعرف وايز العفن في المنظمة الصهيونية العالمية: إن أرض اسرائيل قد أصبحت أهم بكثير من إحتياجات اسرائيل. لقد أصبحت الصهيونية العمالية بأكمل المعاني فرقة طوباوية. وهم يرون في أي يهودي جديد في الأرض اليهودية القديمة أنه الطريق الوحيد لكي تستمر الأمة اليهودية في الوجود. ولم يعد الشعب اليهودي الحقيقي، ملايين اليهود في المهجر، أكثر من خزان يمكنهم التقاط المهاجرين الشباب منه لبناء دولتهم. وبذلك أصبح المهجر محكوماً عليه بالفناء: إما أن يطرد منه اليهود كما في ألمانيا، أو ليتمثّلون كما في فرنسا. وبهذا المنظور، الغريب القائل بأن الاستمرار اليهودي يتوقف عليهم في إسرائيل، انساق الصهاينة إلى التماس المزيد من النازيين لكي يمكن تحويل رؤيتهم إلى واقع.

وفي أواخر عام ١٩٣٣ حاولوا إحياء بنك أرلوسوروف للتصفيات الشاملة. ودفع وايزمان كوهين ليقترح على وزارة الخارجية الألمانية أنه، وهو الرئيس السابق للحركة والرئيس الحالي «لمكتبها المركزي لتوطين اليهود الألمان»، قد يحضر إلى برلين لمناقشة مشروع التصفية، ولكن النازيين امتنعوا عن توجيه دعوة له[٢٩]. كانوا على الدوام أقل اهتماماً من الصهاينة في عقد صفقة فيما بينهم. كان النازيون قد حققوا ما يريدون. فقد حطم الصهاينة المقاطعة ولم يظهروا أي علامات على مقاومتهم وكان ذلك كافياً في الوقت الحالي. ولكن هذا الصد ما كان يمكن أن يزحزح وايزمان عن طريقه. فبعد عام ونصف عام وفي ٣ يوليو / تموز عام ١٩٣٥ كتب إلى آرثر روبين مدير إدارة الاستعمار في فلسطين وواحد من أكثر الاتباع حماساً لمزيد من التقارب مع النازيين:

كما سمعتُ قام الدكتور موزيْس باتصالات مع وزارة الاقتصاد القومي الألمانية، وبعد عدد من المحادثات التي أجراها هناك قدم مذكرة تطالب بأن تستعمل الصادرات الإضافية إلى إنجلترا، إذا تحققت بناء على طلب أصدقائنا في ألمانيا، لصالح الناس ذوي الألف جنية استرليني[٣٠].

وتابع وايزمان موضحاً أن بيان مؤتمر براغ حول «النضال» من أجل حقوق اليهود الألمان كان لفظياً بشكل قاطع. وناقش براغ في سياق مؤتمر لوسيرن القادم في عام ١٩٣٥:

أعرف جيداً أن المؤتمر في لوسيرن يمكن أن يتحاشى المسألة اليهودية ـ الألمانية ولا يلتفت إليها تماماً كما فعل مؤتمر براغ. ولديّ الجرأة على الشك فيما إذا كان أي إنسان،

وبالذات اليهود الألمان والصهاينة الألمان، سيكسبون أي ميزة من معالجة المسألة اليهودية ـ الألمانية بكل شمولية، ناهيك عن معالجتها في تقرير خاص. لن يحقق ذلك أي تأثير إيجابي مفيد، وبالذات اليوم، نظراً إلى الاستعداد في العالم للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا. من ناحية أخرى أعتقد أنه من الممكن جداً أن مثل هذا التقرير يمكن أن يصبح خطراً على الشيء الإيجابي الوحيد لدينا في ألمانيا، وهو الحركة الصهيونية القوية. . نحن، كتنظيم صهيوني يجب أن نشغل أنفسنا بالحل البناء للمسألة الألمانية من خلال نقل الشبيبة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين بدلاً من مسألة الحقوق المتساوية لليهود في ألمانيا[٣١].

«بنّاءً»، كما سيتضح، كانت إحدى كلشيهات وايزمان المحببة. فبعد الحرب العالمية الأولى طمأن الرأسماليين في فرساي بأن الصهيونية بنّاءة وليست مثل أولئك اليهود المتورطين في اتجاهات تدميرية. وكان التفكير «البنّاء» فيما يتعلق بهتلر والواسع الانتشار في الدوائر الرأسمالية في حينه، يبدو غير طبيعي كونه يأتي من يهودي، ولكن الصهيونية العالمية كانت بالطبع عالماً بعيداً عن العقلية اليهودية العادية. كان صديق وايزمان، روبّين، الألماني المولد، نموذجاً جيداً لهذه الحالة. وكداعية لتحسين العرق كان هو المسئول عن تحويل شبيبة الطبقة الوسطى إلى كادحين «بنّائين» على «التراب» اليهودي الذي يعطي الصحة. وفي عام ١٩٣٤ عبر كتابه **اليهود في العالم الحديث** علناً عن خط التوافق في الحركة الصهيونية. وفي هذا الكتاب قال لليهود ثانية أن الخطأ كان خطأهم إذ ظهرت الأمور بالطريقة التي ظهرت بها وذكّرهم بأن:

مثل هذه المحاولة للتسوية السلمية للمشكلة كان من الممكن أن تكون ممكنة إذا. . . اليهود. . . . قد أقروا بأن وضعهم الخاص بين الألمان حريّ بأن يؤدي إلى نزاعات لها أصولها في طبيعة الإنسان ولا يمكن إزالتها بالحجة والبرهان. فإذا أقر كلا الطرفين بأن الوضع الحالي لا يرجع إلى النية السيئة ولكن إلى الظروف التي نشأت بشكل مستقل عن إرادة أي من الجانبين، لما كان من الضروري محاولة حل المشكلة اليهودية في خضم كراهية منفلتة، العقال.

تطورت نظريته الخاصة بسوء الفهم بشكل منطقي إلى استنتاجه بأن «حلولاً متنوعة جزئية ووسيطة ستكون مطلوبة للوصول إلى **صيغة تعايش**»[٣٢].

وقد كتب لويس نامير، وهو سكرتير سياسي سابق للمنظمة الصهيونية العالمية ومؤرخ كبير للأرستقراطية البريطانية، مقدمة كتاب روبين. وكان صهاينة معرفون، بمن فيهم ناحوم جولدمان، يرون في نامير يهودياً معادياً للسامية[٣٣]. كان في تفانيه للسادة غير اليهود يحتقر اليهود باعتبارهم خلاصة الرأسمالية، ومن «نوع» فج. وكما يمكن أن يكون متوقعاً عبرت مقدمته عن تفهمه لمعاداة السامية ـ «لا يجب أن نطلق على كل واحد يشعر بعدم الراحة بالنسبة لنا أنه معادٍ للسامية، كما أنه ليس هناك أي شيء بالضرورة وبالوراثة شريراً في معاداة السامية[٣٤]. وفي الحقيقة كانت المسودة الرئيسية أقوى من ذلك، وكان وايزمان قد قرأها وحذر نامير بأن لا يكون على هذه الدرجة من العلانية في التعبير عن تقبلها المتبادل للنازية:

على ص ٦ الأسطر «ولكن ما حدث الخ...» والمعلمة بالقلم الرصاص تبدو لي خطرة رغم أنني اتفق مع استنتاجك، ولكنه كتاب بقلم روبين وبمقدمة منك ولا بد أنه سيُقتبس منه في ألمانيا وسيقول «الأجلاف» أن «اليهود أنفسهم يعتقدون أن كل شيء يسير على ما يرام الخ. اقترح حذفها إذا أمكن»[٣٥].

تلك كانت أفكار الشخصيات القيادية للحركة الصهيونية في عام ١٩٣٥ عندما احتشدوا في مؤتمرهم الصيفي في لوسيرن. علناً ينكرون أن لهم أية صلة «بالها آفارا»، أما سراً فقد كانوا يفعلون كل ما يمكنهم لتوسيعها. وفي كل الأحوال فإن أفكارهم وسياساتهم كانت على خلاف مع الأغلبية العظمى من اليهود في العالم.

«محاولة استخلاص أقصى فائدة منها بالمعنى الصهيوني»

كان لا يزال على القيادة الصهيونية أن تواجه معركة داخلية أخيرة حول «الها آفارا» وموقفهم العام تجاه النازيين. وكان جابوتنسكي وتصحيحيوه قد انشقوا عن «المنظمة الصهيونية العالمية» ولكن بقايا قليلة من أتباعه ـ أصبح اسمهم الآن «حزب الدولة اليهودية» ـ بقوا على ولائهم للمنظمة الصهيونية العالمية وظلوا يطالبون باستنكار التحويل. ووصف صحفيون عديدون النقاش القصير والعنيف في مؤتمر عام ١٩٣٥. وقالت مجلة «الصهيوني الكندي» في تقرير لها: أخذ التصويت ونتج عنه أن اقتراح السيد جْروسْمان قد هزم [وهو اقتراح بإجراء حوار حول ما إذا كان البنك الانجليزي الفلسطيني قد سبب إلقاء القبض على أعضاء المسيرة الذين احتجوا على استعمال

الإسمنت الألماني]. في تلك الأثناء كانت هناك صيحات ساخرة عالية «بهايل هتلر» من بعض مؤيدي السيد جروسمان. وقد سبب ذلك هرجا[٣٦].

وأشار بول نوفيك محرر الجريدة اليومية الشيوعية الأمريكية «مورجِنْ فْرَيْهيْت» أن مندوبي الهستدروت جاوبوهم بنفس الطريقة صائحين تجاه جماعة الدولة اليهودية: «يا عملاء شُوشْنِج» (يا عملاء الفاشية الإيطالية ـ النمساوية)[٣٧]. وكان لسياسة اللجنة التنفيذية تجاه هتلر مدافعون أقوياء في المؤتمر. وقدم موشيه شِرتُوك دفاعاً نظرياً وهو الذي خلف أرلوسوروف كسكرتير سياسي للمنظمة (ما يعادل عندهم وزير خارجية). وقال الرجل الذي أصبح فيما بعد ثاني رئيس وزراء لإسرائيل، قال بوقار للمندوبين وللعالم اليهودي المستمع، إن عليهم أن يعرفوا أنه:

> ليس لدى الشعب اليهودي أمل أكبر في النجاح في النضال من أجل الوجود إلا في بناء أرض إسرائيل، ولذلك عليهم أن يكونوا مستعدين لتحمل المضاعفات. إنهم يقلدون الاحتجاجات والمقاطعات التي تمارسها شعوب أخرى ولكنهم نسوا أن تلك الوسائل هي تعبيرات عن القوة التي تملها تلك الشعوب، بينما الحركة الصهيونية لم يزل عليها أن تخلق مثل هذه القوة لنفسها[٣٨].

بعد المؤتمر كان بعض من أهم دعاة استراتيجية المنظمة الصهيونية العالمية هم من المبعوثين الذين أرسلوا على نطاق العالم من طرف الصهيونيين العماليين في فلسطين. وكان إنزو سيريني وهو جامعي آخر من حركة التكيف الإيطالية هو المبعوث إلى ألمانيا في فترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ ولكنه لم يفعل شيئاً لا في تعبئة اليهود الألمان ولا في مساعدة الحزب الإشتراكي الديمقراطي الألماني في حربه ضد النازيين. كان سيريني واحداً من أولئك الذين رأوا هتلر سوطاً يسوق اليهود نحو الصهيونية. وأبلغ ذات مرة ماكس أشكولي، وهو إيطالي نشط ضد الفاشية، بأن «معاداة السامية عند هتلر يمكن أن تؤدي إلى تحرير اليهود»[٣٩]. وفي مؤتمر لوسيرن كان من أبرز دعاة أولوية فلسطين:

> ليس هناك ما يمكن أن نخجل منه في حقيقة أننا استعملنا اضطهاد اليهود في ألمانيا من أجل البناء في فلسطين. هذا هو ما علمنا إياه حكماؤنا وقادتنا منذ القدم... أن نستفيد من الكوارث التي تلحق بالشعب اليهودي في المهجر من أجل البناء[٤٠].

ولكن أفضل مثال على عدم استعداد القيادة لمقاومة النازيين كان هو بيان وايزمان:

> إن الرد الوحيد الكريم والفعال حقاً على كل ذلك الذي يقع على اليهود في ألمانيا هو ذلك الصرح الذي أقيم بعملنا العظيم والجميل في أرض إسرائيل. . . لقد خلق شيء ما سيحول كل الكوارث التي نعانيها إلى أغان وأساطير لأحفادنا(٤١).

وناورت رئاسة المؤتمر لكي تبعد أي نقاش جاد حول المقاومة عن ساحته، وتم شطب اسم وايز من قائمة المتكلمين خوفاً من أنه قد يدين هتلر، فهدد بالخروج من المؤتمر إذا لم يسمح له بالكلام، ولما كان المؤتمرون يعرفون أنهم لا يمكنهم تحمل خروج أشهر صهيوني في أمريكا بسبب مثل هذه القضية المثيرة للجدل، فإنهم رضخوا أخيراً وتركوه يتكلم. وقف عندئذ وقال إنه يعارض هتلر ـ وهو إعلان من الصعب أن يجذب أي انتباه في معظم التجمعات الأخرى ـ وجلس. وبالفعل فإنه وآبا هليل سلفر لم يفعلا شيئاً أبداً أكثر من مجرد الكلام عن المقاطعة. وبحلول عام ١٩٣٥ لم يكن هناك في أمريكا أي شيء يشبه ولو عن بعد تنظيماً لمقاطعة فعالة. في الممارسة لم يكن لديهم أي برامج بديلة لمقاومة فعالة. والآن مع التركيز الأساسي على فلسطين كملجأ لليهود الألمان، فإنهم سلموا لوايزمان وشجعوا «الها آفارا»، وبعد مؤتمر لوسيرن لم تعد هناك أي خلافات جدية بينهم وبين الحركة الدولية. وفي النهاية فإن الاحتجاج الرسمي الوحيد ضد الهتلرية الذي قام به الاجتماع كان هو إلغاء نصف يوم من أيام اجتماعاتهم وهي إيماءة لا معنى لها.

لم يكن أمام وايزمان إلا صعوبة فعلية صغيرة لكي يحمل المؤتمر على تشجيع «الهاآفارا رسمياً» ولكن المعارضة كانت قادرة على عرقلة واحد من نشاطاته. فممول «الهاآفارا»، «الشركة التجارية للشرقين الأدنى والأوسط»، كانت قد أقيمت لجذب زبائن جدد لألمانيا في كل الشرق الأوسط. وكان «الاتحاد الصهيوني المصري» قد هدد بكشف الفضيحة إن لم تضع المنظمة العالمية حداً لها، وهكذا، ولصالح المحافظة على المشروع الأكبر فإن القيادة ضحت وإن على مضض بعملية «الشركة التجارية للشرقين الأدنى والأوسط»، نيميكو.

لم يفعل استسلام الأمريكيين شيئاً في تهدئة المعارضة اليهودية في كل مكان آخر. وصدرت الانتقادات الصحفية فوراً. وشجبت مجلة **يهود العالم** (وُورلْد جويري) الصادرة في لندن، وكانت حينئذ أفضل المجلات الصهيونية باللغة الانجليزية، شجبت مؤتمرهم

العالمي: «لقد ذهب الدكتور وايزمان إلى حد القول بأن الجواب الكريم الوحيد الذي يمكن أن يقدمه اليهود هو الجهد المتجدد لبناء فلسطين. أي رعب ألقاه إعلان رئيس المؤتمر في آذان الهر هتلر والهر شْترايْتشر والهر جوبلز[٤٢].

وشاركت الصحافة الصهيونية غير الرسمية في بريطانيا المشاعر العامة المتزايدة بأن الحرب مع هتلر حتمية، ولم تتمكن من فهم الغياب الكلي لأي نقاش جاد حول النازية في المؤتمر. ووصف مراسل المجلة الاجتماع بأنه مثبط بشكل غريب: «كان لدينا جدول أعمال يناسب هيئة من مديري شركة محدودة المسؤولية أكثر مما يناسب اجتماعاً قومياً بين أيديه المصير القومي»[٤٣]، حتى مجلة «**الجويش كرونيكل**»، والتي كانت دائماً بوقاً للمؤسسة اليهودية، شكت في نفس الاتجاه: «كانت الإجراءات في معظمها بطيئة وغبية كأنما هو نقاش حول وزارة المستعمرات في مجلس العموم صباح يوم جمعة»[٤٤]. وشعرت أنها مضطرة لإدانة قرار «الها آفارا»:

المشهد يحير العالم الذي نطلب تعاطفه، وهو يثبط همة اليهود الذين كانت المقاطعة بالنسبة لهم سلاحاً من الأسلحة القليلة في أيديهم، والذين يرون أنفسهم اليوم وقد تخلت عنهم الحركة التي لهم الحق كله تقريباً في أن يزعموا أنها حليفتهم في نضالهم[٤٥].

كانت المعارضة «للها آفارا» في أمريكا شديدة بشكل خاص من جانب نقابات صناعة الملابس حيث مئات الآلاف من العمال اليهود. كان معظم قادة العمال اليهود ينظرون دائماً إلى الصهيونية باحتقار. كثيرون منهم كانوا من روسيا وكانوا على علم باجتماع هرتزل ـ بْليفي المشؤوم وكيف أن عدوهم القديم زوباتوف قد ساند «بوعالي صهيون» ضد «البوند». وفي حدود ما كان يعنيهم الأمر، كانت «الها آفارا» مجرد عودة الصهيونية إلى ألاعيبها القديمة. وفي ديسمبر / كانون أول عام ١٩٣٥ تجادل باروخ شارْني فْلادِك، رئيس لجنة العمال اليهودية، وكان من أعضاء البوند سابقاً في بولندا مع بيرْلْ لُوكَر، المسؤول التنظيمي عن «بوعالي صهيون» الفلسطيني أمام جمهرة ضخمة في نيويورك.

اضطر لوكر لأن يتخذ موقف الدفاع مصرّاً على أن الاتفاق كان لصالح اليهود الألمان بشكل بحت. بالإضافة، كما قال، إلى أنهم كان من الممكن أن يحضروا البضائع إلى البلاد بأنفسهم في حالة عدم وجود اتفاق. وذكر أنه لو لم يكن هناك اتفاق كان الوضع

سيكون أسوأ كثيراً في هذا المجال: «كانت فلسطين مواجهة **بالأمر الواقع**. . . إن اتفاق التحويل يمنع إغراق البلاد بالتجارة الألمانية طالما أن البضائع لا تصل إلا بحسب الحاجة إليها»[٤٦].

لم يكن من الممكن التغلب على فْلاديك بحيلة لوكر الواضحة. واستمر في الهجوم. وفي نيويورك كان الصهاينة العماليون المحليون يساندون المقاطعة في الولايات المتحدة وفي الوقت نفسه يبررون «الها آفارا» في فلسطين، وأدان أعضاء البوند القدامى لمحاولتهم الجري مع الثعلب والصيد مع الكلاب:

قد تجادل من الآن وحتى يوم الساعة، ولكن هذا نوع من الإزدواجية بأبشع صورها: أن لا يحطم أحد المقاطعة إلا اليهود في فلسطين! وأن لا يتعامل أحد مع ألمانيا إلا المنظمة الصهيونية. . . . . في قناعتي أن الغرض الرئيسي للتحويل ليس هو إنقاذ اليهود من ألمانيا بل تقوية المؤسسات المختلفة في فلسطين. . . وهكذا تصبح فلسطين العميل الأجرب الرسمي لتحطيم المقاطعة في الشرق الأدنى. . . لقد قال بيرل لوكر. . عندما جاءت الأنباء في أول الأمر عن اتفاق التحويل: «ليس لأي وكالة صهيونية أدنى صلة بالتحويل». . من ذلك يمكنني أن أستخلص أمراً واحداً: إن اتفاق التحويل هو وصمة على اليهود وعلى العالم[٤٧].

فإذا كان أغلبية اليهود قد عارضت «الها آفارا» بالفعل باعتبارها خيانة فقد كان هناك شخص واحد على الأقل يرغب في أن يعلن أنه يشكو لأن وايزمان وأصدقاءه لم يسيروا في هذا الشوط بما فيه الكفاية. في ذلك الوقت كان جوستاف كروينكر الذي نوقشت آراؤه من قبل في الفصل الثالث واحداً من قادة «جمعية المهاجرين الألمان في فلسطين»، وفي عام ١٩٣٦ نشرت الجمعية كتيّباً بعنوان **«التحويل: سؤال حيوي للحركة الصهيونية»**. فبالنسبة له كانت الصهيونية هي مجرد حساب بكل ما في الكلمة من معنى ولا شيء أكثر. وقد كان أكثر من راغب في الوصول إلى النتائج المنطقية الكامنة بالفعل في الاتفاق الصهيوني النازي. وقد زعم أنه ينظر إلى النازية والفرص التي فتحتها أمام الصهيونية بطريقة هرتزلية أصيلة:

كان استعراضه للوضع خالياً من أي ضغائن عقيمة، وقد قدّر أن هناك عاملين سياسيين ـ منظمة للشعب اليهودي من جانب، والبلاد المعنية من جانب آخر.

وكان لا بد لهما أن يكونا طرفين في اتفاق.

ووبّخ كروينكر القيادة لأنها لم تكن تملك الشجاعة لأن تشجع رسمياً «الهاً آفارا» في عام ١٩٣٣. وبالنسبة له كان ذلك مجرد تسليم لما اعتبره «عقلية المهجر». وقد أراد منهم أن يسيروا إلى أبعد من ذلك:

كان من الواجب على الحركة الصهيونية أن تسعى.. للتأثير على الحكومة الألمانية لكي تدخل في معاهدة شبه حكومية وأن تقبل الوضع وتحاول استخلاص أكبر ميّزة منها بالمعنى الصهيوني.

ولقد أصر على أن الخطوة الضرورية التالية كانت هي مساعدة النازيين في كسر المقاطعة في أوروبا نفسها من خلال توسيع «الها آفارا». إن ألمانيا «يمكن حتى أن تكون مستعدة لعقد اتفاقات ـ إذا كنا.... مستعدين لتوسيع منظومة «الها آفارا» إلى بلاد أخرى»(٤٨). ولكن قيادة المنظمة الصهيونية العالمية لم تكن في حاجة إلى مثل هذا التوجيه من كروينكر. فهو لم يكن يعرف أنهم كانوا قد قرروا بالفعل، سراً، أن يفعلوا ما طلب بالدقة، وأنه في ذلك الوقت ـ أي في مارس / آذار عام ١٩٣٦ ـ كانت مفاوضات (زيجفريد موزيس قد خلقت في النهاية بنك «الوكالة الدولية للتجارة والاستثمار» (إنْتريا) في لندن لتنظيم بيع المنتجات الألمانية مباشرة إلى بريطانيا نفسها(٤٩). كان على النازيين أن يرضوا أنفسهم بما توفره عملية تحطيم معنويات قوى المقاطعة، فإن الخوف من العداء اليهودي والبريطاني العام تجاه تحطيم المقاطعة جعل من المستحيل على «إنتريا» المضي إلى حد السماح للعملة البريطانية بالوصول مباشرة إلى أيدي ألمانيا. وبدلاً من ذلك كانت البضائع تُشترى في ألمانيا بالماركات، وكانت قيمتها تحول إلى الرأسماليين اليهود المحتاجين لمبلغ الألف جنيه استرليني، وهو رسم الدخول المطلوب للمهاجرين الزائدين على النسبة المقررة إلى فلسطين. واستمرت العلاقات التجارية الصهيونية ـ النازية في التطور في دوائر أخرى كذلك. وفي عام ١٩٣٧ شحنت ٢٠٠,٠٠٠ قفص من «البرتقال الذهبي» إلى ألمانيا، ومليون ونصف مليون قيراط آخر إلى البلاد الواطئة تحت العلم النازي (الصليب المعقوف)(٥٠). حتى بعد الكريست الناخت (ليلة الكريستال) (١١ نوفمبر/تشرين ثاني عام ١٩٣٨، وهي الليلة المفزعة للزجاج المحطم عندما أطلق النازيون أخيراً أصحاب القمصان البنية لتحطيم المحلات اليهودية) ـ استمر مدير «الهاآفار ليمتيد» فريند فِلشنفياد، في عرض أسعار مخفضة لمن يمكن أن يستعملوا الزوارق النازية. كان

كل همه طمأنة الموسوسين «بأن المنافسة مع المراكب البريطانية غير واردة لأن اتفاق التحويل هذا صالح للحمضيات التي يتم شحنها إلى الموانىء الهولندية والبلجيكية، وقد تم استبعاد الموانىء البريطانية نصاً»(٥١).

«إن المهم في وضع من هذا النوع هو الموقف المعنوي للشعب»:

بالطبع كان النازيون هم الرابحون الأول من «الها آفارا» فهي لم تساعدهم فحسب في طرد قلة أخرى من اليهود، ولكنها كانت ذات قيمة ضخمة في الخارج، لتوفيرها المبرر الكامل لكل أولئك الذين كانوا لا يزالون يرغبون في استمرار التجارة مع الألمان، وقد أحيتها في بريطانيا جريدة السير أوزولد موزلي، **القميص الأسود (بلاك شيرت)**:

> هل نتصور ذلك! نحن نجدع أنوفنا نكاية بوجوهنا ونرفض التجارة مع ألمانيا لكي ندافع عن اليهود الفقراء، واليهود أنفسهم في بلادهم يمكنهم أن يستمروا في عقد صفقات رابحة مع ألمانيا. إن الفاشيين لا يمكنهم مواجهة الدعاية الحقودة الساعية لتحطيم علاقات الصداقة مع ألمانيا بأفضل من استعمال هذه الحقيقة(٥٢).

إن التقييم النهائي لدور المنظمة الصهيونية العالمية خلال المحرقة لا يمكن القيام به إلا بعد معالجة العلاقات المتداخلة الأخرى بين الصهاينة والنازيين معالجة صحيحة. ومع ذلك فإن تقييماً أولياً «للها آفارا» يمكن القيام به الآن بشكل مأمون. يجب استبعاد كل الأعذار بأنها قد أنقذت حياة البعض من أي تقدير جدي. فلم يكن هناك صهيوني في الثلاثينيات يفكر بأن هتلر سيحاول استئصال اليهود من ألمانيا أو من أوربا، ولم يحاول أحد أن يدافع عن «الها آفارا» خلال عملها على هذا الأساس. كان المبرر هو أنها أنقذت ثروة لا حياة. وفي الحقيقة فإنها في أفضل الأحوال قد ساعدت بشكل مباشر آلافاً قليلة من اليهود بالمال، بأن سمحت لهم بالدخول إلى فلسطين بعد أن كانت الحصص (الكوتا) البريطانية قد تحددت، كما ساعدت آخرين بشكل غير مباشر بتوفيرها فرصة لهم بازدهار الاقتصاد الفلسطيني. ولكن كل معارض أصيل للنازية فهم أنه ما أن استولى هتلر على السلطة وأخذ اليهود الألمان بين مخالبه فإن النضال ضده لم يكن من الممكن أن يعرقله الاهتمام الزائد بمصيرهم. كانوا في الأساس أسرى حرب. وكان لا بد أن تستمر المعركة. وطبيعي أن أحداً لم يكن يرغب في أن يتحمل هؤلاء التعساء أي تعاسة أخرى غير ضرورية، ولكن أن توقف الحملة ضد النازية على أساس القلق على اليهود الألمان،

فذلك لم يكن ليفعل سوى الإسراع بمسيرة هتلر في أوربا. وبينما كانت المنظمة الصهيونية العالمية مشغولة بانقاذ أملاك، أو بشكل أصح جزء من أملاك البرجوازية اليهودية الألمانية، «أناس الألف جنيه استرليني»، فإن آلافاً من الألمان ـ بمن في ذلك يهود كثيرون ـ كانوا يحاربون في أسبانيا ضد فيلق «النسر» الخاص بهتلر وضد جيش فرانكو الفاشي. لقد ساعدت «الها آفارا» بالتأكيد النازيين في أنها حطمت معنويات اليهود الذين كان بعضهم صهاينة بنشر الوهم القائل بأنه كان ممكنا الوصول لنوع من صيغة التعايش مع هتلر. كذلك حطمت معنويات غير اليهود عندما عرفوا أن حركة يهودية على نطاق عالمي كانت على استعداد للوصول إلى اتفاق مع عدوها. ومن المؤكد أن «الها آفارا» قد أزاحت الحركة الصهيونية ذات قوة المليون عضو من خط جبهة المقاومة المعادية للنازية. إن المنظمة الصهيونية العالمية لم تقاوم هتلر بل سعت للتعاون معه، وكما يتضح من مقترحات أرلوسوروف ووايزمان بشأن بنكٍ للتصفية، فإن عدم استعداد النازيين لتوسيع ارتباطهم هو الذي منع تطور درجة أكبر من التعاون. أما أولئك الصهاينة، كما هو الحال بالنسبة لِـ «يهود العالم» الذين حاولوا معارضة هتلر فلا بد أيضاً من لومهم بشدة لأنهم فشلوا في خلق آلة مقاطعة يهودية، أو حتى صهيونية تكون أكثر فعالية. ولكن يجب أن يذكر لهم على الأقل موقفهم الأخلاقي إلى حد ما في أنهم حاولوا أن يفعلوا شيئاً للهجوم على النازيين. بالمقارنة، فإن وايزمان وشرتوك والذين شاركوهما التفكير يفقدون احترامنا حتى وإن أخذنا في الاعتبار ما قاله نقادهم من الصهاينة وتجاهلنا كل الرأي العام اليهودي الآخر. وفي أفضل الأحوال يمكن القول بأن وايزمان وجماعته كانوا المعادل لنيفيل تشمبرلين(*)، في فشله المعنوي والسياسي. وبعد الحرب والمحرقة كتب ناحوم جولدمان النادم الآسف الغارق خزياً في دوره المعيب خلال مرحلة هتلر، عن لقاء درامي ثم بينه وبين وزير الخارجية التشيكي ادوارد بِنْيش في عام ١٩٣٥. إن رواية جولدمان الحية عن تحذير بنيش لليهود. تقول كل ما يمكن أن يكون مطلوباً أن يقال عن «الها آفارا» والفشل المذل للمنظمة الصهيونية العالمية في مقاومة النازيين:

صاحَ، «ألا تفهم»، إنه «إذا اقتصر رد الفعل على مجرد إيماءات فاترة والفشل في

---

* تشمبرلين: رئيس وزراء بريطانيا، صاحب سايسة «التهدئة» تجاه النازية. وقع مع النازية اتفاقاً في سبتمبر، أيلول ١٩٣٨ يوافق فيه على ضم ألمانيا لأجزاء من تشيكوسلوفاكيا طمعاً في توجيه خطر النازية بعيداً عن الغرب باتجاه الشرق (المترجم).

إثارة رأي عام عالمي، واتخاذ إجراءات شديدة وقوية ضد الألمان، فإن اليهود يعرضون للخطر مستقبلهم وحقوقهم الإنسانية في كل أنحاء العالم»؟ . . . كنت أعرف أن بينيش على حق. . في هذا السياق لم يكن النجاح وارداً. وكان المهم في وضع من هذا النوع هو موقف الشعب المعنوي واستعداده للنضال بدلاً من أن يسمح لنفسه بأن يُذبح في يأس(٥٣).

هوامش الفصل السادس:

22. Yehuda Bauer, *My Brother's Keeper*, p. 129.
23. 'Justification of the Zionist Congress', *Zionist Record* (South Africa, 4 October 1933), p. 5.
24. Moshe Beilenson, 'The New Jewish Statesmanship', *Labor Palestine* (February 1934), pp. 8-10.
25. 'Untermyer, Rabbi Silver Denounce Deals Reported Negotiated with Germany', *Jewish Daily Bulletin* (30 August 1933), p. 4.
26. 'The Palestine Orange Agreement', *Jewish Weekly News* (Melbourne, 10 November 1933), p. 5.
27. Clarence Streit, 'League Aid Asked for German Jews', *New York Times* (9 September 1933), p. 5.
28. 'Dr Stephen Wise on Policy of World Jewry', *World Jewry* (London, 24 August 1934), p. 395.
29. Braatz, 'German Commercial Interests in Palestine', p. 504.
30. Chaim Weizmann, 'To Arthur Ruppin', 3 July 1935, in Barnett Litvinoff. (ed.), *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Letters*, vol. XVI, p. 464.
31. Ibid., pp. 465-6.
32. Arthur Ruppin, *The Jews in the Modern World* (1934), pp. 256-7.
33. Nahum Goldmann, *Autobiography*, p. 112.
34. Ruppin, *Jews in the Modern World*, p. xiii.
35. Weizmann, 'To Lewis Namier', 1 October 1933, *Letters*, vol. XVI, p. 54.
36. 'Nineteenth Congress Report', *Canadian Zionist* (September 1935), p. 8.
37. Paul Novick, *Zionism Today* (1936), p. 4.
38. 'Executive Defines its Policies in Reply to Opposition', *New Palestine* (20 September 1935), p. 24.
39. Ruth Bondy, *The Emissary: A Life of Enzo Sereni*, p. 141.
40. Novick, *Zionism Today*, p. 5.
41. Barnett Litvinoff, *Weizmann – Last of the Patriarchs*, p. 182.
42. 'Kiddush Hashem', *World Jewry* (6 September 1935), p. 1.
43. 'Has Congress a Message to Deliver?', *World Jewry*, (30 August 1935), p. 1.
44. 'Reflections on the Zionist Congress', *Jewish Chronicle* (London, 20 September 1935), p. 24.
45. 'Zionists close their Ranks', *Jewish Chronicle* (London, 6 September 1935), p. 9.
46. 'Debating the Issues of the Transfer', *Call of Youth* (January 1936), pp. 3-12.
47. Ibid., pp. 3-6.
48. Gustav Krojanker, *The Transfer: A Vital Question of the Zionist Movement*, pp. 7-10 and 15.

49. Bauer, *My Brother's Keeper*, p. 129.
50. 'Reflections', *Palestine Post* (14 November 1938), p. 6.
51. Werner Felchenfeld, 'Citrus on German Ships', *Palestine Post* (Letters) (17 November 1938), p. 6.
52. 'Blackshirts Peeved at Reich-Zion Trade', *Jewish Daily Bulletin* (6 February 1935), p. 5.
53. Goldmann, *Autobiography*, p. 148.

٧ ـ هتلر ينظر إلى الصهيونية

إن رأي هتلر في اليهود والمشكلة اليهودية معبَّر عنه بشكل محدد في كتابه كفاحي. وهو يكتب فقرات مطولة جداً ليظهر أن كراهيته لليهود هي أمر معقول تماماً وأنها نابعة من الخبرة ومن الاستدلال المنطقي المستخلص من الأدلة الواضحة. وأصر دائماً على أن افكاره الأولى تجاه اليهود كانت حميدة. وأن أباه «السيد العجوز» كان ينظر إلى معاداة السامية باعتبارها من بقايا التعصب الديني، ويقول لنا إن هذا كان موقف أدولف الشاب المتنور. ولم يناقش هتلر إفتراضاته العفوية المتعلقة بصباه إلا بعد أن ماتت أمه وانتقل من مدينة لينتز الريفية إلى فيينا عندما وجد الفرصة لذلك. فهناك تجول في المدينة القديمة الداخلية حيث قابل واحداً من المتدينين الجاليسيين اليهود(*): شبح غريب في قفطان أسود وخصل سوداء من الشعر. هل هذا يهودي؟ كان ذلك أول ما فكرت فيه. ولكنه كلما أمعن الفكر فيها رأى كلما اتخذ سؤاله شكلاً جديداً: «هل هذا ألماني»[1]. ؟ في هذا السياق من تأملاته الأولى حول ما كان يعد بالنسبة له مسألة مركزية خاصة بالوجود، قدّم هتلر الصهيونية في معزوفته؛

ومهما كانت الشكوك التي ربما كنت لا أزال أغذيها فانها في النهاية قد طردت بموقف قسم من اليهود أنفسهم. فبينهم كانت حركة كبرى، ضخمة جداً في

* Galician Hasid، كانت جاليسيا إقليماً كبيراً في وسط أوربا تقسم إلى ثلاث مناطق: روسيا، وبولندا، والنمسا، ثم اقتسمته روسيا وبولندا بعد الحرب العالمية الثانية. وهاسيد، مفرد هاسيديم، طائفة يهودية متدينة في وسط أوربا. (المترجم).

فيينا، برزت بشكل حاد لتأكيد الطابع القومي لليهود: هؤلاء كانوا **الصهاينة**.

ويبدو من المؤكد وكأنما جزء فقط من اليهود يوافق على وجهة النظر هذه بينما الأغلبية تدينها وترفض في نفوسها مثل هذه الصياغة ولكن. . . ما يسمى باليهود الليبراليين لم يرفضوا الصهيونيين باعتبارهم غير يهود، وإنما لأنهم فقط يهود لهم طريقة غير عملية، بل وربما خطرة للمجاهرة علناً بيهوديتهم[٢].

لا يوجد برهان أفضل على الدور الكلاسيكي للصهيونية باعتبارها مرافقة لمعاداة السامية مما يقوله هتلر نفسه. فالقارىء يتساءل ما الذي يريده أي إنسان عاقل أكثر من ذلك؟ ومع ذلك فقبل عام ١٩١٤ لم يكن هتلر في حاجة لأن يشغل نفسه أكثر بالصهيونية لأن آفاق إحياء الدولة اليهودية بدت بعيدة جداً. لقد كان إعلان بلفور، وهزيمة ألمانيا وثورة فيمار، هي ما جعله يفكر ثانية في الصهيونية. وطبيعي أنه قد جمع الأحداث الثلاثة معاً. لقد أظهر اليهود الخونة ألوانهم الحقيقية بالطريقة التي رحبوا بها بإعلان بلفور، وكان الاشتراكيون الديمقراطيون الذين هم خدم اليهود هم الذين أسقطوا القيصر، ولولاهم لكسبت ألمانيا. وفي عام ١٩١٩، التحق هتلر بالاشتراكيين الوطنيين الذين كانوا قليلين جداً وأصبح هو الذي يسير الغوغاء السكارى. ولكن الأيديولوجي المسيطر في الأمور الأكثر دقة المتعلقة بالمسألة اليهودية كان هو اللاجىء[٣] الألماني من البلطيق ألفريد روزنبرغ الذي طور نظرياته عندما كان في بلده الأصلي أستونيا. وبحلول عام ١٩١٩ كان روزنبرج قد شرح الصهيونية في كتابه، **آثار اليهود في تقلبات الزمن**. لم يكن الأمر أكثر من لعبة يهودية أخرى، فالصهاينة لا يريدون سوى خلق مكمن للتآمر اليهودي الدولي. فاليهود كانوا بحكم الطبيعة العرقية غير قادرين عضوياً على بناء دولة خاصة بهم، ولكنه شعر أن الأيديولوجية الصهيونية مفيدة بشكل رائع كمبرر لحرمان يهود ألمانيا من حقوقهم وأنه ربما كانت هناك إمكانية لأن تستعمل الحركة الصهيونية في المستقبل من أجل تشجيع الهجرة اليهودية. وسرعان ما بدأ هتلر يلمس هذه المقولات في أحاديثه، وفي ٦ يونيو/تموز عام ١٩٢٠ أعلن أن فلسطين هي المكان الصحيح لليهود وأنه هناك فقط يمكنهم أن يأملوا في الحصول على حقوقهم. وبدأت المقالات التي تؤيد الهجرة إلى فلسطين تظهر في مجلة الحزب، «فولْكِشِه بِأوبَخْتَر» (الراصد الشعبي).

وبعد عام ١٩٢٠ كان دعاة الحزب يعودون إلى نفس النقطة بشكل دوري، مثلما فعل **يوليوس شترايْشر** في خطاب له يوم ٢٠ أبريل/نيسان ١٩٢٦ أمام البرلمان

البافاري[٣]. أما بالنسبة لهتلر فإن صلاحية الصهيونية لم تكن إلا في تأكيدها بأن اليهود لا يمكن أن يكونوا ألماناً أبداً.

كتب في كتاب **كفاحي**:

لأنه بينما يحاول الصهاينة أن يجعلوا بقية العالم يؤمنون بأن الوعي القومي لليهود يجد تعبيره في خلق دولة فلسطينية، فإن اليهود يخدعون «الأمم» غير اليهودية بخبث. لم يحدث أبداً أن سكن في رؤوسهم أنهم سيبنون دولة يهودية، بهدف الحياة هناك. كل ما يريدونه هو تنظيم مركزي لاحتيالهم الدولي العالمي وقد مُنح حقوق السيادة الخاصة به وأُبعد عن تدخل الدول الأخرى. مجرد مأوى للسفلة المجرمين المدانين وجامعة للمحتالين الناشئين[٤].

إن اليهود تنقصهم السمة العرقية الحيوية لبناء دولة خاصة بهم. أنهم ديدان طفيلية في الجوهر تنقصهم المثالية الطبيعية ويكرهون العمل. واستطرد موضحاً:

من أجل أن يكون لتشكيل الدولة تركيبة مكانية محددة، فإن ذلك يفترض دائماً ومسبقاً موقفاً مثالياً من جانب العِرق المشكِّل للدولة، وبشكل خاص تفسيراً صحيحاً لمفهوم العمل. وعلى قدر غياب هذا الموقف على وجه الدقة فان أي محاولة لتشكيل أو حتى الحفاظ على دولة محددة مكانياً، تفشل[٥].

وبالرغم من أية نغمات مبكرة حول كفاءة الصهيونية في تشجيع الهجرة في نهاية الأمر، فإن النازيين لم يبذلوا أي جهد لاقامة أي علاقات مع الصهاينة المحليين. وعلى العكس، فعندما اجتمع المؤتمر الصهيوني في فيينا في عام ١٩٢٥ كان النازيون بين أولئك الذين أثاروا الشغب ضد وجوده[٦].

رعاية النازية للصهيونية

هل خطط هتلر دائماً لقتل اليهود؟ لقد وضع بعض الأفكار الأولى في كتاب **كفاحي**:

لو أن الطبقة العاملة الألمانية في عام ١٩١٤ في قناعاتها الداخلية كانت لا تزال تتشكل من الماركسيين لانتهت الحرب في ثلاثة أسابيع. كانت ألمانيا ستنهار حتى قبل أن يضع أول جندي قدمه عبر الحدود. إن حقيقة أن الشعب الألماني كان لا يزال يحارب عندئذ تثبت أن الأوهام الماركسية لم تكن قادرة على أن تحفر

طريقها إلى عمق أعماق القاع. ولكن وبنفس النسبة التي سقط فيها في مجرى الحرب العاملُ الألماني والجندي الألماني في أيدي القادة الماركسيين، بنفس هذه النسبة بالدقة فقده الوطن. فلو أنه في بداية الحرب وخلال الحرب تم تعريض ١٢,٠٠٠ أو ١٥,٠٠٠ من مفسدي الشعب العبريين هؤلاء للغاز(*)، كما حدث لمئات الآلاف من أفضل عمالنا الألمان في الميدان، لما كانت تضحيات الملايين على الجبهة لتذهب سدى(٧).

ومع ذلك فإن هذه الأفكار لم تكن أبداً أساس التحريض الشعبي النازي قبل إنقلاب عام ١٩٣٣. وبدلاً من ذلك ركز النازيون أساسا على إدانة اليهود بدلاً من شرح ماذا سيفعلون بهم إذا كسبوا. ومع ذلك، ولعقود من الزمن، كان شعار «إركلوهم إلى فلسطين» هو شعار معاداة السامية الأوربية، وقد استعمل الدعاة النازيون هذا الشعار في تحريضاتهم. وفي يونيو/حزيران عام ١٩٣٢ كان محور مظاهرة من أكبر مظاهراتهم المعادية لليهود في بْرِسْلَو(**) في سيلسيا، هي راية ضخمة تقول لليهود «استعدوا لفلسطين»! وخلال المقاطعة المعادية لليهود في أول ابريل/نيسان عام ١٩٣٣ كان المشتركون في مسيرات أمام المحلات الكبرى يوزعون على المارة ذوي السحنة اليهودية(٩) تقليداً لتذكرة ذهاب إلى فلسطين دون عودة. وأعلن البيان النازي الرسمي الذي دعا إلى المقاطعة المعادية لليهود أن المشاعر المعادية للنازية في الخارج ترجع إلى أن يهود العالم «يحاولون العمل على أساس برنامج أعلنه في عام ١٨٩٧ الزعيم الصهيوني هرتزل» وذلك لتحريك الدول الأجنبية ضد أي بلد يعارض اليهود(١٠). ومع ذلك لم يكن أي شيء من ذلك خطيراً جداً، كان مجرد تعبير آخر عن معاداة السامية المسعورة. ولم يفكر هتلر حتى حصوله على السلطة بشكل جدي في ما يمكن أن يفعله مع اليهود. وفيما عدا ما ذكره في كتاب كفاحي لا يوجد دليل يثبت أنه أبلغ حتى أقرب معاونيه ما قد خططه في نهاية الأمر. ذلك على أي حال، وكما كان يشكو دائماً بين خاصته، لأن رجل قوات العاصفة العادي كان في أساسه رخواً وثرثاراً فإذا تحدثت أمامه عن قتل كل اليهود فمن المؤكد أنه كان سيجد مبررات «ليهوديه الطيب» وعندئذ ماذا ستفعل؟ وبالإضافة إلى ذلك فإن للرأسماليين إتصالاتهم المالية اليهودية في الخارج كذلك هناك الكنائس ووساوسها حول

---

* إشارة إلى استخدام الغازات السامة في الحرب العالمية الأولى.

** برسلو Breslaw من مقاطعة سيلسيا، التي أعطيت لبولندا بعد الحرب العالمية الثانية ، تقع على نهر الأودر وهي بلدة تاريخية صناعية. (المترجم).

القتـل. وقد حـل هتلر هذه المشكلة بـأن أهملها فحسب تاركاً لكـل إدارة في الحـزب والحكومة أن تتحسس طريقها إلى سياسة مناسبة. وكان هناك حتماً مدارس متناقضة. إن الإرهاب المباشر له دائما دعاته، ولكن هؤلاء كانوا دائما مواجَهـين بأولئك الـذين كانـوا يرون أن اليهود عميقو الجذور في الاقتصاد المحلي ولهم صـلات كثيرة بـالخارج أيضـا. وكان لفكرة فرض الجيتو بشكل فوري أنصارها، ولكنها كانت تقابل بالاعتراضات ذاتها. وكانت الهجرة هي الحل الجلي ولكن إلى أين؟ فلم يقتصر الأمر على أن أي هجرة يهودية بالجملة كانت ستجعل برلين غير مقبولة شعبيا بين العواصم الأخرى، ولكنه كان يتعلق أيضا بما يمكن أن يحدث بعد وصول أعداد كبيرة من اليهود إلى أي من المدن الكبرى في العالم؟ كانوا سيحفزون الآخرين، ليس فقط اليهود، ضد الرايخ، ومن الممكن أن يكون ما لهم من تأثير على التجارة الألمانية، مدمراً. في إطار هذا السياق ظهر الصهاينـة لأول مرة: سام كوهين عن «هانوتئا»(*)، والاتحاد الصهيوني لألمانيا، باقتراحاتهم.

كان «للهاآفارا» مزايا واضحة بالنسبة للنازيين. فإذا ذهب اليهود إلى فلسطين فلن يكونوا قادرين على الشكوى إلا ليهود آخرين. وفي الحقيقة ربما أصبحوا هناك ذوي تأثير نحو الاعتدال طالما أن الخوف من المضاعفات الأسوأ بالنسبة لأقاربهم في ألمانيا إذا ما تم عمل شيء يدفع الألمان لإلغاء اتفاق التحويل، سيجعلهم يترددون في الإقدام عـلى أي تحريض على نطاق واسع. ولكن أهم استعمال لاتفاق «الهاآفارا» كان في الدعاية. فلقد أصبح لدى النازيين الآن ما يمكن أن يظهروه لمنتقديهم الأجانب الذين قـالوا إنهم غـير قادرين على اتباع أي سياسة تجاه اليهود سوى القسوة الجسدية. وفي ٢٤ اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٣ نعق هتلر كالغراب في خطاب له بأنه هو الـذي كان يحسن إلى اليهـود بالفعل وليس نقاده:

يؤكـد الناس في انجلترا أن أذرعهم مفتوحـة للترحيب بكـل المقهـورين، خصوصاً اليهود الذين تركوا ألمانيا. . . ولكن لا يزال من الأفضل لو أن انجلترا لا تجعل إيماءتها هذه وقفاً على امتلاك ألف جنيه استرليني ـ يجب على انجلترا أن تقول: «أي شخص يمكن أن يدخل» ـ كما فعلنا لسوء الحظ لمدة ثلاثين عاما. فلو أننا أعلنا نحن أيضا أنه لا يمكن لأحد أن يدخل ألمانيا إلا بشرط إحضـار ألف جنيه استرليني معه أو أن يدفع أكثر، عندئذ ما كانت ستكـون لدينـا أي

* Hanotea = هانوتئا: شركة حمضيات في فلسطين تعاملت مع النازيين. (المترجم).

مشكلة يهودية على الإطلاق. وهكذا أثبتنا نحن الشعب المتوحش مرة أخرى أننا أكثر إنسانية، ربما أقل في الاحتجاجات الخارجية، ولكننا كذلك على الأقل في أفعالنا. وما زلنا حتى الآن كرماء بنفس الدرجة ونعطي للشعب اليهودي نسبة أعلى بكثير كنصيبهم في إمكانية العيش أكثر مما نملك نحن(١١).

كانت ألمانيا النازية تتبع إرادة الفوهرر باعتبار أن لها قوة القانون، لذا ما أن نطق هتلر حتى كبرت سياسة مشجعة للصهيونية بشكل علني. كذلك فإن هانس فْرانك في اكتوبر/تشرين أول، وكان وقتها وزير العدل البافاري، والذي أصبح فيما بعد الحاكم العام لبولندا، أبلغ مؤتمر الحزب في نورنبرج بأن الحل الأفضل للمسألة اليهودية، لليهود الأغيار (غير اليهود) على السواء، هو الوطن القومي الفلسطيني(١٢). كذلك وفي اكتوبر/تشرين أول بدأت «شركة الشحن الأمريكية هامبروج ساوث» خطاً مباشرا إلى حيفا مقدّمةً طعام كوشير صافيا على سفنها تحت إشراف حاخامية هامبورج»(١٣). كان اليهود لا يزالون قادرين على مغادرة البلاد إلى أي بلد يقبلهم، وإن كانت فلسطين قد أصبحت في ذلك الوقت هي الحل المفضل عند الدعاة للمسألة اليهودية. ومع ذلك كان الصهاينة لا يزالون مجرد يهود كما أفصح عن ذلك بدقة بالغة جوستاف جِنْتر من «مدرسة التربية الألمانية»:

إن الأمر يشبه تماماً علاقاتنا الودية الآن مع روسيا السوفياتية، بالرغم من أن روسيا كبلد شيوعي يمثل خطراً على دولتنا الاشتراكية الوطنية فإننا سنتخذ نفس الموقف تجاه اليهود إذا ما أقاموا أنفسهم كأمة مستقلة بالرغم من أننا نعلم أنهم سيظلون دائماً أعداءنا(١٤).

وإذا لم يكن ذلك كافياً فإن لعبة الأطفال، «فليخرج اليهود»، لم تترك أية أوهام حول كيفية رؤية النازيين للصهيونية. كانت قطع اللعبة بيادق صغيرة ترتدي قبعات يهودية مدببة من النوع الشائع في العصور الوسطى وكان اللاعبون يحركونها نتيجة القاء حَجَرَيْ زهر. وكان الطفل الرابح هو الذي ينطلق بيدقة اليهودي أولاً إلى الخارج، «ينطلق إلى فلسطين» عبر بوابات مدينة مسورة.(١٥) كانت الصهيونية محتقرة في ألمانيا النازية، ولكن الصهاينة كانوا في مسيس الحاجة إلى الرعاية النازية لكي يمكن أن يحصلوا على رأس المال الذي يحتاجونه في فلسطين، وسمحوا لأنفسهم بالإعتقاد بان «الهاآفارا» وكل الحديث الذي تبعها عن فلسطين سيؤدي إلى إتفاق له طابع حكومي.

«إن رضانا الرسمي سيصحبهم»

بحلول عام ١٩٣٤ كانت قوات العاصفة (إس إس) قد أصبحت العنصر الأكثر تشجيعاً للصهيونية في الحزب النازي. بل إن النازيين الآخرين كانوا يقولون إنهم «لَيِّنين» مع اليهود. كان البارون فون ميلدِنشتين قد عاد من زيارته لفلسطين التي استمرت ستة شهور كمتعاطف متحمس للصهيونية. وفي ذلك الوقت أصبح هو مسئول القسم اليهودي في جهاز الأمن الخاص بقوات (الإس إس)، وبدأ دراسة اللغة العبرية وجمع الاسطوانات العبرية، وعندما زاره رفيقه ومرشده السابق كورت توخْلر في مكتبه في عام ١٩٣٤ استقبله بنغمات من الألحان الشعبية اليهودية المألوفة(١٦). كانت هناك خرائط على الجدران تظهر القوة المتزايدة بسرعة للصهيونية داخل المانيا(١٧). وكان فون ميلدنشتين عند وعده: فهو لم يكتف فقط بالكتابة محبّذاً ما رآه في المستعمرات الصهيونية في فلسطين بل إنه حثّ جوبلز على أن ينشر التقرير كمسلسل من ١٢ جزءاً في مجلته الخاصة «**الهجوم**»، وهي مجلة الدعاية النازية الأولى (٩/٢٦ ـ ٩/١٠/١٩٣٤). لقد أظهرت الإقامة بين الصهاينة لرجل الإس إس «طريقة الشفاء من جرح عمره قرون في جسم العالم، هو المسألة اليهودية». ولقد كان مدهشاً بالفعل كيف أن بعض التراب الجيد تحت قدمي اليهودي يمكنه أن يفعمه بالحياة: «لقد أعادت الأرض تشكيله وتشكيل نوعه في عقد واحد. هذا اليهودي الجديد سيكون شعباً جديداً(١٨)». ولتخليد بعثة البارون أمر جوبلز بسك ميدالية عليها من ناحية الصليب المعقوف، ومن الناحية الأخرى النجمة الصهيونية(١٩).

وفي مايو/آيار ١٩٣٥ كتب رَيْنهارت هايْدْريش، الذي كان حينئذ رئيس جهاز الأمن في الإس إس، والذي أصبح فيما بعد «الحارس» المشهور على الأراضي التشيكية التي ضُمَّت إلى الرايخ، كتب مقالة بعنوان «العدو المنظور» لمجلة «**الفيالق السود**» وهي المجلة الرسمية للإس إس. في هذه المقالة قيّم هايدريش الاتجاهات المختلفة بين اليهود، معتبراً التمثّليين مثيرين للإستياء تماماً بالمقارنة مع الصهاينة. ولا يمكن التعبير عن تحيّزه للصهاينة بأكثر من التعبيرات التي لا لبس فيها بأنه:

بعد إستيلاء النازيين على السلطة، قلّصت قوانينا العرقية في الواقع النفوذ المباشر لليهود بشكل كبير. ولكن المسألة كما يراها لا تزال: كيف يمكن أن نكسب ثانية وضعنا القديم. . يجب أن نقسم اليهود إلى فئتين. . الصهاينة،

وأولئك الذين يحبذون أن يتمثّلوا. إن الصهاينة يتمسكون بموقف عرقي حازم، وبهجرتهم إلى فلسطين يساعدون في بناء دولتهم اليهودية.

وتمنى لهم هايدريش وداعاً حنوناً: «إن الوقت ليس ببعيد عندما تكون فلسطين قادرة ثانية على قبول أبنائها الذين فقدوها منذ أكثر من ألف عام. إن أمنياتنا الطيبة مع رضانا الرسمي سيصحبهم»(٢٠).

«كان تمييزاً مؤلماً أن يتم خص الصهيونية بالتشجيع»

دافع النازيون عن قوانين نورمبرج في سبتمبر/أيلول ١٩٣٥، وهي اللمسات النهائية للتشريعات الألمانية المعادية لليهود فيما قبل الحرب العالمية الثانية، باعتبارها تعبيرا عن تأييدهم للصهيونية. كانت لديهم على الأقل الموافقة الضمنية من الرؤساء الأكثر حكمة بين اليهود أنفسهم. وكما حدث ـ ومن الطبيعي أن ذلك كان أكثر من مجرد مصادفة ـ فإن كل صحيفة يهودية على النطاق القومي في ألمانيا كانت تحت الحظر المؤقت عندما أُعلنت هذه القوانين، إلا مجلة روندشاو. فقد نشرت المحظورات الواردة في القوانين مع تعليق من ألفريد بِرْنْدت وهو رئيس التحرير المسئول في مكتب أخبار المانيا. ويستذكر برندت أنه قبل اسبوعين فقط كرر كل المتحدثين في المؤتمر الصهيوني العالمي في لوسيرن أن يهود العالم لا بد أن يُنظر اليهم بشكل صحيح باعتبارهم شعباً منفصلا في حد ذاتهم بغض النظر عن مكان عيشهم. واستطرد قائلا حسنا إذن، إن كل ما فعله هتلر هو تلبية مطالب المؤتمر الصهيوني الدولي بأن جعل اليهود الذين يعيشون في ألمانيا أقلية قومية(٢١).

كان أحد أوجه هذه القوانين، التي طال نسيانها الآن ولكنها جذبت انتباها كبيرا في حينه، هو حقيقة أنه من الآن فصاعداً فإن علمين فقط هما المسموح بهما في الرايخ الثالث، الصليب المعقوف، والراية الصهيونية الزرقاء والبيضاء. بالطبع، أثار ذلك بشكل كبير الاتحاد الصهيوني في ألمانيا الذي أمل أن يكون إشارة على أن هتلر يقترب أكثر فأكثر من التفاهم معهم. ولكن ذلك كان بالنسبة لكثير من الصهاينة الأجانب، إذلالاً مهيناً. وقد عبر عن ذلك الجزع بشكل جيد مجلة ستيفن وايز، كونْجرس بولِتن:

إن الهتلرية هي قومية الشيطان، والإصرار على تخليص الجسم القومي الألماني من العنصر اليهودي، أدى بالهتلرية مع ذلك إلى اكتشاف «مؤاخاتها»

للصهيونية، التي هي القومية اليهودية للتحرير. لذلك أصبحت الصهيونية هي الحزب الآخر الوحيد المقنن في الرايخ وأصبحت الراية الصهيونية هي الراية الأخرى الوحيدة المسموح لها بأن ترفرف في أرض النازي. لقد كان تحيُّزاً مؤلماً للصهيونية أن يتم خصها بالتشجيع والمزايا من جانب نقيضها الشيطاني[٢٢].

كان النازيون كاملين في محبتهم للصهيونية كما في الأمور الأخرى. أما وقد تم تكوين اليهودكشعب منفصل له أرض منفصلة، ألا يجب أن يكون لهم أيضا لغة منفصلة؟ في عام ١٩٣٦ أضافوا عنصراً جديداً إلى سياسة «نحو فلسطين» إلى إجراءاتهم القمعية. وتوجب على مجلة الجبهة اليهودية (جويش فرانتير) ان تبلغ قراءها في أسى أن:

محاولات عزل اليهود في جيتو ثقافي قد بلغت حداً جديداً بمنع الحاخامين من استعمال اللغة الألمانية في احتفالات عيد الشانوكاه (٦ ديسمبر/كانون أول). ويأتي ذلك في سياق الجهود التي يبذلها النازيون لإجبار اليهود الألمان على استعمال اللغة العبرية باعتبارها واسطتهم الثقافية. وهكذا يمسك الشيوعيون المعارضون للصهيونية، بحماس بدليل آخر على التعاون النازي ـ الصهيوني[٢٣].

تساهل النازيين تجاه الصهيونية

في ربيع عام ١٩٣٤ تلقى هَنْريش هِمْلر، رئيس قوات الإس إس «تقدير موقف ـ المسألة اليهودية» من جهازه، يقول: «إن الأغلبية العظمى من اليهود لا يزالون يعتبرون أنفسهم ألماناً ومصممين على البقاء. وطالما أن القوة لا يمكن استعمالها خوفاً من المترتبات الدولية المحتملة، فإن الطريقة لتحطيم مقاومتهم هي بغرس هوية يهودية متميزة بينهم وذلك بالتشجيع المنتظم للمدارس اليهودية والفرق الرياضية اليهودية والفن والموسيقى اليهوديين واللغة العبرية، الخ. بالاشتراك مع مراكز إعادة التدريب المهني الصهيونية، فان ذلك سيحفز اليهود العنيدين للتخلي عن وطنهم، ومع ذلك فإن هذه الصيغة الرقيقة لم تكن كافية لأنه ما إن يبدأ الضغط الموجه ضدهم في التلاشي حتى يبدأ اليهود العنيدون التمترس ثانية. لذلك كانت السياسة النازية هي زيادة الدعم المقدم للصهيونيين بحيث يمكن لليهود أن يشاهدوا بوضوح أن الطريق لتحاشي المشاكل السيئة هو الالتحاق بالحركة. يبقى أن اليهود كلهم بمن في ذلك الصهاينة ظلوا يُضطهدون كيهود، ولكن في

داخل هذا الإطار كان من الممكن دائماً تخفيف الضغط. وطبقاً لذلك عمم الجستابو البافاري في ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٣٥ السياسة المعتادة بأنه منذ الآن فصاعداً: «فإن أعضاء المنظمات الصهيونية، نظراً لنشاطاتهم الموجهة نحو الهجرة إلى فلسطين لا يعاملون بنفس الحزم الضروري تجاه أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية (التمثّليين)[٢٤].

ولقد خلق النازيون التعقيدات لأنفسهم بخطهم هذا المشجع للصهيونية. كانت المنظمة الصهيونية العالمية تحتاج رأسمالاً يهودياً ألمانياً أكثر من حاجتها لليهود الألمان. كذلك فإنها كانت تعمل في ظل حصص الهجرة التي وضعها البريطانيون وكان أكثر أتباعها في بولندا، وكانت إذا قدمت شهادات هجرة كثيرة للألمان، لن يتبقى معها ما يكفي لقاعدتها المؤيدة في بولندا وغيرها من الأماكن. لذا أعطى الصهاينة ٢٢٪ فقط من الشهادات لألمان خلال الثلاثينات. بالإضافة إلى ذلك لم تكن المنظمة الصهيونية العالمية مهتمة بالأغلبية العظمى من يهود ألمانيا طالما أن هؤلاء لم يكونوا صهاينة ولا يتحدثون العبرية، وكباراً في السن جداً، وبالطبع أيضا، فليس لديهم الحِرف «الصحيحة». فإما أن تنظم الهجرة اليهودية إلى بلاد أخرى كذلك أو أن ألمانيا كانت ستنوء بيهود لا تريدهم ولا يريدهم الصهاينة أيضاً. وقد أدى التمييز النازي ضد المعادين للصهيونية إلى مشاكل بالنسبة للهيئات التي تعمل على صعيد عالمي مثل «لجنة التوزيع المشتركة اليهودية الامريكية» التي حاولت تزويد اليهود في البلاد الأخرى غير فلسطين بالمأوى والملجأ. وقد كتب يهودا باوَر، وهو واحد من أكثر الدارسين الاسرائيليين للمحرقة شهرةً على نطاق واسع، كتب عن حوارٍ حول المصاعب الناشئة بين مسئولين قياديين في «لجنة التوزيع المشتركة»:

> اعتقد [جوزيف] هيمان انه لا بد من إصدار بيان من اليهود الألمان بأن فلسطين ليست هي المخرج الوحيد، وهي بالطبع بصراحة، لم تكن. وافق [بيرنارد] كاهْن ولكنه أوضح أن النازيين أيدوا الصهيونية لأنها وعدت بأكبر هجرة لليهود من ألمانيا، ومن ثم فان القيادة اليهودية الألمانية لا يمكن أن تدلي بأي تصريحات عالمية حول المخارج الأخرى. كما لا يمكن بدرجة أكبر أن تذكر القرار بالمحافظة على المؤسسات اليهودية في ألمانيا. لقد فرق النازيون اجتماعاً في ألمانيا لسبب بسيط هو أن المتحدث قد قال «علينا أن ننهض باعباء الناس الذين يرحلون واليهود الذين يجب أن يبقوا في ألمانيا»[٢٥].

في الواقع العملي زال قلق النازيين حول المكان الذي يتوجب على اليهود الذهاب اليه «بضم» النمسا الذي أضاف يهوداً كثيرين معه بحيث إن المزيد من الاهتمام بالجهة التي يذهبون إليها كان من الممكن أن يعرقل برنامج الطرد. وفي اكتوبر/تشرين أول ١٩٣٨ اكتشف النازيون أن البولنديين كانوا على وشك سحب المواطنية من آلاف من مواطنيهم اليهود المقيمين في ألمانيا. لذلك قرروا ترحيل اليهود إلى بولندا فوراً بحيث لا يتحملون آلافاً من اليهود الذين لا دولة لهم. كانت حملة التطهير الباردة هذه هي التي أدت إلى موجة العنف الضخمة في «ليلة الكريستال» في نوفمبر /تشرين الثاني ١٩٣٨.

ولقد رويت القصة بعد سنوات عديدة في ٢٥ أبريل/نيسان عام ١٩٦١ عند محاكمة أدولف أيخمان. كان الشاهد زِنْدل جْرنزبان، وقد بات مسنّاً في ذلك الوقت، هو والد هرتزل جرنزبان الذي كان من فرط جزعه بسبب ترحيل والده إلى بولندا ثانية قد قتلَ دبلوماسياً ألمانياً في باريس موفراً للنازيين مبرر تلك الليلة الرهيبة من الزجاج المتحطم. وقد أخبرهم زندل العجوز عن ترحيله من منزله في هانوفر في ليلة ٢٧ اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٨. «عندئذ أخذونا في شاحنات شرطة وعربات سجون، كل عشرين رجل في شاحنة، وأخذونا إلى محطة سكة حديد. وكانت الشوارع ملأى بالناس الذين كانوا يصرخون: «**أيها اليهود اذهبوا إلى فلسطين**»[٢٦].

إن دلالة شهادة زندل ضاعت تماماً في خضم تفاصيل محاكمة أيخمان ولكن أولئك اليهود لم يرسَلوا إلى فلسطين كما كانت الغوغاء النازية تصيح، ولم يفكر المدعي في قاعة المحكمة في القدس في أن يسأل جرنزبان العجوز سؤالاً كنا فكرنا أن نسأله: «ماذا ظننت، ماذا ظن اليهود الآخرون عندما سمعوا تلك الصيحة الغريبة تخرج من الغوغاء البرابرة؟». إن زندل جرنزبان مات منذ وقت طويل.. مثلما مات معظمهم، إن لم يكن كل الآخرين الذين عانوا تلك الليلة الجهنمية، وليست لدينا إجابة على تساؤلاتنا، ولكن ما يهم بالفعل هو ما كانت تقوله الصيحات، لا المكان الذي كان يفكر فيه مَنْ هم داخل عربات الشرطة. ومع ذلك يمكننا أن نقترح ـ في حدود المعقول ـ أنه لو كان الاتحاد الصهيوني لألمانيا قد قاوم صعود النازية، ولو كانت المنظمة الصهيونية العالمية قد عبّأت اليهود ضد النظام الجديد، ولو كانت فلسطين هي معقل المقاومة اليهودية ضد النازية، لما قال النازيون أبداً لليهود، ولا لأولئك الغوغاء، إن مكان اليهودي هو في فلسطين. عندئذ، وفي ليلة الجمعة تلك في هانوفر، ربما كانت الصيحة ستكون «اليهود إلى بولندا،

بل وقد تكون بشكل مباشر «اقتلوا اليهود». إن الحقيقة المؤسفة هي أن الغوغاء صاحت بما صاح به لها أذناب هتلر: «اليهود إلى فلسطين».

النازيون يطلبون «مسلكاً أكثر صهيونية»

من المتفق عليه أن النازيين فضلوا الصهاينة على كل اليهود الآخرين. وبالرغم من أن يواخيم برنتس ربما قد جفل وهو يكتب مقالته عام ١٩٣٧، إلا أنه كان رجلاً أميناً فحسب وهو يقرّ آسفاً بأنه:

> كان من الصعب جداً على الصهاينة أن يعملوا. كان من المربك معنوياً أن يظهروا وكأنهم يُعتبرون الأطفال المفضلين للحكومة النازية، وبوجه خاص عندما حلت الحكومة مجموعات الشباب المعادية للصهيونية، وبدت بطرق أخرى وكأنها تفضل الصهاينة. لقد طالب النازيون «بمسلك أكثر صهيونية»[٢٧].

كانت الحركة الصهيونية دائماً تحت قيود صعبة في الثلاثينات في ألمانيا. وقد حظرت صحيفة روندشاو على الأقل في ثلاث مناسبات بين عام ١٩٣٣ ونوفمبر/تشرين ثاني عام ١٩٣٨، عندما أغلق النظام في النهاية مقار قيادة الاتحاد الصهيوني لألمانيا بعد ليلة الزجاج المحطّم. وبعد عام ١٩٣٥ حُظر دخول مبعوثي الصهيونيين العماليين إلى البلاد، ولكن حتى عندئذ، سمح لقادة صهاينة فلسطين بالدخول لعقد إجتماعات محددة. على سبيل المثال منح آرثر روبين تصريحاً بدخول ألمانيا في ٢٠ مارس/آذار عام ١٩٣٨ ليخاطب احتفالاً عقد في مكان مغلق في برلين عن تأثيرات هبّة عام ١٩٣٦، العربية في فلسطين. ومن المؤكد أن الصهاينة واجهوا مشاكل أقل بكثير مما واجه منافسوهم التمثّليون البرجوازيون في «المنظمة المركزية»، ولم يكن ما واجهوه ليقارن بما واجهه الشيوعيون في «داخاو»(*) في نفس الوقت الذي كانت مجلة روندشاو يُنادى عليها في شوارع برلين.

ومع ذلك فإن حقيقة أن الصهاينة قد أصبحوا «الأطفال المفضلين» لأدولف هتلر لم تؤهله أبداً لأن يكون «قومياً يهودياً». فحتى فون ميلدنشتين بكل اسطواناته العبرية تقبل خط الحزب عندما تحول إلى القتل الصريح. فخلال كل تلك الفترة لعب النازيون بالصهاينة كما تلعب القطة بالفأر. لن يفكر هتلر أبدا أنه سيدع أي إنسان يهرب منه

* داخاو Dachau: معسكر اعتقال جماعي نازي كبير.

لكونه يشجع اليهود على الذهاب إلى فلسطين. ولـو كان اليهـود قد ذهبـوا إلى أمريكـا البعيدة لربما كان غير قادر أبداً على الوصول إليهم ولبقوا دائماً أعداء الامبراطورية الألمانية في أوروبـا. ولكن بما أنهم ذهبوا إلى فلسطين بدلاً من ذلك؟ هناك كما قال عميل للجستابو لزعيم يهودي «سنلحق بكم»(٢٨).

لا يمكن للصهاينة أن يزعموا أبداً أن هتلر قد خدعهم. هم خدعـوا أنفسهم. إن نظريات هتلر عن الصهيونية بما في ذلك عدم قدرة اليهود المزعومة على خلق دولة، كلها كانت موجودة في ألمانيا، واضحة منذ عام ١٩٢٦. لقد تجاهل الصهاينة حقيقة أن هتلر يكره كل اليهود. وأنه يدين بوجه خاص أيديولوجيتهم. كان الصهاينة ببساطة رجعيين اختاروا بسذاجة التركيز على نقاط التشابه بينهم وبين هتلر. وأقنعوا أنفسهم أنهم بكونهم أيضاً عرقيين وضد الزواج المختلط ويؤمنون بأن اليهود كانوا أغراباً في ألمانيا، ولأنهم أيضاً كانوا معارضين لليسار، فإن تلك التشـابهات تكفي لأن تجعـل أدولف هتلر ينظر إليهم وكأنهم «الشركاء الأمناء» الوحيدون في وفاق دبلوماسي(٢٩).

هوامش الفصل السابع

1. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, p. 56.
2. Ibid.
3. Francis Nicosia, 'Zionism in Nationalist Socialist Jewish Policy in Germany, 1933–9', *Journal of Modern History* (on-demand supplement), (December 1978), pp. D1257–9.
4. Hitler, *Mein Kampf*, pp. 324–5.
5. Ibid., p. 302.
6. F.L. Carsten, *Fascist Movements in Austria*, p. 96.
7. Hitler, *Mein Kampf*, p. 679.
8. Donald Niewyk, *Socialist, Anti-Semite and Jew*, p. 149.
9. Elizabeth Poretsky, *Our Own People*, p. 134.
10. 'No Violence Urged', *Israel's Messenger* (Shanghai, 10 April 1933), p. 19.
11. Norman Baynes (ed.), *Hitler's Speeches, 1922–1939*, vol. I, p. 729.
12. Nicosia, 'Zionism in Nationalist Socialist Jewish Policy', p. D1263.
13. 'Hamburg-Haifa Direct Shipping Line', *Zionist Record* (20 October 1933), p. 15.
14. 'Members of Pro-Palestine Committee in Germany put on Anti-Semitic Blacklist', *Jewish Weekly News* (Melbourne, 30 March 1934), p. 6.
15. *Jewish Central Information Office – The Weiner Library – Its History and Activities 1934–45* (photograph between pp. 212–13).
16. Jacob Boas, 'The Jews of Germany: Self-Perception in the Nazi Era as Reflected in the German Jewish Press 1933–1938', PhD thesis, University of California, Riverside (1977), p. 110.
17. Heinz Hohne, *The Order of the Death's Head*, p. 333.
18. Leopold von Mildenstein (pseudonym von Lim), 'Ein Nazi fahrt nach Palastina', *Der Angriff* (9 October 1934), p. 4.
19. Jacob Boas, 'A Nazi Travels to Palestine', *History Today* (London, January 1980), p. 38.
20. Hohne, *Order of the Death's Head*, p. 333; and Karl Schleunes, *The Twisted Road to Auschwitz*, pp. 193–4.
21. Margaret Edelheim-Muehsam, 'Reactions of the Jewish Press to the Nazi Challenge', *Leo Baeck Institute Year Book*, vol. V (1960), p. 324.
22. 'Baal is not God', *Congress Bulletin* (24 January 1936), p. 2.
23. Abraham Duker, 'Diaspora', *Jewish Frontier* (January 1937), p. 28.
24. Kurt Grossmann, 'Zionists and Non-Zionists under Nazi Rule in the 1930s', *Herzl Yearbook*, vol. VI, p. 340.
25. Yehuda Bauer, *My Brother's Keeper*, p. 136.
26. Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem*, p. 228.
27. Joachim Prinz, 'Zionism under the Nazi Government', *Young Zionist* (London, November 1937), p. 18.
28. Lucy Dawidowicz, *The War Against the Jews*, p. 115.
29. Boas, *The Jews of Germany*, p. 111.

٨ـ فلسطين ـ العرب والصهاينة والبريطانيون والنازيون

كان العرب، لا الصهاينة، هم الذين اضطروا النازيين لإعادة فحص توجههم المؤيد للصهيونية. ففيما بين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٦ تدفق إلى فلسطين ١٦٤,٢٦٧ مهاجراً يهودياً، منهم ٦١,٨٥٤ جاءوا في عام ١٩٣٥ وحده. وزادت الأقلية اليهودية من ١٨٪ من مجموع السكان عام ١٩٣١ إلى ٢٩,٩٪ في ديسمبر / كانون أول عام ١٩٣٥، ورأى الصهاينة أنهم سيصبحون الأغلبية في المستقبل غير البعيد.

جاء رد فعل العرب أولاً على هذه الإحصائيات. فهم لم يكونوا قد قبلوا أبداً الانتداب البريطاني وهدفه المعلن بخلق وطن قومي يهودي في أرضهم. كانت هناك انتفاضات في عامي ١٩٢٠ و١٩٢١. وفي عام ١٩٢٩، وبعد سلسلة من الاستفزازات من جانب المتعصبين القوميين الصهاينة، والمتعصبين المسلمين عند حائط المبكى، انتفضت الجماهير المسلمة في موجة من المذابح الفظيعة انتهت بموت ١٣٥ يهودياً وبنفس العدد تقريباً من القتلى المسلمين، على يد البريطانيين أساساً.

كانت السياسة العربية الفلسطينية تسيطر عليها حفنة من العائلات الغنية. وكان الأكثر قومية هم آل الحسيني بقيادة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني. ولما كان المفتي شديد الورع والتقوى فإن رده على الاستفزازات الصهيونية عند حائط المبكي كان هو استنهاض المؤمنين ضد الصهاينة باعتبارهم كفرة وليس باعتبارهم عدواً سياسياً. كان شَكوكاً بالنسبة لأي إصلاح اجتماعي، وغير مستعد أبداً لتطوير برنامج سياسي يمكنه أن يعبىء الفلاحين الفلسطينيين، الأميين في معظمهم. كان غياب هذا البرنامج الخاص بالأغلبية

الفلاحية هو الذي ضمن بأنه لن يتمكن أبداً من خلق قوة سياسية قادرة على مواكبة الصهاينة الذين كانوا أقل عدداً ولكنهم أكفأ بدرجة كبيرة جداً. كان مضطراً لأن يبحث في الخارج عن سند يعطيه بعض القوة التي منعته سياسته الرجعية من توليدها من داخل المجتمع الفلسطيني. ووقع اختياره على إيطاليا.

كانت الصفقة مع روما سرية تماماً إلى أن كشفت بالصدفة في أبريل / نيسان عام ١٩٣٥، وذلك لأنه كان من الصعب إلى حد كبير تبرير عقدها في العالم العربي، كان موسوليني قد استعمل الغازات السامة ضد هبة السنوسي عام ١٩٣١ في ليبيا، وبالإضافة إلى ذلك كان مشجعاً للصهيونية علناً. ومع ذلك فقد كانت روما معادية للبريطانيين وكانت عازمة على دعم المفتي على هذا الأساس. تم دفع الدفعة الأولى في عام ١٩٣٤ ولكن ما تحقق سواء للفلسطينيين أو للإيطاليين كان قليلاً. وبعد بضع سنوات أقر وزير خارجية موسوليني، وهو زوج ابنته في نفس الوقت، جالياتْزو تشيانو، للسفير الألماني أنه:

حافظ لسنوات على علاقات مستمرة مع المفتي الأكبر الذي يمكن أن يروي حسابه السري حكاية طويلة. إن مردود هدية الملايين هذه لم يكن كبيراً، على وجه الدقة، وقد اقتصر في الواقع على تدمير خطوط الأنابيب بين الحين والآخر، وكان من الممكن إصلاحها بسرعة في معظم الحالات(١).

«هدف الهاجاناه - أغلبية يهودية في فلسطين»

لأن هتلر لم يكن يؤمن بأن اليهود قادرون على خلق دولة لهم، لم يترتب على ذلك أنه كان مشجعاً للفلسطينيين، فهم أيضاً كانوا ساميين. وفي العشرينات بدأ كثير من المجموعات السياسية الألمانية اليمينية في التعبير عن تعاطفهم مع الأمم المقهورة في الأمبراطورية البريطانية باعتبارهم من إخوانهم ضحايا انجلترا الغادرة. ومع ذلك لم يكن لدى هتلر أي شكل من أشكال هذا التعاطف، فالبريطانيون في النهاية هم من البيض.

إنني كإنسان من الدم الألماني أفضل بالرغم من كل شيء أن أرى الهند تحت الحكم الإنجليزي من أن تكون تحت أي حكم آخر. وبنفس الدرجة فإن الآمال في أي انتفاضة خرافية في مصر هي آمال مؤسفة. . إنني كإنسان شعبوي يقدر قيمة الإنسان على أساس عرقي فإن مجرد معرفتي بالدونية العرقية لأولئك

الـــذين يسمـــونهم «الأمم المقهـــورة» يمنعني من أن أربط مستـقبـــل شـعبـي بمستقبلهم(٢).

ومـع ذلك فـإن انتفاضـة الجماهـير العـربيـة الفلسـطينيـة في عـام ١٩٣٦ جعلت البريطانيين يعيدون التفكير في مترتبات سياستهم المشجعة للصهيونية. لقد ثار قلق شديد في أكتوبر / تشرين أول عام ١٩٣٥ عند اكتشاف الأسلحة في شحنة اسمنت ذاهبة إلى تل أبيب، وأصبح الوضع أكثر التهاباً في نوفمبر/تشرين ثاني عندما لجأ الشيخ عزالدين القسام، وهو واعظ مسلم له شعبية، إلى التـلال مع مجمـوعة من محـاربي العصابـات. فسرعان ما قتلته القوات البريطانية، ولكن جنازته تحولت إلى مظاهرة صاخبة غاضبـة. واستمرت الأزمة لعدة شهور قبل أن تنفجر في نهاية الأمر في مساء يوم ١٥ أبريل / نيسان عام ١٩٣٦ عندما أوقفت بقية من مجموعة القسـام السير عـلى طريق طـولكرم وسـرقوا المسافرين وقتلوا يهوديين. في الليلة التالية قُتل عربيان انتقاماً. وتحولت جنازة اليهوديين إلى مظاهرة صهيونية يمينية وبدأت الجمهرة تسير نحـو يافـا العربيـة. وأطلقت الشرطـة النار، وأصيب أربعة من اليهود، ومرة أخرى هوجم العرب في شوارع تل أبيب انتقاماً. وسرعان ما بدأت مسيرة مضادة نحو تل أبيب. واندلعت الانتفاضة. وتطورت إلى إضراب عام تلقائي. واضطر الضغط من أسفل الزمر المتنافسة داخل المؤسسة العربية للاتحاد في اللجنة العربية العليا تحت قيادة المفتي. ومع ذلك فإن اللجنة العليا، لخوفها من أن استمرار الهبَّة قد يؤدي إلى وضع الفلاحين خارج سيطرة قادتهم بشكل دائم، وعندما سيطرت أخيراً على لجان الإضراب دعت إلى وقف الاحتجاج يوم ١٢ أكتوبر/تشرين أول انتظاراً لنتائج تحقيقات بعثة ملكية بريطانية...

إلى أن قامت الهبَّة العربية كانت الرعاية النازية للصهيونية رعايةً دافئة، ولكن نادراً ما يُقَرُّ بها، كما رأينا. ومع ذلك فمع الدوامة السياسية في فلسطين وتعيين لجنة بيل فإن المنظمة الصهيونية العالمية وجدتها فرصة لحث النازيين على الإلتزام بهم علناً في فلسطين نفسهـا. وفي ٨ ديسمبر / كـانون أول عـام ١٩٣٦ ذهبت لجنة مشتـركة من الـوكـالـة اليهودية، وهي أعلى هيئة للمنظمة الصهيونية العـالمية في فلسـطين، وجمعية المهـاجرين الألمان، إلى مكتب دُويْله في القدس وهو القنصل العام الألماني. وكتب الباحث الصهيوني دافيد يسرائيلي عن هذه الواقعة يقول:

لقد سعوا من خلال دويله لحث الحكومة النازية على أن تجعل ممثلها في القدس

يقابل لجنة بيل ويعلن أن ألمانيا مهتمة بزيادة الهجرة إلى فلسطين لأنها متحمسة لهجرة اليهود من ألمانيا. ومع ذلك فقد رفض القنصل الاقتراح فوراً. وكانت أسبابه الرسمية هي أن اعتبارات زيادة الهجرة من ألمانيا كانت ستتناول حتماً مسألة التحويل، التي تضر بالصادرات البريطانية إلى فلسطين(٣).

الشيء المميز هو أن الصهاينة كانوا أكثر حماساً لتوسيع علاقاتهم من النازيين ولكن رفض دوْيله لطلبهم لم يمنعهم من القيام بمحاولات أخرى. كان من المعتقد أن نتائج بعثة لجنة بيل ستكون حيوية بالنسبة للمساعي الصهيونية، ولذلك فإن الهاجاناه التي كانت عندئذ الذراع العسكري للوكالة اليهودية (الميليشيا الصهيونية العمالية في الواقع) هي التي حصلت على إذن برلين بالمفاوضة مباشرة مع جهاز الأمن الخاص بقوات الإس إس المعروف باسم إس دي (S.D). ووصل عميل للهاجاناه يدعى فَيْفِل بُولْكِس إلى برلين يوم ٢٦ فبراير / شباط عام ١٩٣٦، وعين أدولف إيخمان كمفاوض له. كان أيخمان من رجال فون ميلدنشتين المؤيد للنازية وكان مثله مثل معلمه قد درس العبرية وقرأ هرتزل، وكان المختص بالصهيونية في جهاز الإس دي. تم تسجيل محادثات إيخمان ـ بولكس في تقرير أعده مسؤول أيخمان فرانتس ألبرت سِكْسْ، وقد وجد التقرير في ملفات الإس إس التي استولى عليها الجيش الأمريكي في نهاية الحرب العالمية الثانية:

إن بولكس صهيوني قومي... وهو ضد كل اليهود الذين يعارضون إقامة دولة يهودية في فلسطين. وهو كرجل هاجاناه يحارب ضد الشيوعية وضد كل أهداف الصداقة العربية البريطانية.. وقد لاحظ أن هدف الهاجاناه هو الوصول إلى أغلبية يهودية في فلسطين بأسرع ما يمكن. لذلك فقد عمل حسبما يتطلب هذا الهدف مع أو ضد الاستخبارات البريطانية، و«الأمن العام» [الفرنسي]، مع انجلترا وإيطاليا... وقد أعلن أنه شخصياً عازم على العمل مع ألمانيا على شكل تقديم استخبارات طالما أن ذلك لا يتعارض مع أهدافه السياسية. ومن بين أمور أخرى، فإنه يؤيد السياسة الخارجية الألمانية في الشرق الأدنى. وسيحاول العثور على مصادر نفط للرايخ الألماني دون التأثير على مجالات المصالح البريطانية، وذلك إذا خففت القيود النقدية الألمانية بالنسبة للمهاجرين اليهود إلى فلسطين(٤).

من المؤكد أن سكس ظن أن تحالفاً فعالاً مع الهاجاناه سيكون محل اهتمام النازيين،

فهم لا يزالون يريدون أدق المعلومات الداخلية عن مجموعات المقاطعة اليهودية المختلفة، وعن المؤامرات اليهودية ضد حياة النازيين البارزين. وكان شغوفاً بأن يسمح لقوات العاصفة الإس إس بمساعدة الصهاينة في المقابل.

> من الممكن ممارسة الضغط على ممثلي اليهود في ألمانيا بطريقة تجعل هؤلاء اليهود المهاجرين من ألمانيا يذهبون فقط إلى فلسطين وليس إلى بلدان أخرى. مثل هذه الإجراءات تقع كلية ضمن المصلحة الألمانية وتم إعدادها بالفعل من خلال إجراءات للجستابو. إن خطة بولكس لخلق أغلبية يهودية في فلسطين يمكن مساعدتها في نفس الوقت من خلال هذه الإجراءات[٥].

لم يكن هناك من يشاطر سكس حماسه في وزارة الخارجية الألمانية التي كانت تنظر إلى فلسطين باعتبارها مجالاً بريطانياً. كانت مصلحة برلين الأولى هي في الوصول إلى تفاهم مع لندن حول قضية البلقان الحرجة، ولم يكن لشيء أن يتدخل في ذلك. كذلك كان الرسميون معنيين بكيفية رد فعل إيطاليا تجاه التدخل الألماني في سياسات البحر المتوسط. لذلك أرسل وزير الخارجية قسطنطين فون نويْرات في الأول من يونيو / حزيران ١٩٣٧، برقيات إلى دبلوماسييه في لندن والقدس وبغداد: إنه لا الدولة الصهيونية ولا أي بنية سياسية صهيونية تحت الحكم البريطاني هي من اهتمامات ألمانيا، «لأنها لن تمتص يهود العالم ولكنها ستخلق موقع سلطة إضافياً لليهودية الدولية في ظل القانون الدولي، شيء ما مثل دولة الفاتيكان للكاثوليكية السياسية، أو موسكو للكومنترن». لذلك فإن ألمانيا لها مصلحة في تقوية العالم العربي، ولكن «لا يجب التوقع بالطبع أن التدخل الألماني المباشر يمكن أن يؤثر بشكل جوهري على المسألة الفلسطينية، ولا يجب أن يحصل الفلسطينيون في ظل كل الظروف على أكثر من التأييد اللفظي: «يجب التعبير عن تفهم الطموحات القومية العربية بشكل أكثر وضوحاً عن ذي قبل ولكن دون إعطاء أي وعود محددة»[٦].

أفكار صهيونية حول إسرائيل المستقبل

عبرت مذكرات السير رونالد سْتورز، أول حاكم عسكري للقدس، تعبيراً دقيقاً عن السياسة البريطانية نحو فلسطين في تلك المرحلة، فمشروع الصهيونية كان مشروعاً مباركاً يعطي مثلما يأخذ بالنسبة لانجلترا «ألسْتر يهودية صغيرة موالية في بحر من العروبة

الكامنة العداء»(٧). كانت تلك هي روح اقتراح لجنة بيل في يوليو / تموز عام ١٩٣٧، بأن تقسم فلسطين إلى ثلاثة أقسام، تبقى كلها تحت الوصاية البريطانية وفيها تحتفظ بريطانيا بشكل مباشر بشريط من القدس إلى يافا، وتحتفظ بحيفا لمدة عشر سنوات تعطيها من بعدُ إلى دولة صهيونية من قطعتين مع منطقة مشتركة تقع في حجم مقاطعة نورفولك الإنجليزية. وكان الكيان الصهيوني سيحتوي على أقلية عربية ضخمة توقعت اللجنة أن يتم ترحيل بعضهم إلى الدولة العربية التي سيكون لها بقية البلاد.

كان الرأي منقسماً بحدة داخل الصهيونية. فـ«ألستر اليهودية»(*) تختلف عن ألستر الأصلية في أن الصهاينة لن يمكنهم اعتبار التقسيم مرضياً لهم. كانت أرض إسرائيل بالنسبة لهم تشمل كل الأرض الموعود بها إبراهيم في التوراة. في نهاية الأمر كان موقف المؤتمر الصهيوني العالمي هو «لا» تمت صياغتها بحذر بحيث تعني نعم: إن هذا التقسيم بالذات مرفوض، ولكن اللجنة التنفيذية قد خولت بأن تقوم بمزيد من المساومة في سبيل اتفاق أفضل.

ما هو نوع الدولة التي كانت الحركة الصهيونية تتصورها لنفسها وللملايين من اليهود في عام ١٩٣٧؟ كان الصهاينة العماليون هم إلى حد كبير القوة الأقوى في الحركة ولم يكن هناك داعية لقبول التقسيم أكبر من زعيمها دافيد بن جوريون الذي طمأن في صيف عام ١٩٣٧ بكل وقار اجتماعاً للمجلس العالمي لبوعالي صهيون (عمال صهيون) عقد في زيوريخ بأن لا حاجة بهم للخوف في هذا المجال، لأنهم بالتأكيد سيتوسعون فيما بعد:

هذه الدولة اليهودية التي يقترحونها علينا الآن حتى مع كل التعديلات والتحسينات لصالحنا ليست هي الهدف الصهيوني - ففي هذه المنطقة من الأرض لا يمكن للفرد أن يحل المسألة اليهودية... ما الذي سيحدث خلال خمسة عشر عاماً أخرى (أو أيّ عدد آخر من السنين) عندما تصل الدولة المقترحة المحدودة مساحتها هذه إلى درجة التشبع السكاني؟.. إن أي إنسان يريد أن يكون صريحاً مع نفسه يجب ألا يتنبأ بما سيكون في خمسة عشر عاماً أخرى.. إن خصوم التقسيم كانوا على صواب عندما ادعوا أن هذه البلاد لم تعطَ لنا لتقسيمها - لأنها تشكل وحدة واحدة، وليس فقط تاريخياً وإنما أيضاً من

* Jewish Ulster، ألستر يهودية، إشارة إلى الجيْب ذي الأغلبية البروتستانتية في شمال إيرلندة الموالي لبريطانيا، على عكس المناطق الإيرلندية الكاثوليكية الأخرى (م).

زاوية طبيعية واقتصادية[٨].

كان الصهاينة العماليون يدركون بالتأكيد في ذلك الوقت أنه إذا ما أقيمت دولة يهودية فإنها حتماً ستقوم في وجه المعارضة القوية للشعب الفلسطيني. وبالرغم من أنهم كانوا دائماً قوميين يهوديين في الأساس، فإنهم كانوا قد ابتعدوا بشكل قاطع عن ماضيهم الاشتراكي اللفظي وكذلك عن جهودهم السابقة الضعيفة لتنظيم العمال العرب، وبدأوا في طردهم من أعمالهم الموسمية التقليدية في بيارات البرتقال اليهودية. وبشكل عام أصبح تفكيرهم أكثر كآبة وأصبحوا الآن يبحثون بوعي عن نجاحهم الخاص للخروج من أطلال الطبقة الوسطى اليهودية الأوروبية. وكان رأسمالهم الهارب هو الذي سيبني صهيون. وكان إنزو سيريني المبعوث في ذلك الوقت إلى الولايات المتحدة، على صواب تماماً في تقييم الجاذبية التي تستثيرها الصهيونية الآن عند قسم من الطبقة الوسطى اليهودية في أوربا الوسطى والشرقية:

> هناك روحان تتصارعان داخل البرجوازية اليهودية، واحدة تكافح من أجل الربح، والثانية تسعى من أجل السلطة السياسية.... والبرجوازية اليهودية كمجموعة سياسية لا يمكنها أن تعيش فعلاً بدون الجماهير اليهودية. فهي لا يمكنها أن تأمل في بناء تفوقها السياسي إلاّ بهم. كذلك فإنه لكي تمارس سيطرتها في النهاية على العمال العرب تحتاج البرجوازية اليهودية إلى بروليتاريا يهودية، تماماً كما تحتاج القوى الأوربية العظمى إلى بروليتاريا قومية لكي تمارس خططها الإمبريالية.
>
> إن ما يفرق البرجوازية الصهيونية اليهودية عن الأعضاء غير الصهاينة من الطبقة نفسها هو بالفعل مجرد حقيقة **أن الصهاينة واعين بوضوح أن في إمكانهم المحافظة على مصالحهم في ظل شعب موحد فحسب، فلم يعد ذلك ممكناً بوصفهم مجرد أفراد، كما يعتقد التمثّليون اليهود**[٩].

أصبح من المقرّ به أن معاداة السامية هي القوة الرئيسية للصهيونية، وبالإضافة إلى ذلك أيضاً كانت هناك عوامل جذب إيجابية أخرى في الدولة الصهيونية الصغيرة. وقد عبر موشي بيلنسون، وكان في ذلك الوقت محرر الجريدة اليومية العمالية، دافار، بشكل ساذج عن تلك الآمال في أن تكون إسرائيل هي محل الاستغلال الرأسمالي المقبل «للمناطق الخلفية»:

إن آفاقاً عظمى ستنفتح أمام «الصهيونية العظمى» التي لا يجرؤ على القتال من أجلها الآن إلا قلة بيننا، ألا وهي الدولة اليهودية في فلسطين التي تقود الشرق. . . إن الدولة اليهودية المبنية على مثل تلك الأسس سيكون لها كل الحق اجتماعياً وروحياً بأن تعطي لنفسها لقب القيادة، لقب كونها طليعة العالم الجديد في الشرق.

وقد حدد العوامل الواقعية وراء زهوة البلاغي:

أي قيمة لاقترابنا الوثيق من الشعب العربي في العِرق بالمقارنة مع المسافة الكبيرة بيننا في الأفكار، وفي الوجود، وفي مجال قيمنا؟ في كل هذه الأمور نحن أقرب إلى الأوربيين والأمريكيين بعدة درجات بالرغم من «الاختلافات العرقية» القائمة. . . نحن نريد السلم مع الفلاحين العرب. . . بدون تصدّق مزيف، وبدون إقناع تبشيري. ليس من أجل توجه ثوري لبعث الشرق، سواء كان شرقاً «قومياً» أو شرقاً «طبقياً» أو شرقاً «دينياً روحياً». . . ليس من أجل تحرير الآخرين جئنا إلى هنا، بل لتحرير أنفسنا(١٠).

هؤلاء المتطرفون كانوا يسعون لخلق نبوءة تحقق ذاتها. وهم بحديثهم بهذا التصميم عن المصادرة الحتمية لليهود الأوربيين، على أن يتبعها استغلال البروليتاريا اليهودية والعربية، فإنهم وهم الذين نصبوا أنفسهم اشتراكيين، لم يكونوا يفعلون شيئاً لتعبئة الأوربيين وكانوا يفعلون كل شيء لإثارة غضب الفلسطينيين.

إعجاب النازيين بالجهود الصهيونية في فلسطين

كان النازيون قد أذعنوا تماماً لتقسيم فلسطين وأصبح اهتمامهم الرئيسي منصباً على مصير ألفي ألماني كانوا يعيشون في البلاد وقتها. قلة منهم كانوا رهباناً كاثوليك، وقلة كانوا من أتباع مذهب لوثر الأساسي، ولكن معظمهم كانوا من «فرسان الهيكل» وهم مذهب نشأ في القرن التاسع عشر من الكهنة الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة لتوقعهم عودة يسوع المسيح قريباً، ثم استقروا في نهاية الأمر في ست مستعمرات مزدهرة، أربع منها كانت ستكون في القطاع الصهيوني. ولم يعد مهماً إلى أي مدى ترغب قيادة المنظمة الصهيونية العالمية في تجنب المواجهة مع برلين حول «فرسان الهيكل»، فقد أصبح كل النازيين الجيدين تقريباً، والحزب النازي المحلي أيضاً، على يقين من أن أي مقاطعة

يهودية تلقائية بعد التقسيم ستجعل وضعهم مستحيلاً كلية. وكانت وزارة الخارجية الألمانية تريد أن تكون المستعمرات إما تحت السيطرة البريطانية المباشرة، أو - وهذا الأكثر واقعية - أن يتم نقلها إلى المناطق العربية.

كان الرأي العام العربي الشعبي معارضاً للتقسيم بشكل طاغ، بالرغم من أن عائلة النشاشيبي، وهم العشيرة المنافسة للحسينيين المسيطرين، ربما كانوا سيقبلون بقيام دولة يهودية أصغر. ولقد عارضوا الاقتراح البريطاني على مضض شديد وأدى افتقادهم للحماس في معارضة التقسيم، مضاعفاً بكراهية انشقاقية شديدة للحسينيين، أدى إلى حرب أهلية شرسة داخل المجتمع العربي. وكان عبدالله أمير شرق الأردن هو الحاكم الوحيد خارج البلاد الذي جرأ على التلميح بقبوله المشروع وكانت إمارته ستدمج مع الدويلة الفلسطينية. وبقي ابن سعود في الجزيرة العربية صامتاً. وناحت الزمر الحاكمة في مصر والعراق في العلن، أما همهم غير المعلن والوحيد فقد كان أن التقسيم سيثير شعوبهم وسيطلق حركة عامة ضدهم وضد الإنجليز. كان الألمان متفهمين جيداً للوضع وكانوا غير مقتنعين بشكل كامل بأن العرب يمكنهم تحطيم مشروع التقسيم، وعندما ظهر المفتي أخيراً في قنصليتهم يوم ١٥ يوليو / تموز ١٩٣٧ لم يقدم له دوِيْله أي شيء على الإطلاق. وأبلغ مسؤوليه فوراً بالمقابلة: «لقد شدد المفتي الأكبر على التعاطف العربي مع ألمانيا الجديدة وعبر عن أمله من أن تكون ألمانيا متعاطفة تجاه نضال العرب ضد اليهود ومستعدة لتأييده». وكانت استجابة دوِيْله لهذا التحالف المقترح مهينة عملياً. فقد قال للذي جاء إليه متوسلاً أنه «في كل الأحوال فلا احتمال أبداً لأن نلعب دور الوسيط. . . . وأضفت، أنه ربما كان من مصلحة العرب تكتيكياً أن لا يكون التعاطف الألماني مع الطموحات العربية ملحوظاً جداً في البيانات الألمانية»[11].

وفي أكتوبر / تشرين أول، جاء دور الصهاينة لتملق النازيين. ففي يوم ٢ أكتوبر / تشرين أول ١٩٣٧، وصلت الباخرة «رومانيا» إلى حيفا وعلى ظهرها «صحفيان» ألمانيان. ونزل إلى البر هربرت هاجِنْ ومساعده الأصغر أيخمان، وقابلا عميلهما رايشرت. وفيما بعد في نفس اليوم قابلا فَيْفِل بولكس الذي أراهم حيفا من فوق جبل الكرمل وأخذهم في زيارة إلى كيبوتز. وقد سجل أيخمان بعد عدة سنوات عندما كان مختبئاً في الأرجنتين قصة تجربته هذه واستعاد زيارته القصيرة إلى فلسطين بحنين وإعجاب:

لقد شاهدت ما يكفي لأن أتأثر بشكل كبير بالطريقة التي كان المستعمرون الصهاينة يبنون بها أرضهم، لقد أعجبت بعزيمتهم التي لا حدود لها على العيش، وزاد إعجابي أنني شخصياً كنت مثالياً. وفي السنوات التي تلت ذلك غالباً ما كنت أقول لليهود الذين كنت أتعامل معهم أنه لو أنني كنت يهودياً لكنت صهيونياً متعصباً. لا يمكنني أن أتخيل أن أكون غير ذلك. وفي الواقع ربما كنت سأكون أكثر الصهاينة المتحمسين الذين يمكن تخيلهم(١٢).

ارتكب رجلا الإس إس غلطة باتصالهما بعميلهما المحلي. كانت الاستخبارات البريطانية قد أصبحت على علم بحلقة رايشرت. وبعد يومين طردوا الزوّار إلى مصر بسرعة. تبعهم بولكس إلى هناك حيث أجرى مزيداً من النقاشات يومي ١٠، ١١ اكتوبر / تشرين أول في مقهى جروبي بالقاهرة. وقد كتب هاجن وأيخمان في تقريرهما عن مهمتهما إشارة هامة لكلمات بولكس في هذه الاجتماعات. قال بولكس للنازيين:

إن الدولة الصهيونية يجب أن تقام بكل السبل وبأسرع وقت ممكن.. وعندما تقام الدولة اليهودية طبقاً للمقترحات الحالية الواردة في ورقة بيل وبما يتماشى مع وعود انجلترا الجزئية، عندئذ يمكن دفع الحدود إلى أبعد طبقاً لرغبات المرء نفسه(١٣).

واستطرد:

إن جماعة الدوائر القومية اليهودية كانوا سعداء جداً بالسياسة الألمانية الجذرية طالما أن قوة الشعب اليهودي في فلسطين ستزداد تبعاً لذلك، حتى إن اليهود سيمكنهم في المستقبل المنظور الاعتماد على التفوق العددي على العرب في فلسطين(١٤).

وكان بولكس قد اقترح خلال زيارته لبرلين في شهر فبراير / شباط أن تقوم الهاجاناه بدور الجواسيس للنازيين، وقد ظهر في ذلك الحين إخلاصهم الطيب بتقديم معلومتين من معلومات الاستخبارات. فقد أبلغ هاجن وأيخمان:

إن المؤتمر العالمي الإسلامي الشامل المنعقد في برلين هو على صلة مباشرة بزعيمين عربيين مواليين للسوفييت وهما الأمير شكيب أرسلان والأمير عادل أرسلان.. وإن محطة الإذاعة الشيوعية غير الشرعية التي يعتبر بثها لألمانيا قوياً

بشكل خاص موجودة حسب ما أدلى به بولكس على شاحنة تسير على طول الحدود بين ألمانيا ولكسمبورج عندما يكون البث على الهواء(١٥).

ثم جاء دور المفتي لطلب الرعاية الألمانية. وقد أرسل في هذه المرة عميله الدكتور سعيد إمام الذي درس في ألمانيا وكان على صلة منذ وقت طويل بالقنصلية الألمانية في بيروت، أرسله مباشرة إلى برلين ومعه عرض: إذا «أيدت المانيا حركة الاستقلال العربية فكرياً ومادياً»، عندئذ سيستجيب المفتي بأن «ينشر أفكار الاشتراكية الوطنية في العالم العربي الإسلامي ويقاوم الشيوعية التي يبدو أنها تنتشر تدريجياً باستعمال كل الوسائل الممكنة». واقترح أيضاً «أعمال إرهاب مستمرة في كل المستعمرات الفرنسية ومناطق الانتداب الفرنسي بواسطة عرب أو محمديين». فإذا كسبوا فإنه يقسم «أن لا يستعمل إلا رأس المال الألماني والمصادر الفكرية الألمانية». كل ذلك كان في سياق التعهد بإبقاء العرقين السامي والآري بعيدين عن بعضهما، وهي مهمة أشير إليها بدقة باعتبارها «المحافظة على القناعات القومية لكلا الشعبين واحترامها»(١٦).

كانت فلسطين الآن تحظى بالتفحص الشديد من جانب كل فرع معين من فروع الدولة الألمانية أو بيروقراطية الحزب. كان الموالون للصهاينة لا يزال لديهم حجج يقولونها، وبوجه خاص الاقتصاديون منهم الذين كانوا يرون أن «الها آفارا»، تساعد الصناعة الألمانية. وكان منتقدو العلاقة الصهيونية النازية يخافون أن الدويلة اليهودية المقترحة التي ستحظى باعتراف دولي ويبدأ النظر إليها كفاتيكان يهودي، قد تخلق مشاكل دبلوماسية للألمان حول معاملتهم لليهود. هذه كانت الحجة الرئيسية لهاجن وأيخمان في تقريرهما عن رحلتهما.

البريطانيون كانوا الذين حلوا مشكلة النازيين. كانوا قد بدأوا في الحديث حول ما سيتبع إذا هم خلقوا دويلة صهيونية. وكانت إمكانية قيام حرب عالمية واضحة، وكان خلق دولة صهيونية كفيلاً بأن يدفع العرب إلى أيدي هتلر. كما أن الاحتمال الآخر بقيام حرب مع اليابانيين الميالين للقتال جعل من الحيوي المحافظة على قدرة تحريك القوات عبر الشرق الأوسط، براً أو عن طريق قناة السويس، بدون معارضة محلية عنيفة. لذلك تم دفن مشروع تقسيم «بيل» بسرعة وقرر البريطانيون ضرورة القضاء على الهبَّة العربية قبل أن يتمكن تحالف المحور الذي بدأ يظهر من الاستفادة منها. وتم سحق الانتفاضة بوحشية من جانب الجيش البريطاني، وبعدئذ تم تخفيض الهجرة الصهيونية وهي التي

كانت سبباً في الانتفاضة.

لم يعد هتلر الآن يشغل نفسه بإمكانية قيام فاتيكان يهودي، ولكن حقيقة أن البريطانيين كانوا قد اقترحوه بالفعل جعل الإمكانية المستقبلية لقيام دولة يهودية أمراً خطيراً. فالحسابات العسكرية الألمانية على المدى الطويل أصبحت تهتم الآن بالرأي العام العربي كعامل في السياسة الخارجية. وأصر دبلوماسيون ألمان كثيرون على أن اتفاق «الهاآفارا» كفيل بخلق الدولة في نهاية الأمر، وبدأ الرأي في وزارة الخارجية يتحول ضدها، ومع ذلك فقد أُنقذت بتدخل من أوتو فون هِيْنتج، وهو دبلوماسي محترف تعامل مع النازيين في ظل القيصر وفيمار. وطبقاً لأرنست ماركوس، وهو مندوب «الهاآفارا» في برلين فان فون هينتج «بما لديه من حب عميق لأمته ولروحها». قدر القوى الدافعة في الصهيونية كعنصر متجانس مع مشاعره هو، لذلك عمل مع زميله الصهيوني لكي يحاول الإبقاء على «أفضلية التعامل لفلسطين»:

> لقد نصحني بإعداد مادة مناسبة لكي أثبت أن عدد المهاجرين اليهود، من ألمانيا إلى فلسطين وكذلك مساهمتهم المالية في بناء الوطن اليهودي، كانت أصغر بكثير جداً من أن يكون لها تأثير حاسم على التطور في البلاد. وطبقاً لذلك فقد أعددت مذكرة تؤكد على مشاركة اليهود البولنديين في عمليات إعادة البناء في كل مراحلها الهامة، ووصفت المساهمة المالية لليهود الأمريكيين وقارنتها بالجهد الصغير الذي قام به يهود ألمانيا[١٧].

كان فون هينتج يعرف أن مهمة إقناع هتلر بمساعدة الصهيونية لا بد أن تتم بشكل شخصي وفي «اللحظة الملائمة» وهو يغتسك ويمرح وتملأه نواياه الطيبة العادية تجاه اليهود. وذات يوم في أوائل عام ١٩٣٨ اتصل فون هينتج حاملاً الأنباء الطيبة: «لقد أصدر الفوهرر قراره الحاسم بأن تُزال جميع العقبات من طريق الهجرة إلى فلسطين»[١٨]، في البداية حاول النازيون البقاء محايدين خلال الانتفاضة العربية، ويوم «عيد التاج» في عام ١٩٣٧ رفعت مستعمرات «فرسان الهيكل» أعلام الصليب المعقوف تعاطفاً مع بريطانيا، وكانت لديهم أوامر صارمة بألا يتحرشوا بالقوات البريطانية وأن لا تكون لهم أي صلة بأنصار موزلي[١٩]. ولكن برلين ظلت تضغط وبينما كانت الأموال اليهودية والمهاجرون اليهود لا يزال يُدفع بهم نحو فلسطين، قام الأدميرال فيلهلم كاناريس، رئيس قسم الاستخبارات في وزارة الدفاع، في عام ١٩٣٨، بوضع المفتي على كشوف

مرتباته. ومع ذلك لم يُظهر المفتي أية علامات على الكفاءة السياسية العسكرية، وأخيراً توقفت الأموال التي كانت دائماً غير منتظمة[٢٠]. وظل عدم التورط عسكرياً في الانتفاضة العربية هو السياسة الصارمة حتى مؤتمر ميونخ في عام ١٩٣٨[*]. ولم ترجع شحنات الأسلحة إلا في أواخر عام ١٩٣٨. وحتى عندئذ، أدت الرغبة في عدم الاحتكاك بلندن بتهديد الأمبراطورية البريطانية إلى الإلغاء المفاجىء للشحنة الأولى عن طريق العربية السعودية عندما أصبح الألمان مقتنعين بأن وزير الخارجية السعودي كان عميلاً بريطانيا[٢١]. ومع إجهاض شحن الأسلحة توقف الاهتمام الألماني بالانتفاضة العربية.

فشل تعاون المفتي مع الطغاة

لم يربح المفتي شيئاً، لا حينئذ ولا فيما بعد، من تعاونه مع روما أو برلين ولا كان من الممكن أبداً أن تستفيد المصالح الفلسطينية من هذين الديكتاتوريْن. عندما خطب المفتي ودّ النازيين كانوا يشجعون اليهود على الهجرة إلى فلسطين، ومع ذلك فإنه لم يقترح ولا لمرة واحدة خلال كل اتفاقاته مع النازيين قبل الحرب أن يوقفوا الهجرة التي كانت بالذات مصدر القوة الجديدة للصهيونية. وفيما بعد، وخلال الحرب العالمية الثانية، دفعته كراهيته لليهود وعداؤه للشيوعية إلى الذهاب إلى برلين ومعارضة أي إطلاق لسراح اليهود من المعسكرات خشية أن ينتهي بهم الأمر في فلسطين. وقد نظَّم في نهاية الأمر قوات عاصفة إس إس. إسلامية ضد المقاومين السوفييت واليوغسلاف. كان المفتي رجعياً غير كفوء دفعه الصهاينة إلى العداء للسامية. لقد كانت الصهيونية نفسها بمحاولاتها الصريحة تحويل فلسطين من أرض عربية إلى دولة يهودية، واستعمالها بعدئذ لمزيد من استغلال الأمة العربية، هي التي ولدت الكراهية الفلسطينية لليهود. ولقد قدم الحاخام اسحاق هَنتر من أجوداه يسرائيل تفسيراً متبصراً لعمل المفتي:

> يجب أن يكون واضحاً مع ذلك أنه حتى قيام الضغط العام الكبير من أجل إقامة دولة يهودية لم يكن المفتي مهتماً بيهود وارسو أو بودابست أو فِلنا. وما أن أصبح يهود أوربا خطراً على المفتي بسبب تدفقهم الوشيك إلى الأراضي المقدسة، حتى أصبح المفتي بدوره بالنسبة لهم مجسداً لملاك الموت «ماليخ هاموفيس». ومنذ سنوات كان لا يزال من السهل العثور على مستقيمين قدامى من

* مؤتمر ميونيخ، سبتمبر، أيلول ١٩٣٨، بين ألمانيا النازية وفرنسا وبريطانيا، وفيه وافقت الدولتان الأخيرتان على ضم النازي لأجزاء من تشيكوسلوفاكيا تحت شعار «سياسة التهدئة» (م).

اليروشالاييم الذين يتذكرون العلاقات الودية التي كانت لهم مع المفتي في سنوات ما قبل القيام المتوقع للدولة اليهودية. وما أن أصبح الواقع الوشيك لدولة إسرائيل أمام المفتي، فإنه لم يدخر جهداً لكي يؤثر على هتلر ليقتل أكبر عدد ممكن من اليهود في أقصر كمية ممكنة من الوقت. هذه المرحلة المجللة بالعار التي كان فيها مؤسسو الدولة وقادتها الأوائل بوضوح، عاملاً في تحطيم كثيرمن اليهود، قد أُخفيت من السجلات وأُزيلت تماماً[٢].

فإذا لم يكن من الممكن تبرير تعاون المفتي مع الطغاة، فإنه يصبح من المستحيل بشكل مطلق تبرير عروض الهاجاناه القيام بالتجسس لحساب النازيين. وانطلاقاً مما أثير ضد «الهاآفارا» والموقف الخانع للاتحاد الصهيوني لألمانيا. فإنه يبدو مؤكداً أن أقلية كبيرة في المنظمة الصهيونية العالمية كانت على الأقل ستصوت رفضاًواحتجاجاً لو علمت بخيانة الهاجاناه المخيفة.

هوامش الفصل الثامن

1. 'Hitler's Friends in the Middle East', *Weiner Library Bulletin*, vol. XV (1961), p. 35.
2. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, pp. 658–9.
3. David Yisraeli, 'Germany and Zionism', *Germany and the Middle East, 1835–1939* (1975), p. 158.
4. David Yisraeli, *The Palestine Problem in German Politics 1889–1945* (Hebrew), Bar-Ilan University, Appendix (German): 'Geheime Kommandosache Bericht', pp. 301–2.
5. Ibid., p. 304.
6. *Documents on German Foreign Policy*, Series D, vol. V, (Washington, 1953), pp. 746–7.
7. Ronald Storrs, *Orientations*, p. 405.
8. *The Voices of Zionism* (Shahak reprint), p. 18.
9. Enzo Sereni, 'Towards a New Orientation', *Jews and Arabs in Palestine*, pp. 282–3.
10. Moshe Beilenson, 'Problems of a Jewish-Arab Rapprochement', *Jews and Arabs in Palestine*, pp. 193–5.
11. *Documents on German Foreign Policy*, pp. 755–6.
12. Adolf Eichmann, 'Eichmann Tells His Own Damning Story', *Life* (28 November 1960), p. 22.
13. Klaus Polkehn, 'The Secret Contacts: Zionism and Nazi Germany 1933–41', *Journal of Palestine Studies* (Spring 1976), p. 74.
14. Heinz Hohne, *The Order of the Death's Head*, p. 337.
15. Polkehn, 'The Secret Contacts', p. 75.
16. *Documents on German Foreign Policy*, p. 779.
17. Ernst Marcus, 'The German Foreign Office and the Palestine Question in the Period 1933–39', *Yad Vashem Studies*, vol. II, pp. 187–8, 191.
18. Ibid., pp. 192–3.
19. H.D. Schmidt, 'The Nazi Party in Palestine and the Levant 1932–9', *International Affairs* (London, October 1952), p. 466.
20. Yisraeli, 'The Third Reich and Palestine', *Middle East Studies* (May 1971), p. 349.
21. *Documents on German Foreign Policy*, p. 811.
22. Yitzhak Hutner, 'Holocaust', *Jewish Observer* (October 1977), p. 8.

٩ ـ المؤتمر اليهودي العالمي

بالرغم من أن المنظمة الصهيونية العالمية سمحت لـلإتحاد الصهيـوني في ألمانيـا بأن يعمل من أجل التعاون مع النازية، وأن قادتها كانوا متحمسين لكي يبيعوا بضائع هتلر في الخارج بل وللتجسس لحسابه، فإنهم لم يكونوا يريدون لهذا الخطر أن ينتصر. فحتى الحركة الصهيونية في فلسطين أدركت أن جمع الأموال من جالية يهودية محطمة عالمياً لا يمكن أن يكون مثل جمع الأموال من أجل الضحايا في ألمانيـا وحدهـا. ولما كـانوا لا يـريدون محاربة هتلر بأنفسهم خشية أن يلغى اتفاق «الهاآفارا» ويحظر الإتحاد الصهيوني لألمانيا إذا هم سببوا له أية مشاكل، فقد حلم سوكولوف ووايزمان بتحالف ما مع قوة عظمى يمكنها كبح جماح هتلر، ولكن ذلك كان على الدوام خيالاً فارغاً. أما أولئك الذين كـانوا في المنظمة الصهيونية العالمية تحت قيادة جولدمان ووايز وأرادوا أن يناضلوا، فقـد وجدوا ـ بشكل أو بآخر ـ أن الرئيسين كانا إما معارضين أو غير مبالين. ولكن قوة هتلر المتنامية أرغمت الجناح الأكثر نضالية على تأسيس «المؤتمر اليهودي العالمي» باعتباره منظمة دفاعية يهودية.

كان كل من جولدمان ووايز ملتزمين بالصهيونية بعمق. بل إن جولدمان قد عارض حتى دعوة أي من التمثّليين ـ بمعنى أغلبية اليهود ـ إلى مؤتمرهم الأول التحضيري في عام ١٩٣٢[١]. وبالإضافة إلى ذلك فإنهما لم يفكرا في مناقشة حق وايزمان في إعادة الاستيلاء على رئاسة المنظمة الصهيونية العالميـة في عام ١٩٣٥. وبـالرغم من ذلـك فإن المنـظمة الصهيونية العالمية كانت تعارض بحسم المبادرة الجديدة خشية أنها قد تحرف الجهود مرة

أخرى من فلسطين إلى يهود العالم. وفي فبراير/شباط ١٩٣٤ بعد عـام من وصول هتلر إلى السلطة، ذكرت التقارير أن سوكولوف الذي كان لا يزال حينئذ رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية قد تكلم ضد المؤتمر اليهودي العالمي:

عبّر ناحوم سوكولوف رئيس المنظمة الصهيـونية العـالمية عن الشـك في حكمة الدعوة إلى انعقاد المؤتمر اليهودي العالمي، المقـرر موعـده هذا الصيف بشكـل مؤقت. . ولاحظ الـزعيم الصهيوني حقيقـة أنه قـد تمت مناقشـة فكرة المؤتمـر اليهودي العالمي أثناء إنعقاد المؤتمر اليهودي في جينيف في الصيف الماضي، وأن بعض الأسئلة قد أثيرت حول ما إذا كان من الواجب أن يشمل برنامج المؤتمر اليهودي العالمي فلسطين أم لا، وإن ذلك كان مؤشراً إلى الخلافات وإلى أن المعارك الحزبية قد تنشب عند الدعوة للتفاوض. . ويقـدم السيد سـوكولـوف خطة بديلة، تُدعى طبقاً لها، جميعُ جماعات اليهـود لبناء هيئـة يهوديـة للدفاع الذاتي اليهودي، ولتنفيذ الخطط التي يتم دراستها جيداً وصيـاغتها بعنـاية من قبـل هذه الهيئـة التي ستضم كـل الجمـاعـات اليهـوديـة بـإستثنـاء التمثّليـين الصريحين. ويعتقد السيد سوكولوف أن ذلك سيأتي بخير وفير(٢).

كذلك كان سوكولوف متردداً لأنه كان يخاف من الهجمـات على اتفـاق «الهاآفـارا» والتي كان من المؤكد أن تحدث في مؤتمر يهودي عالمي واسع. ورد ستيفن وايز على النار بالمثل:

نحن نتلقى التحذيرات بأن الدعم لن يقدم للمؤتمر اليهودي العالمي إذا تبنى مؤتمر [جينيف] قراراً ضد إتفاق التحويل الفلسطيني الألماني. لست أخشى هذا التهديد. إن الشعب اليهودي على إستعداد لقبول هَدي «أرض اسرائيـل» لا الأوامر ولا التهديدات عندما تتناقض مع مصالح كل اليهود(٣).

كان النزاع مؤلماً بالنسبة لوايز، فقد كان يفكر ذات مرة بما يشبه تفكير سوكولوف، ولكنه وبالرغم من أنه ظل يعتقد أن فلسطين هي أكثر الجوانب إيجابية في الحياة اليهودية، فإنه ببساطة لم يكن في إمكانه أن يضع الصهيونية في موقع أعلى بكثير من الخطر الـذي يهدد يهود أوربا:

إنني أعرف جيداً أن بعض الصهيونيين سيقول: «أرض اسرائيل» وحدهـا

هي التي تهمني. إن لفلسطين المكان الأول، وقد كنت الشخص الذي استعمل لأول مرة كلمة «الأول» منذ بضع سنوات، وكان عليّ أن أسحب كلمة الأول هذه عندما ملكت الشجاعة لكي أقول أنه بالرغم من أن لفلسطين المكان الأول في الآمال اليهودية فإنني لا أستطيع كيهودي أن أقف لا مبالياً «بالجالوت» [المنفى]. . وإذا كان عليّ أن أختار بين أرض اسرائيل وبنائها وبين الدفاع عن الجالوت فإنني قد أقول إن على الجالوت أن يهلك عندئذ. ولكن في كل الأحوال، بقدر ما تنقذ الجالوت بقدر ما تقدم خدمة لأرض اسرائيل في النهاية(٤).

استمرت حركة المؤتمر اليهودي العالمي تكسب القوة بالرغم من معارضة سوكولوف. كان الضغط النازي كبيراً جداً وكانت صفوف الحركة تطالب بعمل شيء، وعندما شجع وايز على مضض إتفاق «الهاآفارا» في المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٩٣٥ تلقت فكرة المؤتمر اليهودي العالمي أخيراً تصديقاً رسمياً من المنظمة الصهيونية العالمية. ومع ذلك لم يكن هناك أبداً حماس شديد داخل المنظمة الصهيونية العالمية للمؤتمر اليهودي العالمي. وقد وصفت مجلة «جويش كرونيكل» التي تصدر في شيكاغو، وكانت معارضة لحركة المؤتمر اليهودي العالمي، وصفت بدقة غياب الاهتمام الجدي بفكرة «المنظمة الدفاعية» حتى في وقت متأخر مثل مايو/آيار ١٩٣٦، أي بعد ثلاثة أعوام ونصف تقريباً على الرايخ الثالث:

> إن القادة الأفراد في حزب مزراحي وحزب الدولة اليهودية لا يؤمنون بالمؤتمر ولا يهتمون به. . كذلك فإن الهاداسه [المنظمة النسائية] غير معنية بالأمر، وكشف إستطلاع الرأي بين أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في أمريكا ان. . . الأغلبية تعارض المؤتمر بشكل ساحق(٥).

وبالرغم من عداء الجناح اليميني فإن المؤتمر اليهودي العالمي كان لا بد أن يظهر في ذلك الوقت. كانت تلك مرحلة «الجبهة الشعبية». وقد تعلم أخيراً الإشتراكيون الديمقراطيون والستالينيون ضرورة الوحدة ضد الفاشية في أعقاب الكارثة، وكان على الصهاينة أن يقدموا معادلاً «يهودياً» أو أن يخسروا أتباعهم القليلين بين العمال اليهود، وبالذات في بولندا، الذين كانوا متأثرين بفكرة الجبهة الشعبية. كان تأييد الصهيونية العالمية لوايز وجولدمان كافياً للتغلب على الجناح اليميني، ولكن المفارقة كانت أن المؤتمر

اليهودي العالمي كان محكوماً عليه بالفشل، بالدقة عندما هدد فجأة بأن يتحول إلى جبهة شعبية حقيقية.

«تركز على النضال المعادي للفاشية وحده»

قرر الحزب الشيوعي الأمريكي تأييد المؤتمر اليهودي العالمي، إذ اعتقد قادته أنهم ما أن يدخلوا داخل الحركة فلن يكون لديهم أية صعوبة في أن يجعلوا الصفوف الصهيونية الشريفة تركز إهتمامها الأول على الكارثة النازية بدلاً من فلسطين. ولكن السماح بدخول الحزب الشيوعي الأمريكي الموالي للعرب لم يكن محل نقاش بالنسبة لوايز. كانت الحرب ضد هتلر مهمة ولكن فلسطين والصهيونية كانا أهم في نهاية الأمر. وخرجت مجلة «الكونجرس بولتين» تكتب صراحة ضد السماح للحزب الشيوعي بالدخول:

> بالرغم من أن النضال ضد معاداة السامية والفاشية سيكون بالضرورة واحداً من القضايا الرئيسية على جدول أعمال المؤتمر.. فإن المشاكل التي سيعالجها المؤتمر اليهودي العالمي.. ستشمل كذلك بناء فلسطين والنضال من أجل الحرية الدينية والثقافية لليهود في كل البلدان.. إن التعليمات التي يعمل في ظلها الشيوعيون الأمريكيون اليهود في محاولة دخولهم داخل كل الجهود اليهودية المتسقة، تركز على النضال ضد الفاشية وحده.. إن مجلة «**حرية الصباح**» (مورْنِنْج فْرايْهايْت) يمكنها ببساطة أن توفر على نفسها مجرد دراسة مسألة مشاركة الشيوعيين اليهود(٦).

وأخيراً عقد المؤتمر اليهودي العالمي مؤتمره التأسيسي في أغسطس/آب ١٩٣٦. وحضر وفد أمريكي موال للشيوعية على أمل أنهم قد يكسبوا تصريحاً بالدخول في آخر لحظة من خلال الصراع في المؤتمر نفسه، ولكن ذلك لم يتحقق. وأقر الاجتماع قراراً بالمقاطعة ضد النازيين ولكن لم تكن هناك أبداً أية جهود جادة لتحقيق ذلك. أما مندوب وايزمان المخلص في الولايات المتحدة لويس ليبسكي وهو رئيس المنظمة الصهيونية في أمريكا فإنه قد وافق بتردد على فكرة عقد المؤتمر أصلاً، أما إتخاذ عمل فعلي ضد هتلر فقد كان أكثر بكثير مما كان هو وجماعته على استعداد لقبوله. وقد وصف مراسل لمجلة «وورلد جيوري» محاولة ليبسكي إغراق العمل الوحيد المعادي للنازي الذي فكر المؤتمر في إتخاذه:

إن قرار المقاطعة العام . . ووفق عليه بالإجماع . . ولكن عندما بلغ الأمر مسألة إعطاء تأثير عملي للقرار، عندئذ أظهرت المعارضة نفسها. كانت اللجنة قد قدمت قراراً يطلب خلق إدارة خاصة لعمل المقاطعة وقد عارض هذا الطلب بشدة مندوبون أمريكيون معينون يقودهم لويس ليبسكي . . . ومن الواضح أن السلطات المسئولة ليست مفتونة بالإقتراح، وأراني أميل للشك فيما إذا كانوا فعلاً ينوون تطبيقه عملياً.

ومضى المراقب يصف المؤتمر بأنه «مشوش فيما يتعلق بوسائله وتنقصه بالدقة لَفْتَةٌ من القيادة الملهمة التي ربما كانت قد جعلت انعقاده نقطة تحول في التاريخ اليهودي»(٧).

كان الوصف المظلم في هذه المجلة مبرراً تماماً. لقد كان هذا اجتماع قادة صهاينة محترفين في الأساس وهؤلاء لم يكونوا هم الناس الذين يمكن أن يقيموا مقاطعة جادة أو يفعلوا أي شيء آخر لمحاربة هتلر. فبدون الوحدة مع اليهود التمثّليين، بمن في ذلك الشيوعيون والمعادون للنازية من غير اليهود كذلك، لا يمكنهم أبداً البدء في الإضرار بالنازية لا من خلال المقاطعة ولا عن أي طريق آخر. إن رفضهم للعمل مع الستالينيين لم يكن بسبب العداء للنظام في الاتحاد السوفيتي. كانت الصهيونية محظورة هناك وكان ينظر للغة العبرية باعتبارها غريبة على الحياة الحقيقية للجماهير اليهودية. ولكن أحداً منهم لم ير الاتحاد السوفياتي معارضاً للسامية بل على العكس وعندما طلب من ستيفن وايز الإنضمام إلى لجنة جون ديوي للتحقيق في إتهامات ستالين بأن تروتسكي كان عميلاً نازياً، فانه رفض. وكان تروتسكي قد قال إن ستالين معادٍ للسامية وإن ذلك، كما أصر وايز، كان غير صحيح بشكل واضح بحيث يجعل كل شيء آخر قاله موضوع شك مماثل. ولا يوجد شك أن وايز ومعاونيه ظنوا أنه ستكون هناك حرب، وأنهم أرادوا أن يشاهدوا الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي متّحدين ضد هتلر. ولم تكن لديهم ثقة في أن الجماهير يمكنها أن توقف النازية. وإتساقاً مع إعتمادهم على الطبقات الحاكمة لحل المسألة اليهودية فقد وجدوا في تحالف القوى العظمى السلاح الممكن الوحيد ضد هتلر. وبالرغم من حماسهم لقيام تحالف بين سادتهم من الطبقات الحاكمة وبين ستالين، فإن أعضاء المؤتمر اليهودي الأمريكي لم يكونوا راديكاليين اقتصادياً، ولم تكن لديهم رغبة لتوريط أنفسهم مع حزبهم الشيوعي المحلي. وهذا، إلى جانب الخط الشيوعي الموالي للعرب، استبعد تماماً أي تعاون مع الحزب الشيوعي الأمريكي. ومن الطبيعة الهامشية

للصهيونية في الحياة اليهودية ليهود العالم تدفق افتقادُ الواقعية السياسية في المؤتمر اليهودي العالمي. وكلما عمل الصهاينة أكثر من أجل فلسطين البعيدة كلما قل اشتراكهم في النضالات الفعلية للجماهير اليهودية. وعندما أصبحت حركة الجماهير في الشارع أمراً حتمياً لم تكن للمؤتمر اليهودي العالمي لا الرغبة ولا الخبرة في إدارة مثل هذا الصراع، ولا الإستعداد للتعلّم.

وفيما بين المؤتمر اليهودي العالمي لعام ١٩٣٦ وإتفاق ستالين ـ هتلر(*)، زادت عضوية الحزب الشيوعي الأمريكي الى ٩٠,٠٠٠، وكان لديه اتحاد نقابي يتبعه أكثر من مليون. وأصبح سياسياً أكثر أهمية بكثير من المؤتمر اليهودي الأمريكي الخاص بوايز أو الحركة الصهيونية الامريكية. ومن المؤكد أن بين الشيوعيين والصهاينة اختلافات كبيرة، ولكل منهم تحديدات قاسية، ومن الواضح أن ضرب هتلر كان يتطلب أكثر بكثير من مجرد المقاطعة، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك في أن تحالفاً بين القوتين كان سيوحد ويقوّي الجالية اليهودية في أمريكا، وأن الكثيرين من المعادين للنازية من غير اليهود كانوا سيتحركون معها. أما عن فعالية مثل هذا الائتلاف فذلك أمر آخر. ولكن رفض المؤتمر اليهودي العالمي إدخال الحزب الشيوعي كان ضربة ضخمة للنضال اليهودي ضد هتلر. إن الجبهة اليهودية الموحدة التي كانت مطلوبة إلى أقصى حد أصبحت ضحية مأساوية أخرى للصهيونية.

هوامش الفصل التاسع

1. Shlomo Shafir, 'American Jewish Leaders and the Emerging Nazi Threat (1928-1933)', *American Jewish Archives* (November 1979), p. 175.
2. 'Doubt Wisdom of Convening World Congress', *Jewish Daily Bulletin* (11 February 1934), pp. 1, 12.
3. 'Jewish World Conference', *South African Ivri* (September 1934), p. 1.
4. 'Rabbi Wise', *New Palestine* (14 February 1934), pp. 5-7.
5. 'Foredoomed to Fail', *Chicago Jewish Chronicle* (1 May 1936), p. 8.
6. 'Communists Take Note', *Congress Bulletin* (13 March 1936), p. 2.
7. 'Was the Congress Worthwhile?', *World Jewry* (21 August 1936), p. 67.

* اتفاق ستالين ـ هتلر: معاهدة عدم اعتداء وقعها ستالين مع النازية في آب، أغسطس ١٩٣٩، في محاولة لدرء الخطر النازي (م).

١٠ ـ التصحيحية الصهيونية والفاشية الإيطالية

من الطبيعي تماماً أن وصول مناحم بيجين المثير للدهشة إلى السلطة في عام ١٩٧٧ بعد حياة من المعارضة داخل الحركة الصهيونية، يثير إهتماماً كبيراً بماضيه الشخصي ومستقبله. ومع ذلك فإن بيجين نفسه مع كل ما له من شهرة وسلطة حالياً يظل يشير إلى نفسه باعتباره لا شيء أكثر من تلميذ لفلاديمير جابوتنسكي، وهو مؤسس إتجاهه والرجل الذي يعتبره أعظم يهودي منذ هرتزل.

إن الذي أنشأ الفيلق اليهودي، ومؤسس الهاجاناه (الدفاع)، جابوتنسكي، هو البطل الذي يهلل له التصحيحيون. ومع ذلك فإنه عندما مات في «كَتِسْكيلز» في نيويورك في أغسطس/آب ١٩٤٠ كان أكثر المفكرين الايديولوجيين المحتقَرين في العالم السياسي اليهودي. والنموذج الدال على أسلوب الرجل هو الاتفاق الأوكراني غير العادي الذي عقده في غرفة فندق في براغ في أغسطس/آب عام ١٩٢١. كان قد سافر إلى براغ لحضور المؤتمر الصهيوني العالمي، وهناك استقبل زائرا كان صديقا قديما له هو ماكسيم سْلافينسكي، وكان سفيراً لسيمون بِتْليُوراً. كان النظام في أوكرانيا قد انهار. وكان بتليورا المحاصَر بين الامبريالية البولندية والبلشفية قد ترك بولندا تأخذ الأراضي الأوكرانية مقابل حصوله على سلاح ضد الجيش الأحمر، ولكن المعونة لم تكن لها جدوى. وكان على بقايا جيشه أن تهرب إلى داخل جاليسيا المحتلة من بولندا. وأبلغ سلافينسكي جابوتنسكي عن آخر الخطط: إن القوات الباقية وعددها ١٥٠٠٠ ستهاجم أوكرانيا السوفياتية في عام ١٩٢٢. وتوصل سفير حكومة بتليورا السيئة السمعة صاحبة المذابح،

مع معظم الهاجاناه إلى إتفاق سري. جابوتنسكي من جانبه ودون الإشارة إلى المنظمة الصهيونية العالمية يتعهد بالعمل داخل حركته لتنظيم شرطة صهيونية تصاحب قوات بتليورا في غارتها. لم يكن عليهم أن يحاربوا الجيش الأحمر ولكنهم كانوا سيحرسون اليهود في المدن التي ستقع في أيدي الجنود أنفسهم الذين سيُدخِلونهم إلى المنطقة.

تم الكشف عن هذا الإتفاق من جانب الأوكرانيين لكي يثبتوا أنهم قد غيروا طرقهم. وذعرت المنظمة الصهيونية العالمية، وكان على جابوتنسكي أن يدافع عن نفسه ضد كل الرأي العام اليهودي الذي لم يتمكن من هضم أي إشتراك مع قاتل لا ثقة فيه. وفي النهاية لم يحدث هذا الغزو أبداً. سحبت فرنسا دعمها وتفتتت القوة القومية. وانقسم اليهود بين أولئك الذين اعتبروا جابوتنسكي أحمق أو شريراً. وفي كل مكان استعمل الشيوعيون الإتفاق للتشكيك في الصهيونية بين اليهود، ولكن جابوتنسكي كان غير قابل للندم. كان على استعداد ان يفعل الشيء نفسه مع اللينينيين لو أنهم طلبوا ذلك:

> درك يهودي مع الجيش الأبيض، أو درك يهودي مع الجيش الأحمر، أو درك يهودي مع الجيش الليلكي والأخضر إذا وجد. دعهم يسوّون معاركهم وخلافاتهم، نحن سنحرس المدن وسنعمل على ألاّ يُضار السكان اليهود.

طلب صهيونيو بوعالي إجراء تحقيق، وزعموا أن الاتفاق قد عرض للخطر شرعية تنظيمهم في الاتحاد السوفياتي الذي كان بالكاد مقبولاً. ولكن جابوتنسكي كان قد سافر إلى الولايات المتحدة في جولة لإلقاء المحاضرات مدتها سبعة شهور، ولم تتمكن لجنة التحقيق من أن تحدد موعداً لانعقادها حتى ١٨ يناير/كانون الثاني ١٩٢٣. وفي النهاية لم تنعقد جلسات الاستماع أبدا، إذ إستقال جابوتنسكي فجأة من المنظمة الصهيونية العالمية ليلة أن كان سيتكلم أمامها. ولقد زعم دائماً أن استقالته لم يكن لها علاقة بالتحقيق المزمع إجراؤه، وأصر على أنه استقال بسبب نزاع مستمر يتعلق بالعلاقات مع بريطانيا، ولكن قليلين صدقوه. وقد عاد إلى الإلتحاق بالصفوف بعد ذلك بوقت قصير، ولكن معارضيه لم يجدوا جدوى في ملاحقة الأمر رسميا طالما لم يعد له أي موقع داخل الحركة. واستؤنفت الهجمات عليه عندما بدأ في تنظيم اتجاهه الجديد وقد قضى بقية حياته في الدفاع عن عمله الطائش. ولكن كان من الملحوظ على جابوتنسكي طوال حياته السياسية احتقاره المتعجرف لمنتقديه. ولقد قال ببساطة للعالم المعادي أنه «عندما أموت يمكنكم أن تكتبوا على لوحة قبري - «هذا هو الرجل الذي عقد اتفاقاً مع بتليورا»(٢).

«نريد إمبراطورية يهودية»

عاد جابوتنسكي في عام ١٩٢٣ إلى المنظمة الصهيونية العالمية وقد أصبحت يقظة، باعتباره العضو المعارض للقيادة من أقصى اليمين. وكان عازماً على مراجعة وتصحيح موقفهم. أدان وايزمان لعدم مطالبته بإعادة تكوين الفيلق اليهودي. كذلك رأى تشرشل يفصل شرق الأردن عن «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، وعندما قبلت المنظمة الصهيونية العالمية على مضض قرار تشرشل ماشاها إنطلاقاً من مبدأ الإنضباط فحسب. ولكن مذ ذلك الوقت أصبح الزعم بأن الأردن كان يهودياً منذ الأبد فكرة ثابتة في برنامجه الجديد؛ «إن جانباً من الأردن هو لنا ـ وكذلك الجانب الآخر». هكذا تمضي أغنية شْتاي جادوت، وهي أكثر الأغاني ارتباطاً بالحركة التصحيحية عادة.

لم يحدث أبداً أن وافق جابوتنسكي على الوهم الساذج بأن الفلسطينيين قد يرحبون يوماً بالسيطرة الأجنبية على بلدهم. وفي وقت كان فيه بن جوريون واصدقاؤه لا يزالون يعتقدون أن في إمكانهم إقناع الجماهير الفلسطينية بقبول الصهيونية بإعتبارها في مصلحتهم، صاغ جابوتنسكي مقولته الصريحة في مقال بعنوان «الحائط الحديدي (نحن والعرب)» كتبه في عام ١٩٢٣ : ـ

> إن الاستعمار الصهيوني إما أن يوقَف أو يستمر ضد رغبات السكان المحليين، لذا لا يمكن الاستمرار بهذا الاستعمار والتقدم به إلا تحت حماية سلطة مستقلة عن السكان المحليين ـ حائط حديدي سيكون في وضع يمكنه من مقاومة ضغوط السكان المحليين، هذه، في كلمات، سياستنا تجاه العرب. . . إن تفاهماً إرادياً مع العرب ليس محل بحث لا الآن ولا في المستقبل القريب(٣).

ولم يكن يحمل سوى الإزدراء للقادة الصهاينة الذين يتكلمون عن السلام بينما هم يطلبون أن يحميهم الجيش البريطاني، أو عن أملهم في حاكم عربي (والمرشح المفضل كان فيصل العراق) يمكن أن يتفق معهم من وراء ظهر الفلسطينيين ويفرضهم على السكان المحليين بحراب عربية. وكرر مراراً وتكراراً أنه لا يمكن أن يكون هناك إلا طريق واحد للدولة الصهيونية:

> إذا أردت أن تستعمر أرضاً يعيش فيها شعب بالفعل فلا بد أن ترسل بحامية إلى هذه الأرض أو أن تجد «رجلاً غنياً» ما، أو محسناً يمكن أن يقدم هذه

الحامية لصالحك أو ـ أو تتخلى عن استعمارك لأنه بدون قوات مسلحة تجعل من المستحيل مادياً على أي محاولة أن تحطم أو تمنع هذا الاستعمار، فإن الاستعمار مستحيل، «لا صعب» ولا خطر، بل مستحيل. . . . إن الصهيونية هي مغامرة إستعمارية، ومن ثم فإنها تقوم أو تسقط بمسألة القوات المسلحة. من المهم . . . أن نتكلم العبرية، ولكن من سوء الحظ فإنه من الأهم أن نكون قادرين على إطلاق النار ـ وإلا فإنني لن ألعب لعبة الاستعمار (٤).

لقد فهم جابوتنسكي أنه في ذلك الوقت كان الصهاينة أضعف من أن يصدوا العرب بدون مساندة البريطانيين، وأصبحت التصحيحية موالية للامبراطورية بوضوح. وفي عام ١٩٣٠ زعم أبا أشيمير وهو مفكر فرعهم الفلسطيني، أن مصلحتهم تكمن في «توسيع الامبراطورية البريطانية بقدر أبعد حتى مما ينتوى البريطانيون أنفسهم»(٥). ومع ذلك فلم يكن لديهم نية الاختباء خلف البريطانيين أكثر من الوقت اللازم. وفي عام ١٩٣٥ اجتمع صحفي شيوعي يهودي مع جابوتنسكي على ظهر سفينة عابرة للمحيط وهو في طريقه للولايات المتحدة وحصل منه على مقابلة. وأصبحت مقالة روبرت جِسْبر في جريدة «نْيوماسِسْ» (الجماهير الجديدة) حديث أمريكا اليهودية.

لقد أعلن أنه سيتكلم بصراحة بحيث تصبح التصحيحية واضحة. بدأ وقال «إن التصحيحية ساذجة وقاسية وبدائية، إنها وحشية. أُخرج إلى الشارع والتقط أي إنسان ـ صيني ـ وسله ماذا يريد وسيقول لك كل شيء مائة في المائة. هكذا نحن. نحن نريد إمبراطورية يهودية. تماماً كما أن هناك إمبراطورية إيطالية أو فرنسية على البحر المتوسط، نحن نريد إمبراطورية يهودية»(٦).

«لقد أدرك لمحة عن السر العظيم للشعوب ذات العقل السياسي»

بالرغم من حماس أعضاء الحركة التصحيحية للامبراطورية البريطانية، فقد كان عليها في النهاية أن تبحث عن حامٍ امبراطوري جديد. لم تكن بريطانيا عازمة على أن تفعل أي شيء أكثر من حراسة الصهاينة، وحتى في ذلك لم تكن فعالة جداً، وكان على الصهاينة أن يشتروا الأرض بوصة بوصة. كما لم يكن في الإمكان أن يعتقد أي شخص بجدية أن بريطانيا يمكن أن تعطي شرق الأردن للصهاينة في يوم من الأيام. لذلك بدأ التصحيحيون في البحث عن حماية جديدة تلتزم بحزم بسياسة أكثر قسوة تجاه العرب ومن

ثم تكون على استعداد لمساندة إقامة الدولة الصهيونية. وبدا أن ايطاليا هي الإجابة الواضحة على ذلك، ليس بسبب أي تعاطف مع الفاشية ولكن بسبب طموحات إيطاليا الإمبراطورية الخاصة. كان جابوتنسكي تلميذاً في ايطاليا وقد أحب النظام الليبرالي ـ الأرستقراطي القديم. كان يظن نفسه متزيني وكافور وغاريبالدي اليهودي، الثلاثة معاً في شخص واحد، ولم يكن يستطيع أن يرى أي خطأ في الاتجاهات الليبرالية التي كان موسوليني يتبرأ منها كلية. وفي الحقيقة فقد كان يحتقر الفاشية. وكتب في عام ١٩٢٦:

هناك اليوم بلد استبدلت فيه «البرامج» بكلمة من رجل واحد.. هي ايطاليا. والنظام يدعى الفاشية: ولكي يعطوا لنبيهم لقبا اخترعوا له تعبيراً جديداً هو الدوتشي، الذي هو ترجمة لتلك الكلمة التي هي أسخف كلمة في الكلمات الانجليزية ـ «الزعيم». الجاموس يتبع زعيماً. والمتمدينون لا زعماء لهم(٧).

ومع ذلك وبالرغم من سعة أفق جابوتنسكي فإن أسلوبه الخاص بلغ حد تقليد عسكرية موسوليني وهتلر. وتظل روايته «شمشون»، التي نشرت في عام ١٩٢٦ واحدة من كلاسيكيات الأدب الشمولي:

وذات يوم كان موجوداً في احتفال في معبد في غزة، وتجمع في الخارج في الميدان عدد غفير من الشبان والشابات لرقصات الاحتفال.. وقاد الرقصات كاهن بغير لحية. وقف على أعلى درجة في سلم المعبد يحمل في يده عصا من العاج وعندما بدأت الموسيقى وقف الجمع الغفير بلا حركة.. شحب وجه الكاهن الذي لا لحية له وبدا كأنه يغمس عينيه في أعين الراقصين وكانت قد تثبتت على عينيه مستجيبة. ظل يشحب ويشحب. وبدا كأن كل المشاعر المقموعة لهذا الجمهور تتركز في صدره حتى كادت أن تخنقه. وشعر شمشون بالدم يجري في قلبه. فهو نفسه كان من الممكن أن يختنق إذا ظل هذا التوتر لحظات قليلة أكثر. فجأة وبحركة سريعة غير واضحة تقريبا رفع الكاهن عصاه وسقطت كل الشخوص البيضاء في الميدان على الركبة اليسرى ورمت بالذراع الأيمن نحو السماء ـ في حركة واحدة، في إنسجام وهمهمة واحدة مفاجئة وتنهد عشرات الآلاف من المشاهدين تنهيدة خرجت كالنواح. وترنح شمشون: كانت الدماء على شفتيه، فقط عضّ عليهما بشكل محكم.. غادر شمشون

المكان وهو يفكر بعمق. لم يكن في إمكانه أن يعبر عن أفكاره بكلمات، ولكن كان لديه شعور بأنه ها هنا في هذا المشهد الذي يطيع فيه الآلاف إرادة واحدة، فإنه قد أدرك لمحة عن السر العظيم للشعوب ذات العقلية السياسية(٨).

سرعان ما تغلبت الرغبة في الحصول على حماية أكثر تصميماً على عدم محبة جابوتنسكي للنظام الداخلي لايطاليا. وكثيرون من الذين جندهم لم يكن لديهم أبداً أية مشاكل مع الأسلوب الفاشي المحلي. وبحلول منتصف العشرينات كان قد جذب عدة صهاينة عماليين سابقين تحولوا بوحشية ضد رفاقهم السابقين وأصبح موسوليني بطلهم. وفي أغسطس/آب ١٩٣٢، في المؤتمر التصحيحي العالمي الخامس، اقترح آبا أشيمير وفولفانج فون فايزل، قادة التصحيحيين في فلسطين، أن يكون جابوتنسكي هو الدوتشي لجناحهم في المنظمة الصهيونية العالمية. وقد رفض تماماً، ولكن كل تناقض بينه شخصيا وبين القواعد التي كانت تزداد ولاءً للفاشية كان يُحلُّ باقترابه هو منهم. وبدون أن يتخلى عن الكلام الليبرالي السابق أدخل مفاهيم موسوليني ضمن أيديولوجيته هو، ونادراً ما انتقد أتباعه علناً بسبب تهجماتهم ذات الأسلوب الفاشستي، مدافعاً عنهم ضد الصهاينة والبريطانيين.

وطرحت الحجة بأن التصحيحية بحد ذاتها ليست قاسية، لوجود اختلافات مشروعة داخل القواعد، وأنه يتم اتخاذ القرارات في النهاية بالتصويت في المؤتمرات أو باستفتاءات عامة. وفي الواقع فإنه من الصعب التفكير في كيف كان من الممكن أن تكون الحركة أكثر «لا ديمقراطية» بدون أن تصبح رسمياً مجموعة فاشية صرف. فخلال ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣، قرر جابوتنسكي أن الوقت قد حان بالنسبة لهم لكي ينسحبوا من المنظمة الصهيونية العالمية ولكن معظم اللجنة التنفيذية في اتحادهم العالمي كانوا معارضين لذلك، إذ أنهم لم يجدوا أي مكسب في الانشقاق. فجأة قطع النقاش بأن سيطر شخصيا وعنوةً على الحركة وطلب من القواعد أن تختار بينه وبين اللجنة التنفيذية المنحلة في استفتاء عام. وتكشف رسالة مكتوبة في ديسمبر/كانون أول ١٩٣٢ أنه كان يعرف تماماً في أي اتجاه كان يقود التنظيم: «من الواضح أن الوقت قد حان حين يجب أن يكون هناك مسيطر واحد رئيسي على الحركة، «زعيم»، بالرغم من أنني ما زلت أكره الكلمة. حسناً، إذا كان لا بد من وجود واحد، سيكون هناك واحد»(٩).

كان جابوتنسكي يعرف أنه لا يستطيع أن يخسر التصويت، فهو يمثل بالنسبة

لعشرات الآلاف من الشباب ذوي القمصان البنية أعضاء حركة «بيتار»، النزعة العسكرية التي يريدونها ضد لجنة تنفيذية هي من نفس النسيج البرجوازي كزمرة وايزمان. كانت مجموعة البيتار الشابة دائماً هي القسم المركزي للتصحيحية في المهجر. ويعلن «تاريخ الحركة التصحيحية» شبه الرسمي أنه بعد مناقشة حول ما إذا كانت الحركة ستقوم على أسس ديمقراطية أم لا، أخذ القرار لصالح «بنية» تراتبية من النوع العسكري»[١٠]. وكانت البيتار في شكلها الكلاسيكي تختار رأسها الأعلى (البيتار الأعلى)، وكان دائماً جابوتنسكي، بأغلبية ٧٥٪ من الأصوات، وكان هو يختار قادة الوحدات القومية وهم بدورهم يختارون القادة الأدنى منهم. كانت المعارضة مسموحاً بها، ولكن بعد تطهير المعتدلين في أوائل الثلاثينيات كان النقاد الداخليون الجديون الوحيدون هم متطرفون متنوعون. متطرفون قد يشكون في أوقات مختلفة بأن جابوتنسكي لم يكن فاشستياً أو أنه كان موالياً للبريطانيين بشدة، ولم يكن معادياً للعرب بشكل كاف، وعمدا كان البيتاري العادي يرتدي قميصه البني فإن الذنب لم يكن ذنبه إذا ظن أنه عضو في حركة فاشستية وأن جابوتنسكي هو الدوتشي بالنسبة له.

البرجوازية اليهودية ـ المصدر الوحيد لرأسمالنا البنّاء

كان التصحيحيون ينظرون للطبقة الوسطى منذ البداية باعتبارها زبونتهم، وكانوا هم على كراهية لليسار منذ زمن. وفي عام ١٩٣٣ كتب شاب إلى جابوتنسكي يسأله لماذا أصبح معادياً للماركسية بهذا الحماس. فكتب جابوتنسكي مقالة هامة عن «الصهيونية والشيوعية» شارحاً عدم إمكان توافقهما كلية. بالنسبة لليهود «نكافح الشيوعية من أجل القضاء على المصدر الوحيد لرأسمالنا البنّاء ـ البرجوازية اليهودية ـ لأن أساسها هي جذورنا، ومبدأها [أي الشيوعية] هو الصراع الطبقي ضد البرجوازية». وفي فلسطين فإن الماركسية على وجه التحديد تعني أكثر المعارضات حدة للصهيونية:

> إن جوهر الشيوعية يتكون من أنها تثير، ويجب أن تحفز، الأمم الشرقية ضد السيطرة الأوروبية. فهذه السيطرة في نظرها هي سيطرة إمبريالية ومستغلة. أعتقد غير ذلك وأظن أن السيطرة الأوروبية تجعلهم متمدنين. ولكن هذا السؤال هو سؤال عارض ولا يتعلق بالأمر. شيء واحد واضح: الشيوعية تحفز ويجب أن تحفز الأمم الشرقية وهي لا يمكن أن تفعل ذلك إلا باسم الحرية القومية، وهي تقول لهم ويجب أن تقول لهم: إن اراضيكم هي لكم وليست

لأي من الغرباء. هذا ما يجب أن تتكلم به مع العرب ومع عرب فلسطين..
إن الشيوعية بالنسبة لرئاتنا الصهيونية هي غاز خانق وهذه هي الكيفية التي يجب أن نتعامل بها معا(١١).

ذلك بالدقة نموذج لأسلوبه، فقد قفز من مقولة صحيحة إلى استنتاج غير صحيح. منطقياً، فان الصهيونية والماركسية لا يتفقان بالتأكيد، ولكن لم يتبع ذلك في الواقع أن أولئك الذين حاولوا أن يخلطوا بين الاثنين كانوا بالفعل في معسكر الأعداء ففي الواقع العملي فإن الصهيوني الاشتراكي يضحي بالاشتراكية لصالح الصهيونية وليس العكس. ولكن جابوتنسكي أصر على أنه لا يوجد أي اختلاف أساسي بين الشيوعيين وبين صهيونيّي بوعالي:

لا أعتقد أن هناك أي اختلاف بين الشيوعية وبين أشكال الاشتراكية الأخرى التي تقوم على النظرة الطبقية... إن الفرق الوحيد بين هذين المعسكرين هو فارق في المزاج، أحدهما يندفع إلى الأمام والآخر أبطأ قليلاً. ومثل هذا الفارق لا يستحق قيمة قطرة الحبر الضرورية لوصفه كتابةً(١٢).

كان تفكير جابوتنسكي دائماً يجري حسب معادلات حدّية، كانت الطبقة الرأسمالية هي القوة الرئيسية للصهيونية، ومن المنطق لذلك أن الاضرابات تعرقل الاستثمار في فلسطين. ربما كانت مقبولة في البلدان الصناعية المتقدمة حيث قد تتحملها إقتصادياتها لا حيث لا تزال أسس صهيون تُرسى حجرا حجرا. ولقد عارض التصحيحيون ـ مقلدين تقليداً دقيقاً الفاشيين الإيطاليين ـ سواء «الإضرابات» أو إغلاق المصانع من جانب أرباب العمل، مع اعتبار الاضرابات هي أعلى الجرائم:

وبالتحكيم «الإجباري» نحن نعني ما يلي: بعد انتخاب مثل هذه الهيئة الدائمة فإن اللجوء اليها يجب أن يُعلَن الطريق الشرعي الوحيد لتسوية النزاعات الصناعية. يجب أن تكون أحكامها نهائية. ويجب أن يعلن أن الاضرابات وإغلاق المصانع (وكذلك مقاطعة العمل اليهودي) هي خيانة لمصالح الصهيونية ويجب قمعها بكل الوسائل القانونية والمعنوية الموجودة لدى الأمة(١٣).

لم يكن التصحيحيون على استعداد للانتظار حتى يحطموا خصومهم العماليين. كان

اشيمير زعيمهم في فلسطين (إذا كان جابوتنسكي ممنوعاً من دخول فلسطين بأمر من المفوض السامي بعد أن أدت إستفزازات التصحيحيين الى الانفجار العربي في عام ١٩٢٩) يوالي بفظاعة نشر بابه بعنوان «يوميات فاشستي»، في صحيفتهم. وكان لديه ما يقابل المجموعه الايطالية سْكَوا درِستي، وهي إتحاد الارهابيين (بْريت هابيريونيم)، وقد تشكلت على نمط جماعة «سيكارلي» القديمة ـ القتلة المتحمسون الذين يخفون خناجرهم، والذين نشطوا خلال الانتفاضة اليهودية ضد روما ـ وقد ألهب الشبيبة التصحيحية من أجل صدام نهائي مع الصهاينة العماليين:

يجب أن نخلق مجموعات للعمل لكي نصفّي الهستدروت مادياً. انهم أسوأ من العرب. . أنتم لستم طلاباً إنكم فقط ليِّنين جداً. . لا يوجد من بينكم من هو قادر على ارتكاب القتل بنفس الطريقة التي يرتكبها للطلاب الألمان الذين قتلوا راتِينَو. انتم لا تتملككم الروح القومية التي تسيطر على الألمان. . لا يوجد من بينكم من هو قادر على القتل بالطريقة التي قُتل بها كارل ليبكنشت وروزا لكسمبورج(١٤).

شهدت فلسطين حينئذ الصهاينة، على شكل الهستدروت، التي تطرد الآلاف من العرب من عملهم الموسمي في بيارات البرتقال اليهودية، وعلى شكل الفاشيين التصحيحيين الذين يهاجمون الهستدروت. ولكن بالرغم من أن العمال العرب كانوا يفتقرون إلى القيادة للدفاع عن أنفسهم فان الهستدروت كانت جيدة التنظيم. فبعد سلسلة من الاصطدامات الحادة بما في ذلك معركة حاسمة في حيفا، في يوم ١٧ اكتوبر/تشرين أول ١٩٣٤، اجتاح ١٥٠٠ من الصهيونيين العماليين مقر قيادة التصحيحيين وأصابوا العشرات من الفاشيين، خمدت حملة التصيحيين. كانت قواعد الهستدروت مستعدة تماماً للرد على الهجمات الفاشية بنقل الحرب إلى حيث العدو وسحقه، ولكن قيادة الصهيونيين العماليين كانت غير عازمة على محاربة الفاشية في فلسطين، مثل أي مكان آخر، وسمحت لهم بالإفلات من الهزيمة خوفاً من أن تؤدي أي معركة جدية إلى إبعاد أتباعهم من الطبقة الوسطى للصهيونية في المهجر.

علاقات التصحيحيين مع الفاشيين الإيطاليين

قرر جابوتنسكي في أوائل الثلاثينات أن يقيم مدرسة حزبية في ايطاليا، وتشاور

التصحيحيون المحليون في ذلك الأمر مع روما، وكانوا يعرفون أنفسهم علناً باعتبارهم فاشيين. كان يعرف حق المعرفة أن اختيار ايطاليا كموقع لمدرسة حزبية لن يؤدي إلا إلى تأكيد صورتهم الفاشية، ولكنه كان قد تحرك نحو اليمين كثيراً لدرجة أنه لم يعد يهتم بما قد يفكر فيه «أعداؤه». بل إنه أكد لواحد من أتباعه الايطاليين أن في إمكانهم إقامة مدرستهم المقترحة في مكان آخر ولكن «نحن. . . نفضل أن نقيمها في ايطاليا»(١٥). وفي عام ١٩٣٤ قرر الايطاليون أنه بالرغم من كل ما أبدوه من صداقة نحو سوكولولف ووايزمان وقيادة المنظمة الصهيونية العالمية، فانهم لم يفكروا أبداً في قطع علاقتهم مع لندن. كما أن الايطاليين لم يكونوا سعداء بالصعود المتزايد داخل المنظمة الصهيونية العالمية من جانب الصهيونيين العماليين الاشتراكيين الديمقراطيين الذين كانوا على صلة، وإن بعيدة، بأعدائهم الاشتراكيين الذين يعملون سراً. لذلك كانوا على استعداد تام لإظهار تأييدهم للتصحيحيين الذين كانوا بوضوح فاشيي صهيون. وفي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٤ سمح موسوليني لحركة «البيتار» بأن تضع فصيلا في الأكاديمية البحرية في سيفيتافيكيا التي كان يديرها ذوو القمصان السود.

وحتى بعد اغتيال أرلوسورف في عام ١٩٣٣ وحملة تحطيم الاضراب التي نظمها أشمير ضد الهستدروت، فإن بن جوريون عقد اتفاقاً للسلام مع جابوتنسكي في أكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٤، ولكن قواعد الهستدروت رفضته. وأخيراً أقام التصحيحيون منظمتهم الخاصة باسم «المنظمة الصهيونية الجديدة». وطلب جابوتنسكي من مؤيديه الايطاليين عمل الترتيبات لعقد المؤتمر العالمي الأول للمنظمة الصهيونية الجديدة في تريستا عام ١٩٣٥، متباهياً بحقيقة أنه لا يهتم بما قد يفكره الناس عندما تعقد حركته مؤتمرها التأسيسي في ايطاليا الفاشية(١٦). وفي النهاية عقد الاجتماع في فيينا ولكن جابوتنسكي زار أكاديمية سيفيتافيكيا بعد المؤتمر. ومن المثير للتساؤل أنه لم يقابل موسوليني أبداً ـ ربما لأنه كان معنيا بأن يثبت أنه لا يزال أكثر من مجرد «زعيم جواميس» آخر.

وبالرغم من أنه لا يوجد تصريح واحد لجابوتنسكي يسمّي نفسه فيه فاشياً، وبالرغم من تصريحاته التي لا حصر لها عن مؤهلاته الجْلادِستُونية(*)، فإن كل اتجاه

* جلادستون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨)، رئيس وزراء بريطانيا أربع مرات. دعا إلى حكم ذاتي لايرلندة الخاضعة في حينها لبريطانيا العظمى، وأحدث اصلاحات برلمانية ونادى بالتجارة الحرة (م).

سياسي كبير آخر نظر إلى التصحيحيين باعتبارهم فاشيي الصهيونية. ولقد نسب وايزمان في أحاديثه مع خاصته مقتل أرلوسوروف إلى أسلوبهم الفاشستي، وكان بن جوريون يشير بشكل منتظم إلى «فلاديمير هتلر». بل ذهب إلى أبعد من ذلك فأطلق على النازيين لقب «التصحيحيين الألمان»[١٧]. وقال فون ميلدنشتين لقرّائه عن مقابلته على ظهر سفينة مع عضو في حركة بيتار أطلق عليه اسم «فاشيّ يهودي». ووصف الشباب باعتبارهم «المجموعة الفاشية بين اليهود، القوميون الراديكاليون، الذين يعادون أي نوع من أنواع التهاون في المسائل المتعلقة بالقومية اليهودية. كان حزبهم السياسي هو «التصحيحيون»[١٨].

ولكن أعلى شكل من أشكال هذا الاحتضان جاء من موسوليني الذي قال في عام ١٩٣٥ لدافيد بْراتو، الذي أصبح فيها بعد الحاخام الأكبر في روما، انه: «لكي تنجح الصهيونية فانتم في حاجة لأن يكون لديكم دولة يهودية بعلم يهودي ولغة يهودية. والشخص الذي يفهم ذلك جيداً هو فاشيّكم، جابوتنسكي»[١٩].

وكانت أغلبية الحركة ترى نفسها معارضة للديمقراطية، فاشية أو متعاطفة معها جداً. وقد تحول جاكوب دي هاس وهو من أصحاب هرتزل، إلى التصحيحية في أواسط الثلاثينات، ولكي يظهر أنهم لم يكونوا «مجرد جابوتنسكي» فقد حضر مؤتمر المنظمة الصهيونية الجديدة في فيينا كرئيس وعندما عاد إلى امريكا أعطى انطباعته عن هذا الاجتماع في عموده المنشور في جريدة «**جويش كرونيكل**» بشيكاغو. وبعد أن أكد لقرائه بسرعة أنه لم يكن يدافع فعلاً عن الفاشية قال لهم إن عليهم أن:

يتأكدوا أن الديمقراطية هي قضية ميتة في معظم أوربا. وأن مظهرها الرئيسي في التفكير العام هو التبجح والتحايل من جانب أحزاب وفروع أحزاب بلا نهاية.. إن المندوبين لم يكونوا فاشيين، ولكنهم ولأنهم فقدوا كل إيمان بالديمقراطية، فانهم لن يكونوا معادين للفاشية. ومع ذلك فقد كانوا شديدي العداء للشيوعية[٢٠].

فإذا كان دي هاس في أمريكا قد وجد أن عليه تهدئة خواطر القراء الشكوكين وطمأنتهم بأن أغلبية حركته لا يكنون للديمقراطية إلا الإزدراء، فإن فولفانج فون ويزل، المدير المالي للتصحيحيين لم يكن لديه مثل هذا التردد عندما أخبر صحيفة دبلوماسية في

بوخارست أنه «بالرغم من أن الآراء تنوعت بين التصحيحيين فانهم بشكل عام تعاطفوا مع الفاشية. وكان متحمساً بشكل واضح لأن يجعل العالم يعرف أنه «شخصيا كان مؤيداً للفاشية وأنه سُرَّ بانتصار ايطاليا الفاشية في الحبشة باعتباره انتصارا للأجناس البيضاء ضد السوداء»(٢١). وفي عام ١٩٨٠ وصف شمويل مِرلين مشاعره الخاصة تجاه موسوليني في أواسط الثلاثينات عندما كان الأمين العام الشاب للمنظمة الصهيونية الجديدة:

أعجبت به ولكنني لن أكون فاشياً. لقد مجد الحرب وشعرت أن الحرب كانت ضرورية. ولكنها بالنسبة لي كانت مأساة.. إنني آسف بالفعل لأن أشيمير عَنوَن عموده الصحفي «يوميات فاشستي» لقد أعطى ذلك فقط مبرراً لأعدائنا لكي يهاجموننا، ولكن من المؤكد أنها لن تفصم صداقتنا(٢٢).

ومهما كان رأي جابوتنسكي في طبيعة من يقود، فإنه لن يكن هناك أي شك في أن هؤلاء الأعضاء الثلاثة البارزين في الحركة التصحيحية كانوا يتحدثون عن تجمّع فاشستي. إن تقييمات فون ويزل تبدو معقولة تماماً. فالقسم الفاشستي داخل القيادة كان كبيراً، وهؤلاء، وليس جابوتنسكي، هم الذين سيّروا الحركة في فلسطين وبولندا وايطاليا والمانيا والنمسا ولاتْفيا ومنشوريا على الأقل. وفي أفضل الأحوال يجب التفكير في جابوتنسكي باعتباره رأساً ليبرالياً إمبريالياً لجسد فاشستي. إن التصحيحيين في وقتنا الحاضر لا ينكرون وجود فاشستيين معروفين في حركتهم في الثلاثينات. وبدلاً من الإنكار فانهم يؤكدون بشدة على التمييز بين جابوتنسكي والفاشيين. وهم يزعمون أن موضوع أكاديمية سيفيتافيكيا كان مجرد أسلوب متزيني. وهم يدّعون أنه من المسموح به أن يطلب القوميون معونة منافس إمبريالي لقاهرهم هم. وهم يعرضون أن ذلك بالتأكيد لا يتضمن تشجيع النظام الداخلي لسيّدهم. وعندئذ يشيرون إلى تحذير جابوتنسكي لشباب حركة البيتار في سيفيتافيكيا:

لا تتدخلوا في أي حوار حزبي يتعلق بايطاليا. لا تعبروا عن أي آراء في السياسات الايطالية. لا تنقدوا النظام الحالي في ايطاليا ـ ولا النظام السابق. فإذا سُئلتم عن معتقداتكم السياسية والاجتماعية أجيبوا: أنا صهيوني. رغبتي الأعظم هي الدولة اليهودية. وفي بلادي أعارض الحرب الطبقية. هذه هي كل عقيدتي(٢٣).

لقد تم حساب هذه الصيغة الدبلوماسية للغاية لإرضاء الفاشيين الإيطاليين بدون الاصطدام مع المؤيدين المحافظين للنظام القديم الذين قد يقابلهم عضو حركة البيتار بالصدفة. وكانت معارضة الصراع الطبقي هي محك الاختبار عند موسوليني الذي لم يكن مهتماً أبداً بشكل خاص بما إذا كان هؤلاء المعجبون الأجانب يظنون أنفسهم فاشيين أنقياء أم لا، ومع ذلك فإن رسالة جابوتنسكي لأعضاء حركة البيتار لم تكن هي نهاية القصة. إن مبرّريه يتغافلون عن الوضع الفعلي في المدرسة حيث تم تجاهل تعليماته. ونسخة شهر مارس / آذار ١٩٣٦ من مجلة «لايدياسيُونسْتيكا» (الفكرة الصهيونية) وهي مجلة الفرع الإيطالي للتصحيحيين، وصفت الاحتفالات التي تمت بمناسبة افتتاح القيادة الجديدة لفصائل حركة البيتار:

> صدر الأمر - انتباه! وتبع ذلك أغنية ثلاثية أمر بها الضابط قائد الفصيل - عاشت إيطاليا، عاش الملك، عاش الدوتشي، ثم البركة التي استحدثها الحاخام ألدولاتّسي باللغة الإيطالية والعبرية لله - وللملك وللدوتشي... وغنى أعضاء حركة البيتار بحماس كبير نشيد «جيُوفينتسا» [وهو نشيد الحزب الفاشي][٢٤].

ويمكننا أن نكون على ثقة من أنهم صرخوا بمثل هذه الأناشيد عندما استعرض موسوليني بنفسه أعضاء حركة البيتار في عام ١٩٣٦[٢٥]، كان جابوتنسكي يعرف أن اتباعه الإيطاليين معجبون بموسوليني ولكن عندما أرسلت إليه نسخة من كتاب موسوليني «عقيدة الفاشية»، فإن كل ما أمكنه قوله موبّخاً هو عبارة مخففة: «إن المسموح لي هو أن آمل بأن يكون لدينا قدرة خلق عقيدة من عندنا دون النقل عن الآخرين»[٢٦]. وبرغم كل ما كان لديه من تحفظات شخصية حول الفاشية، فإنه بالتحديد أراد أن يكون موسوليني حامي فلسطين، وقد كتب لصديق له في عام ١٩٣٦ أن خياراته تصل إلى:

> قيام حماية من إيطاليا أو حكم مشترك ما لمجموعة من الدول أقل عداء للسامية ومهتمة بالهجرة اليهودية، أو انتداب من جانب جنيف (عصبة الأمم). قبل ٣٠ يونيو / حزيران ١٥ يوليو / تموز استطلعت الخيار رقم (١). والنتيجة: لم ينضج بعد، وما زال بعيداً عن النضج[٢٧].

أصبح جابوتنسكي هو محامي الدفاع عن موسوليني في العالم اليهودي. فبينما كان يزور أمريكا في عام ١٩٣٥ للقيام بجولة محاضرات، كتب سلسلة، من المقالات في

جريدة «جُويش ديْلي بـوليتن» التي تصدر في نيـويورك، وهي جـريدة صهيـونية بـاللغة الإنجليزية لم تعش طويلاً ومخصصة كليةً للشؤون اليهودية. في الثـلاثينات كـان معظم اليهود يتبعون ما هو شائع ويشيرون إلى الحرب ضد هتلر باعتبارها جزءاً من «النضال المعادي للفاشية». وصمم جابوتنسكي على أن يوقف ذلك فهو قد فهم جيداً أنه طالما نظر اليهود إلى هتلر باعتباره فاشستياً آخر فإنهم لن يوافقوا أبداً على التوجه التصحيحي نحو موسوليني. إن حديثه عن النظام الفاشستي الإيطالي يبين لنا بالدقة كيف وضع اعتراضاته الشخصية على سياسات «قطيع الجاموس» في موقع أدنى بكثير من التزامه المتنامي بالحماية الإيطالية التي يأمل بها:

ومهما كان تفكير أي قلة حول النقـاط الأخرى للفـاشية، فـلا يوجـد شك أن النمط الإيطالي من الأيديولوجية الفاشية هو على الأقل أيـديولـوجية للمسـاواة العرقية. دعونا لا نكون على قدر من التواضـع يجعلنا نـدّعي أن ذلك لا يهم وأن المساواة العرقية هي فكرة غير مهمة لدرجة أنها لا يمكن أن تفوق غياب الحرية المـدنية. لأن ذلـك ليس صحيحاً. إنني كصحفي أختنق بـدون حريـة صحافة، ولكنني أؤكد أنه سيكون مجرد كفر القول في مجال الحقوق المدنية، إن حرية الصحافة، تأتي قبل المساواة بين كـل الناس. المسـاواة تأتي أولاً، دائـماً أولاً، بل هي قبل أولاً. ويجب على اليهود أن يتذكروا ذلك وأن يتمسكوا بأن النظام الذي يحافظ على هذا المبدأ في عالم من أكلة لحوم البشر، فإنه يعوض، جزئياً ولكن بشكل كبير، نواقصه الأخرى، يمكن انتقادُه ولكن لا يجب ركله. هناك تعابير أخرى كافية لاستعمالها في اللعنات ـ النازية، الهتلرية، البوليسية، الخ . . . ولكن كلمة الفاشية هي كلمة لها حقوق استعمال إيـطالية، ولـذلك يجب الاحتفاظ بها فقط للشكل الصحيح من النقاش، وليس للتدريبـات على لغة السوقة: خصوصاً إذا ما تبين أن ذلك ضار جداً. . إن الحكـومة صـاحبة حقوق الاستعمال هي عامل قوي جداً يمكن بتعاطفها معنا أن يمنع الكثير عنا في مجالس عصبة الأمم. ومن المصادفة أن لجنة الانتداب الدائمة التي تشـرف على الشؤون الفلسطينية لها رئيس إيطالي. باختصار وبالرغم من أنني لا أتوقع من أولاد الشوارع (بغض النظر عن العمر) أن يتبعوا النصح والتحذيـر ـ فإن على القادة المسؤولين أن يأخذوا حذرهم(٢٨).

التصحيحيون يبررون روابطهم مع الفاشيين

انتهى التوجه نحو موسوليني إلى كارثة كاملة. فالتصحيحيون الذين أعماهم البحث عن مطرقة ضد خصومهم العرب والبريطانيين واليهود، كانوا هم الوحيدين الذين لم يروا ما كان آتياً. لقد ظهرت صورة لرسالة من الأمير شكيب أرسلان إلى المفتي تتعلق بنشر الدعاية الموالية لإيطاليا، ظهرت في صحافة فلسطين في عام ١٩٣٥، وفي عام ١٩٣٦ كان راديو باري يوجه إلى العرب إذاعات معادية للبريطانيين. في ذلك الوقت كان التصحيحيون اعتادوا الدفاع عن موسوليني لدرجة أنهم ببساطة لن يقروا بتعاونه مع المفتي ومع القضية الفلسطينية. وحتى عام ١٩٣٨ حاول وليم زيف، وهو مدير إعلانات كان على رأس التصحيحية الأمريكية، حاول أن يقلل من التورط الإيطالي مع المفتي في كتابه، **اغتصاب فلسطين**:

> ألقى وزير الخارجية البريطاني بكل اللوم على الإيطاليين، وهو يتحدث بكلمات جميلة منتقاة ألمح فيها لمؤامرة ضد اليهود وكذلك ضد البريطانيين وهبت الصحافة الليبرالية كلها نحو الطعم الذي أُلقي ببراعة على الماء. وانطلقت الصحافة الماركسية كمجموعة من الكلاب المتحمسة خلف فريستها تصيح بشكل عدواني[٢٩].

وبالرغم من حقيقة أن التصحيحيين كانوا قد ساندوا بوضوح الجواد الخاسر فقد استطرد:

> لا يمكن أن يكون هناك شك في أن موسوليني، وهو واقعي ذو قبضة قاسية، قد قدر أنها ستكون صفقة جيدة إذا استطاع أن يفصل اليهود عن الفلك البريطاني. إن صهيون مستقلة وقوية، له معها علاقات صداقة كانت ستكون مناسبة له تماماً. ولقد قضى اليهود بأنفسهم على هذا الأفق بمحبتهم الثابتة للإنجليز، وكان لا بد أن يصل موسوليني إلى اعتبار الصهيونية مجرد قناع لخلق منطقة أخرى للتوسع الانجليزي سياسياً واقتصادياً في البحر المتوسط. لذلك تضخمت في العقل الإيطالي باعتبارها قوة معادية لإيطاليا. وبالرغم من ذلك فلم يُقدم أبداً أي أثر لدليل فعلي لتأكيد التهمة التي تقول بأن التدخل الإيطالي كان عاملاً في الإنتفاضة العربية الأخيرة في فلسطين[٣٠].

في نهاية الأمر كانت إسبانيا وليست فلسطين هي التي دفعت موسوليني لتأييد هتلر. فقد أدرك موسوليني أنه وهتلر لا بد أن يبقيا الآن متحدين لمنع الثورة في مكان آخر. وأنه من خلال التحالف مع السلطة الألمانية فقط يمكن أن يأمل في توسيع أمبراطوريته. ولكنه كان يعرف أيضاً أن من المستحيل أن يكون حليفاً لهتلر. وأن يكون لديه يهود في حزبه. لذلك اخترع «آريّة لاتينيَّة»، وطرد اليهود من الحزب والاقتصاد وأقلع نحو الحرب. وأعلن التصحيحيون أنهم كانوا مخطئين للأسباب الصحيحة:

لقد حذرنا اليهود لسنوات ألا يهينوا النظام الفاشي في إيطاليا. لنكن صريحين، قبل أن ندين الآخرين بسبب القوانين الأخيرة المعادية لليهود في إيطاليا، لماذا لا ندين أولاً مجموعاتنا الراديكالية المسؤولة عما حدث(٣١).

ومع تحول موسوليني نحو هتلر أصبحت فاشية التصحيحيين نقطة ضعف مستحيلة في العالم اليهودي، وعندما مات جابوتنسكي في نيويورك في أغسطس / آب عام ١٩٤٠ سرعان ما أسقطوا لقب روش بيتار [رأس بيتار] الذي أصبح يذكّر بالفاشية. وما عادوا يقرون بأنهم كانوا فاشيين، لا لشيء إلا لأن أحداً منهم لم يكن من الممكن أن يملأ مكان جابوتنسكي، ومن الطبيعي أن النشرات الأخيرة للتصحيحيين مالت إلى تجنب الحديث - أو إلى التقليل منه - عن دور عناصرهم الفاشستية الداخلية مثل آشيمير، وأصبحت «سيفيتا فيكيا» تمر عادة مع تعليق لا يزيد عن عبارة تبرئة تقول: «إن مؤسسي بحرية إسرائيل تدربوا هناك».

«من بين أكثر الظواهر السياسية المقلقة في زمننا»

من المستحيل إنهاء مناقشة حول التصحيحيين والفاشية بدون أن نذكر بإيجاز دور بيجين خلال هذه الأحداث. لقد أغفل كتاباه اللذان صدرا بعد الحرب، وهما كتابا «الانتفاضة» و«الليالي البيضاء»، ذكرَ نشاطاته في الثلاثينات. وصور الكتابان جابوتنسكي باعتباره نصير فكرة الدفاع العسكري الذي أسيء فهمه. ولكن بيجين كان وهو في الثانية والعشرين من العمر شخصاً بارزاً في حركة بيتار البولندية لدرجة الجلوس مع جابوتنسكي على منصة الرئاسة في مؤتمر التصحيحيين البولنديين عام ١٩٣٥ في وارسو. وبحلول عام ١٩٣٨، كان الشخصية المسيطرة في المؤتمر العالمي لحركة بيتار في وارسو، وبحلول عام ١٩٣٩ كان قد عين مسؤولاً للبيتار البولنديين. ولكن وبالرغم من

حقيقة أن معارضين لا حصر لهم قد أطلقوا عليه لقب فاشستي، فإن أحداً لم ينقل عنه أية كتابات موالية لموسوليني بشكل خاص، وحتى الآن يجب الافتراض أنه لا توجد مثل هذه الكتابات. ومع ذلك فحتى لو كان صحيحاً أنه لم يروج للفاشية أبداً فإن يهودا بِنْاري، وهو مدير معهد جابوتنسكي وكاتب المقالة الخاصة ببيجين في «موسوعة الصهيونية وإسرائيل» يقرر بشكل محدد أنه في عام ١٩٣٩ انضم للجناح الراديكالي في الحركة التصحيحية، التي كانت مرتبطة أيديولوجياً بـ «برت هابيريونيم» [اتحاد الإرهابيين][٣٢]. وكان بيجين صديقاً شخصياً لأشيمير الذي كان قد أُبعد إلى بولندا عام ١٩٣٥ وكذلك لفون ويزل الذي كثيراً ما جاء إلى وارسو للتفاوض مع الحكومة البولندية لصالح المنظمة الصهيونية الجديدة. وكان صديقاً حميماً لناتان يالين ـ مور ومعجباً في ذلك الوقت بأفراهام شتيرن وكلاهما شمولي ملتزم. وحتى بعد الحرب العالمية الثانية فإن بيجين كزعيم لحزب حيروت في دولة إسرائيل الجديدة جعل أشيمير وفون ويزل يكتبان لجريدته اليومية.

وفي ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ وبمناسبة زيارته الأولى للولايات المتحدة ـ بعث ألبرت أينشتاين وحنا أرنْدت وسيدني هوك وآخرون رسالة إلى جريدة «**النيويورك تايمز**» تفضح سياسات بيجين. ونظراً لسجل حركته وارتباطاته الوثيقة مع العناصر الفاشستية المعروفة في الحركة التصحيحية في مرحلة ما قبل الحرب، فإن تقييمهم لالتزام بيجين الأيديولوجي يستحق الاقتباس:

> إن من بين أكثر الظواهر السياسية المقلقة في زمننا هو ظهور «حزب الحرية (تْنوت هاحيروت)» في دولة إسرائيل التي نشأت مؤخراً وهو حزب سياسي مرتبط بشكل وثيق في تنظيمه ومناهجه وفلسفته السياسية وتوجهه الاجتماعي بالأحزاب النازية والفاشية. . . . لقد دعوا إلى خليط من ما فوق القومية والأساطير الدينية والتفوق العرقي. . وقد اقترحوا إقامة اتحادات مشتركة على غرار النموذج الإيطالي الفاشستي. . . وعلى ضوء الاعتبارات السابق ذكرها فمن المحتم التعريف في هذا البلد بالحقيقة حول السيد. بيجين وحركته. وتزداد المأساة عندما ترفض القيادة العليا للصهيونية الأمريكية أن تنظم حملة ضد جهود بيجين[٣٣].

هوامش الفصل العاشر:

1. Joseph Schechtman, 'The Jabotinsky-Slavinsky Agreement', *Jewish Social Studies* (October 1955), p. 297.
2. Ibid., p. 306.
3. Marie Syrkin, 'Labor Zionism Replies', *Menorah Journal* (Spring 1935), p. 72.
4. Vladimir Jabotinsky, 'The Iron Law', *Selected Writings* (South Africa, 1962), p. 26.
5. Yaacov Shavit, 'The Attitudes of the Revisionists to the Arab Nationalist Movement', *Forum on the Jewish People, Zionism and Israel* (Spring 1978), p. 102.
6. Robert Gessner, 'Brown Shirts in Zion', *New Masses* (19 February 1935), p. 11.
7. Vladimir Jabotinsky, 'Jewish Fascism', *The Zionist* (London, 25 June 1926), p. 26.
8. Vladimir Jabotinsky, *Samson* (American edn, entitled *Prelude to Delilah*), pp. 200–1.
9. Joseph Schechtman, *Fighter and Prophet*, p. 165.
10. Yehuda Benari and Joseph Schechtman, *History of the Revisionist Movement*, vol. I, p. 338.
11. Vladimir Jabotinsky, 'Zionism and Communism', *Hadar* (February 1941), p. 33.
12. Shlomo Avineri, 'Political Thought of Vladimir Jabotinsky', *Jerusalem Quarterly* (Summer 1980), p. 17.
13. Vladimir Jabotinsky, *State Zionism*, p. 10.
14. Syrkin, 'Labor Zionism Replies', p. 79.
15. Jabotinsky, letter to Leone Carpi, 7 October 1931, in D. Carpi, A. Milano and A. Rofe (eds.), *Scritti in Memoria Di Leone Carpi*, p. 42.
16. Ibid., 21 May 1935, pp. 54–5.
17. Michael Bar-Zohar, *Ben-Gurion* (American edn), p. 67.
18. Leopold van Mildenstein, 'Ein Nazi fahrt nach Palastina', *Der Angriff*, (Berlin, 27 September 1934), pp. 3–4.
19. Bar-Zohar, *Ben-Gurion – The Armed Prophet*, p. 46.
20. Jacob de Haas, 'New Struggles in an Old World', *Chicago Jewish Chronicle* (18 October 1935), p. 9.
21. 'Dr von Weisl Believes in Fascism', *World Jewry* (London, 12 June 1936), p. 12.
22. Author's interview with Shmuel Merlin, 16 September 1980.
23. Vladimir Jabotinsky, 'Letter to Plugat Civitavecchia', *Selected Writings* (USA).
24. 'Supplemento al no. 8 di *L'Idea Sionistica*' (March 1936), p. 2.
25. *Mussolini, My Husband* (Italian film documentary).
26. Jabotinsky, 29 January 1934, *Scritti*, p. 52.
27. Schechtman, *Fighter and Prophet*, p. 304.
28. Jabotinsky, 'Jews and Fascism – Some Remarks – and a Warning', *Jewish Daily Bulletin* (11 April 1935), p. 3.
29. William Ziff, *The Rape of Palestine* (1938), p. 428.
30. Ibid., p. 429.
31. Paul Novick, *Solution for Palestine* (1939), p. 18.
32. Yehuda Benari, 'M'Nahum Begin', *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. I, p. 116.
33. 'New Palestine Party', *New York Times* (4 December 1948) (Letters), p. 12.

١١ـ التصحيحية والنازية

منذ وقت مبكر في عام ١٩٣٢ كُرِّم نورمان بنْتويش، المدعي العام السابق لفلسطين، وهو صهيوني، ومنح مقعد شرف في القانون الدولي والسلام في الجامعة العبرية. وعندما بدأ في إلقاء محاضرته يوم تنصيبه انطلقت الصيحات فجأة من بين الحضور: «اذهب وتحدث في السلام مع المفتي لا معنا». بدأ ثانية ولكنه في هذه المرة تعرض لوابل من القنابل الكريهة الرائحة والنشرات التي تعلن أن الطلبة التصحيحيين يعارضونه ويعارضون موضوعه، وكان لا بد من إخلاء القاعة بواسطة الشرطة[١]. وفي نفس الوقت الذي كان فيه أصحاب القمصان البنّية التابعون لهتلر يحطمون الاجتماعات، كان من المحتم أن يرى الرأي العام اليهودي في القدس أعضاء حركة البيتار في قمصانهم البنية وكأنهم نازيّوهم. وفي عام ١٩٢٦ كان أبا أشيمير قد كتب حول ضرورة قتل معارضيهم، وعندما جاء الطلاب للمحاكمة تباهى محاميهم العام، وكان تصحيحياً بارزاً، بوصفهم بالنازية اليهودية:

> نعم نحن التصحيحيين نُكِنُّ إعجاباً كبيراً لهتلر. لقد أنقذ هتلر ألمانيا. وإلا كانت قد هلكت خلال ٤ سنوات. ولو أنه تخلى عن معارضته للساميّة لكنا ذهبنا معه[٢].

ومن المؤكد أن كثيرين من قواعد التصحيحيين في كافة أرجاء العالم كانوا في الأساس يعتبرون النازيين أقرانهم: قوميين وفاشيين. وفي عام ١٩٣١ أعلنت مجلتهم الأمريكية «بيتار مَنْثْلي (البيتار الشهرية) علناً عن ازدرائهم لأولئك الذين يسمونهم نازيين:

عندما يطلق علينا القادة الأجلاف للجناح اليساري للصهيونية الصغيرة مثل بيْرل لوكر نحن التصحيحيين والبيتاريين، لقب الهتلريين فإن ذلك لا يقلقنا على الإطلاق.. إن أتباع لوكر وأصدقاءهم يهدفون إلى خلق مستعمرة لموسكو في فلسطين ذات أغلبية عربية بدلاً من الأغلبية اليهودية، لها علم أحمر بدلاً من الأبيض والأزرق، وبنشيد الأممية بدلاً من نشيد الهاتكفاه.. فإذا كان هرتزل فاشياً وهتلرياً، وإذا كانت فكرة الأغلبية اليهودية على جانبي الأردن، وإذا كانت الدولة اليهودية في فلسطين التي ستحل المشاكل الاقتصادية والسياسية والثقافية للأمة اليهودية، إذا كان كل ذلك هتلريةً إذن فنحن هتلريون(٣).

لقد كان التصحيحيون صهاينة وهم بهذه الصفة شاطروا حركتهم الاتفاق الأساسي مع النازيين بأن اليهود لا يمكن أن يكونوا أبداً ألماناً حقيقيين. كانت النازية حتمية ومفهومة. وقد عبر عن هذا الرأي بشكل جيد بِنْ فْرُومر، وهو تصحيحي أمريكي، في عام ١٩٣٥. فبالنسبة لفرومر فان اليهودي:

بغض النظر عن البلد التي يسكن فيها... ليس من الأصول القبلية... وبالتالي فإن محاولة اليهودي تحقيق تماثل كامل مع بلده تبدو زائفة. ووطنيته بالرغم من صياحه وطنية خاوية حتى لنفسه هو. لذلك فإن مطلبه المتعلق بالمساواة الكاملة مع أولئك الذين هم من جوهر الأمة يخلق الاحتكاك بالطبع. هذا يوضح عدم تقبل الألمان والنمساويين والبولنديين، والمد المتصاعد من العداء في معظم البلدان الأوروبية، وإنها لوقاحة من جانب اليهودي أن يطلب معاملته بمحبةمثلما يعامل التيوتوني في بلد تيوتوني أو البولندي في بلد بولندي. لا بد أن يحرص حرصاً غيوراً على حياته وحريته، ولكن لا بد وأن يقرّ صراحة أنه لا «ينتمي». إن الحكاية الليبرالية عن المساواة الكاملة محكوم عليها بالفناء لأنها غير طبيعية(٤).

غزل التصحيحيين مع النازيين

كان التصحيحيون مثلهم مثل الصهاينة الألمان الآخرين معنيين فقط بفلسطين، وخلال جمهورية فايمار لم يبذلوا أي جهد لتنظيم مقاومة يهودية ضد هتلر. وعندما وصل النازيون أخيراً إلى السلطة فسر التصحيحيون الانتصار باعتباره هزيمة لليهود الذين

ينافسونهم أيديولوجياً، وتبرئة لأفكارهم هم، الصهيونية منها والفاشية. ومضوا خطوة أبعد من باقي الاتحاد الصهيوني لألمانيا ومجلة **روندشاو**، وقلدوا أسلوب النازيين، وعندما رأى المصرفي جورج كارِسْكي شركاءه الكاثوليك الأغنياء في حزب الوسط يعملون مع النازيين المنتصرين أو يلتحقون بهم، قرر أن يظهر لهتلر أن هناك صهاينة يشاركون النازيين روح الأمة العظيمة. والتحق بالتصحيحيين وأصبح بسرعة زعيم الحركة في ألمانيا، وقام بمحاولة انقلاب في مركز الجالية اليهودية ببرلين في مايو/أيار عام ١٩٣٣. وقد وصف ذلك ريتشارد ليشتهايم في كتابه عن تاريخ الصهيونية الألمانية. إن كارسكي:

> ظن أن الصهاينة قد أضاعوا فرصة وضع أنفسهم على رأس اليهودية الألمانية من خلال عمل ثوري. وبمعاونة عدد من الشباب من حركة بيتار. . . «احتل» مبنى الجالية اليهودية في عام ١٩٣٣. ومع ذلك أجبر بسرعة على إخلاء المكان إذ إن أعضاء الجالية رفضوا المضي معه. وكانت نتيجة هذا العمل الأحمق هو طرده من الاتحاد الصهيوني لألمانيا. ويحتمل أن كارسكي ظن في البداية أن روح تلك الأيام تتطلب مثل هذا العمل، وأن المفاهيم البالية لليهود البرجوازيين الليبراليين لا بد من تغيرها لصالح الآراء الصهيونية القومية بهذه الطريقة العنيفة. وفي السنوات التالية سقط في علاقة مثيرة للتساؤل بالاعتماد على الجستابو الذين سعى لأن يقدم نفسه ومجموعته من حركة البيتار، لهم، باعتبارهم الممثلين الحقيقيين لوجهة النظر الصهيونية الراديكالية المتعلقة بالاشتراكية الوطنية(٥).

كان ذلك كثيراً جداً على جابوتنسكي. لم يكن قد أولى ألمانيا في سنوات فيمار الأخيرة الكثير من الانتباه. وخلال فترة ١٩٢٩ - ١٩٣٣ كان اهتمامه الأول يتعلق بالمقترحات البريطانية حول فلسطين استجابةً للمذابح القصيرة الدموية في عام ١٩٢٩، التي انطلقت إلى حد كبير بسبب استفزازات التصحيحيين عند حائط المبكى. ومثل كثيرين من الجناح اليميني، لم يكن جابوتنسكي يظن أن هتلر وهو في السلطة سيكون معادياً للسامية تماماً كما بدا عليه وهو في المعارضة. وقد أوضح شموئيل مِيرلينْ السكرتير العام للمنظمة الصهيونية الجديدة أنه: «لم يكن فزعاً وأعتقد أن هتلر إما أن يُصلح أو يرضخ لضغط «الأرستقراطية البروسية (اليونكرز) وكبار رجال الأعمال»(٦). ومع ذلك فبحلول مارس/آذار عام ١٩٣٣ أدرك جابوتنسكي أن ألمانيا هي الآن الخصم الحقود لليهود، وقد

روعته غرائب كارسكي[٧]. فكتب بسرعة إلى هانزبلوك، وهو سَلف كارسكي كرئيس للتصحيحيين الألمان:

لا أعرف بالدقة ماذا حدث ولكن أي عبث مع الحكومة أو مع ممثليها وأفكارها سأعتبره ببساطة جريمة، أفهم أن المرء يمكنه أن يتحمل في صمت «أعمال الخنازير»، ولكن أن يكيف المرء نفسه معها فهذا أمر محرم. والهتلرية تظل من «أعمال الخنازير» بالرغم من حماس الملايين الذي يؤثر على شبابكم بدرجة كبيرة بطريقة تشبه تلك التي يؤثر بها الحماس للشيوعية على يهود آخرين[٨].

«التحالف الثلاثي بين ستالين ـ بن جوريون ـ هتلر»

كان على جابوتنسكي أن يواجه أيضاً مشكلة، فاشية أشيمير في فلسطين. كانت مغازلة موسوليني مقبولة ولكن وجود خط موالٍ للنازية كان انتهاكاً. وكتب إلى أشيمير بأقوى العبارات في عام ١٩٣٣:

إن المقالات والملاحظات حول هتلر والحركة الهتلرية التي تظهر في مجلة **هازيت هاعام** هي بالنسبة لي، ولنا جميعاً مثل طعنة سكين في ظهورنا. إنني أطلب وقفاً غير مشروط لهذا الانتهاك. أن يجد إنسان في الهتلرية بعض سمات حركة «تحرر وطني» لهو جهل مطبق. وبالإضافة إلى ذلك وفي ظل الظروف الحالية فإن كل هذا اللغو يفقد عملي مصداقيته ويشله.. إنني أطلب أن تنضم الجريدة بدون شروط وبشكل مطلق ليس فقط إلى حملتنا ضد ألمانيا الهتلرية ولكن أيضاً إلى مطاردتنا للهتلرية بكل ما في هذا التعبير من معنى[٩].

كان جابوتنسكي قد أيد المقاطعة المضادة للنازية منذ البداية. وقد أدت إداناته لأتباعه في فلسطين إلى إعادتهم إلى الصفوف، وسرعان ما بدأوا ـ وهم الذين كانوا يمتدحون هتلر لإنقاذه ألمانيا ـ في شجب المنظمة الصهيونية العالمية لرفضها الإشتراك في المقاطعة. كان الهدف الأول لهجماتهم هو حاييم أرلوسوروف السكرتير السياسي للوكالة اليهودية الذي كان من المعروف أنه يتفاوض مع النازيين. وفي ١٤ يونيو / حزيران ١٩٣٣ عاد أرلوسوروف من أوربا. وفي ١٥ يونيو / حزيران شنت **هازيت هاعام** هجوماً عنيفاً عليه بقلم يوشانان بوجْرِبنْسكي بعنوان **«التحالف بين ستالين ـ بن جوريون ـ هتلر»**. كان هذا العنوان المثير يجمع بين مقولتين مركزيتين في الخط

التصحيحي: الصهيونيون العماليون يتآمرون فعلاً لإقامة نظام عربي موالٍ للشيوعية، وفي الوقت نفسه يبيعون اليهود للنازيين. من الضروري اقتباس مقالة بوجربنسكي بشكل مطول فهي تلقي الأضواء على كل ما تلاها من أحداث:

لقد قرأنا... مقابلة مع السيد أرلوسوروف... ومن بين ما قاله من كلمات لا معنى لها وغباوات برع فيها هذا المشعوذ الأحمر، نجد أن المشكلة اليهودية في ألمانيا لا يمكن أن تحل إلا بالتفاهم مع هتلر ومع نظامه. هؤلاء الناس.. قد قرروا الآن أن يبيعوا شرف الشعب اليهودي وحقوقه وأمنه ومواقفه في العالم العظيم كله لهتلر والنازيين مقابل المال. ومن الواضح أن هؤلاء الدجالين الحمر قد أقلقهم نجاح المقاطعة ضد البضائع الألمانية التي دعا إليها الزعيم العظيم لليهود في جيلنا، ف. جابوتنسكي، والتي أيدها اليهود في كل العالم...
إن الجبن الذي انزلق إليه حزب العمال الفلسطيني ببيع نفسه بالمال لأكبر كارهٍ لليهود، قد بلغ الآن أدنى نقطة ولا مثيل له في كل التاريخ اليهودي.. إن اليهود لن يستقبلوا التحالف الثلاثي بين ستالين وبن جوريون وهتلر إلا بالبغضاء والاشمئزاز... إن الشعب اليهودي عرف دائماً كيف يتعامل مع أولئك الذين باعوا شرف أمتهم وتوراتهم، وسيعرف اليوم أيضاً كيف يتصرف مع هذا العمل المخجل الذي يرتكب في ضوء الشمس الكامل وأمام أعين العالم كله[١٠].

وفي مساء يوم ١٦ يونيو / حزيران كان أرلوسوروف وزوجته يمشيان على شاطىء تل أبيب. مر بهما شابان مرتين، وانتاب القلق السيدة أرلوسوروف، وحاول زوجها أن يهدئها: «إنهم يهود. منذ متى نخاف من اليهود؟». بعد وقت قصير ظهرا ثانية: «سأل أحدهما «ما الوقت الآن»؟. وأعمانا مصباح يد ورأيت مسدساً موجهاً نحونا»[١١]. وانطلقت طلقة وسقط أرلوسوروف ميتاً.

لم تجد الشرطة البريطانية صعوبة كبيرة مع الجريمة. لقد وقعت جريمة القتل على شاطىء، وسرعان ما بدأ قصاصو الأثر البدو عملهم. بعد يومين جيء بكل من أفراهام ستافسكي وزْفي روزينبلات، وكلاهما من التصحيحيين، للعرض في طابور الكشف عن الشخصية. وكادت السيدة ارلوسوروف تسقط مغشياً عليها عندما تعرفت على ستافسكي باعتباره كما زعمت، هو الذي كان ممسكاً بمصباح اليد. وهاجمت الشرطة مقر

أبا أشيمير ووجدت يومياته. وكانت احدى ملاحظاته تفيد بحفل عقد في بيته بعد القتل مباشرة للاحتفال «بنصر عظيم». ودفع ذلك الشرطة إلى اعتقاله باعتباره العقل المدبر للاغتيال(١٢).

كانت القضية التي قدمها الإدعاء قوية حتى أن الدفاع اضطر إلى اللجوء إلى إجراءات يائسة. وبينما كان ثلاثتهم في السجن في انتظار المحاكمة اعترف فجأة عربي يدعى عبدالمجيد كان مسجوناً في جريمة قتل لا صلة لها بالأمر، بالقتل، بأن أدعى أنه وصديق له أرادا اغتصاب السيدة أرلوسوروف. وسرعان ما تراجع عن اعترافه ثم أقرّ به مرة أخرى ثم سحبه للمرة الثانية مدعياً أن ستافسكي وروزينبلات قد رشياه لكي يدلي بإفادته. وقدمت القضية أمام المحكمة يوم ٢٣ أبريل/نيسان ١٩٣٤. وأطلق سراح آشيمير دون أن يضطر إلى تقديم دفاع، فاليوميات لم تكن كافية لإثبات التآمر المسبق. وبعد الاستماع إلى دفاع روزنبلات برأت المحكمة ساحته. ثم وجد ستافسكي مذنباً بأغلبية صوتين لصوت واحد وفي يوم ٨ يونيو/حزيران حكم عليه بالشنق. وفي يوم ١٩ يوليو/تموز أطلقت محكمة الاستئناف الفلسطينية سراحه على أساس مجموعة من الجوانب الاجرائية. فقد كانت هناك أخطاء إجرائية متعلقة بعملية التعقب. وما أن استبعد هذا الدليل لم تعد هناك أية قرائن أخرى يمكن أن تؤيد اتهامات السيدة أرلوسوروف. والقانون الفلسطيني، وهو بعكس القانون البريطاني، يتطلب مثل هذه التأكيدات لتعزيز شهادة شاهد واحد في جريمة رئيسية. كان رئيس القضاة متضايقاً بوضوح: «في انجلترا كان هذا الاتهام قد صمد» وشجب الدفاع بشأن الاعتراف الزائف:

> إن عملية إدخال عبدالمجيد كلها في هذه القضية تترك في عقلي شكاً مؤسفاً بوجود تآمر لإفشال غاية العدالة، وذلك بتحريض عبدالمجيد على ارتكاب جريمة حلف ليمين كذباً لصالح الدفاع(١٣).

ولم تظهر أية أدلة جديدة حتى عام ١٩٤٤. ولكن هذا الدليل الجديد لم يعلن عنه حتى عام ١٩٧٣. فعندما اغتيل في القاهرة اللورد موين، وهو المفوض البريطاني السامي في الشرق الأوسط، عام ١٩٤٤ على أيدي عضوين من عصابة شتيرن، وهي مجموعة تصحيحية منشقة، فإن أحد خبراء السلاح في فلسطين وهو ف. و. بيرد فحص السلاح القاتل ووجد أنه قد استعمل فيها لا يقل عن سبع عمليات قتل سياسية سابقة. شملت عربيين وأربعة رجال شرطة بريطانيين، ومقتل حاييم أرلوسوروف. وشرح بيرد الأمر في عام

١٩٧٣ بأنه: «لم يقدم الدليل على العلاقة بقضية أرلوسوروف وقت محاكمة قاتلي اللورد موين باعتبار أن سلسلة الأدلة في مستندات قضية أرلوسوروف كانت قد انقطعت خلال فجوة الأحد عشر عاما»(١٤).

ولقد أنكرت الحركة التصحيحية كلها بمن في ذلك جابوتنسكي انكاراً قاطعاً أن يكون أي تصحيحي متورطاً في الجريمة، ولكن الصهيونيين العماليين لم يساورهم الشك أبدا في أنهم مذنبون، وعندما أطلقت محكمة الاستئناف سراح ستافسكي، اندلع شغب بين الفريقين في الكنيس الأكبر في تل أبيب حيث كان ستافسكي حاضرا. وخلال مرحلة المحرقة كانت قضية مقتل أرلوسوروف هي أحد الأسباب الرئيسية التي شجب الصهيونيون العماليون من أجلها التصحيحيين. ولما كان أرلوسوروف هو المحرك الأول في عقد اتفاق «الهاآفارا» - أساس سياسة المنظمة الصهيونية العالمية تجاه النازيين - فإن مسئولية القتل لها مترتبات هامة عند النظر إلى العلاقات بين النازيين والصهاينة. ومن الدليل الموجود في القضية يبدو أنه لا يوجد شك في أن ستافسكي وروزينبلات قد قتلا أرلوسوروف بالفعل، بالرغم من أن يهودا أرازي - تَنّبَوم، وهو صهيوني عمالي سابق وشرطي سابق في عهد الحماية، وكان قد عمل في القضية، أعلن في عام ١٩٥٥ أن ستافسكي كان بريئاً وأن العربي تعرض للضغط ليسحب اعترافه. ومع ذلك فإن هذه الشهادة كان مشكوكاً فيها للغاية، على الأقل لأنها قد احتاجت منه إلى ٢٢ عاماً لإعلانها(١٥). وأقل من ذلك وضوحاً بكثير هو ما إذا كان أشيمير قد خطط الاغتيال. ومن المؤكد أنه لا يوجد أي دليل على أن جابوتنسكي قد علم بالجريمة مسبقاً. وقد زعم أنه يصدق اعتراف عبد المجيد غير المحتمل ضمناً، ولكن مما له دلالة كبيرة أنه أصر في عام ١٩٣٥ على أن يضع عبارة ضمن المبادىء الأساسية لحركة بيتار: «سأُعِدُّ ذراعي للدفاع عن شعبي ولن أرفع هذا الذراع إلا للدفاع».

جهود جابوتنسكي للمحافظة على المقاطعة

كان الأثر المباشر للقتل هو أنه جعل جهود جابوتنسكي للمحافظة على المقاطعة المضادة للنازي في المؤتمر الصهيوني العالمي الذي انعقد في براغ في شهر أغسطس/آب تذهب هباء. فخلال المؤتمر نقلت تقارير الوكالة التلغرافية اليهودية اكتشاف الشرطة رسالته التي أرسلها لأشيمير وهدد فيها بطرده إذا استمر في مديح هتلر(١٦). هذه الواقعة وحقيقة أنه ظهر في قاعة المؤتمر مع فصيل من شباب حركة البيتار ذوي القمصان البنية،

أفقدت جابوتنسكي مصداقيته وأظهرته كنوع من النازيين اليهود. وقد أدت عدة عوامل إلى قرار المؤتمر برفض المقاطعة، ولكن بشكل عام شعر المراقبون بأنه مهما كان الخطأ من جانب وايزمان، فإن المعارضة التصحيحية لسياسة المنظمة الصهيونية العالمية تجاه ألمانيا كان مشكوكاً فيها بعمق وملطخة بصراخهم حول مؤامرة ستالين ـ بن جوريون لتحويل فلسطين إلى دولة شيوعية عربية.

ومع ذلك فقد تحدث جابوتنسكي باسم العديدين بالإضافة إلى أتباعه القليلين عندما طالب بالنضال ضد هتلر. كان يعرف أنه لم يكن هناك أبداً أقل احتمال لقيام صيغة تعايش بين اليهود وأدولف هتلر. وفهم جابوتنسكي أن اليهود الألمان كانوا سجناء هتلر في حربه ضد يهود العالم. فإذا قدر لنظام هتلر أن يبقى فإن يهود العالم محكوم عليهم بالفناء»، واليهود الألمان ليسوا «سوى تفصيلة صغيرة»، هكذا كتب[١٧].

وبعد أن هزم المؤتمر توصيته بأغلبية ٢٤٠ ضد ٤٨ عقد جابوتنسكي مؤتمراً صحفياً شجب فيه اتفاق «الهاآفارا» وأعلن الحزب التصحيحي كهيئة مركزية مؤقتة تشن حملة على النطاق العالمي مضادة للنازية. وعبر عن عزمه على العمل مع الرابطة المضادة للنازية غير الخَلَقِية وقوى المقاطعة الأخرى، ولكنه لم يفكر أبداً في أي نوع من أنواع التعبئة الجماهيرية. وعارض ما أسماه بالمقاطعة «السلبية». وما اعتبره إيجابياً حسب تأكيده كان «الشراء... من مصادر أكثر قبولاً». وكان مكتبه يقدم «وصفاً دقيقاً لكل الأدوات التي يوصى بها.. وعناوين وأرقام تليفونات المحلات التي توجد فيها هذه الأدوات»[١٨]. وأقام التصحيحيون تحسساً منهم بالواجب «إدارة الدفاع الاقتصادي» في مقر قيادتهم بباريس. ولكن في ٦ فبراير/شباط عام ١٩٣٤ كان جابوتنسكي قد بدأ ينوح بأن عليه أن يقوم بكل العمل بنفسه لأن:

> أعضاء اللجنة التنفيذية ينفرون من حمل مسئولية وظيفة لا يمكن القيام بها بدون ميزانية دسمة.. وكل العمل قد تم بسكرتيرة لا تتقاضى مرتبا بالإضافة إلى طابع على الآلة الكاتبة غير متفرغ.

وحتى يتلقى بعض النقد فلن يكون هناك «أي إيماءات علنية كبيرة (التي كانت ستكون سهلة جداً): فالعالم اليهودي قد عرف ما فيه الكفاية من النداءات الكبرى من مثل هذا النوع، والتي لا يتبعها عمل منتظم»[١٩]. وفي ١٣ سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٥، وفي المؤتمر التأسيسي للمنظمة الصهيونية الجديدة كان جابوتنسكي لا يزال يتكلم عن

مقاطعة، ولكن باعتبارها حدثاً في المستقبل: «إن منظمة يهودية للمقاطعة يرأسها هو لا بد من تكوينها»(٢٠). ولم تكن «وكالة الإعلان التجارية» التابعة لجابوتنسكي قادرة على إقناع أي شخص أنها ستنتج في أفضل الأحوال جبلاً من ورق، ومع ذلك فان التصحيحيين قد قاموا بالفعل بعمل مقاطعة في كل أنحاء العالم، ولكنهم كحَلَقيين كلاسيكيين عقدوا مسيراتهم المضادة للنازية في معاقلهم في أوربا الشرقية. كانوا وحدهم لا يستطيعون تحقيق شيء، فتحولوا حتماً نحو نشاطات أكثر إنسجاماً مع أنفسهم تتعلق مباشرة بفلسطين.

«لن تكون هناك حرب»

برغم كل معاداته الذاتية للنازية، فإن ألمانيا لم تكن أبداً في موضع الإهتمام الأول لجابوتنسكي. وطبقاً لما ذكره شموئيل ميرلين، «فإن جابوتنسكي لم يشعر أبداً بأن نظام هتلر كان مستمراً أو مستقراً»(٢١). وهناك أسطورة تقول إنه حذر اليهود من المحرقة القادمة، وإن بعض بياناته لها رنين التنبؤ إلى أن تدرس بدقة: «إذا قدر لنظام هتلر أن يبقى فإن يهود العالم محكوم عليهم بالفناء»، ولكنه كان يعتقد أن النظام غير مستقر ولا بد أن ينهار إذا ما دخل الحرب يوماً(٢٢). وينقل عنه معجبوه مقولته الدائمة «اقضوا على المهجر أو أن المهجر سيقضي عليكم». ورغم كل ما في ذلك من تنبؤ فإنه لم يقصد أبداً أن ألمانيا ستهزم أوربا أو تذبح اليهود. إن برلين على صواب: «اقضوا على المهجر» لم يكن مقصوداً بها هتلر على الإطلاق. كان تركيزنا الرئيسي دائماً هو على بولندا وأوربا الشرقية»(٢٣). هذا الشعار كان يشير إلى تدمير الوضع الاقتصادي للطبقة الوسطى اليهودية في بولندا حيث كانت تعتصرها التعاونيات الريفية الآخذة في الإنتشار وتطردها «مذابح التطهير» التي تنظمها الطبقة الوسطى المسيحية القومية.

ولم يفهم جابوتنسكي أبداً في الثلاثينيات أن النازية كانت نتاج عصر من الحرب والثورة وأنها ستسقط بالحرب والثورة. لقد اقنع نفسه بأن الرأسماليين لن يسمحوا أبداً بأن يُجروا نحو دمارهم في حرب أخرى. وفي عام ١٩٣٩ كتب لأخته: «لن تكون هناك حرب، إن الغطرسة الألمانية ستتراجع وشيكاً وايطاليا ستعقد صداقة مع البريطانيين. . . . وخلال خمس سنوات سيكون لدينا دولة يهودية»(٢٤). «كان يعيش في بونت دافون في فرنسا في صيف عام ١٩٣٩، وفي آخر أسبوع من شهر أغسطس/آب كان لا يزال يكتب: «لا توجد أدنى فرصة للحرب. . إن العالم يبدو من بونت دافون

مكاناً مسالماً، وأعتقد أن بونت دافون على صواب»(٢٥).

كان رد فعل التصحيحيين على استيلاء النازيين على النمسا وتشيكوسلوفاكيا محموماً. وفي مؤتمر حركة بيتار العالمي الذي انعقد في وارسو في سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٨ طالب مناحم بيجين، وكان في الخامسة والعشرين من العمر، بفتح فلسطين فوراً. كان جابوتنسكي يعرف أن هذا مستحيل، إذ لم يكن في إمكانهم أبداً إلحاق الهزيمة بالبريطانيين أو العرب أو حتى الصهيونيين العماليين، واستخف حوارِيّه بيجين ذي الحماس المفرط مقارناً كلمته «بصرير الباب الذي لا فائدة منه»(٢٦). ولكن وبحلول أغسطس/آب عام ١٩٣٩ خلص جابوتنسكي، معبراً عن ذات اليأس كقواعده، إلا أنه إن لم يكن في إمكان التصحيحيين أن ينقذوا اليهود في أوربا فوراً، فيمكنهم على الأقل أن يغربوا بنبل، وربما ألهمت هذه الإيماءة اليهود الآخرين. وهكذا قرر أن يغزو فلسطين بأن جعل قارباً مسلحاً محملاً بأعضاء حركة البيتار يرسو على الشاطىء أمام تل أبيب، وكان على قوته السرية هناك، الأرجون (أي المنظمة، وهي من آرجون زفاي ليومي، أي المنظمة العسكريةالقومية) أن تنهض وتستولي على مقر الحكومة في القدس، وأن تحتفظ به لمدة ٢٤ ساعة بينما تعلن حكومة يهودية مؤقتة في أوربا ونيويورك، وبعدما يؤسر أو يموت يمكنها أن تعمل كحكومة منفى(٢٧). كان نموذج هذه المغامرة هو هبّة يوم اثنين الفصح عام ١٩١٦ في ايرلندا. هناك أُعدم القادة بعد أسرهم ولكن الهبة أطلقت في النهاية إنسحاباً بريطانياً من جنوب البلاد. ومع ذلك فمن المستحيل رؤية كيف كان من الممكن أن يؤدي غزو جابوتنسكي إلى إقناع السكان اليهود في فلسطين، وأغلبهم كانوا أعداءه، للانتفاض عقب هزيمته. ولقد تم الكشف عن الطابع الخيالي المطلق للخطة في ليلة ٣١ أغسطس/آب - أول سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٩ عندما ألقت قوات المخابرات البريطانية القبض على كل قيادة الأرجون وهم جالسون يتجادلون عما إذا كان عليهم أن يلعبوا دوراً في هذا المشروع. وخلال ساعات كانت جيوش هتلر تسير إلى داخل بولندا مبتدئة حرباً كان جابوتنسكي قد أصر لتوّه على أنها لن تحدث(٢٨).

هوامش الفصل الحادي عشر

1. Geula Cohen, *Woman of Violence*, p. 232.
2. Martin Sicker, 'Echoes of a Poet', *American Zionist* (February 1972), pp. 32–3.
3. Chaviv Kanaan (in discussion), *Germany and the Middle East 1835-1939*, p. 165.
4. Eri Jabotinsky, 'A Letter to the Editor', *Zionews* (27 March 1942), p. 11.
5. Izzy Cohen, 'Zionism and Anti-Semitism', (unpublished manuscript), p. 3.
6. Author's interview with Baruch Nadel, 17 February 1981.
7. Ibid.
8. Joseph Schechtman, *Fighter and Prophet*, p. 217.
9. Ibid., p. 216.
10. Eliazer Liebenstein, *The Truth About Revisionism* (1935), pp. 51–3.
11. Sraya Shapiro, 'Arlosoroff Planned Revolt in 1932', *Jerusalem Post* (11 June 1958), p. 4.
12. 'Revisionists in Palestine seek to explain away Incriminating Testimony', *Jewish Daily Bulletin* (29 August 1933), p. 4.
13. 'Stavsky Appeal Allowed', *Palestine Post* (22 July 1934), p. 8.
14. 'Trace 1933 Murder Weapon to Stern Group Death Squad', *Jewish Journal* (10 August 1973).
15. 'Stavsky was Framed', *Jewish Herald* (South Africa, 24 February 1955), p. 3.
16. *Jewish Daily Bulletin* (24 August 1933), p. 1.
17. Schechtman, *Fighter and Prophet*, p. 214.
18. Ibid., pp. 218–19.
19. Ibid., pp. 219–20.
20. 'New Zionists Vigorous Policy', *World Jewry* (London, 13 September 1935), p. 13.
21. Interview with Merlin.
22. Jacob Katz, 'Was the Holocaust Predictable?', *Commentary* (May 1975), p. 42.
23. Interview with Merlin.
24. Schechtman, *Fighter and Prophet*, p. 366.
25. Ibid.
26. Daniel Levine, 'David Raziel, The Man and his Times', PhD Thesis, Yeshiva University, 1969, pp. 80, 240–1.
27. Schechtman, *Fighter and Prophet*, pp. 482–3.
28. Nathan Yalin-Mor, 'Memories of Yair and Etzel', *Jewish Spectator* (Summer 1980), p. 36.

١٢ ـ جورج كاريسكي، كويسلنج الصهيوني التابع لهتلر قبل كويسلنج

إن حقيقة أن جابوتنسكي عارض هتلر وكان قادراً على إقناع أبا أشيمير بوقف مديحه له، لا تعني أن كل التصحيحيين قد قبلوا هذا الوضع. بعض التصحيحيين كانوا لا يزالون مقتنعين بأن التعاون هو طريق التقدم بالنسبة للصهيونية. وصاحب السمعة الأسوأ بين هؤلاء جورج كاريسكي وهو الذي (كما رأينا من قبل) حاول جابوتنسكي أن يلجمه في عام ١٩٣٣.

ففي أعوام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ كان كاريسكي قد رفض بالفعل اهتمام الإتحاد الصهيوني في ألمانيا بالعمل الفلسطيني وركز على العمل السياسي الخاص بالجالية اليهودية. وفي عصر تراجع الإيمان، حين كان الكثيرون من اليهود الألمان ينزعون نحو الزواج المختلط والإلحاد، فإن أولئك الذين تمسكوا بالتجمع اليهودي الخَلقي أصبحوا أكثر إنطواء على أنفسهم. وفي عام ١٩٢٦ أمكن «لحزب الشعب اليهودي» الصهيوني الإنطوائي التابع لكاريسكي، بالتحالف مع إنعزاليين دينيين آخرين أن يطيحوا بالقيادة «الليبرالية» القومية ـ الألمانية، وفي يناير/كانون الثاني ١٩٢٩ أصبح رئيس الجالية اليهودية في برلين. ولكن نجاحه كان قصير العمر، وهزمه الليبراليون ثانية في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٠. وكان كاريسكي قد دخل السياسة الألمانية في سبتمبر/أيلول ١٩٣٠ في إنتخابات الرايخستاج كمرشح عن «الوسط» الكاثوليكي الذي كان جذاباً بالنسبة لاهتمامه بالتعليم الديني ولأنه محافظ اجتماعياً. وبوصول هتلر إلى السلطة التحق كاريسكي بالتصحيحيين الذين أصبح يرى فيهم المعادل اليهودي المحتمل للنازيين

الناجحين. كانوا فرقة لا وزن لها داخل الإتحاد الصهيوني لألمانيا، كسبت ١١٨٩ صوتاً فقط من الـ ٨٤٩٤ صوتاً في انتخابات المندوبين للمؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٩٣١. وبحلول عام ١٩٣٣ تقلص التصحيحيون إلى مزيد من العقم بإنقسامهم إلى زمر متنافسة، ولم يكن صعباًعلى كاريسكي بما له من سمعة كعضو بارز في الجالية أن يصبح زعيماً لتلك القوة المخيبة الآمال وأن يوحدها في تنظيم جديد هو «**منظمة صهيونيي الدولة**».

في مايو/آيار عام ١٩٣٣ قام بمحاولة إنقلابه المضحك في مركز الجالية اليهودية ببرلين، وطُرد من الاتحاد الصهيوني لألمانيا. وقد تطور مستقبلة وإرتباطه بالنازي بدرجة أكبر بعد الانشقاق التصحيحي عن المنظمة الصهيونية العالمية الذي تلى فشل المقاطعة ضد النازي في مؤتمر براغ. ولما لم يعد التصحيحيون جزءاً من المنظمة الصهيونية العالمية في واقع الأمر، صدرت الأوامر إلى «مكتب فلسطين» في برلين لاستبعاد أعضاء حركة بيتار عند إعطاء شهادات الهجرة. ورد التصحيحيون على ذلك بأن بدأوا بإحداث الشغب في اجتماعات الإتحاد الصهيوني لألمانيا وهم يصيحون: «أيها الخنازير الماركسيون! كلكلم متعاطفون مع الهيستدروت المنتمي للأممية الثانية[١] ونتيجة لذلك أغلقت مقار قيادة الإتحاد الصهيوني لألمانيا مؤقتاً في يونيو/حزيران عام ١٩٣٤. وفي ٦ أغسطس/آب أرسل واحد من قادة صهيونيي الدولة هو الدكتور فريدريش شْتِيرْن إلى النازيين رسالة تشرح أن نمو مجموعتهم الخاصة بالشباب المعادي للماركسية، «**الشبيبة القومية هرتزليا**» قد تعرقل باستبعادهم بواسطة «مكتب فلسطين» من الهجرة، وهو المكتب الذي يتشكل من مؤيدين معروفين للهستدورت موالين للماركسيين من الاتحاد الصهيوني لألمانيا. واقترح شتيرن أن يتم نقل «مكتب فلسطين» إليهم. وقد اكتشف الإتحاد الصهيوني هذه المؤامرة من خلال جواسيس رواد في «هرتزليا»، ومن خلال إتصالاتهم الخاصة بالنظام، ومن ثم فشل المشروع[٢]. وأدرك النازيون بسرعة أنهم إذا أعطوا «مكتب فلسطين» إلى «صهيونيي الدولة» فإن المنظمة الصهيونية العالمية لن تصدر أية شهادات في ألمانيا. وطالما أن النازيين كانوا محتاجين للمنظمة الصهيونية العالمية وللصدقات اليهودية لتنظيم الهجرة، لم يكن في إمكانهم فرض مُتعاون معهم على الجالية اليهودية. ووضعت حملة كاريسكي جابوتنسكي في موقف مستحيل: فبينما هو يشجب المنظمة الصهيونية العالمية بسبب «الهاآفارا» فإن حركته في ألمانيا كانت تعمل للنازيين، وكان عليه أن يعلن بسرعة أنه من الآن فصاعداً فإن «جناح الصهيونية الذي يقاسمنا

الآراء الهرتزلية يعرف أيضاً أن كلمة «ماركسي» هي كلمة لا تستعمل أبداً في الجدال السياسي»[٣].

كان النازيون قد قرروا سياسة عامة هي تفضيل اليهود الصهاينة على غير الصهاينة في إطار هذا الخط قرروا أن تشجيع «صهيونيي الدولة» بدلاً من قمع أعضاء الإتحاد الصهيوني لألمانيا المتهمين بالماركسية، لا بد وأن يكون هو ستراتيجيتهم. وفي ١٩ - أبريل/نيسان عام ١٩٣٥ أبلغ الجستابو الشرطة العادية أنه من الآن فصاعداً فإن صهيونيي الدولة سيتلقون:

بشكل إستثنائي وقابل للإلغاء دوماً، التصريح بأن يسمحوا لأعضائهم المنتمين إلى «الشبيبة القومية الهرتزلية وإتحاد الحراس» (بْريت هاشومريم) بإرتداء أزياء رسمية داخل المقار. لأن صهيونيي الدولة قد أثبتوا أنهم التنظيم الذي يحاول بأي طريقة، حتى وإن تكن غير شرعية، نقل أعضائه إلى فلسطين، ولأنهم بنشاطهم المخلص الموجه نحو الهجرة يلتقون في منتصف الطريق مع نية حكومة الرايخ ترحيل اليهود من ألمانيا. إن التصريح بارتداء الزي الرسمي يجب أن يشجع أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الإلتحاق بمجموعات الشباب من «صهيونيي الدولة» حيث سيتم دفعهم بشكل أكثر فعالية للهجرة إلى فلسطين[٤].

وبالرغم من العلاقة بين صهيونيي الدولة والجستابو فإن كاريسكي كان لا يزال يلقى الترحيب في مؤتمر المنظمة الصهيونية الجديدة في فيينا في عام ١٩٣٥. وعندما قرر التصحيحيون تأييد المقاطعة المضادة للنازية فإنهم قطعوا الصلة رسمياً بوحدتهم الألمانية في محاولة لحمايتها. وهكذا كان من الواضح أن كاريسكي كان هناك بتشجيع من الجستابو لكي يعمل ضد المقاطعة. ولكن الأعضاء القلقين كانوا يرغبون في إبعاد أنفسهم عن صهيونيي الدولة وقد فرضوا قراراً بأنه في ظل الظروف القائمة لا توجد ولا يمكن أن توجد حركة تصحيحية في ألمانيا[٥]. وقد ارتكب كاريسكي غلطة السفر إلى مؤتمر حركة البيتار التالي في كركاو يصحبه يهودي معروف عميل للجستابو وقد أبلغ ترداد بعض أعضاء حركة البيتار الألمان جابوتنسكي عنه[٦]. وقد طلب منه المغادرة واضطر جابوتنسكي أن يدعوه للدفاع عن نفسه علناً وأن ينكر أي صلة بالنازيين[٧]. ومع ذلك فقد استعمل جابوتنسكي كاريسكي فيما بعد في عام ١٩٣٦ كرسول بينه وبين دار النشر

الألمانية التي كان لديها نسخة خطية من أحد كتبه. إن جابوتنسكي لم يكن ليكلف كاريسكي بأي مسئولية أخرى بعد كراكاو ولكنه طالما ظل في ألمانيا فإنه، أي كاريسكي، كان على صلة بالأقلية داخل الحركة التصحيحية العالمية وبوجه خاص أولئك الملتفين حول فون فايزل في فيينا، الذي استمر يوافق على خطه المؤيد للنازيين.

«الصهاينة كيهود «عرقيين» قد أعطونا على الأقل ضمانة رسمية»

إن فشل كاريسكي المتكرر في أن يجعل اليهود الألمان يقبلون توجهه لم يمنع النازيين أبداً من محاولة فرضه على الجالية. وفي أواخر عام ١٩٣٥ فرضوه على **«الاتحاد الألماني للروابط الثقافية اليهودية»**. هذه الروابط الثقافية كانت قد أقيمت لتوفير عمل للموسيقيين والكتاب والفنانين اليهود الذين كانوا قد طردوا من مواقعهم، وكان الجستابو قد قرر أن روحاً صهيونية أصيلة قد تفيد الروابط[٨]. وكان بِنْو كوهين من الإتحاد الصهيوني لألمانيا قد عُين مساعداً لمديرها العازف كورتْ زِنْجر، ولكن ذلك لم يكن كافياً فالأعضاء كانوا لا يزالون بالفعل تمثّلين ثقافياً، وفي اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٥، عين كاريسكي الذي لم تكن له علاقة بالفنون في موقع أعلى من زِنْجر، وطرد كوهين. وأبلغ العازف النازيين بأنه يفضل أن يستقيل على أن يعمل مع كاريسكي. وأُغلقت الروابط في محاولة لإجبارها على قبول كاريسكي. ولفت رفض اليهود الاتفاق مع السياسة النازية الانتباه في الصحافة النازية. وكتب هانز هِيْنكل وهو المسئول الحكومي عن الروابط ليوضح علناً اختياره لمدير جديد:

> لقد سمحت بوعي للحركة الصهيونية بأن تمارس أقوى نفوذ على النشاطات الثقافية والروحية للروابط الثقافية لأن الصهاينة كيهود عرقيين قد أعطونا على الأقل ضمانات رسمية للتعاون في شكل مقبول[٩].

والصهاينة الذين أشار اليهم هينكل كانوا صهيونيي الدولة، وكانوا في ذلك الوقت أقل شعبية مما كانوا عليه عام ١٩٣١. وفي واقع الأمر لم يكونوا يعدون أكثر من بضع عشرات من أعضاء الحزب البالغين وخمسمائة فتى[١٠]. ومع ذلك فقد ضخّم النازيون كاريسكي كثيراً في دعايتهم. وباعتباره الرئيس السابق للجالية اليهودية ببرلين ورئيس «صهيونيي الدولة» ورئيس الروابط الثقافية الآن، فقد أعطى انطباعاً بأنه شخصية هامة جداً. وفي ٢٣ ديسمبر/كانون أول أجرت معه **«ديْرأنْجْريف (الهجوم)»** مقابلة قال فيها:

لقد أعتبرت لسنوات عديدة أن الفصل الكامل بين النشاطات الثقافية لكلا الشعبين هو شرط للتعاون السلمي. . باعتبار أن ذلك يقوم على احترام القومية الغريبة. . إن قوانين نوريمبيرج(*). . تبدو لي، بعيداً عن بنودها القانونية، متسقة مع الرغبة في حياة منفصلة قائمة على الاحترام المتبادل. ويصبح هذا بوجه خاص عندما يضع المرء في حسابه الأمر الخاص بنظم المدارس المنفصلة الذي صدر من قبل. إن المدارس اليهودية تلبي مطلباً سياسياً قديماً لأصدقائي لأنهم يعتبرون أن تعليم اليهودي بما يتفق وتقاليده وطريقة حياته هي مسألة حيوية بشكل مطلق[1].

على أي حال، فان «الروابط الثقافية» كانت مهمة جدا للنازيين كنموذج للانفصالية الثقافية، بحيث لم يكن ممكناً لهم التخلي عنها بسبب كاريسكي، وفي نهاية الأمر سمح النازيون بإعادة تنظيمها بدونه. وبحلول عام ١٩٣٧ كان كاريسكي والجستابو على استعداد للقيام بمناورة أخرى. كان هدفهم هذه المرة «*ممثلية الرايخ لليهود الألمان*». وشكل كاريسكي تحالفاً مع بعض التمثّليين المحافظين الحانقين داخل جالية برلين، واقترحوا برنامجاً على أساسه يتولى صهيونيو الدولة العمل السياسي للتنظيم وتدير التجمعات الدينية المهام الخيرية. وقد أفاد ماكس نُصْبَوْم حاخام التجمع اليهودي الكبير في برلين، فيما بعد عن ضغوط النازيين لصالح الخط التصحيحي. كان مفوض الشئون اليهودية في الجستابو كُوخْمان قد وضع نصب عينيه أن يصبح خبيرا في المسألة اليهودية، وأخذ يقرأ كل كتاب متاح حول اليهودية الحديثة. والآن وإذ قرر أن يعمل الصواب حسب مفاهيمه فقد استدعى نصبوم:

وكنتيجة لاجتهاده وقع فجأة في حب التصحيحيين مؤكداً لكل منا نحن الذين أدى سوء حظهم الى استدعائهم إلى مكتبه، أن ذلك كان هو الحل الوحيد لمشكلة فلسطين. وكان يلوم دائماً الصهيونية الرسمية لكونها «حمراء» و«يسار». وذات يوم في ربيع عام ١٩٣٧ دعاني إلى مكتبه حيث قال لي صراحة ان عليّ أن أتولى قيادة المجموعة التصحيحية لكي أجعل التصحيحيين اكثر شعبية بين اليهود الألمان وأن أوقف دعايتي لصهيونية شارع ماينْيكه (أي الاتحاد

* قوانين نوريمبيرج: أصدرها النازيون عام ١٩٣٥ وهي تحظر الزواج المختلط بين أشخاص من «دم ألماني» ويهود، وتجرد المواطنين اليهود من حقوقهم (م).

الصهيوني لألمانيا) وعندما رفضت. . . «عاقبني» بأن منعني من الكلام والكتابة لمدة عام[١٢].

مرة أخرى فشلت المحاولة، ولم يكن من الممكن جعل اليهود الأجانب يدعمون منظمة يهودية ألمانية مركزية يديرها خائن، فتراجع النازيون. وفي ربيع عام ١٩٣٧، وكجائزة تعويضية، جعل النازيون منظمة صهيونيي الدولة الممثل اليهودي المسئول الوحيد عن التعامل مع وكالات الإغاثة العامة الألمانية[١٣].

وانتهى نفع كاريسكي للنازيين في يوليو/تموز عام ١٩٣٧، عندما تم الكشف عن فضيحة في مصرفه المعروف باسم إيْورِيا. كان يقدم قروضاً غير قانونية لأعضاء من مجلس إدارة البنك ولأصدقائه الشخصيين، وحاول تغطية نفسه بشيك على حساب «الجالية اليهودية» في برلين، وجعل أحد كتبته يقبله فقط بتوقيعه هو منتهكاً ما يقضي بضرورة ان يتم اعتماد التوقيع. قبل الصراف الشيك محتجاً وأبلغ لجنة برلين. ولا يوجد دليل على أن كاريسكي قد حقق أرباحاً شخصية من تلاعباته. لقد استعمل القروض كفواتير لكسب الحلفاء داخل الجالية اليهودية ـ ولكن في النهاية فشل البنك، وقرر كاريسكي أن يزور فلسطين[١٤].

لم تكن زيارته ناجحة. وفي ٦ اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٧ اكتشفت الجالية اليهودية الألمانية في حيفا أنه كان هناك، وخرجت جمهرة كبيرة من الدهماء لتحيته، وطاردته في الشوارع. وأخيراً اضطر لأن يحتمي داخل بيت حتى أنقذته الشرطة[١٥]. واتهمته «جمعية المهاجرين الألمان» علناً بأنه حاول أن يعينّ زعيماً لليهود الألمان بمعونة النازيين، وبمحاولة التحريض على قتل رئيس الإتحاد الصهيوني لألمانيا، ومحاولة تحطيم المنظمة الصهيونية، وبالفساد في مصرفه. وارتكب كاريسكي غلطة إنكار التهم والإصرار على محاكمة أمام محكمة حاخامية. وفي يونيو/حزيران عام ١٩٣٨ وجدت المحكمة التي رأسها الحاخام الأكبر أن الاتهامات التي أثارتها جمعية المهاجرين الألمان تؤيدها الأدلة تماماً[١٦]. وقد أنهى هذا القرار فعلياً مستقبله السياسي النشط.

«فيلق يهودي لحماية اليهود في فلسطين من الهجمات»

بالرغم من تبرؤ جابوتنسكي من كاريسكي فقد كان لهذا الأخير دائماً المدافعون عنه داخل الحركة التصحيحية. كان هناك على الدوام أولئك الذين لم يوافقوا على معاداة

جابوتنسكي للنازية. فإذا كان من المسموح به لجابوتنسكي أن يحاول التعامل مع سيمون بتليورا في اتفاق سلافينسكي عندما كان الجيش الأوكراني قد ذبح فعلاً ٣٠,٠٠٠ يهودي فلماذا إذن يكون الاتفاق مع هتلر غير مقبول. فقبل «ليلة الكريستال لم يقتل هتلر أي يهودي لأنه يهودي. هؤلاء التصحيحيون كانوا مقتنعين بأن انتصار هتلر ينبىء بعصر فاشستي، وأن على اليهود ببساطة أن يفهموا ذلك وأن يرتبوا أمورهم على أساس ذلك. وكانت الدائرة الموجودة حول فون فايزل، والذي كان مفاوض جابوتنسكي مع الديكتاتوريات الاستبدادية في أوربا الشرقية، توافق على توجه كاريسكي. وفي عام ١٩٣٦ قام فون فايزل ـ بمبادرة منه شخصياً في الظاهر بالاتصال بالفاشيين البريطانيين واقترح تحالفاً عجيباً لزمن الحرب بين بريطانيا واليابان وبولندا وألمانيا بالإضافة إلى دولة تصحيحية في المستقبل، ضد السوفيات والعرب والثورات الآسيوية في المستعمرات(١٧).

كان يسعدني أن أذكر أن قرار المحكمة الحاخامية أنهى أخيراً مستقبل كاريسكي وأنه مات وحيداً ومكروهاً، ولكن في ٢ أغسطس/آب عام ١٩٤٧ كان كاريسكي البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً هو رئيس «صندوق الرعاية الصحية» للتصحيحيين في فلسطين. بل إن بعض أصدقائه حاولوا إطلاق اسمه على شارع في رامات جان(١٨)، ووجد من يبرر له حتى آخر يوم ويقول انه نظراً لما نعرفه عن تخلي العالم عن اليهود فانه بمجرد وقوع انقلاب هتلر، كانت الهجرة السريعة هي الحل الوحيد.

كان كاريسكي، وهو تصحيحي كلاسيكي وإن كان من نوع متطرف، خائناً للجالية اليهودية الألمانية. لم يكن بصره يرنو إلى شيء نبويّ أكثر من دولة تصحيحية تمتد من البحر المتوسط حتى الفرات يكون فيها موسوليني هو حامي الحمى(١٩). وهو لم يتوقع المحرقة بالتأكيد. وفي عام ١٩٣٥ كان يقترح خطة جلاء من ألمانيا على مدى ٢٥ عاماً لـ ٢٠,٠٠٠ مهاجر كل عام. وكان اهتمامه هو أن يستعمل الشبيبة اليهودية هرتزليا كفيلق يهودي لحماية اليهود في فلسطين من الهجمات (التشديد لي)(٢٠).

لم يكن غريباً أن النازيين استعملوا كاريسكي باعتباره المتعاون معهم في ألمانيا وكان منافسه بين التمثّليين ماكس ناوْمان غير مقبول على الإطلاق لإصراره على المشاركة اليهودية الكاملة في الرايخ الثالث. وظهر كاريسكي أمام النازيين وكأنما ارسله لتوزيع أدوار رئيسية: صورة مشوهة عن يهودي المسرح، وصولي، مخادع، وغيور غيرة حاخام من القرون الوسطى على إبقاء اليهود بعيدين عن البشرية غير المؤمنة، وعلى رأس حركة هجرة ترتدي القمصان البنية.

هوامش الفصل الثاني عشر

1. 'Revisionists Cause Crisis in German Zionism', *Palestine Post* (25 June 1934), p. 1.
2. Herbert Levine, 'A Jewish Collaborator in Nazi Germany: The Strange Career of Georg Kareski, 1933–37', *Central European History* (September 1975), p. 262.
3. Vladimir Jabotinsky, 'Jews and Fascism', *Jewish Daily Bulletin* (11 April 1935), p. 2.
4. Kurt Grossmann, 'Zionists and non-Zionists under Nazi Rule in the 1930s', *Herzl Yearbook*, vol. IV (1961–2), pp. 341–2.
5. Author's interview with Shmuel Merlin, 16 September 1980.
6. Author's interview with Paul Riebenfeld, 17 January 1978.
7. 'See Kareski's Hand in Leader's Ousting', *Congress Bulletin* (24 January 1936), p. 4.
8. Levine, 'Jewish Collaborator in Nazi Germany', pp. 266–7.
9. 'Kareski Again', *American Hebrew* (21 February 1936), p. 406.
10. Solomon Colodner, *Jewish Education under the Nazis*, p. 111.
11. 'Georg Kareski Approves of Ghetto Laws – Interview in Dr Goebbel's "*Angriff*"', *Jewish Chronicle* (London, 3 January 1936), p. 16.
12. Max Nussbaum, 'Zionism under Hitler', *Congress Weekly* (11 September 1942), p. 13.
13. A.M.H., 'The Jewish Year in the Diaspora', *Palestine Post* (5 September 1937), p. 5.
14. Leonard Baker, *Days of Sorrow and Pain*, p. 213.
15. 'Mr Kareski Abused by Haifa Crowd', *Palestine Post* (7 October 1937), p. 3.
16. 'Kareski's Charge Dismissed', *Palestine Post* (10 June 1938), p. 8.
17. Levine, 'Jewish Collaboration in Nazi Germany', p. 272.
18. Ibid., p. 253.
19. Ibid., p. 272.
20. Jacob de Haas, 'The Sharp End of the Axe', *Chicago Jewish Chronicle* (15 November 1935), p. 9.

١٣ـ اختيار الشعب المختار ـ عقيدة «القسوة الصهيونية»

تتنوع إحصائيات الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى درجة ما اعتماداً على المصدر، ولكنها تتفق بشكل عام. ويقدر هِربَرت شْتراوس أنه كان هناك ما مجموعة ٢٧٠,٠٠٠ ـ ٣٠٠,٠٠٠ مهاجر، منهم ٣٠,٠٠٠ هلكوا في البلدان المفترض أنهم لجأوا إليها[١]. ويقر يهُودا بَاور بأنه كان هناك ٤٤,٧٣٥ مهاجراً شرعياً إلى فلسطين من ألمانيا والنمسا في الأعوام ما بين ١٩٣٣ إلى ١٩٣٨ ـ «أي حوالي ٢٠٪» من كل المهاجرين اليهود[٢]. وتقر «الموسوعة اليهودية» بأن ٥٥,٠٠٠ ذهبوا إلى فلسطين في عام ١٩٣٩[٣]. ويسجل فوزي أبو دياب ٣٩,١٣١ مهاجراً ألمانياً فقط من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٤٥، ولكن أرقامه «الألمانية» المنخفضة تكملها أعداد ما يصنفه الانتداب و«الوكالة اليهودية» تحت: «مسافرون مصرح لهم»، و«بلا دولة»، و«غير محدد»، وكثيرون منهم كانوا يقيمون في ألمانيا في تلك الأعوام[٤]. وبالمقارنة فإن «الموسوعة اليهودية» تقدر أن ٦٣,٠٠٠ مهاجر ذهبوا إلى الولايات المتحدة، و٤٠,٠٠٠ إلى المملكة المتحدة، و٣٠,٠٠٠ إلى فرنسا، و٢٥,٠٠٠ إلى بلجيكا، و٢٥,٠٠٠ إلى الأرجنتين[٥]. كما أن «التوطن الدولي» في شنغهاي استوعب حوالي ١٦,٠٠٠ من عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٤١، وسمحت جنوب أفريقيا بدخول ٥,٠٠٠[٦].

كان البريطانيون، لا الصهاينة هم الذين يقررون سياسة الهجرة إلى فلسطين مستخدمين مجموعة من الاعتبارات السياسية ـ على سبيل المثال ـ تقيم رد فعل العرب، وحسابات موضوعية نسبياً تتعلق بقدرة الامتصاص الخاصة بالاقتصاد اليهودي. وفي كل

عام كانت تحدد حصة وتعطي شهادات الهجرة الثمينة للمنظمة الصهيونية العالمية. كانت هناك دائماً مواصفات سياسية للمهاجرين المحتملين. كان الشيوعيون ممنوعين دائماً، وكان يتوجب إعطاء ٦٪ من الشهادات «للاتحاديين» المعادين للصهيونية. ولكن ومن الناحية الأخرى فإن رأسماليّي الـ ١٠٠٠ جنيه استرليني كان يُسمح لهم دائماً بالدخول بأعداد تزيد على الحصة المقررة. وإلى أن فرضت الانتفاضة العربية عام ١٩٣٦ على الانتداب أن يخفض الهجرة تخفيضاً كبيراً، كانت الوكالة اليهودية تحاجج لندن بجدية حول الأرقام المقترحة أو المبررات الاقتصادية وراء هذه الاقتراحات.

وتطورت سياسة المنظمة الصهيونية العالمية الخاصة بالهجرة ببطء. قبل الحرب العالمية الأولى جاء معظم المهاجرين من روسيا، ولكن الثورة البلشفية أغلقت هذا المصدر في نهاية الأمر. وفي فترة ما بعد الحرب كانت بولندا هي التي قدمت أكبر فيالق المستوطنين. فقد شجع الخط المعادي للسامية لحكومة إنْرِكْ البولندية الآلاف من الحرفيين اليهود وأبناء الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى، على التفكير في الهجرة. فلما رُفض دخولهم إلى أمريكا بسبب قيودها الجديدة على الهجرة، تحولوا إلى فلسطين. وأدى تدفق رأسمالهم بسرعة إلى ازدهار في مناطق تل أبيب التي عرضت للبيع في أسواق وارسو. واضطر الصندوق القومي اليهودي الذي نظم المستعمرات الزراعية للمنظمة الصهيونية العالمية لأن يدفع هو أيضاً أسعارا باهظة لما احتاجه من أرض له ـ ولقد توسعت تل أبيب بالفعل نتيجة الهجرة الجديدة، ولكنها في الأساس توسعت بسبب قدوم الحرفيين البولنديين المستقلين: الأب المسن وعائلته الممتدة التي تعمل على أنوال قليلة. كان البولنديون يحلون بذلك مشكلاتهم الخاصة، ولكن مؤسساتهم الصغيرة جداً لم يكن من الممكن أبداً أن تصبح أساساً للاقتصاد الصهيوني، وهو أمر حيوي بشكل مطلق إذا ما كانوا يريدون انتزاع البلاد من العرب. وفي نهاية الأمر انهار ازدهار الأراضي مما أدى إلى دمار الكثيرين من أصحاب المحال وإلى بطالة كبيرة في مهن البناء. وبالرغم من أن هبوط الأسعار كان مناسباً للصندوق القومي اليهودي فقد أصبح عليه آنذاك أن يواجه احتياجات العاطلين.

أدت هذه الخبرة إلى تغيرات كبيرة في السياسة، وتقرر أنه لا يمكنهم تحمل التكاليف الاجتماعية لهجرة البرجوازيين الصغار. ومنذ عام ١٩٢٤ بدأ وايزمان في شجب المستوطنين الجدد الذين نظر إليهم باعتبارهم يحملون «جو الجيتو»، وحذر بأن «نحن لا نبني وطننا القومي على غرار جيكا ونالِفْكي، فهنا قد وصلنا وطننا ونحن نبنيه للخلود»[٧].

كانت تلك سياسة «لا نالفكي» ـ وهو الجيتو الكبير في وارسو ـ وهي السياسة التي حولت الصهيونية بعيداً عن كتلة اليهود العاديين الذين لم يكونوا صهاينة في معظمهم، بل حتى بعيداً عن قواعد الحركة الصهيونية في المهجر، كانت تنقصهم المهارات والموارد المطلوبة في فلسطين، ولذلك لم تعد الصهيونية تخدمهم، وأصبح اختيار المهاجرين يتم بشكل صارم لمصلحة صهيون. وفي فلسطين نفسها قررت المنظمة الصهيونية العالمية بأنه من الواجب تشجيع العاطلين على الهجرة ثانية وذلك من أجل توفير ما يصرف على تأمينات البطالة[٨]. وبدأ يظهر تفضيل قوي للجماعيين الكيبوتزيين من الاتجاهات الصهيونية العمالية بظهور تحالف بين دوائر وايزمان الذين، برغم أنهم كانوا برجوازيين هم أنفسهم، كانوا يبحثون باستماتة عن سبيل لتخفيض تكاليف الاستعمار، وبين اليساريين الذين كانوا يحلمون بجيل من اليهود «الأصحاء» لا تعود له علاقة بمِهَن «المهجر»، يبني أمة إشتراكية على أرضه الخاصة. كان روادهم من الشباب قد أداروا ظهورهم لقيم عائلاتهم من الطبقة الوسطى وأصبح في إمكانهم تحمل قدر كبير من الحرمان الاقتصادي لصالح القضية. وأصبحت الصهيونية يوطوبيا متشددة التفكير ساعدت صورة اليهودي، ولكنها لم تحاول حل أي من مشاكل الجماهير اليهودية في أوربا.

المواصفات القاسية للصهيونية

دفع أسبوع الإرهاب الذي انطلق ضد اليهود بانتصار النازيين في انتخابات مارس / آذار عام ١٩٣٣ بالآلاف إلى الشوارع خارج مكتب فلسطين في برلين، ولكن لم تكن هناك بعد رغبة في تحويل فلسطين إلى ملجأ أصيل. كان على الهجرة أن تستمر لخدمة مطالب الصهيونية. كان المطلوبون هم فقط الصهاينة الشباب الأصحاء المؤهلين والملتزمين. وأعلن «الرواد الحالوتز الألمان» إن الهجرة بدون قيود إلى فلسطين هي «جريمة صهيونية»[٩]. وطرح إنزو سيريني وكان مبعوث الصهاينة العماليين في ألمانيا في ذلك الوقت، مواصفاتهم:

> حتى في هذه الساعة الصعبة فإن من واجبنا أن نخصص شهادات الهجرة الألف للرواد. قد يبدو ذلك قسوة، ولكن حتى لو أن البريطانيين قدموا لنا عشرة آلاف شهادة بدلاً من الألف التي يعطونها لنا الآن، فإننا سنظل نقول: دعوا الشباب يذهبون، لأنه حتى ولو كانوا يعانون أقل من الأكبر سناً، فإنهم يناسبون المهام

في فلسطين بشكل أفضل. إن الأطفال يمكنهم إحضار آبائهم فيما بعد، ولكن لا يمكن عمل العكس[١٠].

كان وايزمان هو المسئول كلية عن الهجرة من ألمانيا فيما بين عام ١٩٣٣ وإعادة انتخابه للرئاسة في عام ١٩٣٥. وسجل تقريره في يناير كانون الثاني ١٩٣٤ بعض المقاييس المستعملة في اختيار المهاجرين المقبلين، فأولئك الذين كانوا «فوق الثلاثين ولا يمتلكون رأسمال ولا مؤهلات خاصة لا يمكن امتصاصهم في فلسطين ما لم توجد هناك سوق للعمل الذي يقومون به في ألمانيا[١١]، وفي ٢٦ أبريل / نيسان استبعد بشكل خاص عدة تجمعات هامة في أخذ هجرتها بعين الاعتبار بجدية: «رجال الأعمال السابقون والتجار المتجولون والفنانون والموسيقيون، من الصعب أن ينالوا شهادات[١٢] هذه المرة». كان معظم اليهود الألمان ببساطة غير مطلوبين في فلسطين، فهم كانوا إما كباراً في السن، أو أن مهنهم لم تكن تناسب احتياجات البلاد، أو أنهم لم يكونوا يتكلمون العبرية وغير ملتزمين أيديولوجياً. كانت القيادة الصهيونية فيما بينها صريحة تماماً فيما تفعل. ففي عام ١٩٣٣ عكس بيْرل كاتْـزْنلسن، وكان في ذلك الوقت رئيس تحرير جريدة الهستدروت اليومية، دافار، تفكيرهم: «نحن نعرف أننا غير قادرين على نقل كل اليهود الألمان، وعلينا أن نختار على أساس المواصفات القياسية للصهيونية». وفي عام ١٩٣٥ أعلن موشيه شاريت (شرتوك) مرة أخرى أن الظروف اضطرتهم لأن يعاملوا يهود المهجر بدرجة ما من القسوة[١٣]. وكتب الباحث الإسرائيلي أبراهام مرجَليوت حول خطاب ألقاه وايزمان أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في عام ١٩٣٥، قال:

أعلنَ [وايزمان] أن الحركة الصهيونية عليها أن تختار بين الانقاذ الفوري لليهود، وبين إقامة مشروع قومي يمكنه أن يضمن الخلاص الدائم للشعب اليهودي وفي ظل تلك الظروف فإن على الحركة، استناداً إلى وايزمان، أن تختار الطريق الأخير[١٤].

كان البريطانيون يقررون عدد اليهود ونوع فئاتهم الاقتصادية، الذين يمكن دخولهم إلى البلاد في كل عام، وذلك بحسب الضغوط العربية ضد الهجرة كلها، والتدخلات الدبلوماسية من قبل بولندا ورومانيا والأنظمة الأخرى المعادية للسامية في أوربا الشرقية المؤيدة لزيادة الحصص، وكذلك بحسب الاحتياجات الاقتصادية للبلاد. ومع ذلك فإن البريطانيين لم يكونوا أبداً في حاجة لمن يعرف العبرية ولا كان يعنيهم ما إذا كان المهاجر

المحتمل غير صهيوني. كما لم يشغلوا أنفسهم بالمكان الذي يأتي منه المهاجرون. ربما كان مما يسعد لندن لو أن المنظمة الصهيونية العالمية قد اختارت أمريكيين أقل وألماناً أكثر. وانطلاقاً من الواقع السياسي للانتداب لم يكن من الممكن أن تكون الهجرة الصهيونية هي المخرج لكل اليهود الألمان، ولكن، وفي إطار القيود التي فرضها البريطانيون فإن صهيون لم يرغب أبداً في أن يكون هو خلاص اليهود الألمان.

من إذن كان يُعطى الشهادات من مكاتب فلسطين الأربعة عشر المنتشرة في أرجاء العالم؟ طبقاً لاحصائيات أبو دياب فإن ٢٧,٢٨٩ يهودياً دخلوا فلسطين كمهاجرين شرعيين في عام ١٩٣٣، و٣٦,٦١٩ في عام ١٩٣٤، و٥٥,٤٠٧ في عام ١٩٣٥ مما يعني ما مجموعه ١١٩,٣١٥ لفترة السنوات الثلاث. من هؤلاء تسجَّل ١٨,٢٠٦ كألمان(١٥). المهاجرون الإضافيون الذين كانوا يقيمون في ألمانيا جاءوا باعتبارهم بولنديين ومن قوميات أخرى. من هؤلاء كان هناك ١,٩٧٩ في عام ١٩٣٥(١٦). وخلال هذه الأعوام الثلاثة كان القسم القومي الأكبر من الهجرة اليهودية بولندياً، ٤٢,٥٦٪ في عام ١٩٣٤، و٤٤,١٢٪ عام ١٩٣٥(١٧). وكانت معاداة السامية البولندية مزمنة خلال تلك الأعوام، وكان من الممكن تبرير قرار إعطاء البولنديين شهادات أكثر من الألمان. ولكن خلال تلك السنوات نفسها جاء ما لا يقل عن ٣,٧٤٣ مهاجراً من الولايات المتحدة و٥٧٩ مهاجراً آخر من بقية نصف الكرة الغربي. وكانت كتلة اليهود البريطانيين تبلغ ٥١٥، وأرسلت أفريقيا ٢١٣ مهاجراً(١٨). وقدمت تركيا ١,٢٥٩ في الفترة ١٩٣٤ - ١٩٣٥. وكان الرقم المشترك لبريطانيا ونصف الكرة الغربي وأفريقيا وتركيا خلال تلك الأعوام هو ٦٣٠٧. فحتى إذا كان من الممكن الدفاع عن الأرقام البولندية، فإن الدفاع عن هذه غير ممكن. لم يكن أي من هؤلاء اليهود في حاجة للانقاذ، ومن المؤكد أنه لا يوجد من يدّعي بأن الانقاذ لعب أي دور في اختيارهم. لقد تم اختيارهم لأنهم كانوا صهاينة، وفي الأساس بسبب صغر أعمارهم وتأهيلهم. وخلال تلك الأعوام الثلاثة نفسها تم رفض طلبات ثلثي كل اليهود الألمان الذين تقدموا لطلب شهادات(١٩).

لا يوجد تنظيم يهودي يمكنه أن يؤيد مشروعاً

طالما أنهم لم يكونوا يريدون هذه الكتلة من اليهود الألمان في فلسطين، فإنه من الممكن الافتراض بأن الحركة الصهيونية، على الأقل في أمريكا، حاولت أن تجد ملاجىء أخرى لإخوانها، ولكن ذلك لم يحدث. . . ففي كل أنحاء العالم تصرفت البرجوازية

اليهودية بجبن نابع من الخوف من أن وجود لاجئين «كثيرين جداً» في أي بلد يمكن أن يطلق «معاداة سامية» محلية. وبدا أن إرسال اللاجئين إلى فلسطين هو الجواب الأمثل، وأدانتِ الصحافة اليهودية الأمريكية الحصص البريطانية في فلسطين بالرغم من أنها اتخذت موقف الصمت الواضح بشأن قيود أمريكا المتشددة ذاتها.

كان ضم النمسا هو الذي أطلق في النهاية في مارس / آذار عام ١٩٣٨ العنف النازي ضد اليهود. وتقدم عضوان ديمقراطيان في الكونجرس وهما دِكْشْتَاين وسِلَر عن نيويورك، واقترح كل منهما مشروعات بقوانين تخفف قليلاً من قوانين الهجرة الأمريكية، ولكن كلاهما فشل دون جلسة استماع في أبريل / نيسان عام ١٩٣٨، بعد أن قررت الوكالات اليهودية والمسيحية وغير الطائفية، الخاصة باللاجئين، أن الجناح اليميني سيستعمل هذه المناسبة لاقتراح قيود أسوأ. ووصلت الرسالة إلى السياسيين: إذا فتح النقاش فربما أدلينا برأينا ضد الإصلاح(٢٠)، وحصلت جبهة الحزب الشيوعي «ولجنة الشعب اليهودي» على نسخة من رسائل ستيفن وايز باسم مجموعات اللاجئين اليهود، من خلال مكتب دونالد أوتول، الديمقراطي في بروكلين. ونشر الشيوعيون هذه الوثيقة في كتيّب بعنوان «اليهود في العمل» في محاولة للتشكيك في خصومهم الصهاينة الموالين لبريطانيا وذلك أيام اتفاق هتلر وستالين. ومع ذلك لا يوجد شك أن هذه الرسالة حقيقية وهي تعطي مؤشراً واضحاً على جو الحركة الصهيونية:

> كنت أتمنى أن أظن أنه بالإمكان تمرير هذا الإجراء بدون مترتبات على الجالية اليهودية في هذا البلد، ولديّ كل ما يجعلني أعتقد، لسوء الحظ، أن أي جهد يبذل في هذا الوقت لإلغاء قوانين الهجرة ومهما كانت الغاية إنسانية، سيؤدي إلى تصعيد خطير لما نعرف أنه سيكون موجة صاعدة من المشاعر المعادية للسامية في هذا البلد... وربما كان يهمكم أن تعرفوا أنه منذ بضعة أسابيع مضت التقى ممثلون من كل المنظمات اليهودية القيادية في مؤتمر لمناقشة اقتراح الرئيس والاقتراحات الأخرى التي قدمت لإلغاء حاجز الهجرة. ولقد كان هناك إجماع في الرأي على أن مثل هذه المشروعات في هذه اللحظة، وعلى ضوء البطالة الحالية في هذا البلد وعلى ضوء الدعاية النشطة الموجهة ضد الشعب اليهودي والمتوزعة على جميع أنحاء البلاد، ستكون مضرة بالأهداف التي نرغب جميعاً في خدمتها. لهذا السبب تقرر ألا يقوم أي تنظيم يهودي في هذا الوقت بتأييد أي

مشروع يمكن بأي طريقة أن يغير قوانين الهجرة الحالية(٢١).

هل كان من الممكن أن تفعل الحركة الصهيونية الأمريكية أكثر من ذلك في محاولة الحصول على ملجأ لليهود الألمان؟ الإجابة بوضوح، نعم. لقد ووفق على قوانين الهجرة في الفترة ما بين عام ١٩٢١ - ١٩٢٤، خلال موجة من الخوف المرضي من الأجانب (زينوفوبيا)، وكانت مصمَّمة لكي تستبعد عملياً أي شخص من غير كتلة المستوطنين القدامى: البريطانيين والإيرلنديين والألمان. ذلك يعني عملياً حصةً ألمانية عالية نسبياً، ولكن الرجعيين في وزارة الخارجية وفي الحزب الديمقراطي فسروا التعليمات عمداً تفسيراً خاطئاً وذلك ليقيموا حواجز أمام اليهود حتى لا يستعملوا الحصة كاملة. ولو أن جهداً حاسماً من أي نوع تَمَّ القيام به لتعبئة الجماهير اليهودية والجالية الليبرالية الأكبر، لما كان هناك أي شك في أن روزفلت لم يكن ليستطيع الصمود أمام الضغط. لقد كان اليهود والليبراليون ببساطة مهمين جداً في حزبه بحيث لم يكن في إمكانه رفضهم لو أنهم طالبوا بجدية بتطبيق صحيح للقواعد المنظِّمة. ومع ذلك فإن الصهاينة لم يشنوا أبداً حملة على نطاق قومي، ولم يعملوا إلا على المظالم الفردية. لم يحدث أبداً أن دعا تنظيم صهيوني لأكثر من أصغر الإصلاحات في قوانين الهجرة. اليساريون فقط، وبالذات التروتسكيون والستالينيون، كانوا يطالبون دوماً بأن تفتح الأبواب واسعة أمام اليهود.

كانت هناك عدة أسباب لموقف الصهاينة الأمريكيين من مشكلة اللاجئين. ففي السنين الأولى من العشرينات لم يفكروا أبداً في تنظيم اليهود مع الجاليات الإثنية الأخرى التي كانت تواجه التمييز ضدها في القيود المقترحة، وذلك للنضال ضد الحصص. كانوا يعرفون أنه طالما ظلت أمريكا مفتوحة للمهاجرين فإن اليهود سيستمرون في إدارة ظهورهم لفلسطين التي ضربها الفقر. وفي الثلاثينيات كان الكثيرون من الصهاينة الأمريكيين لا يزالون يرون أن الملاذ في أي بلد آخر غير فلسطين، لا يقدم أكثر من ملجأ ليلي - مسكّن في أفضل الأحوال، وخطر في أسوأ الأحوال، طالما أن المهاجر اليهودي يحضر معه دائماً في أعقابه معاداة السامية، وكانوا يخافون على أنفسهم. كانت معاداة السامية منتشرة انتشاراً واسعاً بالفعل في أمريكا في ذلك الوقت، بالرغم من أن الحركة الصهيونية بالطبع لم تسع أبداً لتنظيم أي نوع من الدفاع ضد الهجمات الفعلية. ومع ذلك يجب التأكيد على أن «معاداة السامية» الأمريكية لم تكن قط خارج نطاق السيطرة، وأن الجالية اليهودية في ذاتها لم تكن أبداً في خطر. لم يحدث أبداً أن قُتل يهودي في حادث

معـاد للساميـة في زمن لم يكن فيه شنق السـود بدون محـاكمة غـير شـائـع في الجنـوب الأمريكي . وبالإضـافة إلى ذلـك فإن الأغلبيـة العظمى من الصهـاينة ومعـظم اليهود الآخرين كذلك أيدوا إصلاحات روزفلت المحلية وخشوا أن يثيـروا قضايـا اللاجئين والهجرة حتى لا تضر بالحزب الديمقراطي . وأصبحت مساعدة بعض اليهود الألمان على التوطن في فلسطين هي البديل المريح لأي جهد حقيقي لمقاومـة معاداة السـامية داخـل المؤسسة الرأسمالية في أمريكا . .

نحن نخاطر بوجود الصهيونية :

هل كان من الممكن أن تكون فلسطين قط هي الحل لمعاناة اللاجئين؟ لقد درست لندن بعد تقرير لجنة بيل في يوليو / تموز عام ١٩٣٧ ، بشكل جاد إقامة دويلة يهوديـة . ولكن حتى لو أن البريطانيين نفذوا ذلك فإنه لم يكن ليحل الوضع الميئوس منه ، كما أن المنظمة الصهيونية العالمية لم تكن تزعم أنه سيفعل . لقد أدلى وايزمان بشهادته أمام اللجنة وقال لهم أنه عالم ، وهو يعرف أن فلسطين باقتصادها المتخلف لا يمكنها على الأرجح أن تقيم أود كل يهود وسط وشرق أوربا . كان يريد مليونـين من الشباب . وفيـما بعد أبلغ المؤتمر الصهيوني في عام ١٩٣٧ عن شهادته أمام اللجنة فقال :

> الكبار سيقضون ، سيحملون قدرهم أو لن يحملوه . كانوا هباء ، هباء اقتصادياً ومعنوياً ، في عالم قاسٍ . . . مليونان ، ربما أقل ، «شِيريت هابْليتَه» ، ـ فرع فقط هو الذي سيعيش . لا بد أن يقبلوا ذلك . لا بد أن يتركوا الباقي للمستقبل ـ لأبنائهم الشباب . فإذا شعروا وعانوا فسيجدون الطريق «بآخريت هـاجاميم» [في نهاية الزمان][٢٢] .

ومع التخلي عن اقتراحات بيل كفت الصهيونية عن أن تكون لها أي علاقة حقيقية بيهـود أوربا . وقـطع البريـطانيون الهجـرة في محاولـة لتهـدئـة العـرب ، ولم يسمـح إلا لـ ٦١,٣٠٢ يهودياً بدخول فلسطين من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ . وسمحت المنظمة الصهيونية العالمية بدخول ١٧,٤٢١ فقط من ألمانيا . ومع ذلك فلا الخطر المروع على يهود وسط أوربا ولا تخلي سيدهم الامبريالي عنهم هزّ تصميم قادة المنظمة الصهيونية العالمية : ولم يعد من الممكن بأي حال إبعاد الصهيونية جانباً في هذا التدافع الفزع للعثور على ملاجىء لليهود اليائسين . وعندما اقترح البريطانيون بعد «ليلة الكريستال» وعلى أمل تخفيف

الضغوط لزيادة الهجرة إلى فلسطين، اقترحوا بأن يُسمح بدخول آلاف من الأطفال مباشرة إلى بريطانيا، كان بن جوريون معارضاً للخطة بشكل قاطع، وأبلغ اجتماعاً لقادة الصهيونيين العماليين يوم ٧ ديسمبر/كانون أول ١٩٣٨ :

لو أنني كنت أعرف أن في الإمكان إنقاذ كل الأطفال في ألمانيا بإحضارهم إلى إنجلترا، وانقاذ نصفهم فقط بنقلهم إلى إسرائيل، لاخترت البديل الثاني. لأنه لا يجب أن نقيم وزناً لحياة أولئك الأطفال فقط وإنما أيضاً لتاريخ شعب إسرائيل[٢٣].

كانت سياسة بريطانيا ثابتة بشكل صارم ولم يكن هناك أدنى فرصة لأن تسمح لندن فجأة بأي هجرة كبيرة إلى فلسطين، ومع ذلك أصر بن جوريون رافضاً البحث في أي ملاجىء أخرى. وفي ١٧ ديسمبر / كانون أول ١٩٣٨ حذر اللجنة التنفيذية الصهيونية :

إذا كان على اليهود أن يختاروا بين اللاجئين، وإنقاذ يهود من معسكرات الاعتقال، ومساعدة متحف قومي في فلسطين، فإن الرحمة ستكون لها اليد العليا وسيتم توجيه كل طاقة الشعب نحو إنقاذ اليهود من مختلف البلدان. وستُرفع الصهيونية من جدول الأعمال ليس فقط عند الرأي العام العالمي، وفي بريطانيا والولايات المتحدة، بل وعند الرأي العام اليهودي. إذا سمحنا بالفصل بين مشكلة اللاجئين والمشكلة الفلسطينية فإننا نخاطر بوجود الصهيونية[٢٤].

كان رد فعل وايزمان المباشر على «ليلة الكريستال» اقتراح خطة على وزير الاستعمار البريطاني بأن يسمح العراق بدخول ٣٠٠,٠٠٠ يهودي مقابل ٢٠ مليون جنيه استرليني أو ٣٠ مليون جنيه استرليني، أو، هذا أفضل، أن يأخذوا مائة ألف فلسطيني «ستنتقل أرضهم حينئذ للمهاجرين اليهود»[٢٥]. لنستعمل كلمته نفسها حول مفاوضات هرتزل الشهيرة مع فون يْليْفِه في عام ١٩٠٣ : «لا يمكن لعدم الواقعية أن تمضي لأبعد من ذلك» : أن يسمح العراق لـ ٣٠٠,٠٠٠ يهودي بناء على توصية الصهاينة والبريطانيين أو أن يأخذ الفلسطينيين بحيث يمكن أن يحل محلهم اليهود! لقد صادق البريطانيون على الصهيونية في إعلان بلفور لأهدافها الإمبريالية. وانتقلت تلك المصالح إليها وأصبحت الصهيونية عقيمة ولا ترغب أبداً في البحث عن بدائل للجماهير اليهودية

في ساعات دمارها.

إنه لمن طبيعة الأشياء أن يضع الصهاينة اليوم اللوم على البريطانيين ومن خلالهم على العرب بسبب العدد المنخفض للاجئين الذين سمح لهم بدخول فلسطين خلال الثلاثينيات. ولكن هذه الحجة مغرضة. فلما كان الصهاينة غير مهتمين أبداً بأن تتحول فلسطين إلى ملجأ حقيقي، لماذا كان يجب أن يلقى هذا الملاذ أي اهتمام من جانب البريطانيين أو العرب؟ إن الموقف الفلسطيني تجاه الهجرة اليهودية إلى بلادهم سهل الفهم. فبالرغم من أن بريطانيا يتوجب إدانتها للتخلي عن اليهود في أوربا فليس للصهاينة أن يفعلوا ذلك. فهم يعرفون تماماً وجيداً أن المصالح الإمبريالية كانت دائماً وراء حماية لندن وتشجيعها لحركتهم. لقد تم تحذيرهم مراراً من قِبل اليسار، بأن مصالح الجماهير اليهودية والأمبراطورية البريطانية لا يمكن أن تلتقي. ويجب اعتبار المنظمة الصهيونية العالمية مسئولة لخيانتها اليهود الألمان: لقد أدارت ظهرها لهم في القضية التي وُصِفت بدقة باعتبارها بالنسبة لهم «واجهة لعرض اليهود المهجرين»[٢٦].

هوامش الفصل الثالث عشر:

1. Herbert Strauss, 'Jewish Emigration from Germany – Nazi Policies and Jewish Responses', *Leo Baeck Institute Year Book*, vol. XXV, p. 327.
2. Yehuda Bauer, *My Brother's Keeper*, pp. 156–63.
3. 'Germany', *Encyclopedia Judaica*, vol. 7, col. 491.
4. Fawzi Abu-Diab, *Immigration to Israel*, p. 6.
5. *Encyclopedia Judaica*, vol. 7, col. 491.
6. David Kranzler, 'The Jewish Refugee Community of Shanghai, 1938–45', *Weiner Library Bulletin*, vol. XXVI, nos. 3–4 (1972–3), p. 28.
7. Chaim Weizmann, *Trial and Error*, p. 301.
8. Walter Laqueur, *History of Zionism*, p. 317.
9. Abraham Margaliot, 'The Problem of the Rescue of German Jewry during the Years 1933–1939; the Reasons for the delay in the Emigration from the Third Reich', *Rescue Attempts During the Holocaust* (Israel), p. 249.
10. Ruth Bondy, *The Emissary*, p. 116.
11. 'Weizmann makes first Report on German-Jewish Settlement in Palestine', *New Palestine* (31 January 1934), p. 6.
12. Chaim Weizmann, in Barnett Litvinoff (ed.), *The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Letters*, vol. XVI, p. 279.
13. Margaliot, 'Problem of the Rescue of German Jewry', p. 255.
14. Ibid.
15. Abu-Diab, *Immigration to Israel*, p. 6.
16. *American Jewish Yearbook, 1936–37*, p. 585.
17. Ibid.
18. Abu-Diab, *Immigration to Israel*, p. 6.
19. Margaliot, 'Problem of the Rescue of German Jewry', p. 253.
20. David Wyman, *Paper Walls: America and the Refugee Crisis 1938–41*, pp. 67–8.
21. *Jews in Action – Five Years of the Jewish People's Committee* (undated), p. 7.
22. 'Dr Weizmann's Political Address – 20th Zionist Congress', *New Judaea* (London, August 1937), p. 215.
23. Yoav Gelber, 'Zionist Policy and the Fate of European Jewry (1939–42)', *Yad Vashem Studies*, vol. XII, p. 199.
24. Ari Bober (ed.), *The Other Israel*, p. 171.
25. Martin Gilbert, 'British Government Policy toward Jewish Refugees (November 1938–September 1939)', *Yad Vashem Studies*, vol. XIII, p. 130.
26. Ben Hecht, *Perfidy*, p. 19.

١٤ـ المنظمة الصهيونية العالمية والفاشية الإيطالية ١٩٣٣ ـ ١٩٣٧

في عام ١٩٣٣ كان موسوليني يلقى احتراماً كبيراً من جانب المحافظين. كان من المعتقد أنه الوحيد الذي يستمع إليه تلميذه الهائج في برلين. وأمل الصهاينة أنه قد ينصح هتلر بأن محو اليهود على هذا النمو المفرط لن يسبب سوى مشاكل لا ضرورة لها. كذلك اعتقدوا أن موسوليني يمكن إقناعه لكي ينضم إلى لندن وباريس في تأمين فينا ضد استيلاء النازيين.

كان ناحوم سوكولوف رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وقتذاك قد قابل موسوليني يوم ١٦ فبراير / شباط ١٩٣٣. لم يكن سوكولوف شخصية قوية، ولم يكن قد انتخب إلا في عام ١٩٣١ إثر استقالة وايزمان بعد أن خسر تصويتاً على الثقة بشأن سياسته للتفاهم مع البريطانيين، وهو لم يتقدم بأية مطالب لموسوليني. ومع ذلك فقد تحدث موسوليني عن «تعاطفه القلبي» مع اليهود. وعندما أعلن النازيون مقاطعتهم المعادية لليهود في أول أبريل / نيسان، أرسل موسوليني سفيره لمقابلة هتلر يوم ٣١ مارس / آذار وألح عليه أن يوقف المقاطعة. وفي هذا الاجتماع كال الفوهرر المديح للدوتشي، ولكن أدولف هتلر كان أعظم خبراء العالم باليهود ولا يحتاج إلى محاضرات حول كيفية التعامل معهم. فهل كان خطأه أن القياديين الماركسيين كانوا يهودا؟ وكرر تساؤله عن تلك التجاوزات التي فرضها على اليهود بحيث جعلت اسمه يُلاك في الخارج على هذا النحو. كلا، ربما شكره المعجبون به إذا ما أوقف المقاطعة، ولكن أعداءه الكثيرين سيعتبرون ذلك علامة ضعف. وقال هتلر للسفير أنه عندما يرى السنيور موسوليني في المرة القادمة:

أضف ما يلي: أنا لا أعرف ما إذا كان اسمي، ! خلال مائتين أو ثلثمائة عام،

سيوفّر في ألمانيا لما آمل بإخلاص أن أكون قادراً على عمله من أجل شعبي، ولكنني متأكد من أمر واحد بشكل قاطع: إنه ولمدة خمسمائة أو ستمائة سنة من الآن فإن اسم هتلر سيمجد في كل مكان باعتباره اسم الرجل الذي خلص العالم مرة واحدة وإلى الأبد من طاعون اليهودية[1].

كان الإيطاليون على علاقات طيبة نسبياً مع البريطانيين نتيجة أنهم كانوا مهتمين بخطط ألمانيا تجاه النمسا، وأعطوا لندن تقريراً عن مقابلة هتلر. ولكن لا يوجد سبب للاعتقاد بأن موسوليني قد مرر هذه الكلمات المشئومة أبداً إلى الصهاينة كما لا يوجد دليل على أن المنظمة الصهيونية العالمية قد تجرأت في أي وقت أن تطلب من الإيطاليين تزويدهم بمثل هذه المعلومات حول نوايا هتلر. كان اهتمام المنظمة الصهيونية العالمية يكمن في جعل موسوليني يؤيدهم حول فلسطين، ويتحالف مع بريطانيا بشأن النمسا، وليتفاهم لصالح اليهود الألمان داخل دوائر النازيين. كان هناك تقليد قديم في الجاليات اليهودية في شرق أوربا هو تقليد «شتادلين» (الشفيع) وهو اليهودي الغني الذي يذهب إلى هامان القائم ويرشوه ليوقف الغوغاء. ولكن هتلر لم يكن مجرد ملك عادي كاره لليهود، أو حتى مثل بتليورا، ولم يكن يسمح لأي يهودي بالتواجد في حضوره. وبالرغم من أن الصهيونية كانت تحارب تقليد الشتادلين لكي تسيطر على الجاليات اليهودية ولكي تقاوم الكثير من جبن هؤلاء الناس، فإن المنظمة الصهيونية توقعت من موسوليني أن يكون شفيعها بالوكالة لدى هتلر. إن جعل موسوليني يهمس في أذن هتلر لم يكن سوى آخر شكل من أشكال الشتادلين.

«حديثي الثالث والأخير مع موسوليني»

بالرغم من أن نبوءة هتلر لسفير موسوليني كانت مرعبة، فإنه كان يدرك بشكل حاد ضعفه في أوائل عام ١٩٣٣. فالمعارضة القائمة في وجه إبادة اليهود، كما أظهرتها تدخلات موسوليني ومناشدات البرجوازية الألمانية التي كانت قلقة على أسواق صادراتها في الولايات المتحدة، اضطرته إلى أن يقصر المقاطعة على إنذار ليوم واحد لليهود. ولكن موسوليني اعتبر هذا التحوّط بأن معناه أن شكلا من أشكال التعايش ممكن. لقد حاول أن يساعد اليهود، وعليه الآن أن يفعل الشيء نفسه بالنسبة لهتلر. فطلب من أنْطجلوسا سِردوتي، وهو كبير الحاخامين في روما، أن يوصله بقيادات اليهود، مشيراً إلى أنه من الصعب جداً توقع أن يوقف هتلر نشاطاته إن لم يكن لديه ضمانات مسبقة من يهود العالم

بأنهم سيوقفون مظاهراتهم ضده. كان وايزمان قد رتب بالفعل لكي يزور روما يوم ٢٦ أبريل / نيسان ١٩٣٣، واقترحه الحاخام باعتباره الصلة المنطقية. وهكذا ترتب بسرعة الاجتماع الثالث لوايزمان وموسوليني.

لا يزال نقاشهم غارقاً في الغموض. ولاحظ ناحوم جولدمان وهو مساعد وايزمان لفترة طويلة من الزمن أن شيئاً مؤسفاً «أوقف ذاكرته عن العمل وحسب»[٢]. أما ما جاء في سيرة وايزمان الذاتية بعنوان «**التجربة والخطأ**» فهو غير متماسك. فقد كتب عن «حديثي الثالث والأخير مع موسوليني» ثم ناقش مؤتمرهم الرابع[٣].. هل كان من الممكن أبداً نسيان مقابلة في مكتب موسوليني المشهور؟ لقد قُصد بالاستقبال الذي تم في قصر فينيسا أن يكون جديراً بأن يُذكر: جرس فتح النافذة، وأعلن ضابط بصوت عال أن الدكتور وايزمان حاضر لمقابلة الدوتشي. وصاحبه طابور من الجنود إلى الطابق الثاني حيث أعلن حضوره مرة أخرى. وتكرر ذلك أربع مرات. وبعد الانتظار في غرفة للراحة على طراز عصر النهضة أعلن ياور آخر عن وجود وايزمان ثم خطا إلى الغرفة الأسطورية. كانت ضخمة، يبلغ طولها من أربعين إلى خمسين خطوة على الأقل وعلى الطرف الآخر من القاعة الفارغة تقريباً كان موسوليني جالساً وحده، وكان الضوء الوحيد يصدر عن مصباح على مكتبه الصغير.

تكشف وثائق إيطالية وصهيونية أخرى بعضاً من محتوى حديثهما. قدم موسوليني اقتراحه بأن على رؤساء اليهود أن يعلنوا أنهم مستعدون لوقف مظاهراتهم وللتفاوض مع هتلر. كانت لديه توجهاته الخاصة المعادية للسامية بالنسبة لليهود كهيئة جماعية، وكان على وايزمان أن يوضح له أنه لا سيطرة له على غير الصهاينة أو على المعادين للصهاينة، ولا حتى على حركته هو التي اضطرته للتقاعد من موقعه الفعال، وأنه كان في ذلك الوقت ينظم هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين ولن يأخذ أي مسؤوليات أخرى وفيما بعد قال أنه أبلغ موسوليني أنه لا يتفاوض مع «الوحوش الهائجة»[٤]. إن الستار المسدل على هذا الاجتماع يمنعنا من سماع المزيد من حوارهما، ولكن ٢٦ أبريل / نيسان كان لا يزال سابقاً على اتفاق سام كوهين مع النازيين في مايو / أيار. وحتى لو أن وايزمان كان يعرف عن مناقشات كوهين في برلين، فقد كان من الصعب عليه أن يشير إلى هذا المشروع الذي كان لا يزال غامضاً. ولكن بحلول ١٧ يونيو / حزيران عندما كتب إلى موسوليني يطلب مقابلة أخرى في يوليو / تموز، كان أرلوسوروف قد عاد إلى البلاد بعد مناقشاته

هو مع النازيين حول شروط «الهاآفار» الموسعة، ومن المعقول الظن بأن وايزمان أراد مناقشة الإشتراك الفاشستي المقترح في «بنك التصفية» الذي اقترحته السكرتارية السياسية، كان في إمكان وايزمان عندئذ أن يثبت للإيطاليين أن المنظمة الصهيونية العالمية مستعدة للوصول لاتفاق مع هتلر حتى ولو كانت هذه المنظمة لا يمكنها أن تأمر كل اليهود بأن يوقفوا التظاهر. وبالرغم من أنه لا يوجد دليل على أن محادثات أبريل / نيسان قد نتج عنها محاولة وايزمان أخذ الضمانات من القيادات اليهودية العالمية، فإن الحاخام ساسردوتي قد حاول بالفعل تنفيذ طلبات موسوليني الملحة. وفي العاشر من شهر يوليو / تموز قدم تقريراً إلى الدوتشي يقول إنه قابل خمسة من القادة اليهود، وهم كبير الحاخامين في فرنسا، ورئيس الأليانس الإسرائيلية العالمية ونيفيل لاسكي، رئيس هيئة مندوبي اليهود البريطانيين، ونورمان بنْتويتش وفيكتور جاكوبسون من المنظمة الصهيونية العالمية، وأنهم جميعاً قد وافقوا على وقف المظاهرات إذا حافظ هتلر على حقوق اليهود(٥).

«سيكون في إمكاني أن أضع في متناولكم فريقاً كاملاً من الكيميائيين»

بالرغم من أن وايزمان أراد اجتماعاً أسرع فإن حديثه الرابع مع موسوليني لم يكن من الممكن ترتيبه حتى ١٧ فبراير / شباط عام ١٩٣٤. ومن خلال التقارير التي أعطاها في حينه للبريطانيين وتقرير فيكتور جاكوبسون من اللجنة التنفيذية الصهيونية، بالإضافة إلى الوثائق الإيطالية، فإن سجل الاجتماع الرابع يعد كاملاً إلى حد كبير. سأل موسوليني إذا كان وايزمن قد حاول الاتفاق مع هتلر، وقال له وايزمان ـ الذي كان قد طلب للتو من خلال صديقه سام كوهين أن توجه له الدعوة للذهاب إلى برلين لمناقشة مقترحات بنك التصفية ـ قال له ثانية أنه لا يتفاوض مع الوحوش الهائجة(٦). غيّرا الموضوع وانتقلا مباشرة إلى موضوع فلسطين، وأيد موسوليني فكرة وايزمان عن التقسيم وعن الدولة الصغيرة الصهيونية المستقلة مع الافتراض المسبق بوجوب استقلالها عن بريطانيا. كذلك قال لهم موسوليني أنه سيساعد الصهاينة على إقامة أسطولهم التجاري الجديد، بالرغم من أنه من المشكوك فيه أن يكون وايزمان على علم بأي شيء حول المدرسة التي خطط لها التصحيحيون في سيفيتافيكيا.

كان وايزمان سياسياً، ويعرف أن عليه أن يعطي مثلما يأخذ. وتفيد سيرته الذاتية التي لا يمكن الاعتماد عليها في الواقع، بأن موسوليني «تحدث بحرية عن تجمع يضم روما

وباريس ولندن، هو، حسبما قال، التجمع المنطقي بالنسبة لإيطاليـا. وتكلم أيضاً عن الصنـاعة الكيمـائية وعن حـاجة إيـطاليـا إلى المـواد الـدوائيـة التي يمكننـا إنتـاجهـا في فلسطين»[٧].

لقد كتب هذه الكلمات في عام ١٩٤٧ وبعد الحرب نـادراً ما أقـر رئيس المنظمـة الصهيونية العالمية بأنه قد عرض بناء صناعة دوائية في إيطاليا الفـاشية، ولكن السجـل واضح. لقد صاحب فيكتور جاكوبسون، وهو ممثل المنظمة الصهيونية العالمية في عصبة الأمم، صاحب وايزمان إلى إيطاليا وأرسل تقريراً مفصلاً عن المقابلة إلى اللجنة التنفيذية الصهيونية. قال وايزمان لموسوليني:

سأكون قادراً على أن أضع في متناولك فريقـاً كامـلاً من الكيمائيـين من أعلى مستـوى علمي، رجال خبـراء وثقة ومـوالـين لـديهم رغبـة واحـدة فقط ـ أن يساعدوا إيطاليا ويضيروا ألمانيـا. وعند الضـرورة سنكون قـادرين أيضاً عـلى العثور على رأس المال الضروري[٨].

وعينّ الإيطاليون نيقولا بارافانو لمقابلة وايزمان في اليوم التالي. وكان المركيز تيودولي رئيس لجنة الانتداب بعصبة الأمم حاضراً وتسجل مذكراته أن وايزمان والفاشيين توصلوا إلى اتفاق كامـل حول الخـطة. وفي النهايـة لم ينتج شيء عن هـذه الترتيبـات وقد ألقى وايزمان في سيرته الذاتية باللوم على البريطانيين:

لقد كررت مضمون هذه المحادثة لأصدقائي البريطانيين في لندن ولكن بدون أن يؤدي ذلك إلى شيء. . لا أعرف مـا إذا كان فصـل روما عن بـرلين كـان سيمنع اندلاع الحرب، ولكن من المؤكد أنه كان سيحدث اختلافاً كبيراً بالنسبة للحـرب في البحر المتـوسط وكان من الممكن أن ينقـذ حياة الكثيـرين ويقصر المعاناة أشهر عديدة[٩].

من المؤكد أن البريطانيين لم يكونوا مهتمين بمشروعه. وبالإضافة إلى ذلك فليس من المحتمل إلى حد كبير أنه كان بمقدوره تجميع رأس المال لدعم عرضـه الخاص بـالتعاون الاقتصادي المباشر مع الفاشية. لقد كان دائماً مضارباً دبلوماسياً، وفيما بعد قدم عرضـاً على نفس القدر من الخيال بتقديم قرض يهودي قدره ٥٠ مليون دولار للأتراك إذا هـم أيضاً تحالفوا مع لندن. كان يعمل على قاعدة أنه إذا ما استطاع أن يولـد مصلحة عنـد

أحد طرفي التحالف فإن شيئاً ما قد يحدث عند الطرف الآخر. ومن المشكوك فيه أن يكون شركاؤه المعارضون قد قبلوا أياً من هذه الألاعيب الدبلوماسية السابقة على الحرب والتي كانت دائماً تفصّل لكي تناسب مضلحة الطرف الآخر ولكنها تكون مصممة بعناية لكي تجعل الصهيونية الفلسطينية محوراً مركزياً في دفاعات بريطانيا في البحر المتوسط.

دبلوماسية جولدمان السرية

استمرت الدبلوماسية الصهيونية في الاعتماد على موسوليني لتجنب كوارث المستقبل، وكان ناحوم جولدمان هو التالي في زيارة قصر فينيسيا في ١٣ نوفمبر / تشرين الثاني عام ١٩٣٤. كان جولدمان متعلقاً بالدبلوماسية السرية، وقد وصف لاحقاً بشكل حي اللقاء في سيرته الذاتية: كان لديه اهتمامات ثلاثة: كان هتلر على وشك الاستيلاء على إقليم السّار، وكان البولنديون على وشك إلغاء العبارات الخاصة بحقوق الأقليات في دستورهم الذي فُرض في فرساي، وكان النمساويون يمارسون علناً التمييز ضد اليهود في وظائفهم المدنية. ولما كان هناك إيطاليٌّ على رأس لجنة السّار في عصبة الأمم، لم يجد جولدمان صعوبة في أن يحث موسوليني على الموافقة على إجبار الألمان على السماح لليهود بأخذ كل ثرواتهم معهم بالفرنكات. كذلك حثه على الموافقة على أنه إذا جاء البولنديون إليه، وهو ما لم يفعلوه، سيقول لهم «لا، لا، لا»(١٠). أما الوضع النمساوي فقد كان هو الذي يملك موسوليني أعلى تحكّم فيه، إذ إن الحكومة الاشتراكية المسيحية كانت تعتمد على الجيش الإيطالي عند ممر بْرِنَر لحمايته ضد أي غزو ألماني. وقال جولدمان لموسوليني، إن اليهود الأمريكيين يقترحون احتجاجات عامة علنية ولكنه كان لا يشجع على ذلك في الوقت الحالي. وأجاب موسوليني:

تلك حكمة كبيرة منك. إن أولئك اليهود الأمريكيين وغير اليهود أيضاً على استعداد دائماً لعمل احتجاجات وللصراخ وللخوض في الشئون الأوربية التي لا يفهمونها على الإطلاق.

واستمر جولدمان:

قلت إنه بينما أوافق على أن الوقت ليس هو وقت الاحتجاجات العلنية ضد الحكومة النمساوية، فإننا مع ذلك يجب أن نطالب بتغيير موقفها تجاه اليهود وأننا في ذلك نعتمد بشدة عليه.

واستجاب موسوليني:

سيكون هنا الهر شُوشْنِج(*) في الأسبوع القادم وسيجلس في المقعد الذي تجلس عليه الآن، وسأقول له إنني لا أريد أن أرى أي مشكلة يهودية تنشب في النمسا[11].

كان موسوليني في مرحلة معادية للنازية في أواخر عام ١٩٣٤. وربما كان في إمكان المنظمة أن تعمل كجسر بينه وبين البريطانيين، ولم يعد يتكلم عن تفاهم ألماني يهودي. وقال لجولدمان:

أنتم أقوى بكثير من الهر هتلر. وعندما لا يظل أثر لهتلر سيظل اليهود شعباً عظيماً، أنتم ونحن. . . الأمر الرئيسي هو أنه لا يجب أن يخاف اليهود منه. يجب أن نعيش جميعاً لنرى نهايته. ولكنكم يجب أن تخلقوا الدولة اليهودية. أنا صهيوني، وقد قلت للدكتور وايزمان ذلك، يجب أن يكون لديكم بلد حقيقي وليس ذلك الوطن القومي السخيف الذي يعرضه البريطانيون عليكم. سأساعدكم في خلق دولة يهودية[12].

كان الزعيم الفاشي يخدع الصهيوني على كل الوجوه. فمنذ وقت مبكر في يونيو / حزيران عام ١٩٣٣ كان قد فقد أي أمل في إقناع هتلر بالتفاهم مع اليهود، وقد قال للألمان أنه يجب عليهم أن يستمروا، لأن أي تراجع سيكون خطراً: «ومن المؤكد أنه كانت هناك فجاجة ومبالغة كثيرة في البداية ولكن لا يجب إظهار الضعف بأي حال»[13]. كذلك كان مسئولاً جزئياً عن التمييز في النمسا طالما أنه كان قد قال لرئيس الوزراء بأن يلقي «بدفعة من معاداة السامية» في سياساته كسبيل لإبقاء أتباع الإشتراكيين المسيحيين بعيداً عن النازيين[14]. كذلك فإنه من المؤكد أنه لم يبلغ جولدمان بأنه كان قد بدأ لتوه في دعم المفتي. ولكن جولدمان كان القناع الأمثل في مواجهة مخادع مثل موسوليني. فقد كتب في سيرته الذاتية عام ١٩٦٩ بعد أن نزل عن مقعد رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية الذي ظل فيه ١٢ عاماً، يقول:

إن الشئون الخارجية تنقصها الرشاقة إلى حد كبير في عصر ديمقراطي تعتمد فيه الحكومات على مزاج الشعب. هناك شيء ما من الصواب لا يمكن إنكاره في

* مستشار النمسا حينذاك.

مبدأ الدبلوماسية السرية، حتى ولو كان من الصعب جداً استعمالها هذه الأيام(١٥).

«اليهود يتذكرون بالشكر وفاء الحكومة الفاشية»

مع الحرب الأثيوبية سعى موسوليني لتوثيق روابطه مع المنظمة الصهيونية العالمية. وفي خريف عام ١٩٣٥ كانت عصبة الأمم على وشك فرض عقوبات، وأرسلت وزارة الخارجية الإيطالية بسرعة دانتي لاتس، وهو ممثل الاتحاد الصهيوني الإيطالي في اتفاقاته مع النظام، وأنجلو أورفيتو، وهو شخصية صهيونية بارزة معروفة، لإقناع البرجوازية اليهودية الأوربية بمعارضة أي مقاطعة. كان لديهما حجتان: العقوبات قد تدفع موسوليني نحو هتلر، وبالإضافة إلى ذلك فقط كان يصرح علناً لصالح دولة يهودية فوراً وهو صديق للحركة الصهيونية عملياً. وقابلا وايزمان وقادة اليهود الإنجليز الرسميين ولكن بدون فائدة. كان على القادة اليهود أن يساندوا بريطانيا ولو لمجرد حقيقة أن إيطاليا لم تكن نداً لبريطانيا في الشرق(١٦).

وأرسلت روما يهودياً فاشياً غير صهيوني يعمل صحفياً هو كورادو تِدِيْسْكي إلى فلسطين للاتصال بالجناح اليميني الصهيوني العريض. وفي معرض دفاعه عن القضية نفسها أضاف أن الصهاينة يمكنهم أن يحسنوا موقفهم في مواجهة بريطانيا بأن يتخذوا موقفاً مؤيداً لإيطاليا، لأن لندن عندئذ ستضطر لشراء رضاهم. ولقد وجد تأييداً قليلاً خارج دوائر التصحيحيين. وكتب إتّمار بن ـ آفي، وهو «الطفل الصهيوني» الشهير (أول طفل منذ قرون كانت كلماته الأولى كلها بالعبرية) كتب مقالة تحبّذ الحرب في جريدته اليومية الميالة إلى الإثارة، «دُوار هايوم»، يوم ٢١ فبراير / شباط عام ١٩٣٦(١٧). ولكن تعاون بن آفي الحماسي من وجهة نظر إيطاليا العملية كان لا معنى له. كانت جريدته أداة للتصحيحيين، ثم ابتعد عنهم، وبات حينها بدون أتباع شخصيين. واستمع يمينيون آخرون لنداء تديسكي ولكن الحملة الأثيوبية كانت بوضوح علامة أخرى على النزاع العالمي القادم والذي يبدو مؤكداً أن النظامين الفاشيين سيتحالفان فيه، بحيث لم تكن هناك أي فرصة لوجود يمين غير تصحيحي يؤيد الموقف الإيطالي.

كان هتلر ينظر إلى موسوليني دائماً بمقاييس أكثر واقعية من نظرة أي جناح في الحركة الصهيونية. لقد ظنوا جميعاً أن المسألة النمساوية ستُبقي الديكتاتورين بعيدين عن

بعضهما، ولكن هتلر فهم أن كراهيتهما المشتركة للماركسية ستجمعهما معاً في نهاية الأمر. ولقد أعطت الغزوة الأثيوبية هتلر الفرصة ليظهر أنه يقف إلى جوار زميله المستبد، ولكن الحرب الأهلية الإسبانية هي التي أقنعت موسوليني في النهاية أن عليه أن يتحالف مع هتلر. ولقد كان استيلاء العمال في مدريد وبرشلونه على السلطة في أعقاب الهبّة العسكرية بشيراً بانتصار يساري كبير، إذا لم تقدم معونة خارجية ضخمة لقوات فرانكو. وبدأ موسوليني يقدّر في أنه لا يمكنه تحمّل أن يخسر هتلر الحرب القادمة، ولا أن يكسبها، بدون مساعدته. منذ ذلك الوقت فصاعداً لم يعد ممكناً أن تكون الصهيونية في خدمة الفاشية. فإذا وقفت إيطاليا في صف واحد مع ألمانيا فسيصبح اليهود أعداءً لموسوليني بغض النظر عن أي شيء يقوله أو يفعله بخصوص الدولة اليهودية. وبالرغم من ذلك سعى الصهاينة للحفاظ على علاقات جيدة. وفي مارس / آذار عام ١٩٣٧ ظل مكتب جولدمان في جينيف يختار علناً أن:

> يؤكد أن يهود العالم ككل أو من خلال منظماتهم لم يعارضوا أبداً الحكومة الإيطالية. على العكس، فاليهود يتذكرون بالشكر وفاء الحكومة الفاشستية[١٨].

وجاء جولدمان إلى روما لنقاش أخير مع الكونت تْشيانو، وهو زوج ابنة الدوتشي ووزير الخارجية، يوم ٤ مايو / أيار عام ١٩٣٧. وأكد له تْشيانو أن إيطاليا ليست معادية للسامية ولا معادية للصهيونية، واقترح زيارة أخرى لوايزمان[١٩]. ولكن الكوميديا كانت قد انتهت ولم يهتم وايزمان أبداً بالذهاب ثانية.

«هكذا؟ هل ذلك في صالح اليهود»؟

لم يفهم أي عنصر صهيوني يميني أو يساري الظاهرة الفاشية. فمنذ البداية كانوا لا لا مبالين بنضال الشعب الإيطالي، بمن في ذلك اليهود التقدميون، ضد القمصان السود، ولا المترتبات الكبرى للفاشية على الديمقراطية الأوربية. إن صهاينة إيطاليا لم يقاوموا الفاشية أبداً. وقد انتهى بهم الأمر بمدحها وبالتفاوض الدبلوماسي لصالحها. وأصبحت كتلة التصحيحيين وقليلون آخرون من الجناح اليميني من دعاتها المتحمسين. وكان القادة الصهاينة البرجوازيون المعتدلون ـ وايزمان وسوكولوف وجولدمان ـ غير مهتمين بالفاشية نفسها. وكانفصاليين يهود لم يكونوا يسألون سوى سؤال واحد وهو السؤال الكلاسيكي الساخر المر: «وهكذا، هل ذلك في صالح اليهود»؟ مما ينطوي على أن شيئاً ما يمكن أن

يكون شراً للعالم بشكل عام ولكنه جيد بالنسبة لليهود. كان همهم الوحيد هو أن روما قد تصبح إما صديقتهم أو عدوتهم في عصبة الأمم المتحدة، وكان مسموحاً أن يصبح موسوليني صديقهم وسيدهم. ونظراً لما كان له من أهمية في تصورهم للعالم قبل الانتصار النازي، لذلك لم يفاجئنا استمرارهم في طلب ودّه بشكل أعمى بعد عام ١٩٣٣.

هوامش الفصل الرابع عشر

1. Daniel Carpi, 'Weizmann's Political Activity in Italy from 1923 to 1934', *Zionism* (Tel Aviv, 1975), p. 239.
2. Nahum Goldmann, *Autobiography*, p. 111.
3. Chaim Weizmann, *Trial and Error*, p. 372.
4. Carpi, 'Weizmann's Political Activity in Italy', p. 217.
5. Meir Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 64.
6. Carpi, 'Weizmann's Political Activity in Italy', p. 217.
7. Weizmann, *Trial and Error*, p. 372.
8. Carpi, 'Weizmann's Political Activity in Italy', p. 220.
9. Weizmann, *Trial and Error*, p. 372.
10. Goldmann, *Autobiography*, p. 161.
11. Ibid., p. 159.
12. Ibid., p. 160.
13. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 72.
14. Ibid., p. 67.
15. Goldmann, *Autobiography*, p. 105.
16. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 84; and Michael Ledeen, 'The Evolution of Italian Fascist Anti-Semitism', *Jewish Social Studies* (Winter 1976), p. 13.
17. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, pp. 86–7.
18. Leon Harris, 'Mussolini in Hitler's Footsteps', *Jewish Life* (September 1938), p. 17.
19. Michaelis, *Mussolini and the Jews*, p. 136.

١٥ـ النمسا وأصدقاء الصهيونية الأغيار

دمرت الحرب العالمية الأولى أربع أمبراطوريات وخلقت سلسلة من الدول الجديدة في وسط أوربا. من بين كل هذه الدول كانت أقلها معقولية في قيامها هي النمسا. كان سكانها من الناحية العملية ألماناً كلية. وفي عام ١٩١٩ صوت البرلمان النمساوي بالإجماع باستثناء صوت واحد معترض، على الاتحاد مع ألمانيا. ومع ذلك فقد رفض الحلفاء الموافقة على الإندماج واستمر الائتلاف الذي يسيطر عليه الاشتراكيون الديمقراطيون في الحكم على مضض. وفي صيف عام ١٩٢٩ سيطر الإشتراكيون المسيحيون المعادون للسامية على الحكومة الوطنية بالرغم من أن اليساريين كانوا قادرين على المحافظة على سيطرتهم على إدارة مدينة فيينا.

وتنافست في الجمهورية المبتورة ثلاثة تيارات أيديولوجية من أجل السلطة. كان الحزب الشيوعي من أضعف الأحزاب في أوربا، وكان الاشتراكيون الديمقراطيون يرون أن أعداءهم في اليمين من الاشتراكيين المسيحيين الكاثوليك ـ وهو حزب الفلاحين والطبقة الوسطى الدنيا في المدينة ـ وفي القوميين الألمان المعادين للسامية. وكانت قواعدهم (أي الاشتراكيين الديمقراطيين) من بين المهنيين والعمال ذوي الياقات البيضاء. وبالرغم من أن كلا التجمعين البرجوازيين كان معادياً للديمقراطية فإن قوة الاشتراكيين الضخمة في فيينا واعتماد النمسا مالياً على بريطانيا وفرنسا استبعد أي انقلاب. ولكن كلا من الاشتراكيين الديمقراطيين والاشتراكيين المسيحيين كان حريصاً على المحافظة على ميليشيا حزبية كبيرة.

«هذا الوطني العظيم وزعيم بلاده»

كان الزعيم الأول والكبير للإشتراكيين الديمقراطيين، فيكتور آدلر، يهودياً. كذلك كان منظّرهم الأول أوتو باوَر. وكان اليهود يشكلون تقريباً نصف قيادة الحزب. لذلك كان من المحتم أن تنظر الحركة دائماً إلى التهديدات الموجهة لليهود باعتبارها خطراً مميتاً لها، وتتصرف على هذا الأساس. وكانت صفوف العمال في غاية الولاء لرفاقهم اليهود، ولم يكن لديهم أدنى تردد في المقاومة الفعلية للمعادين للسامية كما سجل هتلر بنفسه في كتاب **كفاحي** وهو يكتب عن تجاربه في عمله الأول في موقع بناء في فيينا ما بعد الحرب:

> هؤلاء الرجال كانوا يرفضون كل شيء: الأمة باعتبارها اختراعاً للطبقات «الرأسمالية» (كم من المرات اضطررت لسماع هذه الكلمة)، والوطن الأم باعتباره أداة للبرجوازية في استغلال الطبقة العاملة، وسلطة القانون كوسيلة لقمع البروليتاريا.. لم يكن هناك شيء على الإطلاق لم يُمرّغ في الوحل.. حاولت أن أبقى صامتاً، ولكن مع طول الوقت.. بدأت اتخذ موقفاً.. وذات يوم استعملوا السلاح الذي يهزم على الفور أي حجة... أرغمني عدد قليل من المتحدثين من الجانب المعارض على أنه إما أن أغادر المبنى فوراً أو أن يُلقَى بي خارجاً من فوق السقالة[1].

ومنذ البداية حارب العمال الاشتراكيون الديمقراطيون النازيين مع ظهور الإشارات الأولى للحزب الجديد في فيينا في عام ١٩٢٣. كانت عصابات من الرعاع تحمل علم الصليب المعقوف قد بدأت تضرب اليهود، وفي إحدى المناسبات قتلت عاملاً. وقد أدى ذلك إلى استنفار الإشتراكيين الديمقراطيين للمعركة بالآلاف. ووصف كاتب من المجلة الأمريكية **مِيْنُورَاه جورنال**، وهي إحدى المجلات اليهودية البارزة في تلك الأيام، وصف النتيجة؛ فقال:

> لا يمكن الآن عقد أي اجتماعات خاصة بمذابح التطهير بدون أن تفشل. إن الرجال العاملين المنظمين، والاشتراكيين الديمقراطيين، والشيوعيين كثيراً ما يجتاحون اجتماعات المعادين للسامية، ليس بسبب صداقتهم لليهود، ولكن لإنهم يعتقدون أن حياة الجمهورية في خطر[2].

واتحدت الأغلبية العظمى من اليهود النمساويين مع الاشتراكيين الديمقراطيين وكان

الصهاينة من «الحزب الوطني اليهودي» هم من بين القلة التي لم تفعل ذلك. ولكن اليهود لم يكونوا يشكلون سوى ٢,٨٪ من مجموع سكان النمسا ولا أكثر من ١٠٪ من الناخبين في فيينا. ولم ينجح الحزب الوطني اليهودي الصغير سوى مرة واحدة في انتخاب مرشح إلى البرلمان النمساوي. ولقد كان هذا المرشح، وهو روبرت ستريكر، هو الذي أدلى بالصوت الوحيد الذي يعارض الوحدة مع ألمانيا في عام ١٩١٩، وهي خطوة ضمنت هزيمته في عام ١٩٢٠. وقد انتخب ثلاثة صهاينة آخرون إلى مجلس المدينة في أوائل العشرينات. وفي عام ١٩٢٠ حصل الصهاينة على ٢١٪ من الأصوات اليهودية في فيينا. وفي عام ١٩٢٣ ازدادت نسبتهم إلى ٢٦٪ ولكن بعد ذلك تدهور التصويت الصهيوني بشدة. وفي عام ١٩٣٠ حصل الصهاينة على ٠,٢٪ فقط من التصويت الكلي[٣]. وبالرغم من أن دور الحزب الوطني اليهودي في الحياة السياسية النمساوية كان غير ذي مغزى إلا أن حياته القصيرة كانت نموذجاً للعزلة ولطبيعة البرجوازية الصغيرة للصهيونية الأوربية. ولم يحدث أبداً أن آمن معظم مؤيدي الحزب الوطني اليهودي بأنهم سيهاجرون إلى فلسطين. كثيرون من يهود فيينا كانوا قد وصلوا لتوهم من جاليشيا. ومثلت صهيونية الحزب الوطني اليهودي آخر مظهر لعقلية الجيتو الخاص بهم، فهي لم تكن احتجاجاً ضد معاداة السامية، فهذه معركة حاربتها في الشوارع الميليشيا الإشتراكية الديمقراطية. ومثّلت الصهيونية النمساوية احتجاج البرجوازية الصغيرة ضد الاشتراكية. وكان الاشتراكيون المسيحيون يسعدهم على الدوام أن يروا الحزب الوطني اليهودي وهو يسحب بعض الأصوات من خصومهم الراديكاليين. والصهيونيون بدورهم لم يكونوا ينظرون إلى الإشتراكيين المسيحيين كأعداء لهم. وكان سوكولوف في مدينة دربان في جنوب أفريقيا عام ١٩٣٤، عندما سمع عن مقتل رئيس وزراء النمسا أثناء محاولة النازيين غير الناجحة في ٢٥ يوليو / تموز، وقد طلب من مستمعيه الحاضرين في النادي اليهودي الوقوف لذكرى:

> هذا الوطني العظيم وزعيم بلاده الذي أعرفه جيداً وقابلته مراراً. . . كان واحداً من أصدقاء قضيتنا. لقد كان واحداً من أولئك الذين أقاموا بمساعدتي تنظيماً لأصدقاء الصهيونية في العاصمة النمساوية[٤].

كان تنظيم «الأصدقاء الأغيار» قد أقيم في عام ١٩٢٧. وفي عام ١٩٢٩ حذر فْرِتْز لُوهْبِر ـ بِيْدا، وهو الرئيس السابق «لنادي حكواه الصهيوني الرياضي»، حذر اليهود

بأنهم سيعاقبون بسبب تأييدهم للإشتراكيين الديمقراطيين عندما ينتهي الرجعيون من الإشتراكيين. واستمر على وعد بأن اليهود سيساعدون الميليشيا الفاشية (هَايْمفير) لو تخلى اليمينيون عن معاداتهم للسامية فحسب. وزعم أن الإشتراكيين باعتبارهم ملحدين ومعادين للقوميين ومعادين للرأسماليين كانوا حقاً أكبر أعداء اليهود[٥].

«نحن ندين نشر قصص الوحشية من النمسا في الخارج»

بينما كان الإشتراكيون المسيحيون يخشون النازيين باعتبارهم تهديداً لسلطتهم هم، فإن نجاح هتلر أقنع دولْفوس(*) بأن الديكتاتورية كانت آتية، على الأقل في وسط أوربا، وأخيراً اتبع نصيحة موسوليني الدائمة واستفز الإشتراكيين الديمقراطيين إلى هبّة في فبراير / شباط عام ١٩٣٤، وهي الهبّة التي سحقها في معركة استمرت ثلاثة أيام. قُتل أكثر من ألف عامل عندما قصفت قوات «الهايمفير» مشروع الإسكان المشهور باسم «كارل ماركس». كان رد فعل الصهاينة على المذبحة واضحاً تماماً. فقد أدان روبرت ستريكر وهو يتحدث عن هذه الأحداث أمام اجتماع حزبي، التقارير التي تروّج في الخارج والمتعلقة بإعدام اليهود، وأصر على أن ذلك كان تزييفاً. وقال إنه خلال تلك الأيام المصيرية أظهرت النمسا مستوى عالياً من الحضارة يندر وجوده في أي مكان آخر[٦]. وفي الحقيقة فإن نظام دولفوس كان قد استمر على سياسة من التمييز الشديد ضد اليهود وبالذات في مجال التوظيف الحكومي. كثيرون من المهنيين فُصلوا. ومع ذلك فإن معارضة الصهاينة ضد اليهود الإشتراكيين التمثّليين جعلت منهم المبررين المحليين والدوليين للاشتراكيين المسيحيين. وفي عام ١٩٣٥ أعلنت الحكومة خططاً لفصل الطلاب اليهود في حالات «الاكتظاظ». وبينما عارض زعماء اليهود التمثّليين طبعاً هذا النظام باعتباره الخطوة الأولى نحو تمييز مدرسي كامل فإن ستريكر رحب بمدارس الجيتو الجديدة[٧]. وفي العام نفسه عندما ندد وزير الخارجيةالنمساوي «بحكايات الوحشية» التي ظهرت في الصحافة العالمية سارعت مجلة الصوت (**دير شْتمه**) وهي مجلة الاتحاد الصهيوني النمساوي لكي توضح أن:

> من المستحيل هذه الأيام أن يُحكَم إغلاق أي بلد وأن تُخفى الحوادث بما في ذلك التحريض ضد اليهود. نحن ندين نشر قصص الوحشية من النمسا في

* إنجلبرت دولفوس (١٨٩٢ ـ ١٩٣٤)، رئيس وزراء النمسا الذي حاول مقاومة ضغط المانيا النازية. قتل في غارة نازية على مقر الحكومة (م).

الخارج. وهذا، على أية حال لم يحدث أبداً من جانب اليهود وإنما حدث من جانب الصحف النمساوية التي تقرأ في الخارج[٨].

كان الإشتراكيون المسيحيون يعرفون أنهم ليسوا أنداداً لهتلر ما لم يكن هناك ضامنون أجانب. وبينما كانوا يتطلعون إلى موسوليني ليحميهم عسكرياً فقد كانوا أيضاً في حاجة إلى قروض من بنوك لندن وباريس، وكان عليهم أن يقنعوا مسانديهم الأجانب المحتملين أنهم ليسوا تقليداً للنازيين. وفي مايو / آيار عام ١٩٣٤ عينّ دولفوس دِيْسِيدَرْ فْريدمان، وهو صهيوني قديم ورئيس منظمة الجالية اليهودية بفيينا، عينه في مجلس الدولة. وكانت هناك إيماءات مشابهة أخرى من جانب النظام تجاه الصهيونية. وسُمح للتصحيحيين باستعمال مزرعة أعطاهم إياها عضو غني كمركز للتدريب. وفيما بعد تذكر كاتب تصحيحي المشهد في تلك الأرض الفسيحة بأنه اتخذ «مظهر المعسكر العسكري المنظّم. وفي سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٥ سمحت الحكومة للتصحيحيين بعقد المؤتمر التأسيسي للمنظمة الصهيونية الجديدة في فيينا[٩].

ولأسباب تتعلق بالسياسة الخارجية أنكر النظام دائماً أنه يمارس التمييز ضد اليهود بينما يخرج بأعذار واهية كالزحام المزعوم لتبرير معاداته للسامية. بل إن اليهود سمح لهم قانونياً بالانضمام إلى «جبهة الوطن الأم» التي حلت عام ١٩٣٤ محل كل الأحزاب السياسية بما في ذلك، نقتياً، الاشتراكيين المسيحيين. ومع ذلك فما أن قرر موسوليني أن يتحالف مع هتلر وأصبح واضحاً أنه لم يعد مستعداً أن يحمي النمسا بعد ذلك، كان على النظام أن يناضل باستماتة من أجل إبعاد الإنقلاب النازي. وفي يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٨ حاول النمساويون أن يثبتوا لهتلر إنه بالرغم من أنهم عازمون على البقاء مستقلين، فإنهم مع ذلك لا يزالون دولة «ألمانية ـ مسيحية»، وأنهم أقاموا قسماً منفصلاً في «جبهة الوطن الأم» للشبيبة اليهودية. وتلاحظ **الموسوعة اليهودية** بإيجاز أن «الصهاينة قبلوا راغبين، ولكن ذلك أغضب الذين يحبذون التمثّل»[١٠]. ومع ذلك فإن النظام الذي كان بهذا يتحول ليصبح أكثر معاداة للسامية وهو يحاول إبعاد النازيين الألمان، لم يتردد في استعمال الصهاينة للحصول على تأييد مالي أجنبي. وأُرسل ديسيدر فريدمان بسرعة إلى الخارج في أوائل عام ١٩٣٨ في الأسابيع الأخيرة قبل الضم[١]. وحاول خليفة دولفوس، كُورتْ فون شُوشْنِجْ، اللعبة الأخيرة بإعلانه يوم ٩ مارس/آذار استفتاء عاماً حول الاستقلال، يوم ١٣ مارس/آذار. وسارعت منظمة الجالية اليهودية التي كان

يسيطر عليها الصهاينة باستخراج قائمة بكل يهودي في فيينا للمساهمة في جمع الأموال لتمويل حملة شوشنج. ولكن هتلر كانت لديه نظرة أكثر واقعية بكثير للهر شوشنج، فأمره بأن يستقيل، وهو ما فعله يوم ١١ مارس/آذار. ودخل الجيش الألماني الى النمسا يوم ١٢ مارس/آذار.

حماقة الاعتماد الصهيوني على الاشتراكيين المسيحيين

هل كان تأييد الصهاينة لليمين النمساوي مبرراً بأي حال؟ قد يزعم أحدهم أن الاشتراكيين المسيحيين كانوا الحاجز الوحيد بين اليهود وبين أي انقلاب نازي، ولكن التحالف معهم كان قد بدأ في العشرينات عندما لم يكن هتلر يشكل بعد تهديداً. إن إقامة تنظيم الأصدقاء الأغيار لا يمكن الدفاع عنه بمقاييس معاداة النازية. وفي الحقيقة فإن اليمين النمساوي، دولفوس وشوشنج، لم يكن أبداً عقبة امام انقلاب ألماني بل كان ضماناً للانتصار النهائي للنازيين. وقد وصف جوزيف بُوتْنجر وكان في الثلاثينات زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين العاملين سراً، وصف هذا الواقع في كتابه « **في غسق الاشتراكية**»، كانت هناك أغلبية معادية للنازية في النمسا ولكن شوشنج «كان غير قادر على استعمال الفرصة السياسية الكامنة في تلك الظروف»، وكان عليه أن يمنع «أي تعبئة جماهيرية ضد الفاشية البنِّية، لأن أي كفاح حقيقي من أجل الحرية كان سيسحقه هو حتماً». هذه التعبئة الجماهيرية كانت هي الأمر المهم كما قال بوتنجر وهو يكتب في ذلك الوقت «بقدر ما للنمسا من أهمية أصلاً، لأنه في التحليل النهائي فإن مصير النمسا ستقرره القوى الدولية». هتلر كان سيهاجم النمسا في اللحظة المواتية، وهي لحظة كان ينتظرها بشغف مع نظام شوشنج «باعتباره ضمانته ضد تنظيم أي دفاع في الوقت الراهن»(١٢).

لم يكن أمام اليهود النمساويين سوى أمل واحد: تحالف حاسم محلياً ودولياً مع الاشتراكيين الديمقراطيين. ولقد ظل الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون، وهم غير الاشتراكيين الألمان الذين فقدوا مصداقيتهم، ظلوا الى حد كبير متماسكين بعد مقاومتهم البطولية في عام ١٩٣٤، وإن تكن ضعيفة التنظيم. وكان نظام دولفوس هو أضعف الدول الفاشية، وحتى بعد مذبحة الاشتراكيين يوم ١٢ فبراير/شباط فإن الحكومة الجديدة استمرت، ليس بقوة شرطتها الخاصة، بقدر ما هو بسبب الوجود المرعب للجيوش الايطالية والمجرية التي كانت ستحارب دفاعاً عن دولفوس، وبسبب الحقيقة المماثلة بأن الجيش الألماني سيتدخل لكي لا يرى الاشتراكيين الديمقراطيين يصلون الى

السلطة. ومن الواضح أنه لا يمكن التقليل من صعوبة الوضع الدولي ولا من قوة النظام النمساوي، ولكن كانت هناك تظاهرات اشتراكية عملاقة بشأن النمسا في أوربا وأمريكا. ومع ذلك وبدلا من التطلع إلى الاشتراكيين في النمسا والخارج من أجل الإنقاذ، فإن الصهاينة المحليين تطلعوا إلى النظام الذي استسلم في النهاية لهتلر دون إطلاق طلقة واحدة. أما ناحوم جولدمان ممثل المنظمةالصهيونية العالمية فإنه عمل بوعي على عدم تشجيع اليهود الأجانب على التظاهر ضد معاداة السامية النمساوية واختار بدلاً من ذلك الاعتماد على همسات من وراء المسرح من جانب بينيتو موسوليني.

هوامش الفصل الخامس عشر:

1. Adolf Hitler, *Mein Kampf*, p. 40.
2. Eugen Hoeflich, 'Morale in Austria', *Menorah Journal* (August 1923), pp. 235-6.
3. Walter Simon, 'The Jewish Vote in Austria', *Leo Baeck Institute Year Book*, vol. XVI (1961), p. 114.
4. 'Sokolow Honours Memory of Dollfuss', *Palestine Post* (13 August 1934), p. 4.
5. Herbert Solow, 'Unrest in Austria', *Menorah Journal* (February 1930), pp. 141-2.
6. 'Austria – the Key to Jewish Politics', *South African Ivri* (March 1934), p. 1.
7. 'Austria', *American Jewish Year Book* (1935-6), p. 189.
8. 'Vienna Papers take Issue on Press Threats', *Jewish Daily Bulletin* (11 January 1935), p. 1.
9. Otto Seidman, 'Saga of Aliyah Beth', *Tagar* (Shanghai, 1 January 1947), p. 7.
10. 'Austria', *Encyclopedia Judaica*, vol. 3, col. 898.
11. 'Desider Friedmann', *Encyclopedia Judaica*, vol. 7, col. 191.
12. Joseph Buttinger, *In the Twilight of Socialism*, p. 427.

١٦ ـ الأحزاب اليهودية في أوربا الشرقية

تشيكوسلوفاكيا ـ ٢,٤٪ من أمبراطورية

مع سقوط الأمبراطوريات الثلاث الكبرى في أوربا الشرقية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهر ترتيب جديد للقوى تحت سيطرة الأمبريالية الفرنسية والبريطانية. كان عزل ألمانيا والاتحاد السوفييتي هما الهدفين الرئيسيين. وأدى تصميم الحلفاء على معاقبة الألمان إلى أن يجعلهم، يشجعون اللتوانيين والبولنديين والتشيك على أن يقتطعوا لأنفسهم قطعاً من مناطق ألمانيا الإثنية. وقد عانت المجر وبلغاريا كحليفتين للألمان، أيضاً، من الخسائر في الأراضي. والنتيجة كانت خلق مجموعة من الدول مصابة بلعنة البواعث القومية الشديدة. وكان من المحتم ظهور معاداة السامية في هذه الدوامة من الحقد الجماعي.

ونجحت الصهيونية في توليد ما يكفي من قوة في الجاليات اليهودية في أوربا الشرقية لكي يرسلوا ممثليهم إلى برلمانات لاتفيا، ولتوانيا، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، ورومانيا والنمسا. وحتى في يوغوسلافيا حيث كان مجموع السكان اليهود أقل من ٧٠ ألف، بذلت الجهود لتحريك شرائح يهودية في انتخابات المجلس البلدي في زغرب. ومع ذلك فإن الصهيونية باعتبارها أيديولوجية انفصالية لأضعف المجموعات الإثنية في المنطقة، لم تكن قادرة أبداً على مواكبة أزمة القومية في شرق أوربا.

كان لتشيكوسلوفاكيا سمعة طيبة في الثلاثينيات كواحة للديمقراطية بين ديكتاتوريات

المنطقة، ولكنها لم تكن أكثر من طبعة تشيكية لأمبراطورية هَبْسبورج. كانت البرجوازية التشيكية تسود السلافيين وقد ضمت بشكل فج قطعاً من أراضي ألمانيا وبولندا والمجر وأوكرانيا في أمبراطوريتهم الصغيرة. وكان القادة التشيك أيضاً معادين للسامية بشكل فريد، وكان يُنظر إلى اليهود باعتبارهم عملاء للحضارة الألمانية والمجرية. وشهدت الأيام الأولى للجمهورية التشيكية أحداث شغب معادية للسامية(1). كان الجيش يسيطر عليه النبلاء التشيك السابقون الذين كانوا قد هجروا أسرة هَبْسبورج وانتقلوا إلى صف الروس خلال الحرب العالمية الأولى، ثم حاربوا إلى جانب الحرس الأبيض وهم ينسحبون من روسيا. وكان الجنرالات معادين للسامية علناً وكانت الشبيبة المتدينة من أوكرانيا، حيث كان اليهود يشكلون ١٥٪ من السكان، على الدوام محط سخرية ضباطهم. وكان اليهودي من سلوفاكيا يُفترض أن يكون مجرياً، والتفكير بأن يهودياً قد يصبح ضابطاً كبيراً غير وارد. ولم يكن هناك لأحد أي حقوق في الجيش التشيكوسلوفاكي سوى التشيك وأولئك السلاف الذين قبلوا سيطرة التشيك(2).

لم تكن البرجوازية التشيكية ترغب في أن يختلط اليهود مع الألمان أو المجريين، ولكن الاشتراكيين الديمقراطيين التشيك هم فقط الذين شجعوا اليهود على دخول المجتمع التشيكي(3). كانت الصيغة البرجوازية هي تشجيع «اليهودية القومية»، وسُمح لليهود بأن يسجلوا أنفسهم كيهود من ناحية الجنسية في التعداد. وكان هناك ٣٥٦٨٢٠ يهودياً في البلاد في عام ١٩٣٠ ـ ٢,٤٪ من مجموع السكان. من هؤلاء سجل ٥٨٪ أنفسهم كيهود، و٢٤,٥٪ كتشيك، و١٢,٨٪ كألمان، و٤,٧٪ كمجريين.

وعمل الصهاينة التشيكوسلوفاكيون في السياسة المحلية من خلال الحزب اليهودي «زيدوفْسْكاسْترانا. ومنذ عام ١٩١٩ كان في إمكانهم إيصال أعضاء إلى المجالس البلدية في براغ ومدن وقرى أخرى. ولكن ثبت دائماً أن من المستحيل انتخاب أي شخص للبرلمان القومي على أساس تصويت يهودي مباشر. وفي انتخابات عام ١٩٢٠ حصلت قائمة للأحزاب اليهودية المتحدة على ٧٩,٧١٤ صوتاً فقط وفي استطلاع عام ١٩٢٥ جمع الحزب اليهودي، وكان وحده، ٩٨,٨٤٥ صوتاً. وبحلول عام ١٩٢٨ أيقن حتى أكثر الانفصاليين اليهود التزاماً بأن عليهم أن يتحالفوا مع بعض غير اليهود إذا ما كانوا يريدون الوصول أبداً إلى البرلمان، وقد وجدوا شركاء مناسبين في «حزب الطبقة الوسطى البولندي» وفي «الإشتراكيين الديمقراطيين البولنديين» في منطقة سيزن. وفي عام ١٩٢٩

كسب جهدهم المشترك ١٠٤،٥٣٩ صوتاً وهو ما يكفي لإرسال صهيونيّين إثنين وبولنديَّين اثنين إلى البرلمان. ولكن التحالف كان من أجل الانتخابات فحسب: وظل الصهاينة موالين للحكومة التشيكية بينما كان توجه البولنديين نحو بولندا. وفي البرلمان دخل الصهاينة في مشكلة أخرى لأن حقوق الكلام خلال النقاش كانت تعطى حسب قوة التصويت. لذلك كانوا مضطرين لإيجاد ملجأ في جناح الاشتراكيين الديمقراطيين التشيك باعتبارهم «ضيوفاً» وكان لدى الاشتراكيين الديموقراطيين بالفعل يهود في حزبهم باعتبارهم تشيكيين طيبين، وقد قبلوا الصهيونيين ببساطة للحصول على مزيد من الأصوات للحكومة التي كانوا يساندونها. ولم تكن اهتمامات الحزب اليهودي الضيِّقة للغاية، وهي معارضة قوانين الإعلاق يوم الأحد، وجهودهم لجعل الحكومة تدعم مدارس اللغة العبرية في أوكرانيا الكرواتية، لم تكن تقلق السيطرة التشيكية على الدولة. وكان الصهاينة يتطلعون دائماً إلى التشيك من أجل تحقيق طموحاتهم، ولم ينظروا لأنفسهم أبداً باعتبارهم حلفاء للمجموعات الإثنية الخاضعة ولا حتى للبولنديين الذين كانت لهم معهم اتفاقية انتخابية. ومع كل قوميتهم اليهودية فإنهم لم يكونوا سوى ملحقين بالتفوق التشيكي. ووصل بهم الأمر في حربهم الخاصة ضد التمثّل اللغوي الى اعتبار النضال من أجل حقوق القوميات الأخرى شكلاً من أشكال التمثّل الراديكالي. كان هدفهم الأول هت الحصول على دعم الحكومة المركزية لنظام مدارسهم الناشيء، ولكي يحصلوا على ذلك ظلوا موالين للدولة التشيكوسلوفاكية ولتوماس مازاريك وادوارد بِنِش.

وبعد الاستسلام في إقليم سوديتين في عام ١٩٣٨ وما صاحبه من سقوط حكومة بنش، تبخرت رعاية الدولة التشيكية «للقومية» اليهودية. وكان القادة التشيكيون الجدد ـ وهم عملياً الجناح اليميني من الحكومة السابقة ـ عازمين على التكيّف مع الواقع الجديد لسيطرة النازيين على أوربا الوسطى، وكانوا يعرفون أن هتلر لن يفكر أبداً في الإتفاق معهم إذا ما كان اليهود أحراراً في «تشيكوسلوفاكيا» الجديدة الخاصة بهم» وأبلغ رئيس الوزراء الجديد رودولف بيرانْ، زعيم الحزب الزراعي الذي كان المسيطر في الوزارة في ظل جمهورية بنش، أبلغ البرلمان بعد مؤتمر ميونيخ أن معاداة السامية ستكون الآن هي السياسة الرسمية لحكومته. وكان من الضروري «الحد من مهام اليهود في حياة الأمم التي تمثل فكرة الدولة»، وتمت الموافقة على إعلانه بمعارضة صوت واحد. ووقف يميني تشيكي دفاعاً عن اليهود، ولكن مندوب الحزب اليهودي الذي لم يتكلم أبداً دفاعاً عن المقهورين في ظل بِنِش لم يرفع صوته الآن دفاعاً عن شعبه(٤).

رومانيا ـ «ليذهب البيديش(*) إلى فلسطين»!

كانت رومانيا قبل عام ١٩١٤ معادية للسامية بحزم. وكان معظم اليهود فيها، قد جاءوا كلاجئين من روسيا وأنكرت عليهم الحكومة الرومانية ببساطة حقوقهم وحقوق أبنائهم في أن يصبحوا مواطنين. وقد أدت حقيقة أن رومانيا وقفت إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى إلى توفير أراضٍ جديدة في مؤتمر فرساي أحضرت معها عدة آلاف من اليهود الإضافيين إلى الدولة التي توسعت. عندئذ حصل اليهود على حقوق المواطنة إذ أصرت القوى في فرساي على أن تضمن بوخارست الحد الأدنى من الحقوق لملايينها من الرعايا الجدد غير الرومانيين. ولقد استمر التمييز ضد اليهود بالطبع وبدأ بالنسبة لغير الرومانيين الآخرين. ولكن العداوات العرقية كانت مجرد واحدة من مشاكل البلد. فإلى جانب المشاكل الاقتصادية الأساسية كانت الحكومة فاسدة بشكل ملحوظ: «إن رومانيا ليست بلداً، إنها مهنة»، تلك عبارة أصبحت من عبارات البيدش المشهورة في تلك الأيام.

وخلال العشرينات وفي أوائل الثلاثينات كان هناك بعض التحسن في وضعية اليهود. كانوا يشكلون ٤٦,٥٪ من السكان، وبدأ السياسيون يسعون لأصواتهم، بل إن الملك كارول الثاني اتخذ له عشيقة يهودية وهي ماجدا لوبسكو المشهورة. وكانت كل العناصر التقدمية ترى أن معاداة السامية هي جزء لا يتجزأ من التخلف العام الذي يتوجب على البلاد التغلب عليه. وبالرغم من أن «الإشتراكيين الديمقراطيين» كانوا جبناء للغاية فإن «حزب الفلاحين الوطني» و«حزب الفلاحين الراديكالي» كانا أكثر قوة في معارضة معاداة السامية. كانا يطالبان بالإصلاح الزراعي وبمزيد من الديمقراطية وأيقنا أن أولئك الذين يُنكرون على اليهود حقوقهم هم أيضاً معارضون للديمقراطية بشكل عام.

ساندَ اليهود جميع الأحزاب باستثناء المعادين للسامية بتطرف. وكثيرون من المتحدثين بالرومانية ذوي الأوضاع الاجتماعية الحسنة كانوا يصوتون حتى للأحزاب المعادية للسامية الأكثر اعتدالاً طالما أنها تستعمل الشرطة ضد الرعاع. وكان اليهود الآخرون في ترانسلفانيا وطنيين مجريين متحمسين. وصوتت أقلية للإشتراكيين الديمقراطيين أو ساندت الشيوعيين المحظورين قانوناً. ولقد شكل الصهاينة، الذين كانوا

---

* البيدش Yids، أي اليهود.

من بين الناطقين بغير الرومانية أساساً، فيما بينهم وببطء، حزباً يهودياً تقدم بعد بعض التجارب في الانتخابات المحلية إلى البرلمان الوطني في عام ١٩٣١، وحققوا نجاحاً طيباً بمقاييسهم هم وحصلوا على ٦٤١٧٥ صوتاً - أي أكثر من ٥٠٪ من الأصوات اليهودية، وأربعة مقاعد في البرلمان، بالرغم من أن ذلك لم يبلغ سوى ٢,١٩٪ من مجموع التصويت. وفي انتخابات يوليو/تموز ١٩٣٢ حققوا تحسناً طفيفاً وحصلوا على ٦٧٥٨٢ صوتاً أو ٢,٤٨٪ من مجموع الأصوات وحافظوا على مقاعدهم الأربعة.

كان قادة الحزب اليهودي من أبناء الطبقة الوسطى في المدن الصغيرة وكانوا يقدّرون معارضة الحزب الفلاحي الوطني لمعاداة السامية، فوقفوا كحلفاء مع الفلاحين في البرلمان ولكنهم كانوا في أفضل الأحوال مؤيدين يعوزهم الحماس بالنسبة لقضية الفلاح، كانت قاعدتهم من الطبقة الوسطى ترى أنها مهددة إقتصادياً بالحركة التعاونية التي كانت على الدوام تتبع خطوات اليقظة الفلاحية. وبدلاً من أن يواجه قادة الصهاينة التحدي السياسي الحقيقي الذي يواجه رومانيا خلال فترة ما بين الحربين، فانهم شغلوا أنفسهم في نشاطات الجالية اليهودية غير مدركين أنهم كانوا يضعفون الموقف اليهودي بالبقاء معزولين عن النضال من أجل التغيرات الإجتماعية.

كان المعادون للسامية المتطرفون يستعملون العنف بالفعل في العشرينات، وكان كُورْنلْيو كودريانو، وهو مؤسس «رابطة الملاك ميخائيل»، وجناحها الإرهابي «الحرس الحديدي»، قد بُرىء من جريمة قتل رئيس البوليس في جاسيٍّ في عام ١٩٢٤. وقد قُتل طالب يهودي في عام ١٩٢٦ وبُرىء القاتل. ووقعت هناك أحداث شغب في أعوام ١٩٢٩، ١٩٣٢ ولكن لم تكن هناك فرصة لليمين المتطرف للوصول إلى السلطة حتى ما بعد تأثير إنتصار هتلر في عام ١٩٣٣. ومع انتصار النازيين انقلب بحدة التيار البطيء المبتعد عن معاداة السامية. وأصبح للقوات الفاشية الآن عدد من المزايا السيكولوجية. فإذا كانت ألمانيا، وهي دولة عالية التمدن يمكن أن تتحول إلى معاداة السامية فإن المتطرفين المحليين لم يعد من الممكن وصفهم بالمتعصبين المتخلفين، ولا اعتبار «الحرس الحديدي» جزءاً من الفساد العالمي.

وبالرغم من أن تآكل الديمقراطية البرلمانية كان سريعاً إلى حد ما، فقد كان هناك مقاومة كبيرة. ولقد رفع الحزب الفلاحي الوطني صوته ضد معاداة السامية حتى انتخابات ١٩٣٧ عندما غير اتجاهه فجأة وشكل تحالفاً مع المعادين للسامية. واستمر

الفلاحون الراديكاليون في الإعلان عن دفاعهم عن اليهود، بل إنهم في بعض الحالات دافعوا عنهم فعلياً ولكنهم لم يكونوا أنداداً لأقصى اليمين.

«أن يحددوا قوائم مرشحيهم الخاصة ويصوّتوا فيما بينهم»

كانت الكارثة قد خربت بالفعل «الحزب اليهودي» في انتخابات ديسمبر/كانون أول عام ١٩٣٣. وأدى انتصار هتلر في برلين إلى جعل انتخاب كودريانو في بوخارست احتمالاً كبيراً جداً، وأدرك كثيرون من مؤيدي الحزب انهم إذا كانوا سيستمرون في العيش بأمان في رومانيا فإن عليهم أن يجدوا حماية حلفاء رومانيين. وسقط التصويت للحزب اليهودي إلى ٣٨,٥٦٥ (١,٣٪) وفقد كل المقاعد الأربعة. وفي عام ١٩٣٥ رفع الإشتراكيون الديمقراطيون النداء من أجل جبهة شعبية من كل القوى الليبرالية ولكنهم استبعدوا الشيوعيين، وهؤلاء بدورهم أيدوا تحالفاً مع الإشتراكيين ومع الحزب الفلاحي الوطني. وكان كلا الحزبين يريد العمل مع الحزب الفلاحي الوطني لا مع الحزب الآخر، ولكن الحزب الفلاحي الوطني رفض أن يتحد مع أيهما، ووقع «إتفاق عدم اعتداء» مع الفاشيين من أجل انتخابات ديسمبر/كانون أول ١٩٣٧. ووقف الاشتراكيون والفلاحون الراديكاليون والحزب اليهودي، كلٌّ بمفرده، وقال الشيوعيون لمؤيديهم أن يصوتوا للحزب الفلاحي الوطني تماشياً مع رأيهم بأن الحزب الفلاحي الوطني ضروري بشكل مطلق لأي حكومة معادية للفاشية[٥]. وكانت الانتخابات هزيمة منكرة للمعادين للفاشية المنكسرين. هبطت أصوات الاشتراكيين الديمقراطيين مما كانت عليه بالفعل ـ وهي أصلاً قليلة ـ من ٣,٢٥٪ إلى ١,٣٪ وأزيحوا تماماً كمجموعة برلمانية. وكان الحزب اليهودي يأمل أن يعود إلى البرلمان بأصوات اليهود الذين لم يعد يمكنهم الآن التصويت للحزب الفلاحي الوطني. ولكن ما كسبوه كان ضئيلاً جداً ولم يحققوا سوى ١,٤٪ من مجموع الأصوات.

ولو أن الحزب اليهودي والاشتراكيين الديمقراطيين قد وحّدوا قواهم لَكسبوا على الأقل نسبة الـ ٢٪ القانونية المطلوبة للحصول على مقعد واحد. ولكن أي جهد لجبهة متحدة كان سيجذب اليهم بالطبع قوىً أخرى كذلك. أما أن يقف حزب يهودي منفرد في الانتخابات وحده فذلك كان انتحاراً سياسياً. وذلك بالدقة هو ما أراده المعادون للسامية. وقد قال أوكْتافيان كُوجَا، وهو الذي أصبح رئيس وزراء بعد الإنتخابات، قال

لليهود خلال الحملة أن «يبقوا في بيوتهم أو يحددوا قوائم مرشحيهم الخاصة ويصوتوا فيما بينهم»(٦).

«صفقات الهجرة تحت الطلب»

لم يُظهر أي جناح من الحركة الصهيونية أي اهتمام بالنضال ضد موجة معاداة السامية في رومانيا. وفي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٦ كتبت المجلة الأمريكية «لِيْبَر زَايُونِسْت نْيُوزْلِتَر والتي كانت تعبر عن التوجه الإيديولوجي لإنزو سيريني وجولدا مايرسون (مائير) اللذين كانا عندئذ مبعوثي الصهيونيين العماليين في الولايات المتحدة، كتبت تبين الموقف الاستراتيجي للاتجاه الغالب في المنظمة الصهيونية العالمية: «ما لم يستولي الحزب الفلاحي على السلطة فوراً فإن البلاد سيستولي عليها النازيون وتصبح تابعاً في فلك ألمانيا. وصفقات الهجرة هي رهن الطلب»(٧). وكان من المتصوَّر عقد اتفاق مع النظام المنهار أو مع من يخلفه ـ سواءكان الحزب الفلاحي الوطني أو الفاشيين ـ لتشجيع بعض اليهود على الهجرة إلى فلسطين كطريقة لتخفيف بعض الضغط الناشيء عن وجود «يهود كثيرين جداً». ولكن مثل هذه «الصفقة» كان من الممكن أن يفسرها المعادون للسامية على أنها تعني أنهم إذا حاولوا بشكل أشد فسيكونون قادرين على التخلص من مزيد من اليهود، ويمكن أن تكون الصفقة قد أطلقت عقال مزيد من المطالب من جانب المعادين للسامية في بلدان أخرى بان يبدأ اليهود في مغادرة أوربا «طواعية». وبدلاً من المساعدة على تنظيم النضال ضد الفاشيين القادمين كانت المنظمة الصهيونية العالمية تخطط لمدٍ مدمرٍ لاستراتيجيتها الخاصة «بالهاآفارا»، إلى أوربا الشرقية.

«**البيدش إلى فلسطين!**» تلك كانت صيحة الحرب منذ زمن طويل لدى الحرس الحديدي والآخرين المعادين للسامية. وكانت الطريقة الوحيدة أمام اليهود للرد على هذه المحنة هي العمل من أجل الوحدة مع كل الآخرين المستعدين لإتخاذ موقف مشترك من أجل الحرية. ولكن الصهاينة الذين حصلوا على الدم الإنتخابي من جانب أغلبية اليهود في بداية نهوض الجناح اليميني لم يتخذوا أبداً أي خطوة في هذا الإتجاه. ووصلت الفاشية بالفعل إلى السلطة وكان على البلاد أن تشهد أهوال المحرقة.

في يناير/كانون الثاني عام ١٩٤١ اختلف الحرس الحديدي مع حلفائه في الحكومة واندلعت في العاصمة حربٌ أهلية قصيرة ولكنها كانت عنيفة. واستغل الحرس هذه المناسبة لذبح ما لا يقل عن ألفي يهودي بأكثر الطرق بربرية. ولقد اقتيد حوالي ٢٠٠

يهودي إلى المذبح وقطعت حلوقهم بنفس الطريقة التي يتم بها ذبح الحيوانات في الطقوس اليهودية. ومع ذلك فإن للقصة جانباً آخر. لقد أرسل الفلاحون العاملون في صناعة الألبان في قرية صغيرة بالقرب من بوخارست يقال لها دُودِسْتي سِيوبلي، أرسلوا رُسلاً إلى الحي اليهودي: إن أي يهودٍ يمكنهم الهرب إلى مدينتهم ستتم حمايتهم». وهرب أكثر من ألف يهودي إلى هناك وتمت حمايتهم من جانب الفلاحين الذين استعملوا بنادق الصيد الخاصة بهم. وحاول الحرس الحديدي أن يقتحم المكان ولكنه رُدّ على أعقابه بحسم(٨). إن عدم وجود المزيد من أمثال دودستي سيوبلي يرجع إلى فشل القوى المعادية للفاشية، بما في ذلك الحزب اليهودي، في أن يتحدوا ضد القتلة التابعين لكودرينو في الثلاثينيات.

هوامش الفصل السادس عشر

1. Aharon Rabinowicz, 'The Jewish Minority' in *The Jews of Czechoslovakia*, vol. I, p. 247; and Gustav Fleischmann, 'The Religious Congregation, 1918–1938' in *The Jews of Czechoslovakia*, p. 273.
2. Yeshayahu Jelinek, 'The Swoboda Army Legend: Concealed Realities', *Soviet Jewish Affairs* (May 1980), pp. 76–7.
3. J.W. Brugel, 'Jews in Political Life', *The Jews in Czechoslavakia*, vol. II, p. 244.
4. Solomon Goldelman, 'The Jews in the new Czecho-Slovakia', *Contemporary Jewish Record* (January 1939), p. 13.
5. Bela Vago, 'Popular Front in the Balkans: Failure in Hungary and Rumania', *Journal of Contemporary History*, vol. V, no. 3 (1970), p. 115.
6. Bela Vago, 'The Jewish Vote in Rumania between the two World Wars', *Jewish Journal of Sociology* (December 1972), p. 241.
7. 'Diaspora', *Labor Zionist Newsletter* (15 November 1935), p. 12.
8. William Perl, *The Four Front War*, p. 349.

١٧ ـ أسبانيا ـ النازيون يحاربون، والصهاينة لا يحاربون

عرف هتلر وموسوليني المترتبات الكاملة للحرب الأهلية الأسبانية. إن انتصاراً لليسار هناك كان سيقوّي أعداءهم، وخصوصاً عمال ألمانيا وإيطاليا. تحركا بخفة ورشاقة، ووقف هتلر فيما بعد يفاخر بأن التدخل الذي قام به «فيلق النسر» التابع له والذي يضم ١٤,٠٠٠ رجل كان حاسماً في الصراع. وقد عمل ٢٥,٠٠٠ ألماني آخر مع قوات فرانكو للمدرعات والمدفعية، كما أرسل الايطاليون مائة ألف «متطوع» آخرين. كذلك تلقى اليسار الموالي دعماً أجنبياً كبيراً، وعبر الراديكاليون كأفراد سلسلة جبال البرانس معتمدين على أنفسهم لكي يلتحقوا بميليشيا العمال. ونظمت الأممية الشيوعية ٤٠,٠٠٠ متطوع في الكتائب الأممية (بالرغم من أنهم لم يكونو شيوعيين). وفي النهاية أرسل السوفييت رجالاً وعتاداً بالرغم من أن ذلك لم يكن أبداً بالكميات التي قدمتها الدول الفاشية.

لا يوجد شيء مؤكد حول عدد اليهود الذين حاربوا في اسبانيا. كانوا يقدمون أنفسهم باعتبارهم راديكاليين لا باعتبارهم يهوداً، وقليلون فكروا عندئذ في عددهم كيهود. ويفيد التقدير الذي قدمه البروفسور ألبرت بْراجو، وهو من قدامى المحاربين في ذلك الصراع، أنهم قدموا ١٦٪ من الكتائب الأممية، وهم بهذه النسبة شكلوا أعلى رقم بالنسبة لأي مجموعة إثنية[1]. ويُعتقد أنه من بين الألفي بريطاني كان ٢١٤، أو ١٠,٧٪، يهوداً كما أن الأرقام التي أُعطيت عن اليهود الأمريكيين هي بين ٩٠٠ و١٢٥٠، أي حوالى ٣٠٪ الذين كانوا يعيشون في المنفى بسبب النظام المعادي للشيوعية بشراسة في

وارسو. فمن بين ما يقرب من خمسة آلاف بولندي كان ٢٢٥٠، أو ٤٥٪، يهوداً. وفي عام ١٩٣٧ شكلت الكتاب مجموعة «نَفْتَالي بُوتْوين» لأسباب دعاوية، وكانت تتألف كلها تقريباً من ٢٠٠ من المتحدثين باليديشية في «كتيبة دومْبروفْسكي البولندية». ومن الغريب أن أحداً لم يقدر أبداً رقم اليهود في كتيبة إرِنسْت تِلِمَانْ الألمانية، وهي ثاني أكبر كتيبة قومية، ولكنهم كانوا ممثَّلين فيها بشكل جيد.

قليل من الإيطاليين كانوا أيضاً يهوداً، وأبرز هؤلاء كان كارْلو روزيللي، الذي كان موسوليني يعتبره أخطر معارضيه في جالية المنفيين. كان ليبرالياً مستقلاً ذهب إلى أسبانيا قبل الشيوعيين ببعض الوقت ونظم الطابور الإيطالي الأول من ١٣٠ رجلاً ـ معظمهم من الفوضويين مع مجموعات قليلة من الليبراليين والتروتسكيين ـ لكي يحارب في صفوف ميليشيا كتالونيا الفوضوية ـ النقابية. وقد أمكن لموسوليني أخيراً أن يقتل كارلو وأخاه نِلّلوبيد سفاحين من جماعة **الكاجولار**، وهي مجموعة فاشية فرنسية، يوم ٩ يوليو/تموز ١٩٣٧[٢].

«إن السؤال ليس هو لماذا ذهبوا، بل لماذا لم نذهب نحن»؟

كان هناك اثنان وعشرون صهيونياً من فلسطين في أسبانيا عندما اندلعت الحرب الأهلية. كان هؤلاء الأعضاء في جمعية «هابوعيل» ـ وهي جمعية رياضية للصهيونيين العماليين ـ وقد جاءوا للاشتراك في أوليمبياد عمالي نظم ليقام في برشلونه يوم ١٩ يوليو/تموز عام ١٩٣٦ كإحتجاج على الألعاب الأولمبية المقبلة في برلين[٣]. ولقد شارك معظمهم تقريباً في المعارك في برشلونة عندما سحق العمال هبَّة الحامية المحلية[٤]. ويذكر ألبرت بْراجو صهيونيَّين آخرين بالاسم باعتبارهما جاءا لكي يحاربا، ولا شك أنه كان هناك آخرين ولكنهم جاءوا كأفراد قطعاً. فالحركة الصهيونية لم تعترض فحسب على ذهاب أعضائها في فلسطين إلى أسبانيا، بل إن جريدة «هاآرتس»، وهي الجريدة اليومية الصهيونية في فلسطين، أدانت يوم ٢٤ ديسمبر/كانون أول عام ١٩٣٧ اليهودَ الأمريكيين في كتائب لنكولن لأنهم يحاربون في أسبانيا بدلاً من المجيء إلى فلسطين للعمل[٥]. ومع ذلك فقد كان هناك يهود في فلسطين تجاهلوا تضييقات الحركة الصهيونية وذهبوا إلى أسبانيا، ولكن لا يوجد أحد على يقين من عددهم، والتقديرات تجري ما بين ٢٦٧ و٥٠٠، وهو الرقم الأعلى نسبياً بالنسبة لأي بلد[٦]. وتصف «**موسوعة الصهيونية واسرائيل**» هؤلاء باعتبارهم «حوالى ٤٠٠ شيوعي»[٧]. ومن المعروف، أن بعض

الصهاينة، الذين تصرفوا كأفراد، كانوا بين هذا العدد. ولكن كل الباقين تقريباً كانـوا أعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي عام ١٩٧٣ عقد المحاربون الاسـرائيليون القدماء في ذلك النزاع اجتماعاً ودعوا قدماء المحاربين من البلدان الأخرى لحضوره. من بين هؤلاء كان سُولْ وِلْمان، وهو يهودي أمـريكي، وقد وَصَفَ فيـما بعد الحـدث الأكثر دراميةً في ذلك اللقاء عندما طافوا بالقدس وقابلوا تِـدي كوليـك رئيس مجلس بلديتها. كانوا يتناقشون عما إذا كان ذهابهم إلى أسبانيا في أوج الانتفاضة العربية صواباً، وكان لكوليك إجابته الخاصة عن نقاشهم: «السؤال ليس هو لماذا ذهبوا ولكن لـماذا لم نذهب نحن كذلك»[٨]؟

كانت هناك أسباب عدة وكلها عميقة الجذور في الصهيونية ـ وبالذات في الصهيونية العمالية ـ التي تفسر لماذا لم يذهبوا عندما كان واضحاً أن النازيين كانوا مشتركين بشكل أساسي إلى جانب فرانكو. كان كل الصهاينة يرون أن حل المسألة اليهودية هو واجبهم الأهم، وقد وضعوا القومية اليهودية بشكل جادٍ في مواجهة أي مفهوم للتضامن الأعمى، ولا يوجد من حقَّر «التمثُّل الأحمر» أكثر من الصهاينة العماليين. وخلال الحرب الأهلية الاسبـانية وفي عـام ١٩٣٧ وضـع طبيْـرل كاتزنلسن، وهـو محـرر الجـريـدة اليـوميـة للهستدروت، **دافار**، وشخصية كبيرة في الحركة، وضع كتّيباً بعنوان **البنائيّة الثوريـة**، وكان في الأساس هجوماً على شبيبتهم هم لتزايـد انتقادهم لخط الحـزب المستسلم أمام الفاشية التصحيحية، وعنصريتهم المتزايدة تجاه العرب. كما كان رد كاتزنلسن هجوماً على جوهر الماركسية ألا وهو أمميتها. ولقد أدان الشبيبة في عبارات لا تقبل الغموض:

> ليس لديهم المقدرة على ان يعيشوا حياتهم. انهم لا يستطيعون إلا أن يعيشوا حياة شخص آخر وأن يفكروا تفكير شخص آخر. أي إنكار مريب للذات! إن منظِّري الصهاينة أدانوا دائماً هذا النـوع من اليهودي. هـذا الثوري الـوسيط الذي يدّعي أنه أممي ومتمرد ومحارب وبطل، وهو عملياً غاية في الخسة، وغاية في الجبن، ولا عزم له عنـدما يتعلق الأمـر بوجـود أمته هـو في الميزان... إن المضارِب الثوري يتسول باستمرار «انظروا إلى تـواضعي انظروا إلى تقـواي، انظروا كيف أرعى كل المفاهيم الثورية الكبيرة والصغيرة». لكم هو منتشر هذا الموقف بيننا، وكم هو خطر في هذه الساعة عندما يكون من المحتم أن نكـون أمناء مع أنفسنا ومستقيمين مع جيراننا[٩].

إسمياً، كان الصهاينة العماليون جزءاً من الأممية الاشتراكية، ولكن بالنسبة لهم فإن تضامن العمال الأمميين يعني فقط تأييد العمال لهم في فلسطين. لقد جمعوا مبالغ صغيرة من المال لأسبانيا ولكن لم يذهب أي منهم رسمياً ليحارب «معارك شخص آخر». وفي مؤتمر المحاربين القدماء في عام ١٩٧٣، أثاروا السؤال عما إذا كان مبرراً ذهابهم إلى أسبانيا في وجه «بعض النقد من جانب قادة الصهاينة والهستدروت في عام ١٩٣٦ . . أيام أحداث الشعب المعادية لليهود»(١٠). ولكن على ضوء البيانات الصادرة عن إنزو سيريني وموشى بيْلنْسون في كتاب «اليهود والعرب في فلسطين» والذي نشر في يونيو/تموز ١٩٣٦، وهو في نفس الشهر الذي انتفض فيه الفاشيون في أسبانيا، يتضح أن تفكير الصهاينة العماليين في ذلك الوقت لم يكن دفاعياً وكان طموحهم هو فتح فلسطين والسيطرة إقتصادياً على الشرق الأوسط. وكانت «أحداث الشغب» هي الرد الدفاعي الطبيعي على طموحاتهم وليس العكس. وبالرغم من أن قواعدالهستدروت كانت تتعاطف مع اليسار في أسبانيا فإن طموحات القادة الصهاينة أبعدتهم إلى أبعد ما يكون عن الحرب ضد الفاشية الدولية. ولقد بلغت محاولات تقربهم للنازيين أعلى درجاتها في أثناء الصراع الاسباني مع طلبهم في ديسمبر/كانون أول عام ١٩٣٦ بأن يشهد النازيون لصالحهم أمام لجنة بيل، ثم العروض التالية من جانب الهاجاناه التي يسيطر عليها العماليون للتجسس لحساب قوات العاصفة «إس إس» في عام ١٩٣٧.

لم يكن هناك سوى اتجاه صهيوني واحد ـ هو اتجاه «الهاشومير هاتسائير»، الحارس الفتى ـ حاول أن يبرز المترتبات الأعمق للثورة الاسبانية. ولقد خصص أعضاؤه جهوداً كبيرة في محاولة كسب «حزب العمال البريطاني المستقل» الى موقف مؤيد للصهيونية وتتبعوا بدقة مصير الحزب الشقيق «لحزب العمال البريطاني المستقل» في أسبانيا وهو «حزب العمال الماركسي الموحد». كان فشل ستراتيجية الجبهة الشعبية في أسبانيا قد أثار انتقاداً واسعاً للستالينيين والاشتراكيين الديمقراطيين. ومع ذلك لا يوجد ما يدل على أن أياً من أعضائهم (الهاشومير) قد ذهب إلى أسبانيا ـ وإن حدث فإنما حدث بشكل غير رسمي قطعاً ـ ولا أنهم فعلوا أي شيء للنضال هناك غير جمع تبرع ليس بذي أهمية في فلسطين لحزب العمال الماركسي الموحد. وخلال الثلاثينيات لم يشارك أعضاء الهاشومير في الحياة السياسية ولا حتى في الشئون اليهودية المعيشية خارج فلسطين. وكانوا في هذا المجال أكثر التجمعات الصهيونية ضيقاً في توجهها. ولما كانوا بدون أي قيادة نظرية سواء بالنسبة للمسألة الاسبانية أو بالنسبة للمشاكل الأكبر الخاصة بالفاشية والنازية فقد فقدوا

أتباعاً انضموا للستالينيين والتروتسكيين، إذ إنهم لم يقدموا شيئاً سوى الإنعزالية ولغو الأحلام في خضم كارثة عالمية[١].

وفي السنوات التي تلت استُعملت شجاعة اليساريين اليهود الذين حاربوا وماتوا في اسبانيا لإثبات أن «اليهود» لم يذهبوا إلى الذبح كالخراف خلال المحرقة. وكان الأكثر حماساً في اتِّباع هذا الخط هم الستالينيون السابقون من اليهود الذين يحاولون منذ ذلك الوقت التصالح مع الصهيونية. لم يكن في إمكانهم أن يجعلوا أنفسهم يدينون مغامرتهم أو الزعم بأن الصهاينة كانوا على صواب في إدانتهم القتال في أسبانيا، ولكنهم في عملية إعادة النظر سعوا للتأكيد على الجانب اليهودي «القومي» لإشتراكهم، وعدُّوا بعناية كل يهودي في تلك القوائم الطويلة من أولئك الذين حاربوا. إن أغلبية الذين ذهبوا إلى أسبانيا فعلوا ذلك لأنهم كانوا شيوعيين ملتزمين ولأنهم أصبحوا راديكاليين بسبب عدة قضايا، كانت النازية مجرد واحدة منها. ولا تثبت شجاعتهم شيئاً بشأن كيفية رد فعل «اليهود» على المحرقة بقدر ما أن إشتراكهم مع الحركة الشيوعية لا يعني أن اليهود مشتركون في عملية القتل المنظمة لقيادات حزب العمال الماركسي الموحد على أيدي الشرطة السرية السوفياتية.

إن جرائم ستالين في اسبانيا هي جزء من الحرب الأهلية ولا يمكن التقليل منها. ومع ذلك فإن أولئك اليساريين كانوا يحاربون ويموتون في الخطوط الأمامية لنضال العالم ضد الفاشية الدولية، بينما كان الصهاينة العماليون يستقبلون أدولف أيخمان ضيفاً عليهم في فلسطين ويعرضون التجسس لصالح قوات العاصفة إس إس.

هوامش الفصل السابع عشر

1. Albert Prago, *Jews in the International Brigades in Spain*, p. 6.
2. Charles Delzell, *Mussolini's Enemies*, pp. 147-61.
3. 'Anti-Nazi World Olympic Games in Spain on July 19', *Palestine Post* (13 July 1936), p. 1.
4. Prago, *Jews in the International Brigades in Spain*, pp. 6-7.
5. Morris Schappes, 'An Appeal to Zionists: Keep War Out of Palestine', *Jewish Life* (April 1938), p. 11.
6. Prago, *Jews in the International Brigades in Spain*, p. 5.
7. 'Communists is Israel', *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. 2, p. 204
8. Saul Wellman, 'Jewish Vets of the Spanish Civil War', *Jewish Currents* (June 1973), p. 10.
9. Berl Katznelson, *Revolutionary Constructivism* (1937), p. 22.
10. Wellman, 'Jewish Vets of the Spanish Civil War'.
11. Zvi Loker, 'Balkan Jewish Volunteers in the Spanish Civil War', *Soviet Jewish Affairs*, vol. VI, no. 2 (1976), p. 75.

١٨ ـ فشل الصهيونية في محاربة النازية في الديمقراطيات الليبرالية

الصهيونية وإتحاد الفاشيين البريطاني

لم تكن هناك دولة غربية لم تشهد ظهور حركات موالية للنازية بعد عام ١٩٣٣، ولكن درجة نفوذها تنوعت من بلد إلى آخر. وبالرغم من أن رأس المال الغربي فضّل ألمانيا النازية على أي استيلاء شيوعي على السلطة، إلا أنه لم يكن هناك تأييد كثير في دوائر الأعمال لهتلر مثلما كان لموسوليني. كان هتلر إنتقامياً إلى درجة كبيرة في موقفه تجاه إتفاقية فرساي، وكانت ألمانيا ذات قوة كامنة كبيرة جداً بحيث لم يكن هناك اختلاف كبير تجاه هذا المخلِّص الأخير المعادي للشيوعية. وبالإضافة إلى ذلك فإن معاداة السامية عند هتلر لم تكن تحظى بشعبية أبداً بين الرأسماليين. وطالما أن اليهود كانوا عنصراً صغيراً داخل مجتمعاتهم فقد كان من المفترض أنهم سيتمثَّلون في النهاية. ولقد أحيت الهجرة الضخمة من شرق أوربا إلى الغرب معاداة السامية فيها، ولكن ومع أنه كان هناك قدر من التعصب ضد اليهود في الدوائر الحاكمة البريطانية والأمريكية في عام ١٩٣٣ أكثر مما كان يوجد في عام ١٨٨٣ مثلاً، إلا أن شيئاً لم يذهب إلى المدى الذي ذهب إليه هتلر. وبالرغم من ذلك فخلال فترة الركود العالمية شهدت بريطانيا وأمريكا بروز حركات أساسية معادية للسامية هددت الجاليات اليهودية بشكل فعلي.

في بريطانيا جاء التهديد من السير أُزوالد مُوزْلي و«اتحاد الفاشيين البريطاني». وحاولت «هيئة النواب اليهود البريطانيين» أن تعالج هذا الخطر بتجاهله. ومنذ البداية طلبت من اليهود ألا يترددوا على اجتماعات موزلي. وأصر القادة أن اليهود في حد ذاتهم

ليس لديهم سبب يدفعهم للعراك مع الفاشية، وأكد نِيْفِيل لاسْكي، وهو رئيس الهيئة ورئيس اللجنة الادارية «للوكالة اليهودية»، أن «هناك فاشية في إيطاليا يعيش في ظلها ٥٠,٠٠٠ يهودي في تفاهم وأمان.. إن الجالية اليهودية بكونها ليست هيئة سياسية بحد ذاتها لا يجب أن تنجر إلى حرب ضد الفاشية بحد ذاتها»[١]. وأيد الإتحاد الصهيوني البريطاني موقفه في مجلة («يونج زايونست») (الصهيوني الفتى) بمقالة حول المسألة في عدد سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٤. كان الشيوعيون وحزب العمال المستقل يشتبكون بنشاط مع أنصار موزلي في الشوارع منظِّمين ما لا يقل عن ١٢,٠٠٠ متظاهر معاد خارج مهرجان اتحاد الفاشيين البريطاني في مسرح أوليمبيا يوم ٧ يونيو/حزيران، وكان على ما لا يقل عن ٦٩٣٧ شرطياً أن يحموا ثلاثة آلاف فاشيّ من عشرين ألفاً من المعارضين في حديقة هايدبارك يوم ٩ سبتمبر/أيلول. ووجدت الجالية اليهودية في حي إيسْت إنْد في الحزب الشيوعي حامياً لها ضد مؤيدي اتحاد الفاشيين البريطاني. وكان هناك توجه متزايد بين الشبيبة الصهيونية للالتحاق بالحملة المعادية لموزلي. ومع ذلك فإن القيادة الصهيونية كانت مصممة على ألا يحدث هذا. فما الذي يمكن أن يحدث إذا حارب اليهود موزلي وربح اتحاد الفاشيين البريطاني.

لنفترض أنه في ظل نظام فاشي مُورِس الإنتقام ضد المعادين للفاشية. عندئذ سيعاني كل اليهود.. وهكذا يبرز السؤال مرة أخرى - هل يتوجب علينا؟.... في الوقت الحالي هناك ثلاثة مُثل تصرخ عالية لتأييد كل اليهود:

١ - وحدة الشعب اليهودي.
٢ - الحاجة إلى عزة يهودية أقوى.
٣ - بناء أرض اسرائيل.

ونحن نضيع وقتنا في الجدل والتساؤل عما إذا كان يتوجب علينا الإنضمام إلى الجمعيات المعادية للفاشية[٢].

والقضية التالية طرحت مسألتهم بشكل أكثر شمولاً وبلا أخطاء: -

فما أن نتيقن من أننا لا يمكن أن نجتثَّ الشر، وأن جهودنا حتى الآن كانت هباءً فان علينا أن نفعل كل شيء لكي ندافع عن أنفسنا ضد نوبات هذا المرض السيىء الذكر. إن مشكلة معاداة السامية تصبح مشكلة من مشاكل تعليمنا. ودفاعنا هو في تقوية شخصيتنا اليهودية[٣].

وفي الحقيقة فإن الجماهير اليهودية تجاهلت إلى حد كبير نصيحة الصهـاينة السلبيـة وساندت الشيوعيين. وفي النهاية انقلب المـوقف الصهيوني وانضم بعض الصهـاينة إلى مجموعة دفاع محلية تدعى «مجلس الشعب اليهودي». ولكن معاداة الفاشية لم تصبح أبداً من أولويات الحركة الصهيونية.

وكانت المعركـة المشهورة التي جـرت في شارع كـابِل يـوم ٤ اكتوبـر ـ تشرين أول ١٩٣٦، عندما فشل حوالى خمسـة آلاف مِنْ رجال البـوليس في أن يتيحوا لمسيـرة إتحاد الفاشيين البريطاني أن تمرّ عبر مائة ألف يهودي ويساري، هي نقطة الانعطاف في الحرب ضد موزلي. وكـان وليم زوكرْمَـانْ، وهو واحـد من أبرز الصحفيـين اليهود في ذلـك العصر وكـان لا يزال صهيـونياً آنـذاك، حاضـراً وكتب تقريـراً عن هذه المعـركة لمجلة «جويشْ فْرونتير» في نيويورك:

لم تشهد أي مدينة ناطقة بالانجليزية أبداً أي شيء مثل المشاهد التي ميزت هذه المظاهرة التي حاولوا القيام بها. وأمثالي من أولئك الذين كان لهم امتياز المشاركة في هذا الحدث لا يمكن أن ينسوه، لأنه كان واحداً من تلك الأعمال الجماعية العـظيمة لكتلة من الشعب مستنهَضـة بانفعـال عميق أو بشعور من العدالة المستثارة التي تصنع التاريخ. . من المؤكد أنها كانت ملحمة ليهود حي الإيست إند[٤].

وقد ذكر في تقريره أن المظاهرة تمت بنـاء على دعـوة من مجلس الشعب اليهودي، الذي كان يضم معابد يهودية وجمعيات صداقة وجمعيات مهاجرين. وكتب عن وجود يهود سبق أداؤهم للخدمة العسكرية. واستمر يقول: «ولا بد أن يعطى للشيـوعيين ولحـزب العمال المستقل الفضل لأنهم كانوا أكثر المناضلين نشاطاً ضد معـاداة الساميـة الفاشيـة الخاصة بموزلي»[٥]. آخرون من بين الصهاينة المحليين فكروا مثله. ومن الضروري أنهم كانوا هناك ولكن الملفت للنظر، هو أن صحفياً صهيونياً يكتب لمجلة صهيونية لا يذكر حتى أن الصهاينة كانوا هناك. ولا يذكر كتاب جيزيلا لِبْزلْتر، **«معاداة السامية السياسية في انجلترا، ١٩١٨ ـ ١٩٣٩**، إلا أن «المنظمـات الصهيونية» كانت موجودة في المؤتمـر التأسيسي لمجلس الشعب اليهودي في ٢٦ يوليو/تموز عام ١٩٣٦[٦]. وصمتت حول أي دور آخر يمكن أن يكونوا قد لعبـوه في الحملة التي استمرت سنـوات عدة. وهي تؤكـد تقييم زوكرمان، وتقر تماماً بالدور القيادي للشيوعيين.

لم تكن الحـركة الصهيـونية البـريطانية في تلك الأيام صغيـرة. لقد أرسلت ٦٤٣

مستوطناً إلى فلسطين بين أعوام ١٩٣٣ و١٩٣٦. وكان لديها من القوة لأن تلعب دوراً بارزاً في قتال الشوارع، ولكنها في الحقيقة لم تفعل سوى القليل جداً للدفاع عن الجالية اليهودية حتى بعد أن تخلت عن موقفها في عام ١٩٣٤. ولقد كان شارع كابل - أي المقاومة غير الشرعية التي أبداها اليهود يقودهم أساساً الشيوعيون وحزب العمال المستقل - هي التي أرغمت الحكومة على وقف حماية «حقوق» إتحاد الفاشيين البريطاني، ثم حظرت في النهاية الميليشيا الخاصة ذات الزي الرسمي.

الصهيونية والبوند الألماني - الأمريكي

كانت التيارات الفاشية في الولايات المتحدة تنمو خلال الثلاثينيات. كانت جماعة الكو- كلوكس - كلان التقليدية لا تزال قوية في الجنوب، وكثيرون من الايرلندنيين في أمريكا الشمالية أصابتهم الفاشية الكهنوتية للأب كافْلان عندما اقتحمت جيوش فرانكو برشلونة. وشهدت الأحياء الايطالية استعراضات فاشتسية منظمة كما كان الكثير من منظمات المهاجرين الألمان تحت نفوذ «البوند» الألماني الأمريكي. وكانت معاداة السامية تنمو بقوة والبوند عازم على أن يظهر قوته الجديدة بالإعلان عن مهرجان ومسيرة في حديقة ماديسون سْكوير في نيويورك يوم ٢٠ فبراير/شباط عام ١٩٣٩. وكان من المخطط أن تتبعها مسيرات أخرى في سان فرنسيسكو وفيلادلفيا. فهل استجاب اليهود؟

بلغ عدد اليهود في نيويورك مليوناً و٧٦٥ ألفاً على الأقل (٢٩,٥٦٪ من السكان)، وكان هناك مئات الآلاف الآخرون في الأحياء القريبة، ومع ذلك لم يفكر تنظيم يهودي واحد في تنظيم مظاهرة مضادة. بل إن «اللجنة اليهودية الامريكية» اليمينية قد أرسلت رسالة إلى إدارة الحديقة تؤيد حق النازيين في عقد اجتماعهم[٧]. مجموعة واحدة فقط وهي التروتسكيون في «حزب العمال الاشتراكي» أصدرت نداء لمظاهرة مضادة. كان حزب العمال الإشتراكي مجموعة صغيرة ليس لديها أكثر من مئات قليلة من الأعضاء، ولكن وكما قال ماكسْ شاخْتمان، منظم ذلك النشاط، فإنها أي هذه المجموعة - تعرف بما يكفي بان «تُعشِّق القوة الصغيرة التي تمثلها في تلك القوة الضخمة التي يشكلها عمال نيويورك المناضلين، ومن ثم تطلق المجموعة الأخيرة في الحركة»[٨]. وقد عرف الجمهور بنبأ مظاهرة حزب العمال الاشتراكيين عندما أعلنت المدينة أن الشرطة ستدافع عن النازيين ضد أي هجوم، وأبرزت الصحافة احتمال وقوع العنف.

كانت هناك صحيفتان يوميتان تصدران باليديش في ذلك الوقت ومعروفتان بالصهيونية: «دِيْرتْوجْ»، وكان أحد محرريها أبراهام كورالْنيك من أوائل منظمي المقاطعة ضد النازي، «وديْر جُورنال»، التي كان مديرها جاكوب فِيشْمان، واحداً من مؤسِّسي المنظمة الصهيونية في أمريكا. وقد عارضت كلا الصحيفتين أي احتجاج ضد وجود النازي، وتوسلت «ديرتوج» لقرائها: «يا يهود نيويورك، لا تجعلوا أحزانكم توجهكم! تجنبوا حديقة ماديسون سكوير هذه الليلة. لا تقتربوا من القاعة! لا تعطوا النازيين فرصة الحصول على الدعاية التي يرغبونها بشدة»[٩]. أما مجلة «سُوشَليت أبِّيل» (النداء الاشتراكي) وهي اسبوعية حزب العمال الاشتراكيين فقد وصف نداء جريدة «جورنال» بأنه يجمع اللغة ذاتها «مع لمسة إضافية مثيرة للغثيان من التقوى الحاخامية»[١٠] كما أن استجابة المنظمات الصهيونية لم تكن بأكثر نضالية من ذلك. وخلال الاستعدادات للمواجهة ذهبت مجموعة من الشباب التروتسكي إلى مقر قيادة «الهاشومير هاتسئير» في حي إيسْتْ سايْد الأسفل ولكن قيل لهم: «نأسف، نحن لا يمكننا الإنضمام اليكم، إن سياستنا الصهيونية هي ألا نشارك في السياسة خارج فلسطين»[١١]. وقد زعم الهاشومير آنذاك كما يزعم الآن بأنهم الجناح اليساري للصهيونية، ولكن قبل عشرة شهور فقط كانت مجلة الهاشومير تدافع عن سياستهم الجامدة الخاصة بالإمتناع:

> لا يمكن أن نفصل موقفنا كيهود عن موقفنا كاشتراكيين. في الحقيقة، نحن نضع إستقرار وتطبيع الحالة الأولى كأفضلية رئيسية لعملنا في الحالة الثانية... وهكذا فإننا لا نلعب دوراً في النشاطات الاشتراكية التي لا يمكن أن تشارك فيها إلا كعناصر برجوازية غير مستقرة وغير أساسية، وغير منغمسة في البروليتاريا ونتحدث «من فوق»... ذلك لا يستدعي التقاذف بالجمل وشن التظاهرات وبرنامج القصور، الخاص بالمنظمات «الراديكالية» المعتادة. نحن غير مسيَّسين، ويجب أن نكون غير مسيسين، في الجوهر[١٢].

تجمع أكثر من ٥٠,٠٠٠ من الناس في حديقة ماديسون سكوير معظمهم كانوا يهوداً ولكن ليس كلهم على أي حال. وجاءت فرقة من «الرابطة العالمية لتحسين أحوال الزنوج» وهم الأتباع القوميون لماركْوسْ جَارفي، جاءت من هارلم. وبالرغم من أن الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأمريكية رفض أن يؤيد المظاهرة بسبب حقده على التروتسكيين وتأييدهم للعمدة الديمقراطي فْيُورلُّو لاجواريا الذي كانت شرطته تحمي

البونْد، فإن، كثيرين من قواعده المتعددة الجنسيات حضروا. كانت المنطقة ساحة لمعركة عنيفة استمرت خمس ساعات، وذلك عندما تقدمت الشرطة الخيالة وهي جزء من فرقة الشرطة المسلحة البالغ عددها ١٧٨٠ شرطياً، تقدمت مراراً وسارت في قلب صفوف المعادين للنازيين. وبالرغم من أن المعادين للنازيين لم يتمكنوا من كسر صفوف الشرطة فإن النصر كان حليفهم. ولو أن الشرطة لم تكن هناك لكان من المؤكد هرس العشرين ألف نازي وأتباع كافلان في الحديقة.

وقد أتبع حزب العمال الاشتراكي فوراً نجاحَه في نيويورك بالدعوة إلى مظاهرة أخرى في لوس أنجلوس يوم ٢٣ فبراير/شباط خارج اجتماع للبوند في «البيت الألماني». وحاصر أكثر من ٥٠٠٠ شخص الفاشيين في قاعتهم حتى جاءت الشرطة لإنقاذهم. وسرعان ما توقفت حملة البوند، وكان على أنصار الحزب، وقد أُذلُّوا كلية، إلغاء ترتيباتهم بشأن مهرجانات سان فرانسيسكو وفيلادلفيا.

والحقيقة أنه حتى وقت متأخر في فبراير/شباط عام ١٩٣٩، كان حزب العمال الاشتراكيين وحده في الدعوة إلى أي مظاهرة ضد أي اجتماع لقوات العاصفة في مدينة نيويورك، وذلك يشهد بحقيقة واقعة خلال مرحلة النازيين: من المؤكد أن أفراداً من الصهاينة قد شاركوا في معركة الحديقة ولكن المنظمات اليهودية ـ السياسية أو الدينية ـ بكاملها لم تكن مستعدة أبداً لمحاربة أعدائها.

هوامش الفصل الثامن عشر

1. Gisela Lebzelter, *Political Anti-Semitism in England, 1918-1939*, p. 142.
2. Raphael Powell, 'Should Jews join Anti-Fascist Societies?', *Young Zionist* (London, August 1934), p. 6.
3. C.C.A., 'Should Jews join Anti-Fascist Societies?', *Young Zionist* (London, September 1934), pp. 12, 19.
4. William Zukerman, 'Blackshirts in London', *Jewish Frontier* (November 1936), p. 41.
5. Ibid., pp. 42-3.
6. Lebzelter, *Political Anti-Semitism in England*, p. 140.
7. 'Review of the Year 5699 – United States', *American Jewish Year Book, 1939-40*, p. 215.
8. Max Shachtman, 'In This Corner', *Socialist Appeal* (28 February 1939), p. 4.
9. 'The Craven Jewish Press', *Socialist Appeal* (24 February 1939), p. 4.
10. Ibid.
11. 'An End to Zionist Illusions!', *Socialist Appeal* (7 March 1939), p. 4.
12. Naomi Bernstein, 'We and the American Student Union', *Hashomer Hatzair* (April 1938), p. 16.

١٩ ـ الصهيونية ودائرة الإزدهار المشترك اليابانية في شرق آسيا

كان هناك ١٩٨٥٠ يهودياً في الصين في عام ١٩٣٥. تجمع في شنغهاي وآخر في منشوريا. كان تجمع شنغهاي يسوده السيفارديم من أصل عراقي وهم من سلالة الياس ساسون وموظفيه الذين اشتغلوا بالتجارة بعد حرب الأفيون ونمت ثرواتهم بشكل ملحوظ مع تطور شنغهاي. أما الجالية المنشورية في هاربِنْ فقد كانت من أصل روسي ويرجع تاريخها إلى إنشاء خط «سكة حديد الشرق الصيني» القيصري. ولقد تضخمت فيما بعد باللاجئين من الحرب الأهلية الروسية.

كانت الصهيونية ضعيفة بين «العرب» الذين كانوا إحدى أغنى الجاليات الإثْنية في العالم، لأنه لم يكن لهم مصلحة في ترك حياتهم الطيبة. الصهاينة في الصين كانوا روساً. وهؤلاء أيضاً كانوا جزءاً من الوجود الامبريالي ولم تكن لديهم أية رغبة في أن يتمثلوا داخل الأمة الصينية. ولكونهم رأسماليين ومن الطبقةالوسطى فلم تكن لهم أي مصلحة في العودة إلى الاتحاد السوفياتي. وتعززت هويتهم اليهودية بوجود الآلاف من اللاجئين من الحرس الأبيض المعادين للسامية في كل شمال الصين. وكان للانفصالية الصهيونية جاذبية طبيعية وكانت أكثر جاذبية داخل الحركة التصحيحية. وكان اليهود الروس هم تجار في محيط امبريالي عسكري، ولقد جمعت حركة «بيتار» توجهاً رأسمالياً امبريالياً حماسياً مع عسكرية غاية في العملية في إطار الحرس الأبيض، الذين أصبحوا لصوصاً صغاراً. وبدا أن التصحيحية تناسب بشكل مثالي العالم المضطرم من حولهم.

«دور نشط في تشييد النظام الجديد في شرق آسيا»

ازدهرت جالية هاربن حتى الفتح الياباني لمنشوريا في عام ١٩٣١. كان الكثيرون من الضباط اليابانيين الكبار قد شاركوا في حملة ١٩١٨ - ١٩٢٢ التي حاربت البلاشفة إلى جانب جيش الادميرال الكسندر كولتشاك في سيبريا، وقد لاحظوا العقدة اليهودية عند الحرس الأبيض، وسرعان ما أصبح الروس البيض المحليون هم الدعامة المركزية للمملكة الدُمْية التابعة لليابان «مانشُوكو»، وكثيرون جُندوا مباشرة في الجيش الياباني. وبدأت العصابات الروسية التي تحميها الشرطة اليابانية تبتز النقود من اليهود، وبحلول أواسط الثلاثينات كان معظم يهود هاربن قد فضلوا الفرار جنوبا الى الصين التي يحكمها الوطنيون على أن يتحملوا معاداة السامية الصعبة.

وقد أثَّر هروب اليهود بشكل خطير على اقتصاد منشوريا، وكان على اليابانيين بحلول عام ١٩٣٥ أن يعكسوا مسارهم، وكان للعسكر طبيعتهم المتميزة الخاصة من معاداة السامية: هناك مؤامرة يهودية عالمية، وهي مؤامرة قوية جداً، ولكن الممكن جعلها تعمل للمصلحة اليابانية. وسيقدم اليابانيون مانشوكو أمام يهود العالم باعتبارها مأوى محتملاً للاجئين اليهود الألمان، وكذلك سيتبعون خطاً مؤيداً للصهيونية. عندئذ، كما كان يُعتقد، سيستثمر اليهودالأمريكيون أموالهم في مانشوكو وسيهدئون الرأي العام الأمريكي بشأن غزو الصين، بل وحتى بشأن نمو الصداقة اليابانية مع النازيين. ذلك كان أمل يائس، إذ لم يكن لليهود سوى نفوذ صغير على السياسة الأمريكية، وبالإضافة الى ذلك فإن ستيفن وايز والقادة اليهود الأمريكيين الآخرين كانوا يعارضون بعمق التعاون مع اليابانيين الذين كانوا يرون أنهم سيتحالفون مع النازيين حتماً.

وقد حقق اليابانيون نجاحاً أكبر بكثير في اقناع من تبقى من يهود مانشوكو بأن التعاون هو لمصلحتهم، على الأقل بكف يد الروس البيض وإغلاق مجلة «فاش بُت» لسان حال «الرابطة الفاشية الروسية». وكان زعيم يهود هاربن طبيباً ورِعاً هو أبراهام كَوفْمان الذي كان منغمساً بعمق في الجالية الصينية المحلية. وقد تشجع إلى حد كبير بالتغير في السياسة اليابانية، وطبقاً لتقرير من وزارة الخارجية اليابانية فقد طلب هو وأصدقاؤه في الفترة من عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٧ الإذن بأن يقيموا «المجلس اليهودي للشرق الأقصى»، وكانت أهدافه هي تنظيم كل اليهود في الشرق ونشر الدعاية لصالح اليابان، وبالذات باتخاذ موقفٍ مع اليابان ضد الشيوعية(١).

وعُقد أول المؤتمرات الثلاثة للجاليات اليهودية في الشرق الأقصى في هاربن في ديسمبر/كانون أول ١٩٣٧. وتُشاهد ديكور هذه المؤتمرات في الصور المنشورة في عدد يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٠ من مجلة «هاداجل» (الراية) والتي كانت بالرغم من عنوانها العبري، المجلة الناطقة باللغة الروسية للتصحيحيين في مانشوكو. كانت المنصات مزخرفة على الدوام بأعلام اليابان ومانشوكو والأعلام الصهيونية. وعمل أعضاء حركة بيتار كحرس شرف[٢]. وخطب في الاجتماعات أناس مثل الجنرال هيجُوتْشي، من المخابرات العسكرية اليابانية، والجنرال فارِشفْسْكي من الحرس الأبيض، والرسميون العملاء في مانشوكو[٣].

وقد أصدر مؤتمر عام ١٩٣٧ قراراً أرسله إلى كل تنظيم يهودي كبير في العالم يعلن فيه عن «التعاون مع اليابان ومانشوكو في بناء نظام جديد في آسيا»[٤]. وفي المقابل اعترف اليابانيون بالصهيونية باعتبارها الحركة القومية اليهودية[٥]. وأصبحت الصهيونية جزءاً من مؤسسة مانشوكو وأُعطِيَ لحركة بيتار لونٌ وزيٌّ رسميان. كانت هناك لحظات من المضايقة في هذه العلاقات الجديدة كما حدث مثلاً عندما توجب إعفاء حركة بيتار من استعراض الاحتفال باعتراف ألمانيا بمانشوكو[٦]. ولكن بشكل عام، كان الصهاينة المحليون سعداء تماماً بعلاقتهم الودودة مع النظام الياباني. وقد كتب مراقب في المؤتمر الثالث فيما بعد في ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٩ ملاحظاً «السعادة تعم المدينة»[٧]. وقد أصدر الاجتماع عدة قرارات:

> إن هذا المؤتمر يهنىء الامبراطورية اليابانية على مشروعها العظيم لإقامة السلام في شرق آسيا وهو مقتنع بأنه عندما يتوقف القتال فان شعوب شرق آسيا ستقيم أصرحها القومية تحت قيادة اليابان[٨].

وذهبوا الى حد القول بأن:

> المؤتمر الثالث للجاليات اليهودية يدعو الشعب اليهودي لكي يلعب دوراً نشطا في تشييد النظام الجديد في شرق آسيا مسترشداً بالمثل الأساسية المقرة للنضال ضد الكومنترن وبالتعاون الوثيق مع كل الأمم[٩].

الحكم: تعاون الصهاينة مع عدو الشعب الصيني

هل كسب صهاينة مانشوكو أي شيء لليهود بتعاونهم مع اليابانيين؟ يخلص هِيرما

ديكر، وهو أحد المتخصصين البارزين في يهود الشرق الأقصى إلى أنه: «لا يمكن القول ونحن ننظر الى ما حدث، أن مؤتمر الشرق الأقصى قد سهل لأعداد كبيرة من اللاجئين التوطن في منشوريا. وفي أحسن الأحوال فانه لم يسمح إلا لمئات قليلة من اللاجئين بالدخول»(١٠). وفي الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية دخل السوفييت منشوريا وألقي القبض على كوفمان وأمضى في النهاية أحد عشر عاماً في سيبريا لتعاونه مع الأعداء. ومن المؤكد أن صهيونية مانشوكو كانت متداخلة بعمق في البنية اليابانية في مانشوكو. إن الصهاينة لم يؤيدوا الغزو الياباني ولكن ما أن كف يد الروس البيض عنهم فانهم لم يعد لديهم أي ضغينة ضد الوجود الياباني. لم يكن لديهم ما يكسبوه من عودة الكومانتانج(*)، وكانوا يخشون الثورة الشيوعية حتى الموت. لم يكونوا سعداء أبداً بصلات طوكيو مع برلين، ولكن كان لديهم أمل بأن يخففوا من ذلك باستعمال نفوذهم مع اليهود الأمريكيين لتطوير تفاهم مع واشنطن في المحيط الهادي. ولا يوجود أي شك أنه بالرغم من خلافهم مع سياسة اليابان تجاه المانيا، فان اليابانيين نظروا الى صهاينة منشوريا باعتبارهم المتعاونين الطوعيين معهم.

هوامش الفصل التاسع عشر

1. Herman Dicker, *Wanderers and Settlers in the Far East*, pp. 45-7.
2. 'Otkrytiye Tryetyevo Syezda Yevryeiskikh Obshchin Dalnovo Vostoka', *Ha Dagel* (Harbin, 1 January 1940), pp. 21-8.
3. Dicker, *Wanderers and Settlers in the Far East*.
4. Marvin Tokayer and Mary Swartz, *The Fugu Plan*, p. 56.
5. David Kranzler, 'Japanese Policy towards the Jews, 1938-1941', *Forum on the Jewish People, Zionism and Israel* (Winter 1979), p. 71.
6. Dicker, *Wanderers and Settlers in the Far East*, p. 56.
7. David Kranzler, *Japanese, Nazis and Jews*, p. 220.
8. Kranzler, 'Japanese Policy towards the Jews', p. 77.
9. *Ha Dagel*, p. 26.
10. Dicker, *Wanderers and Settlers in the Far East*, p. 51.

---

* الكومنتانج: تأسس في ١٩١٢ كحزب راديكالي، وحزب تشانغ كاي شيك اليميني فيما بعد (م).

٢٠ ـ بولندا، ١٩١٨ ـ ١٩٣٩

أعطى انهيار الأمبراطوريات الثلاث التي كانت تحكم بولندا، الرأسماليين البولنديين دولة مستقلة كانوا قد كفوا عن الرغبة فيها منذ وقت طويل. فبعد أن فشلوا في هبّة عام ١٨٦٣ ضد القيصرية بدأوا في النظر للأمبراطورية الروسية كسوق ضخم ولم يجدوا داعياً لأن يفصلوا أنفسهم عنها. وقالوا إن العدو لم يكن روسْيا بل اليهود والبروتستانت الألمان الذين سيطروا على «سوقهم» الوطني. وأصبحت القومية حكراً على الطبقة العاملة وحزبها الإشتراكي البولندي. وشهدت الحرب العالمية الأولى الرأسماليين «الديمقراطيين القوميين»، الذين يقال لهم «أندكس»، يؤيدون القيصر، والجناح اليميني للحزب الإشتراكي البولندي بقيادة جوزيف بِلْسُودسْكي يشكل فيلقاً بولندياً لحساب الألمان باعتبارهم أهون الشرَّين، ولأنهم كانوا ينوون الالتحاق فيما بعد بألمانيا. ومع ذلك فإن الانهيار الامبريالي دفع قسمي الاتحاد كي يقيما دولة بولندية من جديد. وكان بلسودسكي قد ترك الحزب الإشتراكي البولندي خلال الحرب وتحرك نحو أقصى اليمين. وهكذا أمكن للمعسكرين أن يتفقا على برنامج معادٍ للبلاشفة لإحياء الأمبراطورية البولندية. ورحب «المارشال» بلسودسكي بوجود جنود يهود في فيلقه، وكان لا يزال يشجب معاداة السامية التي قرنها بالتخلف القيصري. ومع ذلك لم تكن له سيطرة على أولئك الجنرالات الذين جاءوا إلى الجيش عبر عسكرية الإندكس القيصرية، وساند أتباع بتليورا الذين كانوا يقومون بمذابح التطهير. وبلغ قتل وإعدام اليهود حداً جعل الحلفاء يتدخلون ويفرضون بنداً خاصاً بحقوق الأقليات في الدستور البولندي كشرط من شروط

الاعتراف. ولم تتراجع مذابح التطهير إلا عندما أيقن الإندكس أن الضغط اليهودي يمكن أن يؤثر على قروض وارسو من البنوك الأجنبية. ولكن نهاية حملات التطهير لم تكن تعني سوى أن معاداة السامية تغيِّر شكلها. كان النظام مصمماً على جعل الاقتصاد اقتصاداً «بولندياً»، وقد فقد الآلاف من اليهود وظائفهم عندما استولت الحكومة على السكك الحديدية وعلى مصانع السجائر والكبريت ومصانع الخمور.

بلغت الجالية اليهودية البولندية في أوائل العشرينات ٢,٨٤٦,٠٠٠ أي ١٠,٥٪ من السكان، وكانت أبعد ما تكون عن التجانس السياسي. ففي أقصى اليسار كان الشيوعيون. وبالرغم من أن نسبة اليهود في الحزب الشيوعي البولندي كانت دائماً أكبر بكثير من ١٠,٥٪، فإن الشيوعيين لم يكونوا أبداً نسبة ذات مغزى بين السكان اليهود. وبالرغم من أن الحزب الإشتراكي البولندي كان يرحب دائماً باليهود في صفوفه، فقد كان مصاباً بالقومية البولندية وكان معادياً للغة اليديش، وبالنتيجة فإن الحزب الإشتراكي البولندي في فترة ما بعد الحرب كان لديه قليل من الأتباع اليهود. وبدلاً من ذلك كانت أكبر قوة يسارية بين اليهود هم اليديشيين من البوند الذي كان القسم البولندي فيه قد استمر في الحياة بعد هزيمته في الاتحاد السوفييتي، ولكنهم كانوا لا يزالون أقلية متميزة بين الجالية الأكبر. وفي انتخابات عام ١٩٢٢ للبرلمان البولندي (سِيْجْم)، لم يحصلوا إلا على ما هو أكثر قليلاً من ٨٧,٠٠٠ صوت، ولم يكونوا قادرين على كسب مقعد واحد. وفي اليمين كان يقف حزب «أجودات يسرائيل»، وهو حزب الأرثوذكسية التقليدية الذي وقف وراءه ثلثُ الجالية بدون التزام دقيق. وكان أعضاؤه يتخذون الموقف الذي طالب به التلمود والذي يقضي بالولاء لأي نظام أغيار لا يتدخل في العقيدة اليهودية. وبهذه النزعة المحافظة السلبية، لم يكن في إمكانهم أن يؤثروا على أي من العناصر الأكثر تعلّماً من بين الذين سعوا إلى حلٍ نشط لمعاداة السامية. وكانت مجموعة صغيرة من الأتباع، وتتشكل أساساً من المثقفين، تتبع «الشعبيين»، وهم مجموعة القوميين اليديش في المهجر. وكانت كل هذه العناصر معادية للصهيونية وإن كان لكل منها أسبابها المختلفة.

كانت القوة السياسية المسيطرة في الجالية اليهودية هي الصهاينة. وقد حصلوا على ستة من ١٣ مقعداً يهودياً في برلمان عام ١٩١٩، وأعطت لهم انتخابات عام ١٩٢٢ فرصة لإظهار أن في إمكانهم منازلة معاداة السامية التي كانت سمومها كامنة في ذلك الوقت. وشُكِّلَ الجناح الأكبر داخل الحركة بقيادة إسحاق جْروينبَوم، من الصهاينة الراديكاليين،

«كتلة للأقليات». كانت القوميات غير البولندية تشكل ما يقرب من ثلث عدد السكان، وقال جروينبوم أنهم إذا اتحدوا فإن في إمكانهم موازنة القوى داخل البرلمان. وانتُخب للكتلة، وضمت القسم الصهيوني التابع لجروينبوم جنباً إلى جنب مع عناصر من القوميات الألمانية والبيلوروسية والأوكرانية، ٦٦ من مرشحيها بمن فيهم ١٧ صهيونياً. ظاهرياً بدا أن التحالف نجح، ولكنه في الحقيقة سرعان ما أظهر الانقسامات داخل الحركة الصهيونية وداخل الأقليات بشكل عام، ورفضت الأغلبية الأوكرانية في جاليشيا الاعتراف بالدولة البولندية وقاطعت الانتخابات. ولم يتقدم أي سياسي قومي آخر ليساند كفاح الأوكرانيين، وترشح صهاينة جاليشيا في الانتخابات ـ وكانوا حريصين على عدم مجابهة البولنديين ـ كخصوم لكتلة الأقليات. وكسب صهاينة جاليشيا خمسة عشر مقعدا، ولكن لما كان نجاحهم هو بسبب الامتناع الأوكراني فإنهم لم يكونوا قادرين على الإدعاء بأنهم يمثلون الإقليم. وحتى داخل كتلة الأقليات لم يكن هناك التزام بالوحدة على المدى الطويل، وقد تحطمت بعد الانتخابات. في ذلك الوقت أصبح هناك ٤٧ يهودياً في مجلس برلمان منهم اثنان وثلاثون من الصهاينة، ولكن انتهازيتهم الانتخابية افقدتهم المصداقية.

فتح فشل كتلة الأقليات الطريق أمام مغامرة أخرى ينظمها قائدا الصهاينة العموميين في جاليشيا، وهما ليون رايْخ وأوزياس تون. ففي عام ١٩٢٥ تفاوضا مع فْلادِسْلاف جرابْسكي حول اتفاقية، سميت «الأوجُودَة» (التفاهم)، وكان الأخير رئيس وزراء معادياً للسامية، يسعى للحصول على قرض أمريكي وفي حاجة لأن يثبت أنه ليس ذلك المتعصب الجامد الذي لا يمكن تحريكه. وقد أدت الصفقة مع هذين الصهيونيين لأن يبدو، على الأقل للأجانب غير المدركين، وكأن نظامه قابل للتغيير. وفي الحقيقة فإن الحكومة لم توافق إلا على تنازلات صغيرة: أن يحصل المجندون اليهود على أكل الكوشير، وأن الطلاب اليهود يمكنهم أن لا يكتبوا أيام السبت، كما يتوجب على كل الطلاب الآخرين أن يفعلوا. وحتى داخل الحركة الصهيونية كان يُنظر إلى تون ورايخ باعتبار أنهما خانا الجالية اليهودية[1].

كانت معاداة السامية مجرد جزء من الخط الرجعي لحكومات ما بعد عام ١٩٢٢، وقد أيدت أغلبية الشعب بمن في ذلك اليهود، انقلابَ بِلسودسْكي في مايو / أيار ١٩٢٦ على أمل حدوث تغير إلى الأفضل. صوتت كل المجموعة اليهودية البرلمانية له لكي يصبح رئيساً في ٣١ مايو / أيار[2]. ولكن وضع اليهود لم يتحسن وإنْ كان بلسودسكي على

الأقل لم يقم بأية جهود لزيادة التمييز، كما قامت شرطته بقمع أحداث الشغب المعادية للسامية حتى وفاته في عام ١٩٣٥. وكانت انتخابات البرلمان في عام ١٩٢٨ هي آخر انتخابات قومية حرة إلى حد ما في بولندا. وانقسم الصهيونيون العموميون مرة أخرى: دخل قسم جروينبوم كتلة أخرى للأقليات، وأيد الجاليشيون مرشحهم الخاص. وكان لبلسودسكي شعبية بين اليهود المحافظين لوضعه حداً للهجمات، وكثيرون صوتوا لمؤيديه من قبيل الامتنان. وقد أدى هذا، بالإضافة إلى دخول الجاليشيين الأوكرانيين حلبة الانتخابات، إلى تخفيض التمثيل اليهودي إلى ٢٢، منهم ١٦ كانوا صهاينة[٣]. وبحلول عام ١٩٣٠ كان نظام بلسودسكي قد أحكم قبضته وتحول إلى دولة بوليسية متشددة بقسوة شديدة تجاه المسجونين السياسيين. واحتفظ بلسودسكي بالبرلمان حياً، ولكنه تلاعب بالانتخابات وحكم بدونه. وكانت نتائج انتخابات عام ١٩٣٠ بلا معنى إلى حد كبير. وتراجع التمثيل اليهودي مرة أخرى إلى ١١، منهم ٦ صهاينة.

ومع اشتداد الديكتاتورية أظهر البرلمانيون الصهاينة اهتماماً أكبر بالمعارضة المعادية لبلسودسكي، ولكن هذه الاتجاهات توقفت بانتصار هتلر في ألمانيا المجاورة. كانت الصهيونية البولندية قد قللت في الأصل من قوةالنازيين. وقبل أن يأتي هتلر إلى السلطة أكدت الصحف اليومية الصهيونية «هاينْت» و «دير مومِنْت» و «نوفي دْزينيكْ» لقرائها أنه ما أن يصل هتلر إلى الحكم فإن معاداته للسامية سيتم كبحها بفضل وجود محافظين مثل فون بابِنْ وهوجنْبورج في حكومته الإئتلافية. وظنوا أن احتياجات الاقتصاد الألماني ستجعله يتبنى بسرعة توجهاً أكثر اعتدالاً[٤]. ولقد حطمت الأسابيع القليلة الأولى من النظام الجديد هذه التصورات الخيالية. وكان هم الصهاينة البولنديين الثاني هو أن يؤدي نجاح النازيين إلى إطلاق موجة من التطرف في بولندا. وتوقف أي اهتمام بكتلة معارضة، وأصبح بلسودسكي مرة أخرى رجل الساعة وهو يطلق أصواتاً ضد النظام في برلين[٥]. وتسبب الانقلاب الحاد في الرأي من جانب الصهاينة تجاه الديكتاتور في صدور صيحات احتجاج من أحزاب المعارضة التي تقاوم بلسودسكي. وكتبت «وكالة البرق اليهودية» عن حوار حول المسألة اليهودية في البرلمان البولندي يوم ٤ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٣:

> النائب روج زعيم الحزب الفلاحي.. أدان الموقف المعادي لليهود من ألمانيا الهتلرية. وقال إن الجريمة التي ترتكب ضد اليهود الألمان هي جريمة عالمية.

وأعلن أن بولندا لن تتخذ أبداً من المانيا الهتلرية مثلاً. ومع ذلك، كما استطرد، فإنه لا يمكنه أن يفهم كيف يمكن للسياسيين اليهود الذين يحاربون ضد الديكتاتورية الألمانية أن يوفقوا مع ضمائرهم التأييد الذي يقدمونه في بولندا للديكتاتورية البولندية. وقال إنه ليس أمراً طيباً أن يستقر في أذهان الجماهير البولندية أن اليهود يؤيدون قاهريهم[٦].

وفي ٢٦ يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٤ وقع بلسودسكي اتفاق سلام مع هتلر لمدة ١٠ سنوات. وفي العام نفسه قرر المسئولون في وارسو، وقد لاحظوا عجز عصبة الأمم عن التعامل مع المسألة الألمانية الغاء اتفاقية الأقليات التي وقعت تحت الضغط في فرساي. وقابل ناحوم جولدمان جوزيف بِك وزير الخارجية البولندي في جينيف يوم ١٣ سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٤ لكي يحاول حثَّه على تغيير أفكاره، ولكن بدون جدوى. وكالعادة رفضت المنظمة الصهيونية العالمية تنظيم المظاهرات الجماهيرية الاحتجاجية في الخارج، واعتمدت بدلاً من ذلك على التدخل الدبلوماسي من جانب لندن وروما[٧]. وبقي الصهاينة البولنديون على ولائهم لبلسودسكي حتى وفاته يوم ١٢ مايو / أيار عام ١٩٣٥، وحينئذ اقترح أوسياس تون وأبوليناري هارتجلاس، رئيس المنظمة الصهيونية البولندية، إقامة «غابة بلسودسكي» في فلسطين لذكراه[٨]. وأعلن التصحيحيون الفلسطينيون أنهم سيبنون مسكناً للمهاجرين يُسمَّى على شرفه[٩].

«العمال لم يلوَّثوا»

أثار انتصار هتلر المتطرفين بين المعادين للسامية البولنديين، ولكن طالما ظل الماريشال على قيد الحياة فإن شرطته كانت لديها أوامر صارمة لقمع أي نوع من الإثارة للشارع. ومع ذلك فإن خلفاءه «الكولونيلات» لم يعد في إمكانهم أن يتحملوا سياسياً المحافظة على سياسته. كانت تنقصهم سمعته ومكانته، وكانوا يعرفون أن عليهم أن يتبنوا سياسة لها جاذبية شعبية أو يطاح بهم. وكانت معاداة السامية خياراً واضحاً في ذلك، إذ أنها كانت تلعب على مشاعر التعصب التقليدية لدى الطبقة الوسطى البولندية. ومع ذلك فقد ظلوا يحاولون الحفاظ على النظام، وعلى أن تستمر القيود على اليهود طبقاً للقانون بشكل صارم. وفهمت الكتلة الأساسية من الإندك المعادين للسامية، وتفرعاتهم من الراديكاليين القوميين الموالين للنازية «النارا»، فهموا أن استسلام الكولونيلات للمزاج المعادي للسامية نابع من ضعفهم. وكثيراً ما تحدوا الشرطة.

سرعان ما اجتاحت البلاد موجة من مذابح التطهير. كان السعار يبدأ غالباً في الجامعات حيث حاول الإندك والنارا أن يقيموا «مقاعد معزولة» (مقاعد جيتو) وصفوفاً مرقّمة لليهود. وسرعان ما بدأ تنفيذ مقاطعة للمحلات اليهودية وبدأت عصابات الكارهين لليهود ترهب البولنديين الذين يشجعون المحال اليهودية، وأصبحت هجمات الشوارع على اليهود حدثاً يومياً.

كانت المقاومة اليهودية ضد القائمين بالمذابح هي من عمل أعضاء البوند إلى حد كبير. وبالرغم من أنهم كانوا عددياً أقل بكثير من الصهاينة حتى منتصف الثلاثينيات، فإنهم كانوا على الدوام القوة المسيطرة في الحركة العمالية اليهودية. في ذلك الوقت نظموا فصائل طيّارة على مدى ٢٤ ساعة في مقر قيادتهم في وارسو. فعند سماعهم بأي هجوم، تنطلق مجموعاتهم المنظمة تحمل العصي والمواسير في أيديها لدخول المعركة أحياناً كان مئات من البونديين والنقابيين اليهود وميليشيا الحزب الإشتراكي البولندي، يشتبكون في معارك ضارية مع مؤيدي الإندك والنارا[١٠]. وكانت أهم معركة في قتال الشوارع هذا هي التي دارت في سَكْسُونْيان جاردن، وهي الحديقة المشهورة في وارسو، عام ١٩٣٨، عندما اكتشف البوند أن أعضاء النارا خططوا لمذبحة في الحديقة والشوارع المحيطة بها. وقد وصف برنارد جُولدْشتاين قائد المجموعة المنظمة، المعركة في مذكراته فيما بعد:

> نظمنا مجموعة كبيرة من مقاتلي المقاومة ركزناها حول الميدان الكبير بالقرب من البوابة الحديدية. كانت خطتنا هي أن نستدرج السفاحين إلى ذلك الميدان الذي كان مغلقاً من جوانب ثلاثة ثم نسد المخرج الرابع ومن ثم نأخذهم في مصيدة حيث يمكننا خوض المعركة وتلقينهم الدرس المناسب. . . وعندما أصبح لدينا عدد معقول من سفّاحي النارا في الميدان. . ظهرنا فجأة من أماكن اختبائنا وأحطنا بهم من كل الجهات. . . . وكان لا بد من استدعاء سيارات الاسعاف[١١].

قبل ذلك في يوم ٢٦ سبتمبر/أيلول ١٩٣٧ نسف أعضاء النارا مقر قيادة البوند. وعلى الفور جمع البوند مجموعة من ثلاثين: ١٠ من البوند و١٠ أعضاء من مجموعة صهيونية منشقة هي بوعالي صهيون اليسارية، و١٠ بولنديين من الحزب الإشتراكي البولندي. ذهبوا إلى مقر قيادة النارا. تظاهر البولنديون بأنهم رجال إصلاح وصيانة ودخلوا أولاً وقطعوا أسلاك التليفون، عندئذ أغار الباقون على المكان. قال هايمن

فْريمان، وهو واحد من البونديين، عن الغارة فيما بعد:

كان هناك قتال ولكن في الحقيقة لم يكن أمامهم أي فرصة لإظهار كثير من المقاومة. لقد هاجمناهم بأسلوب صاعق، وحطمنا المكان بالفعل وضربناهم ضرباً شديداً. . . كان بالفعل عملاً غير عادي[١٢].

بالرغم من أن هناك مفهوماً خاطئاً شائعاً بأن معاداة السامية كانت متوطنة في كل الطبقات في المجتمع البولندي، فإن الدليل يُظهر أن معاداة السامية كانت ظاهرة خاصة بالطبقة الوسطى في الأساس، ثم ولدرجة أقل بكثير ظاهرة فلاحية. كانت الكتلة الأساسية من الطبقة العاملة البولندية تتبع الحزب الاشتراكي البولندي، وقد فهموا منذ البداية أن معركة البوند هي معركتهم وأن مساعدتهم لليهود المحاصرين ـ كما في الرد الانتقامي على أعضاء النارا ـ أمر حيوي. وفي عام ١٩٣٦ قالت مجلة بالِستين بوست لقرائها أنه ما إن تخرج عصابات الطلاب الفاشست زاحفة من مكامنها في الجامعات لبدء مذبحة:

فإن العمال والطلاب البولنديين غير اليهود يهُبّون بسرعة لمعاونة اليهود. ولقد نظم الحزب الاشتراكي البولندي مؤخراً عدداً من الاجتماعات الدعاوية الضخمة. . . وأُلقيت خطب شديدة الإثارة من جانب بولنديين غير يهود بدا واضحاً أنهم متحمسون لدرجة تثير الشفقة لإعلان أن لا علاقة لهم بالإندك المثيرين للمشاكل[١٣].

ووصف جاكوب لسْتْشِنْكي، وهو واحد من الباحثين البارزين الصهاينة في ذلك الوقت، عقلية الحركة العمالية البولندية لقراء مجلة **«جويش فرونتير»** في مقالة في شهر يوليو / تموز عام ١٩٣٦:

يمكن لحزب العمال البولندي أن يفخر بحق بأنه قد لقّح العمال بنجاح ضد فيروس معاداة اليهود، حتى في جو بولندا المسموم. ويكاد موقفهم من هذا الموضوع يصبح تقليداً. حتى في المدن والأحياء التي يبدو أنها أصيبت كلية بأكثر أشكال معاداة السامية تفجراً، فإن العمال لم يلوِّثوا[١٤].

كان هناك آخرون مؤيدين لليهود. فمعاداة السامية تمت بشكل ينذر بالخطر بين الجماهير الأوكرانية، عندما أصبح كثيرون من القوميين مؤيدين للنازيين. وخدعوا أنفسهم بأن ألمانيا، نتيجة معاداتها للكولونيالات البولنديين ولستالين يمكن أن تساعدهم على

كسب استقلالهم في وقت ما غير محدد في المستقبل. ومع ذلك فإن الشريحة الصغيرة من الطلاب الأوكرانيين الذين كان عليهم أن يواجهوا التعصب القومي للطبقة الوسطى البولندية في معاقلها الجامعية، لم يحدث أبداً أن أصيبت هذه الشريحة بمعاداة السامية الشعبوية. لقد فهموا ما يمكن أن يحدث لفرص مستقبلهم إذا انتصر الإندك والنّارا. وذكرت مجلة بالستين بوست في ديسمبر / كانون أول عام ١٩٣٧ أن:

في جامعتي ولْنو ولمْبرج (لْفُوف) التحق الطلاب من الروس البيض والأوكرانيين معاً تقريباً في جبهة معادية للجيتو وهم يساعدون اليهود في حربهم ضد إجراءات القرون الوسطى[١٥].

كان الفلاحون منقسمين حول المسألة اليهودية. مال الأغنياء منهم نحو معاداة السامية وبالذات في غرب بولندا. وفي الجنوب وإلى درجة أقل في الإقليم الأوسط تبعت الجماهير الريفية الحزب الفلاحي. وفي عام ١٩٣٥ اتخذ الفلاحون موقفاً غير متسق، فقد أصروا على مبدأ الحقوق الديمقراطية لكل اليهود في البلاد، وفي الوقت نفسه طالبوا بتحويل الاقتصاد إلى اقتصاد بولوني، وبهجرة اليهود إلى فلسطين وأماكن أخرى[١٦]. ومع ذلك، فبحلول عام ١٩٣٧ كان الحزب يصر على أن حملة معاداة السامية ليست إلا خدعة لحرف الانتباه عن القضايا السياسية الحقيقية وبالذات الحاجة إلى إصلاح زراعي. وفي أغسطس / آب عام ١٩٣٩ اشترك قسم كبير من الفلاحين في إضراب عام لمدة عشرة أيام. وبالرغم من أن الشرطة قتلت ٥٠ متظاهراً فإن الإضراب كان كاملاً في مناطق عديدة. وقد كتب عن ذلك الكسندر إرلخ، من جامعة كولومبيا، وكان وقتذاك من قادة شبيبة البوند: «خلال الإضراب كان في إمكانك أن ترى متديِّنين يهوداً (هاسيديم) ملتحين في صفوف المتظاهرين جنباً إلى جنب مع الفلاحين»[١٧]. ولم تكن الحكومة قادرة على الاستمرار إلا لأن قادة الفلاحين القدامى لم يكونوا مستعدين للعمل مع الاشتراكيين.

ولقد أشرك البوند والحزب الاشتراكي البولندي الجماهير في الصراع ضد المعادين للسامية. وفرض مقتل اثنين من اليهود وجرح العشرات الآخرين جروحاً خطيرة في برزيتيك يوم ٩ مارس/آذار ١٩٣٦، ضرورة القيام برد محدد. ودعا البوند إلى إضراب عام لمدة نصف يوم، يوم ١٧ مارس / آذار، وأيد الحزب الإشتراكي البولندي هذا العمل. وتوقفت جميع الأعمال اليهودية ـ وكانت نسبة هامة من الحياة الاقتصادية للبلاد.

وأيدت نقابات الحزب الاشتراكي البولندي في وارسو وفي معظم المدن الكبرى الإضراب وأغلق معظم بولندا. وكان ذلك بالفعل هو «سبت السبوت» كما وصفته الصحافة اليهودية.

وفي مارس/آذار عام ١٩٣٨ أعلن البوند إضراباً احتجاجاً لمدة يومين ضد «مقاعد الجيتو» والرعب المستمر في الجامعات. وبالرغم من الهجمات الفاشية التي رُدت على أعقابها، فإن الكثيرين من أبرز الأكاديميين البولنديين انضموا للجالية اليهودية ولنقابات الحزب الاشتراكي البولندي في الشوارع، وكان ذلك انجازاً رائعاً في بلد كانت الأمهات فيه تسكتن أطفالهن بتهديدهم بمجيء يهودي يأخذهم في جوال.

انتصارات انتخابية لم تؤد إلى شيء:

بدأت الجماهير تتحرك نحو البوند في انتخابات الجالية اليهودية في عام ١٩٣٦، وسجل كل من البوند والحزب الاشتراكي البولندي زيادة قوية في التأييد لهما في انتخابات المجالس البلدية في تلك السنة نفسها. ومع ذلك فقد انكشفت بحدة في هذا المجال القيود الصعبة للحزب الاشتراكي البولندي. ففي لودز، وهي أهم مدينة صناعية بولندية، رفض الحزب الاشتراكي البولندي أن يتحد انتخابياً مع البوند لأن قيادته كانت تخشى أن تفقد أصواتاً إذا ما اقترنوا باليهود. وبالرغم من ذلك فإن الحزبين في الممارسة تحالفا بالفعل في حياة العمل اليومية واستمرا في كسب التأييد. ولم يتمكن الإصلاحيون الاشتراكيون الديمقراطيون في الحزب الاشتراكي البولندي أبداً من التخلي عن عقليتهم الانتهازية الانتخابية، فرفضوا مرة أخرى ترشيح قائمة مشتركة في انتخابات مجالس المدن في ديسمبر/كانون أول عام ١٩٣٨ ويناير/كانون الثاني عام ١٩٣٩٩. وكان على البوند أن يخوض المعركة منفصلاً، ولكنهما عندئذ تبادلا التشجيع في المناطق التي كان أحدهما فيها أقلية. وإذ تحالفا في الواقع فقد كسبا أغلبيات في لودز وكراكا ولفوف وفلنا ومدن أخرى ومنعا حصول الحكومة على أغلبية في وارسو. وكسب الحزب الإشتراكي البولندي ٢٦,٨ ٪ من الأصوات والبوند ٩,٥٪ أخرى، وبالرغم من أنهما لم يكونا متحدين بشكل محكم، فإن نسبتهما البالغة ٣٦,٣٪ كان ينظر لها على أنها ذات تأثير اجتماعي أكثر بكثير من تأثير قائمة الكولونيلات، البالغة ٢٩٪، أو الإندك البالغة ١٨,٨٪. وكتبت جريدة النيويورك تايمز عن «الانتصار المذهل» لليسار وعن خسارة المواقع التي عاناها المعادون للسامية المنقسمون بعمق على بعضهم البعض[١٨]. وفي الأحياء اليهودية دمر البوند

الصهاينة وحصل على ٧٠٪ من الأصوات مما أعطاه ١٧ مقعداً من المقاعد العشرين اليهودية في وارسو حيث كان للصهاينة مقعد واحد فقط[١٩].

«أود لو أن مليون يهودي بولندي يُذبحون»

بدأت الجماهير اليهودية تهجر الصهاينة في أواخر الثلاثينيات وعندما أنقص البريطانيون حصص الهجرة بعد الانتفاضة العربية، لم تعد فلسطين تبدو كحل لمشكلتهم. وهبطت الهجرة البولندية إلى فلسطين من ٢٩,٤٠٧ في عام ١٩٣٥ إلى ١٢,٩٢٩ في عام ١٩٣٦ وإلى ٣٥٧٨ في عام ١٩٣٧، وأخيراً إلى ٣٣٤٦ في عام ١٩٣٨. ومع ذلك كان هناك سبب أساسي آخر للتحرك بعيداً عن الصهيونية. كانت الحركة قد فقدت مصداقيتها بفضل حقيقة أن كل المعادين للسامية، من الحكومة حتى أعضاء «النارا» يحبذون الهجرة إلى فلسطين. واكتسبت «فلسطين» قيمة كثيبة في الحياة السياسية البولندية. فعندما كان النواب اليهود يتكلمون في السِجْم [البرلمان] كان ممثلو الحكومة والإندك يقاطعونهم بصيحات «إذهب إلى فلسطين»[٢٠] وفي كل مكان كانت طوابير المقاطعة المعادية لليهود تحمل نفس اللافتة: (إركلوهم إلى فلسطين!)[٢١]. وفي عام ١٩٣٦ قام مندوبو الإندك إلى مجلس مدينة بيتروكوف بعمل نموذجي هو إيماءة رمزية تقترح تخصيص زْلوتي [وحدة عملة] واحد لتشجيع الهجرة الجماعية لليهود من بيتروكوف إلى فلسطين»[٢٢]. وفي يوم ٣١ أغسطس / آب عام ١٩٣٧ أعلنت مجلة «إي بي سي» وهي مجلة «النارا»:

> إن فلسطين وحدها لن تحل المسألة ولكنها يمكن أن تكون بداية الهجرة الجماعية لليهود من بولندا. ومن ثم لا يجب إهمالها من قبل السياسة الخارجية البولندية.
> إن الهجرة الطوعية لليهود إلى فلسطين يمكن أن تخفف من توتر العلاقات البولندية اليهودية[٢٣].

كان الكولونيلات بالكاد في حاجة لأي دفع من جانب النارا. كانوا على الدوام متحمسين في محبتهم للصهاينة وقد أيدوا بحماس اقتراح لجنة بيل بتقسيم فلسطين. وقد قابل وايزمان في سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٧، جوزيف بيك، الذي أكد له أنه عندما تتحدد حدود الدولة الجديدة فإن وارسو ستفعل أقصى ما في وسعها لكي تضمن للصهاينة أكبر مساحة أرض ممكنة[٢٤].

لم تؤمن الحركة الصهيونية أبداً بأن في إمكان يهود بولندا حل مشاكلهم على التراب البولندي. حتى في العشرينات عندما كان جْرونبيوم يناور مع الأقليات القومية الأخرى فقد أصبح سيّء السمعة بسبب ادعاءاته بأن اليهود كانوا مجرد «عفش زائد» كثير في البلاد، وأن لدى بولندا مليون يهودي فوق ما يمكنها أن تستوعب[٢٥]. وعندما اكتشف البريطانيون مفكرة أبا أشيمير بعد مقتل أرلوسوروف وجدوا هذا الرأي معبّراً عنه بقوة أكبر: «أود لو أن مليون يهودي بولندي يذبحون. ربما أدركوا أنهم يعيشون في جيتو»[٢٦].

لذلك قلل الصهاينة باستمرار من جهود الحزب الاشتراكي البولندي لمساعدة اليهود. وقد كتبت مجلة «**بالستاين بوست** في المقالة ذاتها في يناير/كانون الثاني ١٩٣٦، والتي سجلت معارك العمال في الشوارع ضد المعادين للسامية، أنه «من المفيد بشكل حاسم ونحن نسجل هذا المظهر المبشر، أنه طفيف كما يفصح عن نفسه[٢٧]. وفي يونيو / حزيران عام ١٩٣٧ استعادت مجلة «**لابور زايُونِسْتْ نُيوزْلتَر**» الأمريكية هذا التشاؤم قائلة:

صحيح أن الحزب الاشتراكي البولندي يظهر الآن تضامنه مع الجماهير اليهودية في بولندا بشجاعة وحماس لم يسبق لهما مثيل، ولكن من المشكوك به جداً أن يكون الاشتراكيون والعناصر الليبرالية الأصيلة في بولندا في وضع يمكنهم من القيام بمقاومة فعالة كافية لسد الطريق أمام زحف الطبعة البولندية من الفاشية[٢٨].

وفي الحقيقة، وبالرغم من أنه كان من المفترض أن الصهيونيين العماليين، جزء من نفس الأممية الاشتراكية مثل الحزب الاشتراكي البولندي، فقد كانوا يأملون أن يكونوا قادرين على تجاهل الأخير، وعلى التفاوض حول صفقة مباشرة مع أعداء الاشتراكيين البولنديين. وكتبت مجلة «**النْيوزْلِتَر**» في عدد ٢٠ سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٦ تقول:

شد أحد البيانات انتباه عالم السياسة الدولية بقوله: إن الحكومة البولندية تستعد للضغط من أجل مطالبها في المستعمرات... والمراقبون الواقعيون هم من الرأي القائل بأن مسألة إعادة توزيع المستعمرات هي في طريقها لكي تكون قضية حيوية. ولهذا السبب فإن مثل هذه الخطط والمقترحات من جانب البلاد ذات العدد الكبير من السكان اليهود لا بد وأن توليها القيادة العالمية اليهودية الانتباه المناسب[٢٩].

وفي الواقع لم يكن لدى بولندا أي إمكانية للحصول على «مكان تحت الشمس»، ولكن بالتصديق على ما يقوله المتطرفون المجانين حول الحقوق البولندية كان الصهاينة يأملون في أن يقنعوا الرأي العام العالمي بأن الجواب على معاداة السامية البولندية يوجد خارج هذا البلد.

وبالرغم من أن المنظمة الصهيونية العالمية كانت متحمسة لاستيعاب نظام وارسو فإنها بعد تخلي البريطانيين عن خطة بيل للتقسيم، وبعد تخفيض حصص الهجرة، لم يعد لدى أتباعها أي شيء يمكن أن يقدموه للكولونيلات البولنديين. وأصبح التصحيحيون هم أكثر المتعاونين قرباً للنظام. ولخص «جاكوب دي هاسْ» موقف التصحيحيين لليهود البولنديين في أكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٦:

> بالطبع فإن القول بأن اليهود هم «زائدون عن الحاجة» في كل مكان قول لا يسر. ومن ناحية أخرى فأن يكون المرء حساساً حيال العبارات التي تستعمل أو التي ستستعمل في أمور من هذا النوع، معناه أن يعرض المرء نفسه لآلام لا ضرورة لها. يجب أن نكون قادرين على أن نبتلع كميات أكبر بكثير إذا أعطتنا نتائج صحية(٣٠).

اقترح جابوتنسكي «إجلاء» ١,٥ مليون يهودي من أوربا الشرقية خلال فترة عشر سنوات، وأن يأتي معظم هؤلاء من بولندا. وحاول أن يجد كلمات جيدة يعبر بها عن هذا الاستسلام لمعاداة السامية. ولكنه أقر في عام ١٩٣٧ أنه وجد صعوبة في العثور على تعبير مناسب لاقتراحه:

> في البداية فكرت في كلمة «الخروج» (إكْسُودُس)، وفي عبارة «الرحيل الثاني من مصر». ولكن ذلك لم يكن صالحاً. نحن منغمسون في السياسة ويجب أن نكون قادرين على الاتصال بأمم أخرى وأن نطلب معونة دول أخرى. ولأنه لا يمكننا كذلك أن نقدم لهم تعبيراً هجومياً يستعيد الفرعون وضرباته العشر. وبالإضافة إلى ذلك فإن كلمة «الخروج» تستثير صورة مفزعة من الرعب،، صورة أمة متجمعة بكاملها كالدهماء غير المنظم تهرب وقد ضربها الفزع(٣١).

في عام ١٩٣٩ أرسل التصحيحيون روبرت بِرِسْكو وكان عندئذ عضواً في البرلمان الإيرلندي عن حزب «فيانّا فيل» (وأصبح فيما بعد مشهوراً بأنه عمدة دبلن اليهودي)،

لكي يقدم اقتراحاً إلى الكولونيل بِيْك:

> باسم الحركة الصهيونية الجديدة. . . اقترح أن تطلبوا من بريطانيا أن تحول لكم الانتداب على فلسطين وأن تجعلوها بالفعل مستعمرة بولندية. يمكنكم عندئذ نقل كل اليهود البولنديين لديكم، غير المرغوب فيهم، إلى فلسطين. ذلك سيؤدي إلى راحة كبرى في بلدكم وسيكون لكم مستعمرة غنية ومتنامية تساعد اقتصادكم[٣٢].

لم يُضِعْ البولنديون وقتهم في المطالبة بالحماية، ولا بد من التذكير بأن جابوتنسكي خطط لغزو فلسطين في عام ١٩٣٩. وقد تم التخطيط لهذه العملية أولاً في عام ١٩٣٧ عندما وافق البولنديون على تدريب الإرجون وتسليحها لغزو فلسطين في عام ١٩٤٠[٣٣]. وفي ربيع عام ١٩٣٩ أقام البولنديون معسكراً لتدريب رجال العصابات التابعين لزبائنهم التصحيحيين في زاكوبان في جبال تَتْرا[٣٤]. وتم تعليم ٢٥ عضواً من الأرجون من فلسطين فنون التخريب والتآمر والانتفاض على يد الضباط البولنديين[٣٥]. وتم تقديم أسلحة لعشرة آلاف رجل. وكان التصحيحيون يُعدون لتهريب البنادق إلى فلسطين عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية. وقال أفراهام شْتيرن، وهو المحرك الأول وراء معسكر زاكوبان للمتدربين، إن المرور إلى فلسطين عبر تركيا وإيطاليا كان «مسألة مفاوضات دبلوماسية لها احتمالاتها». ولكن لا يوجد دليل على أن الإيطاليين، وبالتأكيد ليس الأتراك، كانوا متورطين[٣٦]. وكان شتيرن واحداً من النواة الفاشيستية داخل «التصحيحية» وقد ظن بأنه إذا أمكن لموسوليني أن يرى أنهم بالفعل يعنون تحدي البريطانيين، فإن ذلك قد يدفعه إلى إحياء سياسته المؤيدة للصهيونية. كان الغزو قد خُطط له في الأصل كطموح جاد نحو السلطة وعندما اقترح جابوتنسكي تحويله إلى إيماءة رمزية تهدف إلى خلق حكومة في المنفى، دار جدال مر داخل قيادة الأرجون. وقد انقطع النقاش بالقاء البريطانيين القبض عليهم عشية الحرب.

من الصعب الاعتقاد بوجود أي مجموعة يهودية يمكن أن تكون قد وافقت على مثل هذه الخطة الخيالية وحثت البولنديين على تأييدها. ومع ذلك فقد كان لهذه الخطة ميزة لصالح النظام إذ أبقت الآلاف من أعضاء حركة بيتار بعيداً عن العمل ضد المعادين للسامية. لقد لاكموا وصارعوا وأطلقوا قليلاً من النيران ولكنهم لم يحاربوا الفاشيين أبداً ما لم يتعرضوا لهجوم. وطبقاً لما رواه شمويل مِيرْلين الذي كان حينئذ في وارسو بوصفه

الأمين العام للمنظمة الصهيونية الجديدة:

من الصحيح تماماً القول بأن البوند فقط هو الذي شن حرب منظمة ضد المعادين للسامية. نحن لم نعتبر أنه يتوجب علينا أن نحارب في بولندا. اعتقدنا أن الطريقة لتخفيف حدة الأوضاع كانت في إخراج اليهود من بولندا. لم تكن لدينا روح الحقد[٣٧].

فشل الاشتراكيين وخيانة الصهاينة:

لا يجب الاعتقاد بأن العمال البولنديين كانوا كلهم يؤيدون اليهود بقوة. كان الحزب الاشتراكي البولندي معادياً لليديش وكان ينظر إلى المتعصبين المتدينين (الهاسيديم) باحتقار هازىء. ومع ذلك فقد كان لدى الحزب دائماً زعماء يهود متمثّلين كما هي الحال بالنسبة لهيرمان لِيبرمان، أبرز برلمانيّي الحزب. وكان كثيرون من قياداته متزوجين يهوديات. وفي عام ١٩٣١ عرض الحزب الاشتراكي البولندي عرضاً سخياً: أن تقوم ميليشيا الحزب الاشتراكي البولندي بحماية القسم الخاص بالبوند في تظاهراتهم المشتركة يوم أول مايو / أيار، وأن تقوم المجموعة المنظّمة في البوند بحماية القسم لخاص بالحزب الاشتراكي البولندي. ورفض البوند هذا الاقتراح الرائع. قدَّر روح الإيماءة ولكنه رفض على أساس أنه كان من واجب اليهود أن يتعلموا كيف يحمون أنفسهم[٣٨]. ولم تكن عدم رغبة قادة الحزب الاشتراكي البولندي في بناء جبهة متحدة مع البوند في انتخابات البلدية الأخيرة الحاسمة نابعة من معاداتهم هم للسامية وإنما كانت تطبيقاً بولندياً لاهتمام الاشتراكيين الديمقراطيين القائل بكسب الأصوات. وبدلاً من محاولة كسب أصوات أكثر العمال تخلفاً كان من الواجب عليهم أن يدعوا إلى وحدة أكثر العمال والفلاحين تقدماً، للانقضاض على النظام. ولكن البوند، وبسبب عدم قدرته على التعرف على الإمكانيات الضخمة الكامنة التي تدفقت من اقتراح عام ١٩٣١ الدفاعي، وبسبب عدم قدرته عموماً على فهم أن اليهود لا يمكنهم هزيمة أعدائهم هزيمة لا رجعة فيها أبداً - ولا تحقيق الاشتراكية - بقوة حزبهم هم وفي عزلة عن الطبقة العاملة البولندية، فإن البوند بذلك ساهم أيضاً في الانشقاق القومي في الطبقة العاملة. كان كلا الحزبين إصلاحياً في جوهره، وعانى الكولونيلات هزيمة مرة في انتخابات البلدية، ولكن الحزبين لم يكن لديهما أي قوة اندفاع إلى الأمام وانتظرا في سلبية أن يسقط النظام من تلقاء نفسه. وبحجة

الحرص على الوحدة الوطنية أوقفا مهرجاناتها في عـام ١٩٣٩ بمناسبـة أول مايـو/أيار، عندما كان الاحتمال الوحيد لخلاص بولندا يكمن في أن يضعا الجماهير بشكل صدامي أمام النظام مع المطالبة بتسليح كل الشعب.

ولكن إذا كان البوند والحزب الاشتراكي البولندي قد فشلا في الاختبار النهائي فإنهما على الأقل قد حاربا بالفعل المعادين للسامية البولنديين. الصهيـونيون لم يفعلوا ذلـك. على العكس. لقد تنافسوا على مساندة أعداء اليهود.

هوامش الفصل العشرين

1. Ezra Mendelsohn, 'The Dilemma of Jewish Politics in Poland: Four Responses' in B. Vago and G. Mosse (eds.), *Jews and non-Jews in Eastern Europe*, p. 208.
2. Joseph Rothschild, *Pilsudski's Coup D'Etat*, p. 207.
3. 'Zionism in Poland', *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. II, p. 899.
4. Nana Sagi and Malcolm Lowe, 'Research Report: Pre-War Reactions to Nazi anti-Jewish Policies in the Jewish Press', *Yad Vashem Studies*, vol. XII, p. 401.
5. Pawel Korzec, 'Anti-Semitism in Poland as an Intellectual, Social and Political Movement', *Studies on Polish Jewry, 1919-1939*, p. 79.
6. 'Jewish Debate in Polish Parliament', *Jewish Weekly News* (Melbourne, 29 December 1933), p. 5.
7. Zosa Szajkowski, 'Western Jewish Aid and Intercession for Polish Jewry, 1919-1939', *Studies on Polish Jewry*, p. 231.
8. Ezra Mendelsohn, 'The Dilemma of Jewish Politics in Poland: Four Responses', p. 26.
9. 'Pilsudski Wood', *Palestine Post* (16 May 1935), p. 1.
10. Leonard Rowe, 'Jewish Self-Defense: A Response to Violence', *Studies on Polish Jewry*, p. 121.
11. Ibid., p. 123.
12. Ibid., p. 124.
13. 'The Anti-Jewish Excesses in Poland', *Palestine Post* (29 January 1936), p. 3.
14. Jacob Lestchinsky, 'Night over Poland', *Jewish Frontier* (July 1936), pp. 11-12.
15. William Zukerman, 'Jews in Poland', *Palestine Post* (1 December 1937), p. 4.
16. Joel Cang, 'The Opposition Parties in Poland and their Attitudes toward the Jews and the Jewish Problem', *Jewish Social Studies* (April 1939), p. 248.
17. Alexander Erlich *et al.*, *Solidarnosc, Polish Society and the Jews*, p. 13.
18. 'Democrats win in Polish Elections', *New York Times* (20 December 1938); and *The Times* (London, 20 December 1938).
19. Bernard Johnpoll, *The Politics of Futility*, p. 224; and Edward Wynot, *Polish Politics in Transition*, pp. 234-5.
20. *American Jewish Year Book 1937-1938*, p. 392.
21. S. Andreski, 'Poland' in S. Woolf (ed.), *European Fascism*, p. 179.
22. 'Endeks propose mass emigration of Jews', *World Jewry* (London, 13 March 1936), p. 5.
23. 'The Jewish Situation in Poland during August and September 1937',

Information Bulletin (American Jewish Committee), nos. 8–9 (1937), p. 3.

24. 'Agreement Outside Mandate Sought', *Palestine Post* (15 September 1937), p. 8.

25. Szajkowski, ' "Reconstruction" vs. "Palliative Relief" in American Jewish Overseas Work (1919–1939)', *Jewish Social Studies* (January 1970), p. 24.

26. *Jewish Daily Bulletin* (8 September 1933), p. 1.

27. *Palestine Post* (29 January 1936), p. 3.

28. 'Poland', *Labor Zionist Newsletter* (4 June 1937), pp. 1–2.

29. 'The Diaspora', *Labor Zionist Newsletter* (20 September 1936), p. 10.

30. Jacob de Haas, 'They are willing to go', *Chicago Jewish Chronicle* (2 October 1936), p. 1.

31. Vladimir Jabotinsky, 'Evacuation -- Humanitarian Zionism' (1937), published in *Selected Writings of Vladimir Jabotinsky* (South Africa, 1962), p. 75.

32. Robert Briscoe, *For the Life of Me*, p. 28.

33. J. Bower Bell, *Terror Out of Zion*, p. 28.

34. Daniel Levine, *David Raziel, The Man and His Times*, pp. 259–60.

35. Nathan Yalin-Mor, 'Memories of Yair and Etzel', *Jewish Spectator* (Summer 1980), p. 33.

36. Levinc, *David Raziel*, p. 260.

37. Author's interview with Shmuel Merlin, 16 September 1980.

38. Rowe, 'Jewish Self-Defense', pp. 113–14.

٢١ ـ الصهيونية في بولندا المحرقة

ما أن غزا النازيون بولندا حتى أصبح اليهود محتوماً فناؤهم. كان هتلر ينوي بأن يوفر فتح بولندا «مجالاً حيوياً» للمستعمرين الألمان، وأن يتم تمثّل بعض البولنديين، الأفضل عِرقياً، بالقوة في الأمة الألمانية، وأن يُستغل الباقون بلا هوادة كعمال عبيد. وبتحديد هذه الأهداف الجذرية للشعب السلافي كان من الواضح انه لن يكون هناك مكان لليهود في الرايخ الموسَّع. لقد سمح النازيون، بل شجعوا بالقوة هجرة اليهود من ألمانيا والنمسا حتى أواخر عام ١٩٤١، ولكن الهجرة من بولندا خفضت منذ البداية الى قطرات قليلة حتى لا تعوق التدفق من ألمانيا العظمى. وفي البداية سمح المحتلون لليهود الأمريكيين بإرسال طرود الغذاء، ولكن ذلك كان فقط لأن هتلر يحتاج وقتاً لينظم المناطق الجديدة ويُسَيِّر الحرب.

الطبقة العاملة لا تستسلم

خلال أيام من الغزو الألماني أعلنت الحكومة البولندية وارسو مدينة مفتوحة. وأمرت كل قادر جسمانياً من الرجال بالتراجع الى خط جديد على نهر البج. ودرست اللجنة المركزية للبوند ما إذا كان من الأفضل لليهود أن يحاربوا حتى النهاية في وارسو بدلاً من رؤية عائلاتهم تسقط في يد هتلر، ولكنهم شكوا في أن يتبعهم اليهود في مقاومتهم وفي أن يتحمل البولنديون جلب الدمار على المدينة. وهكذا قرروا التراجع مع الجيش، وعينوا لجنة هيكلية للبقاء وأمروا كل أعضاء الحزب الآخرين بأن يتبعوا العسكر شرقاً. وشرح

الكسندر إرليش موقفهم:

قد يبدو موقفنا ساذجاً لأننا نعلم الآن أن ستالين كان على وشك الغزو من الشرق، ولكننا ظننا أن الخطوط ستستقر. وشعرنا بأننا بالتأكيد سنكون أكثر تأثيراً مع جيش مطوّق منا لو كنا في منطقة يسيطر عليها الألمان بأي حال[1].

وعندما اقتربت لجنة البوند من نهر البج سمعوا أن أمر الإجلاء قد ألغي. كان ميتشزلاف نيدزيالكوفسكي وزيجمونت زارِمبا من الحزب الاشتراكي البولندي قد أقنعا الجنرال تْشوما، القائد العسكري، انه من الحيوي نفسيا بالنسبة لحركة المقاومة في المستقبل أن لا تسقط عاصمة بولندا بدون حرب. وأعطى البوند تعليمات لقائدين من قادته الكبار هما فيكتور آلتر وبرنارد جولدشتاين بالعودة الى وارسو. كان طريق العودة مسدوداً بشكل ميئوس منه، فقررا التوجه جنوباً ثم حاولا التقدم نحو وارسو من ذلك الموقع. وقد وصلا حتى مدينة لبلين حيث افترقا. لم ينجح آلت آبدا، ولكن جولشتاين وصل إلى وارسو بالفعل يوم ٣ اكتوبر/تشرين أول. في ذلك الوقت كانت المدينة قد سقطت، ولكنها لم تسقط إلا بعد دفاع مصمم من جانب قوات كانت في المنطقة المحيطة ومن كتائب عمالية نظمها الحزب الاشتراكي البولندي والبوند.

توزع القيادة الصهيونية

غادر معظم القادة الصهاينة البارزون وارسو عندما جلا الجيش عن المدينة، ولكنهم على عكس البوندين لم يعد منهم أحد عندما سمعوا بالدفاع عن العاصمة. وبعد أن عبر السوفييت الحدود هربوا إما إلى رومانيا أو شمالاً نحو فيلْنا التي سمعوا أن السوفييت قد سلموها للتوانيا، من بين اللاجئين كان موشي سْنيه، رئيس المنظمة الصهيونية البولندية، ومناحم بيجين الذي كان عندئذ قائد حركة البيتار البولندية، وصديقه ناتان يالين ـ مور، واسرائيل شيب (إلداد)[2].

ذهب سْنيه الى فلسطين، وأصبح من بعد قائداً للهاجاناه من عام ١٩٤١ إلى عام ١٩٤٦، وألقي القبض على بيجين في النهاية في لتوانيا على يد الروس. وبعد معاناة في معسكرات ستالين في سيبريا أطلق سراحه عندما غزت ألمانيا الاتحاد السوفييتي. وترك الاتحاد السوفييتي بوصفه جندياً في الجيش البولندي في المنفى ووصل إلى فلسطين في عام ١٩٤٢ وترأس فيما بعد منظمة الإرجون في تمرد عام ١٩٤٤ ضد بريطانيا. وصعد ناتان

يلين - مور واسرائيل شيب (إلْداد) فيما بعد ليصبحا اثنين من القادة الثلاثة «لعصابة شتيرن»، وهي مجموعة كانت انشقت عن الأرجون. من بين الصهاينة لم يرسل بمنظّمين إلى الدوامة البولندية إلا شبيبة الهاشومير (الحارس) والهيثالوتز (الرواد). وسعى الآخرون للحصول على شهادات فلسطينية، وحصل البعض عليها وتركوا مجزرة أوربا.

هل تخلوا عن شعبهم لكي يندفعوا نحو فلسطين؟ إن السجل واضح مع بيجين. قال في مقابلة في عام ١٩٧٧:

وصلنا لفُوف (لمبرج) مع مجموعة من الأصدقاء في جهد يائس ومستميت لكي نعبر الحدود ونحاول الوصول إلى أرض اسرائيل، ولكننا فشلنا. عند ذلك سمعنا ان الروس سيجعلون فيلنا عاصمة لجمهورية لتوانيا المستقلة[٣].

وعندما ألقي القبض على بيجين في عام ١٩٤٠ كان عازماً على الاستمرار في رحلته إلى فلسطين، ولم تكن لديه أي خطط للعودة الى بولندا. وقد كتب في كتابه «الليالي البيضاء» أنه قال لسجانيه الروس في سجن لوكشكي في فيلنا:

تسلمتُ وثيقة مرور من كوفْنو لزوجتي ولي وكذلك تأشيرات دخول إلى فلسطين. كنا على وشك الرحيل ولم يمنعني من فعل ذلك سوى إلقاء القبض علي.

وأضاف بعد بضع صفحات: «كنا على وشك الرحيل.. ولكن كان علينا أن نتنازل عن أماكننا لصديق»[٤].

ولقد سجل اثنان من كاتبي سيرته، وهما من اخوانه التصحيحيين، لِسْتر إكمان وجِرْتْرود هِرشْلر، أنه كان قد أدين من قبل حركته لهربه، ولكنهما يزعمان أنه فكر في العودة:

تسلمَّ رسالة من فلسطين تنتقده لهروبه من العاصمة البولندية عندما كان يهود آخرون مقطوعين هناك. وتذكر الرسالة انه كان عليه كقائد لحركة بيتار ان يكون الأخير الذي يغادر السفينة الغارقة. كان بيجين ممزقاً بالشعور بالذنب، وقد احتاج الأمر إلى جهود مضنية من جانب رفاقه لمنعه من القيام بهذا العمل المتهور والذي كان من المحتمل أن يكلفه حياته[٥]

لا يشير بيجين إلى ذلك في «الليالي البيضاء» ولكنه يوضح أنه «لا يوجد شك في أنني كنت سأكون واحداً من أوائل من كانوا سيعدَمون لو امسكني الألمان في وارسو[٦]» وفي الحقيقة لم يكن هناك أي اضطهاد محدد ضد الصهاينة بشكل عام أو التصحيحيين بشكل خاص في وارسو أو أي مكان آخر. على العكس، بل وحتى وقت متأخر من عام ١٩٤١، بعد غزو الاتحاد السوفييتي، عين الألمان جوزيف جلازمان رئيس حركة البيتار اللتوانية مفتشاً في الشرطة اليهودية في جيتو فيلنا. لقد أراد بيجين الذهاب إلى فلسطين لأنه كان الشخص الذي صاح بأعلى صوته في مؤتمر البيتار عام ١٩٣٨ منادياً بفتحها فوراً. ولقد ظهر وصف مثير لذلك يوم ٢ مارس/آذار عام ١٩٨٢ خلال نقاش في البرلمان الاسرائيلي. سأل بيجين بشكل رزين ومهيب: «كم من الناس في البرلمان هم الذين كان عليهم أن يضعوا [على صدورهم] نجمة داود؟(*) أنا واحد منهم»[٧]. لقد هرب بيجن من النازيين ولم تكن هناك «نجوم صفراء» في لتوانيا عندما كان هناك كلاجىء.

المجالس اليهودية

وجد الألمان عند وصولهم الى وارسو آدم تشرنياكوف وهو صهيوني ورئيس رابطة الحرفيين اليهود باعتباره رئيس بقية تنظيم الجاليةاليهودية، فأمروه بإقامة «مجلس يهودي»[٨] (يُودِنْرات). وفي لودز، المدينة البولندية الثانية، تم بالمثل تعيين حاييم رِمْكوفْسكي، وهو سياسي صهيوني صغير أيضاً. ولم يكونوا على أي حال ممثلين معتمدَين للحركة الصهيونية، وكان كلاهما من الشخصيات غير المهمة قبل الحرب.

لم تكن كل المجالس برئاسة صهاينة، بعضها كان يرأسه مثقفون تمثّليون أو حاخامون، بل ـ كما حدث في إحدى المدن (بيوتْرْكوف) ـ عضو من البوند. ومع ذلك فإن عدد الصهاينة الذين اختيروا لعضوية أو قيادة هذه المجالس العميلة كانوا أكثر من كل الاتحاديين والبونديين والشيوعيين مجتمعين. كان النازيون يحتقرون إلى أقصى حد الهاسيديم (المتدينين) الورعين من الاتحاديين، وكانوا يعرفون أن البونديين والشيوعيين لن يعملوا أبداً كأدوات لهم. وبحلول عام ١٩٣٩ كان للنازيين عدد من الصفقات مع الصهاينة في ألمانيا، وكذلك في النمسا وتشيكوسلوفاكيا، وكانوا يعرفون أنهم لن يواجهوا سوى مقاومة قليلة بين صفوفهم.

---

* النجمة السداسية التي كان على اليهود أن يضعوها على صدورهم تمييزاً لهم (م).

ولقد ضاعف من الفراغ المترتب على غياب القيادة الصهيونية المجربة، حقيقة أن النازيين سمحوا لبضعة شهور لحملة الشهادات بأن يغادروا بولندا إلى فلسطين. واستغلَّت المنظمة الصهيونية العالميةالفرصة لكي تسحب المزيد من القيادات المحلية، بمن في ذلك أبوليناري هارتْجْلاس الذي سبق سْنيه كرئيس للمنظمة الصهيونية. وقد ذكر تشرنْياكوف في يومياته كيف أنه مُنح واحدة من الشهادات، وكيف أنه رفض بإزدراء مغادرة مواقعه(٩). وفي فبراير/شباط ١٩٤٠ سجل كيف انفجر غاضباً في وجه رجل راحلٍ جاء ليودعه الوداع الأخير:

أنتَ أيها القملة، لن أنساك يا قملة. كيف ادّعيت العمل كقائد، وها أنت تجري بعيداً مع الآخرين مع أمثالك تاركين الجماهير في هذا الوضع المروع(١٠).

وقد كتب يزرائيل جوتْمان وهو واحد من الباحثين في معهد «يادفاشيم هْلُوكوست»، حول هذا الموضوع:

صحيح أن بعض القيادات لديها سبب وجيه للخوف على أمنها الشخصي في بلد سقط في أيدي النازيين. وفي نفس الوقت، كان في رحيل أولئك القادة عنصر من عناصر إثارة الفزع، لم يجد ما يوازنه في محاولة الاهتمام بمن يحل محلهم، وباستمرار نشاطاتهم السابقة بواسطة آخرين.. أو أولئك الذين بقوا هناك كانوا على الأغلب قادة من الصف الثاني أو الثالث ولم يكونوا قادرين دائماً على معالجة المشاكل الحادة في تلك الأيام. كذلك كان ينقصهم صلات الارتباط الحيوية بالجمهور البولندي وقيادته. وضم القادة الذين بقوا بعض الذين تحفظوا على النشاط السري وحاولوا قطع أي صلة بماضيهم(١١).

ولقد أظهر بعض الباحثين أن ليس كل قادة أو أعضاء المجالس اليهودية قد تعاونوا مع النازي، لكن الجو المعنوي العام فيها بينهم كان مفسداً للغاية. ولقد وصف برنارد جولدشتاين في مذكراته، «**النجوم تشهد**»، مجلس وارسو في الأشهر الأولى قبل إقامة الجيتو: إن المجلس لكي يمكنه أن يخفف من إرهاب فرق التجنيد، قدم للألمان فرق عمل. وأقاموا نظاماً لمذكرات الاستدعاء. وكان من المفترض أن يخدم كل شخص بالدور، ولكن:

سرعان ما أصبحت العملية فاسدة. . دفع أغنياء اليهود رسوماً تصل إلى الآلاف من الزلوتيات لكي يتم إعفاؤهم من العمل الإجباري. وجمع المجلس اليهودي هذه الرسوم بكميات كبيرة وأرسل الرجال الفقراء الى فرق العمل بدلاً من الأغنياء[١٢].

ولم يكن كل فرع من فروع جهاز المجلس فاسداً بأي حال. لقد شغلوا أنفسهم بشدة بالتعليم وبالرفاه الاجتماعي، ولكن مجالس قليلة بذلت كل شيء لغرس روح المقاومة، ولقد لخص إشعيا تْرَنْك وهو واحد من أكثر الدارسين المهتمين بالمجالس اليهودية، بإيجاز بارع:

> أقول بصراحة إن معظم المجالس اليهودية كان لها موقف سلبي من موضوع المقاومة. . ففي المناطق الشرقية، فان القرب الجغرافي من قواعد الأنصار وفر إمكانيات انقاذ، وقد أثّر ذلك الى درجة معينة على موقف المجالس اليهودية. . وحيثما لم يكن هناك إمكانية للانقاذ من خلال الأنصار فإن موقف الأغلبية العظمى من المجالس اليهودية تجاه المقاومة كان سلبياً بشكل مطلق[١٣].

كان هناك بعض المتعاونين على المكشوف مثل آفراهام جانسفايش في وارسو، الذي كان في وقت من الأوقات صهيونياً عمالياً «يمينياً». وقد رأس الـ «١٣»، وقد سميت كذلك لوجود مقر قيادتهم في ١٣ شارع لزنو. كان عملهم هو الإمساك بالمهربين والتجسس على المجلس اليهودي والقيام بشكل عام بأعمال استخبارات للجستابو[١٤]. وفي فيلْنا كان ياكوب جِينْس، وهو تصحيحي، رئيساً لشرطة الجيتو ورئيس الجيتو في الواقع، ومتعاوناً بالتأكيد. وعندما سمع النازيون عن حركة مقاومة في الجيتو، خدع جينس قائدها وهو الشيوعي إتْزِك فِتنْبرجْ للحضور إلى مكتبه. عندئذ تركه جِينْس للشرطة اللتوانية التي القت القبض عليه[١٥]. أما الجنرال الصهيوني حاييم رمكوفسكي في لودز فقد أدار الجيتو الخاص به بأسلوب فريد، وقد وضع «الملك حاييم» - كما كان رعاياه يشيرون إليه - صورته على طوابع بريد الجيتو. لم يكونوا كلهم على هذا القدر من الخسة مثل هؤلاء. لقد تعاون تشرنياكوف مع النازيين وعارض المقاومة ولكن خلال «العمل» الكبير في يوليو/تموز ١٩٤٢ عندما أخذ الألمان ٣٠٠,٠٠٠ يهودي فضل أن ينتحر بدلاً من أن يستمر في التعاون. حتى رمكوفسكي أصر على أن يذهب للموت مع الجيتو الخاص به عندما أوضح النازيون أنه حتى التعاون لن يؤدي إلى نجاة «نواة» من رعاياه.

كان ما يفعلونـه مبرراً في عقولهم لأنهم ظنوا أنه بالتعاون المذل فحسب يمكن أن ينجـو عدد قليل من اليهود. ومع ذلك فقد كانوا مخدوعين. فمصـير الجيتوات الفـردية، بـل والمجالس الفردية كانت تحددها في كل حالة تقريباً سياسة النازيين الاقليمية أو نزواتهم وليس ما إذا كان هذا الجيتو طيِّعاً أم لا.

«ليس للأحزاب أي حق في اعطائنا أوامر»

يجب النظر إلى كل المقاومة اليهودية في إطار السياسة النازية تجاه البولنديين. لم يسع هتلر أبداً إلى إيجاد «كويسلنج» بولندي. وكان على البلاد أن تُحكَم بالرعب. ومنذ البداية أُعدم الآلاف في عمليات عقاب جماعية على أي عمل من أعمال المقاومة. وقُتل أعضاء من الحزب الاشتراكي البولندي وضباط سابقون وكثيرون من رجال الدين والاكاديميين، وكثيرون من الذين يحتمل أن يكونوا من المؤمنين بـالتضامن مـع اليهود، أو أرسلوا الى معسكرات الاعتقال. في نفس الوقت سعى النازيون الى توريط الجماهير البـولندية في إعدام اليهود من خلال مكافآت ماديـة، ولكن كان هنـاك دائماً من هـو على استعـداد لمساعدة اليهود. وكانت أهم مجموعة هي الحزب الاشتراكي البـولندي الـذي كان قـد سرق كل أنواع الأختام الرسمية وزور أوراقاً آريّة لبعض من رفاقه البونديين. وحافظ التصحيحيون على صلات مع عناصر من العسكرية البولندية. وخبأ آلاف من البولنديين يهوداً، مخاطرين بموت محقق إذا أُمسك بهم.

كـانت أهم ميزة أفـادت الألمان هي غيـاب البنـادق من أيـدي الشعب، لأن الكولونيلات كانوا عملوا دائماً على أن يبقى السلاح بعيداً عن الأيدي المدنية. ولم يكن الحزب الاشتراكي البولندي ولا البوند قد طورا أبـداً مليشياتهـا إلى أبعد من عمليـات إطلاق نار عـلى الأهداف الثـابتة أحيـاناً. وكـان عليهم الآن أن يدفعـوا الثمن، فمن الناحية العملية كانت البنادق المتوفرة الوحيدة هي تلك التي خبأها الجيش المتراجع وقد أصبحت الآن تحت وصاية «جيش الوطن» (آرميا كرايوفا) الذي كـان يأخـذ أوامره من حكومة المنفى في لندن. وقد كان على المنفيين أن يضموا إليهم تحت الضغط البريطاني، تمثيلاً لفظياً لكل من الحزب الاشتراكي البولندي والبوند، ولكن السيطـرة على «جيش الوطن» ظلت في أيدي المعادين للسامية وحلفائهم، لقد كانوا يكرهـون تسليح الشعب خوفاً من ان يستـدير العمـال والفلاحـون بأسلحتهم ضـد الأغنياء بعـد طرد الألمان. وطوروا العقيدة الستراتيجية القائلة أن وقت الضرب هو عندما يكون الألمان يعانـون

الهزيمة على أرض المعركة. وأصروا على أن العمل غير الناضج لن يخدم أي غاية وسيؤدي فقط إلى أن يوقع النازيون غضبهم على الشعب. ومن الطبيعي أن ذلك كان يعني أن كل معونة لليهود كانت دائماً في غير وقتها. وشعر الحزب الاشتراكي البولندي، إذ لم تكن لديه أسلحة خاصة به، أنه مضطر للالتحاق «بجيش الوطن»، ولكنه لم يكن قادراً أبداً على الحصول على ما يكفي من الأسلحة لمعاونة اليهود بشكل مستقل بأي طريقة جادة.

كان أولئك اليهود الذين قاوموا معاداة السامية البولندية قبل الحرب هم الأوائل في مقاومة النازيين. أما أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً فقد استمروا لا يفعلون شيئاً. وأصر تشرنياكوف على أن يقدِّم البوند عضواً للمجلس اليهودي في وارسو. كان البونديون يعرفون منذ البداية أن المجلس لن يكون سوى أداة للألمان، ولكنهم شعروا أنهم مضطرون للموافقة، وسمّوا مندوبا عنهم هو شمويل تْسِيجلْبويم. كان تسيجلبويم قائد الحزب في لودز وقد فر إلى وارسو على أمل الاستمرار في الحرب بعد انسحاب الجيش البولندي من مدينته، ثم ساعد على تعبئة بقايا البوند في وارسو إلى جانب الحزب الاشتراكي البولندي.

وافق تسيجلبويم بتردد على وضع جدول العمل الإجباري باعتباره أفضل من التوقيفات العشوائية التي تقوم بها فرق التجنيد، ولكنه في اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٣٩، عندما تلقى المجلس اليهودي أمراً بتنظيم «جيتو»، لم يستمر. وقال للمجلس:

> أشعر أنه لن يكون لي الحق في الحياة إذا.. أقيم الجيتو وبقيت رأسي دون أن يمسها أذى.. واعترف وأقر بأن الرئيس عليه التزام بأن يبلغ ذلك إلى الجستابو، وأعرف العواقب التي قد يجرها هذا عليَّ شخصياً(١٦).

خشي المجلس أن يفقدهم موقف تسيجلبويم المصداقية بين اليهود إذا هم قبلوا أمر النازي بخنوع، وهكذا تراجعوا عن قرارهم الأول بالقبول والتنفيذ. ووصل إلى خارج مقر قيادتهم آلاف من اليهود للحصول على مزيد من المعلومات. واستغل تسيجلبويم الفرصة للكلام. قال لهم أن يبقوا في بيوتهم وأن يجعلوا الألمان يأخذونهم منها بالقوة. أمره النازيون بالحضور الى الشرطة في اليوم التالي. وفهم البوند ذلك على انه حكم بالموت فهرّبوه الى خارج البلاد. ومع ذلك فقد نجح عمله بالفعل في إلغاء الأمر بإقامة جيتو، مؤقتاً..

ووقعت آخر المعارك الشجاعة الباسلة التي خاضها البوند قبل عيد الفصح ١٩٤٠ مباشرة. كان سفاح بولندي قد هاجم يهودياً مسناً وبدأ ينزع شعر لحيته من وجهه. وشاهد بوندي هذه الحادثة فضرب البولندي. وفي اليوم التالي أمسك البولنديون بالبوندي وأطلقوا النار عليه. وبدأ مرتكبو المذابح البولنديون في الإغارة على الأحياء اليهودية بينما كان الألمان يقفون بلا حراك. كانوا يريدون أن تستمر الاغارات لكي يثبتوا أن الشعب البولندي يؤيدهم في سياستهم المعادية لليهود. وفاقت الهجمات على اليهود بدرجة كبيرة أي شيء سبق لأتباع «النارا» أن فعلوه في بولندا المستقلة. وشعر أعضاء البوند أنه لم يكن أمامهم خيار سوى المخاطرة بإغضاب النازيين. وخرجوا للقتال. ولضمان أنه لا تكون هناك وفيات بولندية يمكن أن تستخدم لمزيدٍ من الغزوات فإنهم لم يستعملوا السكاكين أو البنادق، فقط القبضات النحاسية والقضبان الحديدية. وحارب مئات من اليهود وأعضاء الحزب الاشتراكي البولندي مرتكبي المذابح في حي «فولا» طيلة اليومين التاليين حتى أنهت الشرطة البولندية أخيراً حرب الشوارع. لم يتدخل النازيون. التقطوا صوراً خاصة بدعايتهم واختاروا في ذلك الوقت بأن لا يعاقبوا اليهود على أفعالهم[١٧]. وقد ميزت هذه المرحلة نهاية قيادة البوند بين اليهود البولنديين.

خلال أشهر قليلة من الاحتلال الألماني بعث قادة مجموعات الشباب الصهيوني في الهاشومير والهاجالوتز الذين كانوا قد فروا إلى لتوانيا أيضاً، ممثلين إلى بولندا مرة أخرى ولكن بدون أي فكرة عن تنظيم هبّة. كانوا يرون أن واجبهم هو المعاناة مع الشعب في حصاره وفي محاولة الحفاظ على المعنويات من خلال المحافظة على مستويات أخلاقية عالية. وجاء أول الأعمال العسكرية من جانب مجموعة صهيونية من «سْويت» (الفجر) وهي تجمُّع من قدامى التصحيحيين. كانت لديهم ارتباطات بتنظيم الـ «ك . ب»، أو فيالق الأمن، وهي وحدة بولندية صغيرة كانت على صلة واهية بجيش الوطن. وقد أرسل تنظيم الـ ك. ب. منذ وقت مبكر في عام ١٩٤٠ عدة يهود، من بينهم عدد من الأطباء إلى المنطقة بين نهري البج والسان، حيث عملوا مع عناصر من جيش الوطن[١٨]. ومع ذلك فلم يكن لدى مجموعة السويت ولا مجموعة الـ ك . ب. أي خطط للمقاومة على نطاق واسع أو للهروب من الجيتوات[١٩].

لم يبدأ التفكير الجدي في مقاومة يهودية مسلحة إلا بعد الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي. فمنذ البداية تخلى النازيون عن كل الكوابح على نشاطاتهم في الاتحاد

السوفييتي. وبدأت «وحدات المهام الخاصة» في ذبح اليهود بشكل منتظم. وبحلول اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٤١، أي بعد أربعة أشهر من الغزو، كان أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ يهودي قد قتلوا في عمليات إعدام جماعية في روسيا البيضاء ودول البلطيق. وبحلول ديسمبر/كانون أول ١٩٤١ كانت التقارير الأولى عن القتل بالغاز على الأراضي البولندية في شِلْمْنو قد أقنعت حركات الشباب في البوند والتصحيحيين والشيوعيين أن عليهم تجميع بعض المجموعات العسكرية، ولكن الكتلة الأساسية من القادة الذين ظلوا على قيد الحياة من الأحزاب الرئيسية في المنظمة الصهيونية العالمية كانوا إما غير مصدقين أن ما حدث في أماكن أخرى سيحدث في وارسو، أو أنهم كانوا مقتنعين بعدم إمكانية فعل أي شيء. وقد سجل اسحاق تْسُوكرَمان وهو أحد مؤسسيّ «التنظيم اليهودي المحارب» الذي وحّد قوات المنظمة الصهيونية العالمية مع البوند والشيوعيين، وأصبح فيها بعد مؤرخاً كبيراً لانتفاضة وارسو، سجل بجرأة: «نشأ التنظيم اليهودي المحارب بدون أحزاب وضد رغبة الأحزاب»[٢٠]. وبعد الحرب، تم نشر بعض كتابات هِرتْزبِرْلِينْسكي من بوعالي صهيون «اليساري»، بعد وفاته. وقد تكلم عن مؤتمر في اكتوبر/تشرين اول عام ١٩٤٢ بين تنظيمه ومجموعات الشباب. كان السؤال المطروح أمامهم هو ما إذا كان يتوجب أن يكون للتنظيم اليهودي المحارب مجرد قيادة عسكرية أو لجنة عسكرية ـ سياسية، وكانت مجموعات الشباب تريد أن تتجنب سيطرة الأحزاب:

لقد تحدث الرفاق من الهاشومير والهجالوتز بشكل حاد عن الأحزاب السياسية: «لا يحق للأحزاب أن تعطينا أوامر. وهم لن يفعلوا شيئاً بإستثناء الشباب منهم. سيتدخلون فحسب»[٢١].

وفي المؤتمر الخاص «بمظاهر المقاومة اليهودية» والمنعقد في «إدارة إحياء التذكر في يادفاشيم» في أبريل/ نيسان عام ١٩٦٧، تبودلت كلمات مرة بين أولئك المؤرخين الذين شاركوا في النضال وأولئك الذين لا يزالون يحاولون الدفاع عن التوجه السلبي. وتحدى يزرائيل جوتْمان واحداً من الأخيرين هو الدكتور ناتان إِكْ:

هل تصدق أننا لو كنا انتظرنا حتى النهاية وتصرفنا طبقاً لنصيحة قادة الأحزاب، أن الانتفاضة كانت ستقع مع ذلك، أم أن الأمر لن يكون له أي معنى بأي شكل؟ أعتقد أن انتفاضة ما كانت ستقع على الإطلاق. وأتحدى الدكتور إك ان يقدم دليلاً مقنعاً على أن قادة الأحزاب كانوا ينوون بأي حال أن

تكون هناك انتفاضة(٢٢).

ووصف عمانويل رِنْجِلْبْلوم، وهو المؤرخ العظيم لتدمير وارسو اليهودية، تفكير صديقه مردخاي أنيلفتش من الهاشومير، وقائد التنظيم اليهودي المحارب:

ان مردخاي الذي نضج بسرعة وصعد بشكل سريع الى أكثر المواقع مسئولية كقائد «لتنظيم المحاربين»، يأسف الآن بشدة لأنه وزملائه قد ضيعوا ثلاث من سنوات الحرب في عمل ثقافي وتعليمي. نحن لم نفهم ذلك الجانب الجديد من هتلر الذي أخذ يظهر، يقول مردخاي بندم. كان يجب أن نكون قد دربنا الشباب على استعمال الذخائر الحية والباردة. كان يجب أن نكون قد أنشأناهم بروح الثأر من أكبر أعداء اليهود وكل البشرية وفي كل العصور(٢٣).

وتركز الجدل داخل المقاومة على السؤال الأساسي الخاص بأين نحارب، وبشكل عام كان الشيوعيون هم الذين حبذوا وجود أكبر عدد ممكن من الشباب في الغابات كأنصار بينما دعا الصهاينة الشباب الى صمود أخير في الجيتوات. كان الشيوعيون دائماً هم أكثر الأحزاب تكاملاً من الناحية الأثنية في البلاد، والآن، والاتحاد السوفييتي نفسه قد هوجم، فقد أصبحوا ملتزمين كلية بالنضال ضد هتلر. وأنزل السوفييت بالمظلة بِنكُوس كارتين، وهو محارب قديم في الحرب الأهلية الأسبانية لينظم الحركة السرية اليهودية في بولندا. وحاجج الشيوعيون بأنه لا يمكن الدفاع عن الجيتوات، وأن المقاتلين سيقتلون دون جدوى. أما في الغابات فانهم ليسوا فقط سينجون بل سيكونون قادرين أيضاً على بدء الهجوم على الألمان. وأثار الشباب الصهيوني تساؤلات حقيقية حول الانسحاب الى الغابات. كان الجيش الأحمر لا يزال بعيداً جداً، وكانت الجماهير البولندية تنظر بشك كبير للحرس الشعبي التابع للشيوعيين البولنديين بسبب تأييده السابق لاتفاق هتلر - ستالين الذي أدى مباشرة إلى تدمير الدولة البولندية. وبالنتيجة، كان لدى الحرس كمية قليلة جداً من الأسلحة وكان الريف مليئاً بالأنصار المعادين للسامية، «النارا» غالباً، الذين لم يكونوا يترددون في قتل اليهود. ومع ذلك فقد كان هناك عنصر حلقي آخر في معظم تفكير الشباب الصهيوني كان مردخاي تِنْنبوم - تاماروف من بْيالِيسْتوك هو أكثر المعارضين حماساً ضد مفهوم الأنصار، ومع ذلك فالمدينة كانت وكأنها غابة بدائية كثيفة(٢٤). كتب:

في الثأر الذي نريد أن ننجح فيه، فان العامل الدائم والحاسم هو العامل

اليهودي ، العامل القومي . . . ان توجهنا هو ـ القيام بدورنا القومي داخل الجيتو (لا أن نترك المسنين لمصيرهم الدموي!) . . . فإنْ بقينا أحياء فسنخرج وأسلحتنا في أيدينا إلى الغابات(٢٥).

هذا هو الخط الذي اتبع في وارسو حيث تعمّد مردخاي أنيليفتش ألا يضع أي خطط للإنسحاب لشعوره بأن الأفكار الخاصة بالهروب في آخر لحظة يمكن أن تحط العزيمة الحديدية المطلوبة للوقوف ومواجهة موت محقق(٢٦).

كانت النتائج مخيبة للآمال. وكان الهاشومير والهجالوتز يأملون أن مثالهم سيلف الجيتوات، ولكنهم لم يفهموا أن روح الشعب كانت قد انكسرت بعد بسنوات أربع من الإذلال والألم. لم يكن من الممكن تسليح الجيتوات، ومن ثم رأوا أن الانتفاضة لن تفعل سوى زيادة تأكيد موتهم. وكان يزرائيل جوتمان على صواب تماماً حين أصر:

الحقيقة ان الجمهور اليهودي في معظم الجيتوات لم يفهم، ولم يقبل، طريق المقاتلين وتقديرهم [للوضع]. وفي كل مكان انشغلت منظمات القتال بجدل مر مع الجمهور اليهودي . . وحققت حركات الشباب في وارسو ما لم تحققه في أماكن الانتفاضة الأخرى(٢٧).

كان لجيتو وارسو مصدران محتملان للأسلحة: «الحرس الشعبي» الذي كان يريد أن يساعد، ولكن لم تكن لديه سوى بنادق قليلة، «وجيش الوطن» الذي كانت لديه بنادق ولكنه لم يكن يريد أن يساعد ، وانتهى بهم الأمر بأسلحة قليلة معظمها مسدسات وقد خاضوا المعركة بشجاعة لأيام قليلة، بقدر ما استطاعت ترسانتهم الضئيلة أن تصمد. وكان على التصحيحيين أن يشكلوا «التنظيم العسكري القومي» لوحدهم لأن الاتجاهات السياسية الأخرى رفضت أن تتحد مع مجموعة كانت تعتبرها فاشية. ومع ذلك فقد كان التصحيحيون قادرين على أن يزودوا فصيلة من فصائلهم ببزات ألمانية وثلاث بنادق رشاشة وثماني بنادق ومئات من القنابل. واستطاع بعض مقاتليهم الهرب عبر الأنفاق والمجاري الى حيث قادهم بعض الأصدقاء البولنديين الى الغابة، وهناك حاصرهم الألمان وهربوا مرة أخرى. ولجأوا ثانية إلى قطاع الأغيار في وارسو وأخيراً أحيط بهم وقتلوا. وقد جاءت نهاية انيليفتش في الجيتو في اليوم العشرين من الانتفاضة. يقول ماريك إدلمان، وكان حينئذ من البوند ونائب قائد «التنظيم اليهودي المحارب» أنه وثمانية أخرون من المقاتلين أطلقوا النار على أنفسهم في إحدى الدشم(٢٨). ويقول تسوكرمان

وكان نائباً آخر للقائد أن انيليفتش قتل بالغاز والقنابل اليهودية التي ألقيت في المخبأ[٢٩].

«حلم اليهود بالدخول الى بيوت العمال»

كان عمانويل رِنجلْبْلوم، وهو صهيوني عمالي، قد عاد أيضاً الى بولندا من الخارج. كان في سويسرا لحضور المؤتمر الصهيوني في أغسطس/آب عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب، وقد اختار العودة الى بولندا عبر البلقان. عندئذ بدأ مهمة تسجيل الأحداث الهامة الجارية. كانت قيمة عمله واضحة لكل الوسط السياسي، وقد اختير في نهاية الأمر للإقامة في مكان اختباء في الجانب الآري من وارسو. وقد مات في عام ١٩٤٤ عندما اكتشف مكان اختبائه، ولكن ليس قبل أن يكتب رائعته، «**العلاقات البولندية اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية**». كانت كتاباته صريحة: «لقد هزمت الفاشية البولندية وحليفتها معاداة السامية أغلبية الشعب البولندي»، ولكنه بذل جهداً كبيراً وعصبياً لتحليل بولندا طبقة طبقة بل ومنطقة منطقة[٣٠].

> استمر السكان من الطبقة الوسطى بالإجمال في التمسك بإيديولوجية معاداة السامية وابتهجوا كثيراً بالحل النازي للمشكلة اليهودية في بولندا[٣١].

وقد أكد تقييم لِسْتْشِنْسكي والمراقبين الآخرين قبل الحرب، والمتعلق بصمود العمال في النضال ضد معاداة السامية:

> كان العمال البولنديون قد أدركوا منذ وقت طويل قبل الحرب الجانب الطبقي لمعاداة السامية، باعتبارها أداة السلطة في يد البرجوازية المحلية. وخلال الحرب ضاعفوا من جهودهم في محاربة معاداة السامية.. لم يكن هناك سوى فرص محدودة أمام العمال لإخفاء يهود في منازلهم. كان ازدحام الشقق هو أكبر عقبة أمام أخذ اليهود. وبالرغم من ذلك فإن يهوداً كثيرين قد وجدوا بالفعل الحماية في شقق العمال.. ولا بد من التشديد على أنه بشكل عام فان اليهود حلموا بالوصول الى بيوت العمال، لأن ذلك يضمن لهم عدم ابتزازهم أو استغلالهم من جانب مضيفيهم[٣٢].

إن شهادة رنجلبلوم، وهي شهادة شاهد عيان ومؤرخ مدرب، تظهر الطريق الذي كان على اليهود اتخاذه قبل وخلال الحرب. ومهما كانت اخفاقات الحزب الاشتراكي البولندي والحزب الشيوعي البولندي كأحزاب، فانه لا يوجد شك في أن كثيرين من

العمال وقفوا الى جانب اليهود حتى الموت، وان الكثيرين منهم فعلوا دفاعاً عن اليهود أكثر مما فعله يهود كثيرون. والأرجح انه لم يكن من الممكن زيادة عدد الذين انقذوا بالفعل بأكثر من مئات قليلة أو ألفين آخرين من اليهود. ولكن الانتفاضات في الجيتوات التي تنقصها الأسلحة لم يكن لديها أي فرصة للنجاح، ولا حتى كإيماءات رمزية. ان التقرير الداخلي للقيادة النازية حول انتفاضة وارسو يعترف فقط بست عشرة وفاة بين الألمان وحلفائهم، وبالرغم من أن هذا الرقم قد يكون منخفضاً جداً، فإن الانتفاضة لم تكن أبداً أمراً عسكرياً جدياً.

إن تمجيد مردخاي انيليفتش للخلود التاريخي مبرراً تماماً ولا يجب أن يكون في أي انتقاد لاستراتيجيته محاولة لنزع البريق عن اسمه. لقد عاد بإرادته من فيلنا. ووهب نفسه لشعبه المبتلي. ومع ذلك فإن استشهاد انيليفتش البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً لا يمكنه أن يغفر للحركة الصهيونية فشلها قبل الحرب في محاربة معاداة السامية ـ في ألمانيا أو في بولندا ـ عندما كان لا يزال هناك وقت. كما أن عودته لا يمكن ان تجعلنا ننسى فرار القادة الصهاينة الآخرين، حتى خلال الشهور الأولى للاحتلال، ولا عدم استعداد قادة الحزب الباقين بدء أي نضال سري.

هوامش الفصل الحادي والعشرين

1. Author's interview with Alexander Erlich, 3 October 1979.
2. Yitzhak Arad, 'The Concentration of Refugees in Vilna on the Eve of the Holocaust', *Yad Vashem Studies*, vol. IX, p. 210.
3. Hyman Frank, 'The World of Menachem Begin' (*Jewish Press*, 2 December 1977).
4. Menachem Begin, *White Nights*, pp. 84–5, 87.
5. Lester Eckman and Gertrude Hirschler, *Menachem Begin*, p. 50.
6. Begin, *White Nights*, p. 79.
7. David Shipler, 'Israel Hardening Its Stand on Visits', *New York Times* (3 March 1982), p. 7.
8. Bernard Goldstein, *The Stars Bear Witness*, p. 35; and N. Blumenthal, N. Eck and J. Kermish (eds.), *The Warsaw Diary of Adam Czerniakow*, p. 2.
9. Blumenthal, Eck and Kermish, *The Warsaw Diary of Adam Czerniakow*, p. 117.
10. Ibid., p. 119.
11. Yisrael Gutman, 'The Genesis of the Resistance in the Warsaw Ghetto', *Yad Vashem Studies*, vol. IX, p. 43.
12. Goldstein, *The Stars Bear Witness*, pp. 35–6.
13. Isaiah Trunk (in debate), *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 257.
14. Emmanuel Ringelblum, *Notes from the Warsaw Ghetto*, p. 250.
15. Lester Eckman and Chaim Lazar, *The Jewish Resistance*, p. 31.
16. Bernard Johnpoll, *The Politics of Futility*, p. 231.
17. Goldstein, *The Stars Bear Witness*, pp. 51–3.
18. Wladyslaw Bartoszewski, *The Blood Shed Unites Us*, p. 32.
19. Reuben Ainsztein, *Jewish Resistance in Nazi Occupied Europe*, pp. 565–70.
20. Yitzhak Zuckerman (in debate), *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 150.
21. Hersz Berlinski, 'Zikhroynes', *Drai* (Tel Aviv), p. 169.
22. Yisrael Gutman (in debate), *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 148.
23. Emmanuel Ringelblum, 'Comrade Mordechai' in Yuri Suhl (ed.), *They Fought Back*, p. 102.
24. Joseph Kermish, 'The Place of the Ghetto Revolts in the Struggle against the Occupier', *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 315.
25. Ibid.
26. Yisrael Gutman, 'Youth Movements in the Underground and the Ghetto Revolts', *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 280.
27. Ibid., pp. 275, 279.
28. Marek Edelman, 'The Way to Die', *Jewish Affairs* (September 1975), p. 23.
29. Yitzhak Zuckerman, 'The Jewish Fighting Organisation – ZOB – Its Establishment and Activities', *The Catastrophe of European Jewry*, p. 547.
30. Emmanuel Ringelblum, *Polish-Jewish Relations During the Second World War*, p. 247.
31. Ibid., p. 197.
32. Ibid., pp. 199, 203.

٢٢ ـ التواطؤ الصهيوني مع حكومة المنفى البولندية

بلغت أنباء الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي مناحم بيجين بينما كان مسافراً في قطار سجون نحو سيبيريا. كان قد ألقي القبض عليه على يد الروس مع كل النشيطين السياسيين البولنديين غير الشيوعيين الذين كانوا قد هربوا من المناطق التي أعطيت لستالين بالاتفاق الألماني السوفيتي في عام ١٩٣٩. وكانت حكومة المنفى البولندية والسوفييت أعداء ألداء حتى الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي. ولكن حتى بعد ذلك ظلت هناك صراعات بينهما لا يمكن التفاهم عليها. وأكثر تلك الصراعات بروزاً كانت حول المناطق الشرقية. ومع ذلك فقد أعلن ستالين عفواًعاماً عن كل المسجونين البولنديين وأصدر رئيس الوزراء البولندي فلاديسلاف سيكورسكي أمراً لكل الذكور بالالتحاق بجيش المنفى البولندي.

«ذوو العقيدة الموسوية يخطون الى الأمام»

في الأشهر الأخيرة السابقة على الحرب تفاوض التصحيحيون، وكان بيجين بارزاً بينهم (كان يقود البيتار البولندية) مع الكابتن رونْجِه رئيس شرطة الأمن في وارسو لإقامة وحدات منفصلة لجيش يهودي بأمرة ضباط بولنديين[١]. كانوا يأملون أنه بعد أن يهزم البولنديون واليهود الجيش الألماني فإن اليهود، بدون القادة البولنديين، سيذهبون لفتح فلسطين. ولقد فشل هذا المشروع بسبب عداء البوند الذي عارض مثل هذه الخطط التي تفصل اليهود وتميّزهم[٣]. وفي سبتمبر/أيلول ـ اكتوبر/تشرين أول عام ١٩٤١،

وفي إقليم الفولجا في الاتحاد السوفييتي، وبينما كان النازيون يتقدمون بثقة نحو موسكو أُثير الاقتراح ثانية من جان مِيرون شِسْكين وهو القائد الأعلى لمنظمة بْرِتْ هاشايال (اتحاد الجنود)، وهي منظمة المحاربين التصحيحيين، ومارك كاهان، محرر الجريدة اليومية التي تصدر باليديش في وارسو وهي دِيْر مُومِنْت (اللحظة). كان جيش المنفى البولندي يسيطر عليه المعادون للسامية الذين كانوا معنيين بإبعاد اليهود خارج جيشهم، وكان هذا الاقتراح الذي يجعل اليهود يبعدون أنفسهم جذّاباً بالنسبة لهم. ومع ذلك ففي المستويات الأعلى المحيطة بقائد الجيش الجنرال فلادسلاف أندرْز، كان مفهوماً أن هذا الاقتراح لن يكون مقبولاً لا من السوفييت ولا من البريطانيين. ومع ذلك فإن بعض الضباط الذين كانوا في منطقة تجمع الجيش في سَمارا أُوبْلاسْت، وكانوا من المشاركين القدماء للتصحيحيين، اعتقدوا أنهم يؤدون لليهود معروفاً بفصلهم في وحداتهم الخاصة. وتطوع الكولونيل يان جَالادَيْك، وهو القائد السابق لمدرسة ضباط المشاة في فترة ما قبل الحرب لقيادة هذه الفرقة. وقد وصف كاهان بعد الحرب هذه الوحدة باعتبارها نموذجاً للفرقة اليهودية المأمولة، وأعطى صورة ايجابية عنها كمثال ناجح للعلاقات اليهودية البولندية. ولكن يزرائيل جوتْمان بحث تاريخ جيش أندرز وهو يحذرنا بأنه لا يمكن الاعتماد على كاهان. ولقد صدق بشكل أفضل الحاخامُ ليون روزين ـ تْشيشاكاتس، وكان إتحادياً ولكنه أيد فكرة الفرقة، وذلك في كتابه «صيحة في البراري».

في يوم ٧ اكتوبر/تشرين اول ١٩٤١ وفي توتْزكوي، تم تجميع كل اليهود في حقل ونادى ضابط: «ذوو العقيدة الموزوية يخطون الى الأمام». وقد وجد معظم أولئك الذين فعلوا ذلك أنفسَهم فجأة مسرَّحين من الجيش. وتلك القلة بمن فيهم روزين ـ تشيشاكاتس من الذين لم يفصلوا بسرعة تم عزلهم كلية عن بقية الجيش، وبدأت الأعمال البربرية على الفور. أُعطي أغلبية اليهود أبواط صغيرة جداً بالنسبة لهم، وكان معنى ذلك أن عليهم محاولة حماية أنفسهم بالخِرَق في الشتاء السوفييتي البالغ ٤٠° تحت الصفر. ثم نُقلوا الى موقع آخر، وتركوا في الحقول أياماً متصلة «نسي» فيها الجيش أن يطعمهم(٥). وعندما وصل روزين ـ تشيشاكاتس الذي عينه القائد الأعلى للجيش كاهناً، الى موقع الفرقة الجديدة في كلتوبانكا، كانت مهمته الأولى التي بدأ بها هي دفن عدد كبير من الموتى(٦). وفي النهاية وبعد كثير من المعاناة والموت تحسنت الأمور عندما وصلت الى مسامع السفير البولندي وكذلك الى قادة البوند في المنفى أنباء عن معاناتهم. وتحولت الفرقة الى وحدة عسكرية بارعة. ومع ذلك فإن الخطة الأكبر الخاصة بالفرقة

اليهودية اختفت.

أخيراً ترك جيش أندرز الاتحاد السوفييتي إلى إيران حيث ألقوا بالمعسكر البريطانيين، وحاول المعادون للسامية أن يتركوا وراءهم أكبر عدد ممكن من اليهـود كما رفضـوا ضم شبان أصحاء للخدمة. وتم إجلاء ما يقـرب من ١١٤,٠٠٠ شخص في مارس/آذار ـ ابريل/نيسان، وفي أغسطس/آب ـ سبتمبر/أيلول عام ١٩٤٢، حوالي ستة آلاف منهم كانوا يهوداً، ٥٪ من الجنود، و٧٪ من المدنيين. ولكي تتضح الصورة: ففي صيف عام ١٩٤١ وقبل فرض خط التجنيد المعادي للسامية، شكل اليهود حوالى ٤٠٪ من الذين تسجلوا في الجيش. وبالرغم من التمييز ضد القوات اليهودية فان التصحيحيين كاهـان وشسكين وبيجين استطاعوا الخروج عبر علاقاتهم العسكرية[٧].

القبول الصهيوني بمعاداة السامية في الجيش البولندي

إن واحـدة من سخريـات الحرب العـالمية الثـانية هي أن جيش المنفى البـولندي، بتشكيلته الكبيرة من المعادين للسامية كان سعيداً في نهاية الأمر بوصـوله إلى فلسـطين. كان الجيش لا يزال هناك يوم ٢٨ يونيو/حزيران ١٩٤٣ عنـدما نشر أليعـازر لِيبِنْشْتاين (لِيفْنَه)، وكان يحرر في ذلك الوقت جريدة الهاجاناه إشْنـاب، أمراً يـومياً سـرياً كـان الجنرال أندرز قد أصدره في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤١، وكان قد قال فيه لضباطه إنه «يفهم تماماً»معاداتهم لليهود، ومع ذلك عليهم أن يدركوا أن الحلفاء واقعون تحت ضغط يهودي، ولكنه طمأنهم بأنهم عندما يعودون الى الوطن «فإننا سنعالج المشكلة اليهودية بما يتفق وحجم واستقلال وطننا»[٨]. وكان من المفهوم أن ذلك يعني أنه يشير إلى طرد أي يهودي يمكن أن يهرب من مخالب هتلر بعد الحرب. وقد جعل وجود الجيش البولندي في فلسطين من المستحيل على المنظمة الصهيونية العالمية ان تتجاهل الفضيحة، وأخيراً، وفي ١٩ سبتمبر/أيلول، واجهت «ممثلية اليهود البولنديين» أندرز بالأمر في مقر القنصل البولندي في تل أبيب. ـ وقد أعلن الجنرال أن الأمر كله تزييف. ثم تكلم عندئذ عن ترك اليهود لجيشه أثناء وجوده في فلسطين. وقال لهم إنه غير مهتم بأن يترك ثـلاثة آلاف أو أربعة آلاف يهودي من صفوفه، وهو لن يبحث عنهم، وفهم الصهاينة الإشارة[٩]. ولقد أرسل القنصل البولندي بعد هذا اللقاء بفترة وجيزة، بمذكرة إلى وزارة الخارجية في لندن حول لقاء آخر بين نائبه وبين اسحاق جْروينْبَوم الذي كان عندئذ في اللجنـة التنفيذيـة للوكـالة اليهـودية. وكـرر نائب القنصـل الكذب حـول الأمـر، وطلب من الصهيـوني

مساعدته على إسكات الموضوع كله. وبعد مناقشة الأمر مع الأعضاء الآخرين في اللجنة التنفيذية وافق جروينبوم على التعاون مع الخديعة البولندية(١٠). وفيما بعد، وفي يوم ١٣ يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٤ تقابل في لندن الدكتور إجْناسي شفارزبارت، وهو الممثل الصهيوني في المجلس القومي البولندي، وآرييه تَرتَاكُوفَر من المؤتمر اليهودي العالمي، مع ستانِسْلافِ ميكُولايتْشِك وهو سياسي من الحزب الفلاحي كان خلف سكورسكي كرئيس للوزراء. ومرة أخرى وافق الصهاينة على الكذب بشأن الأمر. وقال شفارز بارت للبولندي:

> هناك شهود بينهم وزراء حاربوا ضد الأمر عندما صدر. نحن نعرف أن إحدى البرقيات أشارت الى الأمر باعتباره تزييفاً. لا اعتراض عندي على مثل هذا الزعم للاستهلاك الخارجي، ولكن بيننا، لا يجب أن يتوقع أي شخص منا أن يصدق أنه كان تزييفاً(١١).

حتى في بريطانيا، قيل للجنود اليهود من جانب قادتهم أنه سيطلق عليهم النار في ظهورهم عندما يذهبون إلى المعركة. وصرح الضباط البولنديون مراراً عن ترحيل اليهود بعد الحرب. وقال البعض بصراحة فجة أن أولئك اليهود الذين ينجون بعد هتلر سيُذبحون. وفي يناير/كانون الثاني ١٩٤٤ لم يعد بعض اليهود يحتجون. ترك الخدمة ٦٨ جندياً وهددوا بالإضراب عن الطعام بل والانتحار على أن يبقوا مع القوات البولندية، بالرغم من انه لم يكن لديهم اعتراض على القتال في الجيش البريطاني. وفي فبراير/شباط ترك الخدمة ١٣٤ يهودياً آخرون. وفي مارس/آذار، خرج المزيد من الجنود. كان رد الفعل الأول لدى البولنديين هو مجرد تركهم يذهبون، ولكنهم أعلنوا أخيراً أن واحداً وثلاثين رجلاً سيحاكمون عسكرياً وأنه لن يسمح بمزيد من عمليات النقل. وتبنى بعض أعضاء حزب العمال قضيتهم، وقدم توم درَيْبِرج سؤالاً عن الموضوع في مجلس العموم. وما أن فعل ذلك حتى تلقى مكالمة تليفونية من شفارز بارت يتوسل فيها أن يسحب السؤال حتى لا يجذب المزيد من الانتباه للأمر(١٢). وتجاهل دريبرج هذا الاقتراح وأدان هو ومايكل فوت المحاكمات المقبلة في اجتماعات جماهيرية يوم ١٤ مايو/آيار. وحدثت مظاهرات في دَوْنِنج ستريت. واضطرت حكومة المنفى إلى التراجع وإسقاط الاتهامات. وبعد عدة سنوات لمس دريبرج هذه الأحداث في كتابه: **الانفعالات المتحكمة**، وكان لا يزال مندهشاً من سلوك القيادة الانجلو يهودية المضللة:

الأمر الغريب هو أننا تابعنا هذا الموضوع في المجلس ضد نصيحة المتحدث الرسمي للجالية اليهودية في بريطانيا، بل ضد التوسل المبكي تقريباً. لقد شعروا أن أي دعاية حول ذلك يمكن أن تؤدي إلى مزيد من معاداة السامية، التي ربما توجه ضد جمهورهم هم[١٣].

ولا شك أن تفسير دريبرج لدوافع القادة اليهود الانجليز صحيح. ولقد تكلموا في نهاية الأمر، ولكن فقط بعد أن كان أعضاء حزب العمال قد أثاروا الجمهور، وبعد أن تأكدوا بشكل مطلق أنهم آمنون في فعلهم ذلك.

ولقد اشترك شفارز بارت من قبل في حدث آخر مشين في الشئون اليهودية البولندية. ففي عام ١٩٤٢ اقترحت مدام صوفيا زالِسْكا وهي من الإندك، على برلمان المنفى أن يقام وطن يهودي خارج بولندا وأن يطلب من اليهود الهجرة. وبدلاً من ان يعارض شفارز بارت هذا الاقتراح فقد حاول تعديل قرار زالسكا لكي يسمى فلسطين بالتحديد باعتبارها ذلك الوطن. وقد هزم اقتراحه، وقبل البرلمان توجه زالسكا الأصلي. ولم يصوت ضده إلا شامويل تسيجلبويم من البوند وممثل من الحزب الاشتراكي البولندي. وامتنع شفارزبارت[١٤].

كان المنفيون البولنديون يعتمدون على بريطانيا، وبعد وصول الجيش البولندي إلى فلسطين أمكن للصهاينة ممارسة ضغط إضافي على البريطانيين. وكان أندرز على صواب عندما قال لضباطه أن اليهود لديهم على الدوام مقدرة الضغط على البريطانيين في مسألة معاداة السامية في القوات المسلحة البولندية. وقد أظهر نجاح دريبرج - فوتْ في عام ١٩٤٤ ما يمكن عمله. وبدلاً من ذلك فإن المنظمة الصهيونية العالمية في كل من فلسطين ولندن تواطأت مع البولنديين لإخفاء الأمر اليومي الذي أصدره أندرز، وتدخلت لتحث أعضاء حزب العمال على وقف احتجاجهم. وبالمثل فان التصحيحيين تستروا وتآمروا مع الجيش البولندي عندما كان لا يزال في الاتحاد السوفييتي، لمصلحة قيام فرقة يهودية تساعد على فتح فلسطين. وفي عام ١٩٤٣ ساعدهم صديقهم الطبيب الكولونيل جلاديك في تدريب الإرجون في فلسطين[١٥].

إن أولئك الذين سعوا للحصول على رعاية المعادين للسامية في بولندا ما قبل الحرب لم يحاربوا معاداة السامية البولندية قط، ولا حتى في بريطانيا وفلسطين حيث كانت كل الميزات إلى جانبهم.

هوامش الفصل الثاني والعشرين

1. 'Menachem Begin Writes', *Jewish Press* (13 May 1977), p. 4.
2. Yisrael Gutman, 'Jews in General Anders' Army in the Soviet Union', *Yad Vashem Studies*, vol. XII, pp. 255-6.
3. Bernard Johnpoll, *The Politics of Futility*, p. 248.
4. Gutman, 'Jews in General Anders' Army', pp. 262, 265 and 269.
5. Leon Rozen-Szeczakacz, *Cry in the Wilderness*, pp. 92-3.
6. Gutman, 'Jews in General Anders' Army', p. 266.
7. Rozen-Szeczakacz, *Cry in the Wilderness*, pp. 157-8.
8. Reuben Ainsztein, 'The Sikorski Affair', *Jewish Quarterly* (London, Spring 1969), p. 31.
9. Gutman, 'Jews in General Anders' Army', p. 295.
10. Ibid., p. 279.
11. Ibid., p. 280.
12. Bernard Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe 1939-1945*, p. 128.
13. Ibid.
14. Johnpoll, pp. 247-8.
15. Mark Kahan, 'An Utmost Historical Documentation', in *Cry in the Wilderness*, app. p. 237.

٢٣ـ هجرة غير شرعية

ليس من المعروف على وجه الدقة كم من المهاجرين غير الشرعيين تم تهريبهم إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها. ويقدر يهودا باوَر العدد بما يقرب من ١٥,٠٠٠ مهاجر غير شرعي دخلوا في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩[١]. ويفصِّل هذا العدد إلى ٥٣٠٠ أحضرتهم سفن التصحيحيين، و ٥٠٠٠ بواسطة الصهيونيين العماليين، و٥٢٠٠ بقوارب خاصة[٢]. ويسجل البريطانيون ٢٠,١٨٠ باعتبارهم وصلوا قبل نهاية الحرب. ويضاعف وليام بيرل، المنظِّم الأول لجهود التصحيحيين، هذا الرقم إلى أكثر من ٤٠,٠٠٠[٣]. ويعطي يهودا سْلوتْسكي رقم ٥٢,٠٠٠ باعتبارهم وصلوا إلى فلسطين خلال الحرب، ولكن هذا العدد يشمل الشرعيين وغير الشرعيين[٤].

وصل أول قارب غير شرعي واسمه «الفِيلُوسْ» وقد نظمته حركة الكيبوتز في فلسطين، في يوليو / تموز عام ١٩٣٤. وحاولت الرسو مرة أخرى في سبتمبر / أيلول ولكن تم اعتراضها. وعارضت قيادات المنظمة الصهيونية العالمية والصهيونيين العماليين المزيد من المحاولات. ففي عام ١٩٣٥ كان البريطانيون يسمحون بدخول ٥٥,٠٠٠ مهاجر شرعي، ولم يجدوا داعياً لمعاداة لندن في سبيل قلة أخرى. وكان الجهد التصحيحي الأول في هذا المجال هو المركيز«يونيون» الذي تم اعتراضه أثناء إبرار ركابه في أغسطس / آب عام ١٩٣٤. وقد أدى هذان الفشلان إلى تثبيط المزيد من الجهود حتى حاول التصحيحيون مرة أخرى في عام ١٩٣٧. وبعد المحرقة اكتسبت الهجرة غير الشرعية في فترة ما بعد عام ١٩٣٧ سمعة وكأنها جزء من مساهمة الصهيونية في إنقاذ

اليهود الأوربيين من هتلر. ومع ذلك ففي ذلك الحين لم يكن التصحيحيون ولا المنظمة الصهيونية العالمية ينظرون إلى أنفسهم كمنقذين لليهود كيهود، وإنما كانوا يحضرون مستوطنين تم اختيارهم بشكل خاص إلى فلسطين.

«الأولوية كانت لأعضاء حركتنا بيتار»

عاد التصحيحيون إلى الهجرة غير الشرعية خلال الانتفاضة العربية. وكان معظم المهاجرين هم من أعضاء حركة بيتار وقد جيء بهم لتعزيز الأرجون التي كانت منشغلة في حملة إرهابية ضد العرب[٥]. ولقد ترك أعضاء المجموعات الثلاث الأولى، الذين شكلوا ٢٠٤ مسافرين، فيينا في عام ١٩٣٧ قبل الاحتلال النازي. وكانوا جميعاً أوربيين شرقيين باستثناء ٤ نمسويين. وأخضعوا جميعاً لتدريب على السلاح من قبل في معسكرهم في ضيعة التصحيحيين في كُوتِنْجْبْرون، استعداداً لما كانوا يعرفون أنه يمكن أن يكون ذات يوم «المعركة الأخيرة ضد المحتلين البريطانيين»[٦]. كان تركيزهم دائماً هو على الاحتياجات العسكرية «للتصحيحية الفلسطينية». وكانت مجموعة «**دِي أكسْيُون**» (العمل) في فيينا تنظم «الهجرة الحرة»، وقد أصدرت قراراً تعلن فيه أنهم لن يأخذوا إلا الشباب فقط: «لأنه من أجل المعركة المقبلة لتحرير وطننا اليهودي من نير الاستعمار البريطاني، فإن الأوائل الذين ينبغي انقاذهم يجب أن يكونوا يهوداً قادرين وعازمين على حمل السلاح»[٧].

وفي السنوات التالية جاءت مناسبات أخذ فيها التصحيحيون بالفعل آخرين إلى جانب البيتاريين، ولكنهم كانوا يقبلون فقط بسبب أوضاع طارئة. وجاءت الأموال الخاصة بالحملة الأولى بعد «ضم» النمسا من تنظيم الجالية اليهودية في فيينا الذي كان يسيطر عليه ائتلاف صهيوني يميني. لذلك كانت «دي أكسيون» مضطرة أحياناً لاعتبارات سياسية ومالية لأن تضم مجموعات أخرى إلى المسافرين ولكن الأفضلية كانت دائماً تعطى للبيتاريين. وفيما بعد ناقش ويليم بيْرل، المنظم الأساسي في «دي أكسيون»، أول زورق لهم بعد الضم في كتابه «**حرب الأربع جبهات**» وقد أقر صراحة بأن:

> كانت الأولوية لأعضاء حركتنا البيتاريين. . . ثم لأولئك الذين كنا نتوقع أن يتحملوا مشاق الرحلة وأن يتكيفوا مع الحياة في فلسطين فذات يوم سيتوجب على هؤلاء الشباب أن يكونوا مستعدين وقادرين على النهوض بالسلاح مع البيتار[٨].

وكتب بيرل وهو يتناول الأحداث خلال صيف عام ١٩٣٩ المزيد عن «جابوتنسكي بنفسه . . . الذي يقوم الآن بدور فعال للغاية في محاولة ترتيب هروب مزيد من اليهود من بولندا، وبوجه خاص أكبر عدد ممكن من أعضاء حركتنا البيتاريين هناك»[٩]. ومؤخراً تكلم اسحاق بن ـ آمي، الذي كان قد جاء من فلسطين للمساعدة في العمليات في فيينا ثم ذهب إلى الولايات المتحدة لكي يجمع نقوداً لسفنهم، عن «جدل وتوتر كبيرين» بينه وبين جابوتنسكي حول كيفية مناشدة الجمهور الأمريكي. كان بن ـ آمي يعرف أنه ستكون هناك حرب في أوربا، وأراد أن ينظم عملية إنقاذ، بينما رأى جابوتنسكي في جمع الأموال مشروعاً حزبياً[١٠]. وحتى في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٩، أي بعد شهرين من اندلاع الحرب، كان بيرل لا يزال يفكر، وهو أبعد ما يكون عن انقاذ اليهود كيهود، بأنه: «إن اكتمل الدفع فإن للبيتاريين دائماً الأفضلية»[١١]. وهو يذكر حالة أخذوا فيها «قلة» من الاشتراكيين الصهاينة. ويسجل هو وكتّاب تصحيحيون ـ آخرون أسماء بعض أعضاء نادي «مَكابي الرياضي اليميني»، ومجموعات «صهيونية عامة» كجزء من قوافلهم، ولكن لم تكن هناك سوى طريقتين لكي يمكن لغير الصهيوني أن يصعد إلى قارب تصحيحي: إما أن يعد النازيون ـ أو حكومة أخرى على نهر الدانوب ـ على أن يأخذوه، أو كما هو في حالة بعض الاتحاديين من بودابست فإن نقص الأموال كان يضطر بيرل للخروج عن الفلك الصهيوني إلى زبائن قادرين على الدفع بحيث يمكن لفرقة من فرقه المنقطعة من البيتار أن تستمر في رحلتها. وحتى في هذا المجال كان اهتمامه المركزي بفلسطين يظهر، فبالرغم من أن الاتحاديين كانوا يكرهون الصهيونية، فقد شعر أنه «من أجل خاطر دولة المستقبل فإن لهم قيمة ثمينة. وبالنسبة لهم لم تكن فلسطين مجرَّد مأوى مؤقت»[١٢]. إن بيان أوتّو زايدْمان في عام ١٩٤٧ وهو الزعيم السابق لحركة البيتار في فيينا بأنه: «كان علينا إنقاذ حياة اليهود ـ سواء كانوا شيوعيين أو رأسماليين أو أعضاء في هاشومير هاتسائير أو من الصهيونيين العموميين». كان مجرد كذب[١٣]. لقد كان للبيتاريين دائماً الأفضلية على أي صهاينة آخرين، وللصهيونيين اليمينيين على الصهيونيين اليساريين، وأي نوع من الصهيونيين على غير الصهيونيين.

«الذين يحتاجهم الوطن اليهودي حاجة قصوى في عملية التشييد»

عارض «الاتحاد الصهيوني الألماني» الهجرة غير الشرعية حتى «ليلة الكريستال» كانوا قانونيين لم يفعلوا شيئاً لمعارضة النازيين، ولم يكونوا يزمعون التحول ضد البريطانيين.

وعندما عادت المنظمة الصهيونية العالمية ودخلت حقل الهجرة غير الشرعية ثانية كان ذلك بحوف شديد، وحتى بعد ليلة الكريستال المحطم حذر بن جوريون مديرّ اللجنة المركزية «للاتحاد الصهيوني في ألمانيا» بأنه: «لن نكون قادرين أبداً على محاربة العرب والبريطانيين معاً»(١٤). وكان وايزمان، بعد سنوات من التعاون مع البريطانيين، ضد أي شيء غير شرعي بشكل غريزي. وفي البداية لم تستطع المنظمة الصهيونية العالمية أن تقبل فكرة أن بريطانيا التي تعد للحرب إعداداً جدياً لا يمكنها تحمل مخاصمة العرب والعالم الإسلامي بمزيد من الرعاية للهجرة الصهيونية. وكان الذي اضطر الصهيونيين العماليين في النهاية للتحرك هو السمعة والمكانة اللتين كان التصحيحيون يكتسبانها داخل المعسكر الصهيوني بوصفهم يهودا أوربيين على شاطىء فلسطين. ولكن حتى عندئذ فإن توجههم الانتقائي الصارم ظل بدون تغيير. وفي عام ١٩٤٠ نشرت لجنة الطوارىء للشئون الصهيونية، وهي الناطق الرسمي باسم المنظمة الصهيونية العالمية في أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية، كتيّباً بعنوان «**التصحيحية: قوة مدمرة**» أوردت فيه كل مواقفهم مع الانتقائية:

> من الصحيح تماماً أن فلسطين يجب أن تكون ملجأ كل يهودي لا بيت له. هل هناك يهودي أو صهيوني يرغب في غير ذلك؟ ولكننا مواجهون بوطأة الحقائق المأساوية. قليلون فقط من أولئك الذين يرغبون في الدخول يمكن أخذهم في الوقت الراهن. إن الانتقائية أمر حتمي. هل نترك الاختيار بدون تنظيم، فيعتمد فقط على صدفة من الذي تسلق إلى سطح القارب أولاً، أم يجب أن تحدد دوافع أعمق طبيعة الهجرة؟ نحن نعرف أنه في الهجرة من ألمانيا فإن الأفضلية تعطى للقادمين الشباب. هل السبب في هذا التفضيل إغفال وحشي للمسنين أم أنه ينبع من الجهد الصعب والأمين لإنقاذ أولئك الذين هم مطلوبون أكثر ما يكون، والذين يحتاجهم الوطن اليهودي حاجة قصوى في عملية التشييد؟
>
> عندما تلقي قوة الأحداث على البشر العبء المريع لتقسيم الخلاص إلى حصص، فإن القضية لا تحل بفتح الأبواب عشوائياً لأي شخص يستطيع الدخول. ذلك أيضاً هو خيار - خيار ضد الحاضر والمستقبل(١٥).

تم الكشف فيما بعد عن عملية الانتقاء لركوب الزوارق التي استأجرتها المنظمة الصهيونية العالمية، على لسان آرون تْسفيرجْباوْم في وصفه لحملة من تشيكوسلوفاكيا التي

احتلها النازيون:

لقد عامل المسئولون الصهاينة هذه الرحلة كهجرة عادية، كانت شديدة الانتقائية، وتتطلب (على الأقل بالنسبة للشباب) تدريباً زراعياً ودرجة من المعرفة باللغة العبرية وانتساباً إلى تنظيم صهيوني وصحة جيدة، وهكذا. وكان هناك حد عمري منخفض إلى حد ما، كما أن نقود المرور كانت تحدد على قاعدة أن الأغنياء لا يجب أن يدفعوا لأنفسهم فقط، بل أيضاً لأولئك المعدمين(١٦).

مرة أخرى وكما هي الحال مع التصحيحيين، كان لا بد من وجود إعفاءات من القواعد. فبعض الصهاينة القدامى كانوا يكافأون على خدماتهم بمكان على الزوارق، وفي أحيان أخرى حققت أشكال أخرى من النفوذ المعجزة الضرورية، كما هي الحال بالنسبة لأقارب الصهيونيين الذين تم أخذهم، أو ليهودي غني محمول لأسباب مالية. وبالطبع أولئك الذين فُرضوا عليهم من قبل النازيين والحكومات الأخرى. ولأنهم لم يكونوا ذوي تفكير عسكري تماماً مثل منافسيهم فقد كانوا أقل عبوساً في وجه الأطفال. ففي يوم من الأيام سيكون لديهم أطفالهم هم في فلسطين، وهكذا يزيدون من النسبة المئوية لليهود بين السكان. ولكن وعلى سبيل المثال فإن مُدَوزِن بيانو غير صهيوني في الخامسة والأربعين وبدون قدرة على الدفع لشخص آخر وغير قريب لصهيوني، لم يكن من الممكن أبداً النظر في أمره لمثل هذه الرحلة.

«سيتعاونون معنا في أمور تهمنا بشكل حيوي»

كان التصحيحيون أكثر جرأة في تنظيم الهجرة غير الشرعية لأنه لم يكن يعنيهم ما تفكر به لندن. كانوا قد توصلوا إلى أن عليهم أن يحاربوا بريطانيا إذا ما كانوا يريدون تحقيق الدولة الصهيونية. ومع ذلك فإن المنظمة الصهيونية العالمية ظلت تتوقع أن تحصل على الدولة اليهودية بموافقة البريطانيين في «مؤتمر فرساي» آخر بعد الحرب العالمية الثانية. كانت حجتهم أن بريطانيا لن تكافئهم إلا إذا تكيفوا مع خططها خلال الحرب، وإن أكثر ما لا ترغب فيه لندن هو بالتحديد المزيد من اللاجئين في فلسطين. ولذلك ففي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٤٠ عندما حاول الأسطول البريطاني ترحيل ثلاثة آلاف من غير الشرعيين إلى جزر موريشيوس في المحيط الهندي، حاول وايزمان أن يقنع اللجنة التنفيذية الصهيونية، بأنه «لا يجب أن يكون لهم أي علاقة بهذا العمل لمجرد الحصول على ثلاثة آلاف شخص آخرين إلى فلسطين ـ يمكن أن يتبين فيما بعد أنهم حجر رحى

معلـق في أعناقهم»[١٧]. وزعم أنه قلق بشأن تدخل الجستابو في الرحلات[١٨]، فمن الواضح أن السفن لم يكن من الممكن أن تغادر الأراضي التي يسيطر عليها الألمان بدون إذنهم. ولكن من المشكـوك فيه أن يكـون صدق جـدياً التهمـة التي أراد البريـطانيـون إلصاقها بأن النازيين كانوا يضعون جواسيس على هذه القوارب الحقيرة. ومع ذلك فإن حجة وايزمان كانت متسقة مع استراتيجيته التي تبناها طوال حياته، والخاصة بالحصول على الرعاية البريطانية للصهيونية. وكان يعرف أن عملية غير شرعية جدية يمكن أن تدمر علاقاته مع البريطانيين، وبالذات أن تجعل من المستحيل الحصول على موافقة لندن على قيام فرقة يهودية داخل الجيش البريطاني.

قرر البريطانيون الذين كانوا قد تعلموا بخبرتهم من العمل مع الصهاينة عشرات السنين، أن يستعملوا الطمـوح الصهيوني في دولـة يهوديـة للقضـاء عـلى الهجـرة غـير الشرعية. وهم يعرفون أن المنظمة الصهيونية العالمية تأمل في أن تحضر مؤتمر السلام مـا بعد الحرب ولديها سجل حربي مؤثر. وهكذا وضعت المخابـرات البريـطانية خـططاً بارعة. كان الموساد، وهو التنظيم الذي يقف وراء هجرة المنظمة الصهيونية العالمية يملك زورقـاً هو «دارين» ٢. وفي عـام ١٩٤٠ كان قـد تم ترتيب إرسـال ذلك القـارب عبر الدانوب لالتقاط بعض اللاجئين المنقطعين في يوغوسلافيا. واقترح البريطانيون بدلاً من ذلك تحميل السفينة بالحـديد الخـردة والمفرقعـات. كانت قـوارب اللاجئـين اليهود قـد أصبحت جزءاً من حياة النهر ولم يكن أحد سيشك في «الدارين». وعندما يصل القارب إلى نقطة ضيقة في المجرى كان سينفجر، ومن ثم يسد طريق النفط والقمح الرومانيين عن الوصول إلى الرايخ. وكانت النتيجة الطبيعية لـذلك هي أن قـوارب اللاجئـين لن تتمكن من النـزول عبر الـدانوب، وإن النـازيين الـذين كانـوا يتعاونـون مع المـوسـاد بانصرافهم عن معسكرات التدريب النازية سيلومونهم على هذا الانفجار. وبالرغم من الثأر المروع الذي كان من المرجح أن يقوم به النازيون، فـإن قيادة المنـظمة الصهيـونية العالمية وافقت عـلى تنفيذ الخـطة. ومع ذلـك فقد كـانت هناك ثغـرة. إذ رفض بعض العاملين المتورطين مع الموساد التعاون. كانت السفينة مسجلة باسم واحـد منهم، وهو أميركي، وقد رفض التوقيع عـلى نقل القـارب إلى البريـطانيين. وقـد أرسل دايفيـد هاكوهين، وهو عضو في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، بسرعة إلى اسطنبول ليحاول حثهم على الموافقة. وقد ذكرت روث كْلوجر، وقد كانت حاضرة مع الموساد، فيما بعد، حجج هاكوهين في مذكراتها، «الهروب الأخير»:

جئت ومعي أمر من شرتوك نفسه [السكرتير السياسي للوكالة اليهودية] . . ولم يكن شرتوك ليعطي «الدارين» كل هذا الوقت والتمحيص لو لم يكن يشعر بأن الأمر هو من الأمور التي تقع في دائرة عملياته أنه يشعر، ونحن جميعاً نشعر أن الخطة المقترحة للدارين ستنهي الحرب بدون شك في وقت أقرب. وكلما انتهت في وقت أقرب كلما زاد عدد الذين سَينقذون. بما في ذلك حياة يهود. وبالإضافة إلى ذلك ـ وفي هذه النقطة لا أستطيع أن أشدد بما يكفي ـ فإننا لو تعاونا مع المخابرات البريطانية في هذا الأمر، وهو أمر يهتمون به اهتماماً حيوياً في الواقع، فإن لدينا كل ما يدعونا للإعتقاد «وكرر ببطء الكلمات» **كل ما يدعونا للاعتقاد** أنهم سيتعاونون معنا في أمور نحن مهتمون بها اهتماماً حيوياً. وذكر (يهودا) أرازي كتيبةً يهودية في الجيش البريطاني. . . هناك أمور كثيرة أخرى ليس مسموحاً لي بأن أخوض فيها في هذه النقطة. ولكن يمكنني أن أقول التالي، يا زامريت، إن موضوع «الدارين» هو من الأمور التي سيكون لها تأثيرها على مستقبلنا بعد الحرب. وإذا كنا نحن اليهود سنحصل على أمتنا أو لن نحصل، فإن علمه قد يكون عند الآلهة. ولكن من المسلم به أنه في أيدي البريطانيين. فإن تراجعنا عن وعودنا لهم واستعملنا السفينة في تناقض مباشر للقانون البريطاني ـ وإذا رأوا أن الرجل الذي سيكون في كل الاحتمالات أول وزير خارجية لنا ليست لديه سيطرة على أهل بلده في مثل هذا الأمر الحيوي» . . ـ وترك هاكوهين الجملة معلقة كحبل مشنقة حول أعناقنا[١٩].

لم يوافق عملاء الموساد المحليون، وكان على المنظمة الصهيونية العالمية أن تستعمل «الدارين» لرحلة أخرى في إنقاذ المزيد من أعضائها. ومع ذلك فإن هذه الرحلة الأخيرة كانت آخر الحملات غير الشرعية الناجحة خلال الحرب. إن وليم بيرل مقتنع بشدة بأن اقتراح «الدارين» كان مصمماً لكي يوقع المنظمة الصهيونية العالمية في وضع يوقف فيه النازيون قطرات اللاجئين المتسربة[٢٠]. ومن المؤكد أن هاكوهين لم يكن ليستطيع أن يقدم الأمر بشكل أكثر قوة: «إن موضوع «الدارين» هو من الأمور التي سيكون لها تأثيرها على مستقبلنا بعد الحرب». ولقد قدرت المخابرات البريطانية الحقيقة البسيطة، بأن المنظمة الصهيونية العالمية يمكن أن تتنازل عن عمليتها الانقاذية إذا كان ذلك يعني خطوة ذات مغزى نحو طموحهم الأعلى.

وانتهت حكاية سفن الهجرة غير الشرعية يوم ٢٤ فبراير / شباط عام ١٩٤٢ عندما سحب الأتراك إلى الوراء السفينة المهجورة «سْتروماً» والتي تحمل ٧٦٧ يهودياً، وأعادوها إلى البحر الأسود تحت الضغط البريطاني، وغرقت ولم ينجُ منها إلا واحد. وتلاحظ الباحثة الإسرائيلية داليا أوفير: «لم يكن يوجد حتى ذلك الوقت أي إدراك صحيح لطبيعة الأحداث في أوربا التي احتلها النازيون، ولذلك لم تكن هناك محاولات لإعادة التنظيم»(٢١). ولم تبدأ محاولات الانقاذ مرة أخرى إلا عام ١٩٤٣ خلال الاشتعال الكامل للمحرقة.

الكلاب تحارب الكلاب ولكنها تتحد ضد الذئب

طالما كانت أمريكا تقف على الحياد كان من الممكن جمع مبالغ كبيرة من اليهود الأمريكيين لإنقاذ وإغاثة زملائهم في أوربا المحتلة، ولكن جمع الأموال هذا لم يكن ممكناً إلا على أسس إنسانية، غير حزبية بتاتاً. وبدلاً من ذلك هاجمت المنظمة الصهيونية العالمية من خلال «لجنة الطوارىء للشئون الصهيونية» والمخارج الأخرى التابعة لها، هاجمت تورط التصحيحيين في الهجرة غير الشرعية. وأدانوا الاتجاهات الفاشية لخصومهم واتهموهم بأنهم لم يكونوا انتقائيين بشأن من سمحوا لهم بالصعود إلى سفنهم. والظاهر أن الدعاويين التصحيحيين أخفوا الأسس السياسية بل والعسكرية لعمليتهم الانتقائية، وأن دعاويي المنظمة الصهيونية العالمية قد خدعوا في ذلك. واتهم كتيّب لجنة الطوارىء في عام ١٩٤٠ التصحيحيين «بحبهم للإيماءات الدرامية حباً لا نفع فيه ولا علاج»:

> من بين عدة أمور صنع التصحيحيون من حقيقة أن مهاجريهم لم يكونوا مختارين، فضيلة. كانوا يأخذون الكل ـ المسنين والمرضى والذين لا يصلحون نفسياً للريادة ـ بينما الهجرة المسؤولة (العاليا) تفترض الاختيار(٢٢).

بأية سلطة يمكن للمنظمة الصهيونية العالمية أن تدين أي إنسان لمحاولاته إنقاذ المسنين والمرضى أو حتى غير الصالحين نفسياً؟ لو أن جهاز المنظمة الصهيونية العالمية اقترح الوحدة مع التصحيحيين حول جهد صادق لا يستثني أحداً، لما كان أمام التصحيحيين إلا أن يتمسكوا بدعايتهم أو يخاطروا بالانكشاف. ومع ذلك فإن المنظمة الصهيونية العالمية لم تكن مهتمة بالانقاذ الإنساني. وكان قادتها ينتقون ويختارون علناً وبشكل صارم على أساس ما كانوا يرونه من صالح الصهيونية.

هوامش الفصل الثالث والعشرين

1. Yehuda Bauer, *From Diplomacy to Resistance*, p. 391.
2. Yehuda Bauer, 'Illegal Immigration', *Encyclopedia of Zionism and Israel*, vol. I, p. 532.
3. William Perl, *The Four Front War*, p. 1.
4. Yehuda Slutzky, 'The Palestine Jewish Community and its Assistance to European Jewry in the Holocaust Years', *Jewish Resistance During the Holocaust*, p. 421.
5. Daniel Levine, *David Raziel, The Man and His Times*, pp. 226, 229.
6. Perl, *The Four Front War*, p. 16.
7. Ibid., p. 23.
8. Ibid., pp. 60–1.
9. Ibid., p. 226.
10. Author's interview with Yitshaq Ben-Ami, 16 December 1980.
11. Perl, *The Four Front War*, p. 306.
12. Ibid., p. 302.
13. O. Seidmann, 'Saga of Aliyah Beth', *Tagar* (Shanghai, 1 January 1947), p. 7.
14. David Yisraeli, 'The Third Reich and Palestine', *Middle Eastern Studies* (May 1971), p. 348.
15. Emergency Committee for Zionist Affairs, *Revisionism: A Destructive Force* (1940), p. 24.
16. Aaron Zwergbaum, 'From Internment in Bratislava and Detention in Mauritius to Freedom', *The Jews of Czechoslovakia*, vol. II, p. 601.
17. Bernard Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe 1939–1945*, p. 65.
18. Ibid.
19. Ruth Kluger and Peggy Mann, *The Last Escape*, pp. 456–7.
20. Perl, *The Four Front War*, p. 193.
21. Dalia Ofer, 'The Activities of the Jewish Agency Delegation in Istanbul in 1943', *Rescue Attempts During the Holocaust*, p. 437.
22. Emergency Committee for Zionist Affairs, *Revisionism: A Destructive Force*, p. 24.

٢٤ - فشل الانقاذ في زمن الحرب

لا يمكن النظر إلى المعونة المقدمة ليهود أوربا خلال الحرب العالمية الثانية إلا في سياق الأهداف العامة للحرب بالنسبة للحلفاء. ولقد كان الاهتمام الرئيسي لبريطانيا وفرنسا، طوال الوقت، ثم الولايات المتحدة، هو المحافظة على أمبراطورياتهم وعلى النظام الرأسمالي. ولم يكن للاتحاد السوفييتي أي معركة مع هذه النظرة إلا حيث دخلت قواته عملياً في أوربا الوسطى. لقد دخلت لندن وباريس الحرب من مواقع الدفاع وهما تخشيان النصر والهزيمة معاً: فلقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى انهيار أربع أمبراطوريات وإلى نهوض الشيوعية.

كان موقف الحكومة البريطانية تجاه المساعدة على هرب اليهود من جحيم النازي قد تم وضعه بعناية من جانب صديق روزفلت الحميم هاري هوبْكنز. ولقد قال في حديثه عن اجتماع يوم ٢٧ مارس / آذار عام ١٩٤٣ بين الرئيس وأنتوني إيدن وآخرين حيث أثيرت مسألة انقاذ يهود بلغاريا على الأقل، أن إيدن قال:

> يجب أن نتحرك بحذر شديد تجاه عرض أخذ كل اليهود من بلد كبلغاريا. إذا فعلنا ذلك فإن يهود العالم سيطلبون منا أن نقدم عروضاً مشابهة في بولندا وألمانيا. وقد يوافقنا هتلر على أي من هذه العروض، وببساطة لا يوجد ما يكفي من سفن ووسائط نقل في العالم لتنفيذ ذلك[1].

كان اهتمام بريطانيا الأول هو أن انقاذ اليهود قد يخلق مشاكل مع العرب الذين

كانوا يخافون من أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد تؤدي إلى دولة يهودية بعد الحرب. ولقد كانت مراعاة لندن الجزعة للحساسيات العربية في هذا المجال تقوم فقط على حسابات إمبريالية. فطبقاً لتشرشل، لم يكن العرب بأكثر من «شعب متخلف لا يأكل سوى روث الجمال»[٢]. ولقد فهم البريطانيون أن الصهاينة ينظرون أيضاً إلى الحرب والانقاذ من خلال منظار فلسطيني. وكان الصهاينة يعرفون أن العرب سيعارضون سادتهم الكبار البريطانيين. وقد كانوا يأملون أن يتملقوا بريطانيا بولائهم هم. كان الهدف الرئيسي في زمن الحرب بالنسبة لهم هو خلق فرقة يهودية، وبها كانوا يأملون تكوين سجل عسكري قد يرغم بريطانيا على أن تمنحهم الدولة كمكافأة فيما بعد الحرب. كان تفكيرهم الأول هو كيف يمكن تحويل الحرب لمصلحتهم في فلسطين. ويقدم يوف جلبر من معهد يادفاشيم عرضاً طيباً لهذا الرأي الشائع بين الصهيونيين العماليين في سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٩:

> مال معظم القادة للنظر إلى فلسطين ومشاكلها باعتبارها محكاً لمواقفهم تجاه الحرب. كانوا عازمين على ترك القتال في الخطوط الأولى في حد ذاته إن لم يكن متصلاً بفلسطين، وباليهود في المهجر[٣].

واتخذ «الهاشومير هاتسائير» نفس الموقف، وعارضوا أي تطوع يتضمن الخدمة خارج فلسطين. وكما أوضح واحد من كتابهم وهو ريتشارد فاينْتْداوب في يوم ٢٨ سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٩: «سيكون من عدم الحكمة سياسياً محاولة إحياء طبعة حديثة من «الإرساليات» اليهودية في العالم على نطاق واسع وتقديم تضحيات من أجلها»[٤].

وخلال عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١، نادراً ما ناقشت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية مسألة اليهود في أوربا المحتلة، وإلى جانب جهودهم الفاترة في الهجرة غير الشرعية فإن الوكالة لم تفعل شيئاً لهم[٥]. كما أن زملاءهم في أمريكا المحايدة لم يكونوا أكثر عوناً بالرغم من حقيقة أن جولدمان كان قد وصل إلى هناك في تلك الفترة من عام ١٩٤٠، كما ذهب بن جوريون ووايزمان إلى هناك في عدة زيارات طويلة في عامي ١٩٤٠ و١٩٤١. بالإضافة إلى ذلك فقد شنت القيادة الصهيونية الأمريكية حملة ضد أولئك اليهود الذين كانوا يحاولون مساعدة المنكوبين. ولقد قال آرييه تَرْتاكاور، وكان مسئول أعمال المعونة في المؤتمر اليهودي العالمي في أمريكا في عام ١٩٤٠، قال بعضاً من هذه الحكاية في مقابلة مع المؤرخ الإسرائيلي البارز شاباتي / بيت - زْفي:

تلقينا مكالمة من الحكومة الأمريكية، من وزارة الخارجية، وقد لفتوا انتباهنا إلى أن إرسال الطرود إلى بولندا لم يكن في مصلحة الحلفاء. . . وكان أول من أبلغنا بأن نتوقف على الفور هو الدكتور ستيفن وايز. قال: «يجب أن نتوقف لصالح انجلترا»[٦].

قرر البريطانيون أنه كان من «واجب» الألمان كمعتدين إطعام السكان في المناطق التي احتلوها، وأن طرود الغذاء من الخارج لم تكن تساعد إلا جهود الحرب الألمانية. ولم يتوقف جهاز المؤتمر اليهودي العالمي ـ والمؤتمر اليهودي الأمريكي فقط عن إرسال الغذاء، ولكنه ضغط أيضاً على وكالات الإغاثة اليهودية غير الصهيونية لكي تتوقف كذلك، ولقد توقفوا جميعاً تقريباً باستثناء الأجودا (الاتحاديين). هؤلاء قالوا للصهاينة أن بريطانيا لم تكن هي السلطة التي تقرر ما هو جيد بالنسبة لليهود، وأرسلوا المزيد من الطرود. وقد أثار ذلك جوزيف تِنِنْبَوْم وهو صهيوني وقائد المقاطعة اليهودية المعادية للنازية التي كانت لا تكاد تذكر. لم يكن قد رأى من قبل أن طرود الغذاء هي من مسئولياته حتى اقترحت ذلك وزارة الخارجية. عندئذ هاجم الاتحاديين في الجريدة اليومية الصهيونية «دِيْرْتُوج» في يوليو / تموز وأغسطس / آب عام ١٩٤١:

لماذا إذن يرسلون المندوبين الانجليز أو اليوغسلاف لجمع الأموال لأسرى الحرب. هذه قضية مختلفة تماماً. إن أسرى الحرب هم تحت مسئولية ميثاق الصليب الأحمر الدولي الذي شابت لحيته منذ زمن طويل[٧].

واستمرت اللحى البيضاء للاتحاديين في تحدي تننبوم «ومجلسه المشترك للمقاطعة» المشكل من «المؤتمر اليهودي الأمريكي» و«اللجنة العمالية اليهودية» وأدرك البريطانيون ـ في نهاية الأمر ـ أنه ليس في إمكانهم أبداً وقف الاتحاديين وتركوهم يرسلون عشرة آلاف طرد شهرياً. وقد انفضحت معاداة السامية في السياسة البريطانية فيما بعد عندما زودوا اليونان المحتلة بالقمح الكندي ابتداء من عام ١٩٤٢ حتى تحريرها. كان اليونانيون حلفاء مهزومين، ولم يكن اليهود كذلك.

وايز يكتم أنباء حول إبادة اليهود

متى اكتشفت المؤسسة اليهودية الحربية والحلفاء أن هتلر كان يقتل اليهود بشكل منتظم؟. لقد بدأت تقارير عن الذبح في أوكرانيا تصل إلى الصحافة الغربية في

أكتوبر/تشرين أول عام ١٩٤١، وفي يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٢ أصدر السوفييت تقريراً مفصلاً هو «إعلان مولوتوف» الذي يحلل أعمال «مجموعات العمل النازية». وقد رفضت المنظمة الصهيونية العالمية في فلسطين هذه المذكرة باعتبارها «دعاية بلشفية»[٨]. وفي فبراير / شباط عام ١٩٤٢ عقد برتراند جاكوبسون، وهو المندوب السابق للجنة التوزيع المشتركة في المجر، مؤتمراً صحفياً عند عودته إلى الولايات المتحدة، ونقل عن الضباط المجريين معلومات عن ذبح ٢٥,٠٠٠ يهودي في أوكرانيا. وفي مايو / أيار عام ١٩٤٢ أرسل البوند رسالة لاسلكية إلى لندن بأن الـ ٧٠٠,٠٠٠ يهودي قد أبيدوا بالفعل في بولندا، وأذاعت محطة الإذاعة البريطانية في ٢ يوليو / تموز جوهر هذا التقرير إلى أوربا. واستعملت حكومة المنفى البولندية تحذير البوند في دعايتها الصحفية الناطقة باللغة الانجليزية. ومع ذلك ففي السابع من يوليو / تموز عام ١٩٤٢ رفض إسحاق جْروِيْنبَوم، وكان عندئذ قائداً «للجنة الانقاذ» (فادهازلاه) في الوكالة اليهودية، أن يصدق الروايات المشابهة عن المذابح في لتوانيا، لأن العدد المقدر للموتى أكبر من عدد السكان اليهود ما قبل الحرب في ذلك البلد[٩]. وفي ١٥ أغسطس / آب أرسل ريتشارد ليشتهايم في سويسرا تقريراً إلى القدس قام على مصادر المانية حول مدى الإبادة ووسائلها. وقد تلقى جواباً بتاريخ ٢٨ سبتمبر / أيلول:

> بصراحة، لست أميل لقبول كل شيء في تقريرك كما جاء.. فكما أن المرء عليه أن يتعلم بالخبرة قبول حكايات غير صادقة كحقائق لا تقبل الجدل، كذلك عليه أن يتعلم بالخبرة التمييز بين الواقع، مهما يكن فجاً، وبين الخيال الذي تشوه بفعل الخوف المبرر[١٠].

أقر جرينبوم ولجنة الانقاذ التابعة له بأن هناك أموراً رهيبة تقع ولكنه ظل يقلل منها باعتبارها مجرد «حملات تطهيرية».

وفي ٨ أغسطس / آب حصل جيرهارت ريجنر من مكتب جينيف للمؤتمر اليهودي العالمي على روايات تفصيلية لبرنامج القتل بالغاز من مصادر ألمانية موثوقة، ورفعها إلى مكتب المؤتمر اليهودي العالمي في لندن ونيويورك عبر الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين. وقد تسلم المؤتمر اليهودي العالمي في لندن المادة المرسلة ولكن واشنطن منعت الرسالة عن الحاخام وايز. وفي يوم ٢٨ أغسطس / آب أرسل القسم البريطاني للمؤتمر اليهودي العالمي نسخة أخرى لوايز فاتصل بوزارة الخارجية تليفونياً واكتشف أنهم

حجزوا عنه المعلومات. عندئذ طلبوا منه ألا يعلن الأنباء للجمهور في انتظار التأكد منها. وقد وافق ولم يقل شيئاً حتى ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ـ أي بعد ٨٨ يوما ـ عندما أكدت وزارة الخارجية التقرير أخيراً. وعندئذ فقط أصدر وايز بياناً علنياً عن خطة النازيين لإبادة كل اليهود الموجودين في قبضتهم. وفي ٢ سبتمبر/أيلول كتب رسالة «للزعيم العزيز»، فرانكلين روزفلت يطلب اجتماعاً طارئاً ويبلغه بأن:

لديَّ برقيات ونصائح سرية منذ بضعة شهور تفيد بهذه الأمور. وقد نجحت ومعي المسئولون عن المنظمات اليهودية الأخرى في إبقائها بعيداً عن الصحافة[١١].

إن وايز وجولدمان اللذين كانا في الولايات المتحدة طوال وقت الحرب لم يشكّا أبداً في أن تقرير ريجنر كان صادقاً. وحسبما يقول والتر لاكير، فقد خشيا أن الإعلان قد يزيد من يأس الضحايا[١٢]. أما يهودا باور فهو متأكد أن القادة اليهود الأمريكيين كانوا على علم بالفعل وقت ذاك بتقرير البوند[١٣].

«لا حاجة للكشف عنها للجمهور»

في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٤٢، وصل ٧٨ يهودياً يحملون المواطَنة الفلسطينية إلى فلسطين من بولندا في عملية تبادل مع بعض «كهنة المعبد» الفلسطينيين. لم يعد في إمكان الوكالة اليهودية أن تستمر في التشكيك في التقارير التي كانت تصل إلى البلاد منذ أشهر، وأعلنوا في النهاية، مثلما فعل وايز، أن النازيين كانوا يبيدون اليهود بشكل منتظم. ولكن وكما هو الحال مع وايز فإن بعض قادة المنظمة الصهيونية العالمية في فلسطين كانوا مقتنعين بصدق التقارير قبل وقت طويل من اختيارهم إعلان الحقائق. ففي يوم ١٧ أبريل / نيسان عام ١٩٤٢، حتى قبل إذاعة البوند، كتب موشى شرتوك إلى الجنرال كلود أوكنلك قائد الجيش الثامن البريطاني في شمال أفريقيا. كان يقلقه ما يمكن أن يحدث ليهود فلسطين إذا شق «الفيلق الأفريقي» الألماني طريقه عبر مصر.

إن تدمير العرق اليهودي هو إحدى السمات الجوهرية في العقيدة النازية. وقد أظهرت تقارير مسئولة نشرت مؤخراً أن هذه السياسة يتم تنفيذها بقسوة تفوق

الوصف. . ولا بد أن يُخشى من أن تدميراً أكثر اجتياحاً يمكن أن يتغلب على اليهود في فلسطين (التشديد لي)[١٤].

بكلمات أخرى، فبينما كان جروينبوم وهو المسئول رسمياً عن جهود الإنقاذ في المنظمة الصهيونية العالمية يتشكك حول درجة الثقة في التقارير عن ذبح الشعب الذي كان يُفترض أنه يساعده، كان رئيس الدائرة السياسية للوكالة اليهودية يستعمل نفس التقارير لإقناع البريطانيين بتسليح الحركة الصهيونية في فلسطين.

ومع البيانات التي أعلنها وايز والوكالة اليهودية تحول الانتباه إلى ما يمكن عمله بهذا الشأن. وأطلق بيان الوكالة اليهودية شعوراً عشوائياً بالذنب شمل كل المستوطنين عندما هبط عليهم واقع الرعب الذي يواجهه أقاربهم. ومع ذلك لم يكن هناك أي تغيير في التركيز السياسي بين الصهاينة. وظلت إقامة الدولة اليهودية بعد الحرب هي الأولوية بالنسبة لهم ولم تكن المحرقة لتنسف ذلك. وهكذا، عندما أبرق اتحاد الصحفيين المحليين للمنظمات المشابهة في الخارج يطلب منهم التركيز على الذبح، حذرهم دوف جوزيف القائم بأعمال مدير الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية من:

نشر بيانات تضخم عدد الضحايا اليهود، لأننا إذا أعلنا أن الملايين من اليهود قد ذبحهم النازيون، فسيكون مبرَّراً أن نسأل أين هي هذه الملايين من اليهود، الذين نزعم أننا نحتاج إلى توفير وطن لهم في أرض إسرائيل بعد انتهاء الحرب[١٥].

ويخبرنا يُواف جِلْبَر عن الأثر المباشر لتدخل دوف جوزيف: «عندئذ تم تخفيف لهجة الاحتجاجات العنيفة وبدلاً من ذلك تم اتباع طرق استجابة «بنَّاءة» أكثر[١٦]. وتحدث بن جوريون عن «مطالب» بأن على الحلفاء أن يهددوا بالرد ومحاولة إنقاذ اليهود، وبالذات الأطفال، أو بمبادلة ألمان مقابل يهود، الخ. وبنفس الروح استمر يدعو إلى التركيز على تقوية الدعم لاقتراح الجيش اليهودي[١٧]. أما الوكالة اليهودية فقد اكتفت بأن تظاهرت بالعمل. ولكن لم يكن هناك أي جهد خاص لعملية الانقاذ. واستمر جروينبوم في القيام بعدة واجبات أخرى بالإضافة إلى رئاسة لجنة الانقاذ[١٨]. وقد قدم البروفسور باور تقييماً مدروساً متميزاً لرئاسة جروينبوم لجهودهم:

على أساس البحث الذي تم في «معهد اليهودية المعاصرة» في الجامعة ـ العبرية ـ

يمكنني القول. . إن مزاج بعض القادة ـ وبشكل خاص إسحاق جروينبوم . . . قد تحول إلى القنوط الكامل. وقد ظن هو وبعض معاونيه الأقربين أن لا شيء يمكن عمله لانقاذ يهود أوربا وأن الأموال التي ترسل إلى أوربا للهرب أو المقاومة أو الإنقاذ ستبدد. ولكنهم شعروا أن الجهد يستحق القيام به لكي يمكنهم القول بعد الحرب أن كل شيء ممكن قد تم عمله. ولا بد من التشديد على أنهم لم يقولوا أبداً أن هذا الجهد لا يجب أن يُبذل، ولكنهم شعروا أنه سيفشل لا محالة(١٩).

ولكن هل فعل جروينبوم فعلاً كل شيء؟ كان هناك كثيرون في فلسطين من الذين روَّعتهم انهزامية المنظمة الصهيونية العالمية واستمرار انشغالها بأهداف الصهيونية بينما كان أقاربهم يذبحون. وقد علا صوت هؤلاء الناس مطالبين بعمل شيء، ولكنهم لم يكونوا يشكلون تهديداً مباشراً لقادة المنظمة الصهيونية العالمية، وإنْ شعرت القيادة بالضغط. كان معظم الضغط موجهاً لجروينبوم الذي استسلم في نهاية الأمر في اجتماع اللجنة التنفيذية الصهيونية يوم ١٨ فبراير / شباط ١٩٤٣، واتهم منتقديه وأصدقاءه بأنهم تركوه يتحمل اللوم وحده، بينما لم يفعلوا هم أي شيء كذلك. وفيما بعد سجل كلمته التي لا تصدق في كتابه الذي صدر بعد الحرب بعنوان «**في أيام المحرقة والتحطيم**»:

> ومع ذلك ففيما بيننا ـ واسمحوا لي أن أتكلم عن هذا الجانب من الصورة ـ هناك حل عالمي واحد يصلح لكل واقعة سيئة، لكل محرقة. فقبل كل شيء نحن نهاجم القادة. . هم الذين يجب لومهم. . لو أننا صحنا، لو أننا طالبنا، فكل شيء كان من الممكن عمله من أجل الانقاذ والمساعدة، فإنّ لم يُصنع شيء فذلك لأننا لم نصح ولم نطالب.
>
> أريد تحطيم هذا الافتراض. . من أجل الانقاذ، من أجل إخراج الناس من البلدان المحتلة. . . سيكون من الضروري أن تقدم الدول المحايدة الملجأ وأن تفتح الأمم المتحاربة بواباتها للاجئين. وعندما اقترحنا المطالبة بذلك عبر مساعدة أصدقائنا. . . كان هناك من قال «لا تلمسوا هذا الأمر، أنتم تعرفون أنهم لن يسمحوا لليهود بدخول شمال أفريقيا، إلى الولايات المتحدة، لا تضعوا رفاقنا في مثل هذا الوضع. إن الجمهور غير قادر على أن يقبل هذه الاعتبارات. إنهم لا يفهمونها ولا يرغبون في فهمها». . .
>
> وفي الوقت نفسه اجتاحت أرض إسرائيل موجة أعتقد أنها شديدة الخطورة على

الصهيونية، وعلى جهودنا من أجل الخلاص، وعلى حربنا من أجل الاستقلال. لا أريد أن أجرح أي شخص، ولكن لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يظهر مثل ذلك في أرض إسرائيل، وهو شيء لم يحدث أبداً في الخارج. كيف يمكن أن ينادي أهل أورشليم في أحد الاجتماعات قائلين: «إذا لم يكن لديكم أموال كافية، فيجب أن تأخذوها من صندوق الأراضي (كيرين هاي سُود)، يجب أن تأخذوا الأموال من البنك، توجد أموال هناك» أظن أن من الواجب الوقوف في وجه هذه الموجة..

في هذا الوقت توجد في أرض إسرائيل تعليقات: «لا تضعوا أرض إسرائيل موضع الأولوية في هذا الزمان الصعب، زمن تدمير يهود أوربا. أنا لا أقبل مثل هذا القول. وعندما سألني بعضهم: «ألا يمكنك إعطاء الأموال من صندوق الأراضي لإنقاذ يهود من المهجر؟ «قلت: لا! وأقول ثانية لا. أعلم أن الناس يتعجبون لماذا قلتها. قال لي الأصدقاء أنه حتى لو كانت هذه الأمور صحيحة فلا ضرورة للكشف عنها أمام الجمهور في زمان الأسى والقلق. أنا لا أوافق. أظن أن علينا أن نقف في وجه هذه الموجة التي تضع النشاط الصهيوني في المقام الثاني. هل قلت ذلك لتمجيد معتقداتي؟ وبسبب ذلك لقبني الناس معادياً للسامية وخلصوا إلى أنني مذنب، لأننا لا نعطي الأولوية لنشاطات الإنقاذ.

أنا لن أدافع عن نفسي. تماماً كما لن أبرر، أو أدافع عن نفسي إذا ما ألقوا عليَّ اللوم لقتل أمي، وهكذا فإنني لن أدافع عن نفسي في هذه الحالة. ولكن لا يجب أن يتخلى عني أصدقائي في هذه المعركة ثم يريحون روحي فيما بعد: «لو أنك كنت على صلة بأي حزب سياسي لكنا وضعنا لك الأعنّة» أعتقد أن من الضروري أن أقول هنا: إن الصهيونية فوق كل شيء...

أريد أن أنهي اقتراحاتي. طبيعي أنه لأمر ملزم لنا أن نستمر في كل نشاط من أجل خاطر الانقاذ، وألا نهمل فرصة واحدة لإنهاء الذبح... وفي نفس الوقت يجب علينا أن نحرس الصهيونية، هناك من يشعر أن ذلك أمر لا يجب قوله في زمان تحدث فيه المحرقة، ولكن صدقوني سنرى فيما بعد مظاهر مقلقة في هذا المجال. إن الصهيونية فوق الجميع - ومن الضروري إعلان ذلك كلما حرفتنا المحرقة عن حربنا التحريرية في الصهيونية. إن حربنا من أجل التحرير لا تنبع

من حقيقة المحرقة بأسلوب مباشر ولا تتشابك مع النشاطات لصالح المهجر في حينها، وذلك ما يضيرنا، هذا الوضع غير موجود بالنسبة لأي قومية أخرى. لدينا مجالين للنشاط وهما متصلان ومتشابكان ولكنهما من الناحية العملية ساحتان منفصلتان للعمل بالرغم من تلامسهما أحياناً. وعلينا أن نحمي - وبشكل خاص في هذه الأيام - أولوية حرب الخلاص[٢٠].

في عام ١٩٤٤ وصل إلى القدس صهيوني مجري هو جويل براند في مهمة غير عادية (سيتم وصف هذه المهمة بتفصيل أكبر في الفصل التالي، أما هنا فيكفي تبيان أنه حتى عام ١٩٤٤ لم يكن الألمان قد احتلوا المجر، وكانت قد أصبحت ملجأ للذين يهربون من مناطق النازيين). وكان براند شخصية بارزة في لجنة الانقاذ الصهيونية الخاصة ببودابست، وقد أخذ بهذه الصفة ليقابل جروينبوم. وقد أفاد فيها بعد عن واحدة من مقابلاته المحزنة مع مدير عمليات الإنقاذ الخاصة بالمنظمة الصهيونية العالمية:

قال لي ذات مرة «لماذا لم تنقذ ابني.. يا هِرْ براند؟.. كان يجب أن تكون قادراً على الإتيان به من بولندا إلى المجر». أجبت: «نحن لا نقوم عادة بإنقاذ الأفراد». «ولكن كان يجب أن تفكر في ابني يا هر براند. كان واجبك أن تفعل ذلك.«واحترمت شعره الأبيض ولم أزد»[٢١].

«لأنه بالدم وحده سنحصل على الأرض»

بدأ النازيون في أخذ يهود سلوفاكيا كأسرى في مارس / آذار عام ١٩٤٢. وفكر الحاخام ميشيل دوف - بِيْر فايسمانْدِل، وهو الحادي، أن يستعمل السلاح التقليدي ضد معاداة السامية: أي الرشوة. واتصل بديتَر ويسلسني وهو ممثل أيخمان، وقال له إنه على اتصال بقادة يهود العالم، فهل يقبل ويسلسني أموالهم مقابل حياة يهود سلوفاكيا؟ وافق ويسلسني على مبلغ ٥٠,٠٠٠ دولار طالما أنها ستأتي من خارج البلاد. دفعت الأموال ولكنها من الناحية العملية كانت قد جمعت محلياً، وتم توفير حياة اليهود وعددهم ٣٠,٠٠٠ واستُبقوا حتى عام ١٩٤٤، عندما أسروا في أعقاب هبّة المقاومة السلوفاكية العنيفة ولكن غير الناجحة.

كان فايسماندل، قد تطوع في أول سبتمبر / أيلول عام ١٩٣٩ للعودة إلى سلوفاكيا كوكيل للاتحاد (الأجودا) العالمي، وكان عندئذ طالب فلسفة في جامعة أكسفورد. وقد

أصبح واحداً من أبرز الشخصيات اليهودية خلال المحرقة لأنه كان هو أول من طالب الحلفاء بقصف [معسكر الاعتقال] أوشفيتز. وقد أسر في نهاية الأمر ولكنه استطاع أن يهرب من قطار أثناء سيره بالاستعانة بسلك صنفرة، قفز وكسرت ساقه وعاش واستمر في عمله لانقاذ اليهود. إن كتاب فايسماندل القوي الذي صدر بعد الحرب بعنوان «**من الأعماق**»، والمكتوب بعبرانية تلمودية، لم يترجم إلى الانجليزية للأسف حتى الآن. وهو واحد من أقوى الاتهامات للصهيونية وللمؤسسة اليهودية. وهو يساعد على وضع عدم استعداد جروينبوم إرسال أموال إلى أوربا المحتلة في منظوره الصحيح. لقد أيقن فايسماندل أن: «الأموال مطلوبة هنا، نحن الذين بحاجة إليها وليس هم. لأنه بوجود الأموال هنا يمكن صياغة أفكار جديدة[٢٢]. كان فايسماندل يفكر فيما هو أبعد من الرشوة. وقد أدرك على الفور أنه بالأموال من الممكن تعبئة المقاومين السلوفاك. ومع ذلك فإن السؤال الرئيسي بالنسبة له كان هو ما إذا كان يمكن رشوة أي من المستويات العليا لقوات العاصفة أو للنظام النازي. لم يكن للرشوة أي مضاعفات خطيرة إلا إذا كانت هذه المستويات عازمة على التعامل مع يهود الغرب أو مع الحلفاء. ولقد شاهد ميزان الحرب يتحول، مع وجود بعض النازيين الذين كانوا ما زالوا يفكرون أنَّ في إمكانهم أنْ يكسبوا، ويأملون في استعمال اليهود لممارسة الضغط على الحلفاء، ولكن آخرين كانوا قد بدأوا يخشون عقاب الحلفاء في المستقبل. كان اهتمامه ينصب ببساطة على أن يبدأ النازيون في تقرير أن اليهود الأحياء هم أكثر فائدة من اليهود الموتى. لا يجب خلط تفكيره مع تفكير أولئك المتعاونين من المجالس اليهودية. لم يكن يحاول إنقاذ بعض اليهود. لقد فكر بشكل صارم في نطاق مفاوضات على أساس كل أوربا لكل اليهود. وقد حذر يهود المجر بدورهم: لا تدعوهم يضعونكم في جيتو. تمردوا، اختبئوا، اجعلوهم يجرون الأحياء منكم في السلاسل، إذا ذهبتم مسالمين إلى جيتو فستذهبون إلى أوشفتز. وكان فايسماندل حريصاً على ألا يسمح لنفسه بأن يناور عليه الألمان بمطالبة الحلفاء بالتنازلات. كانت الأموال من يهود العالم هي الطعم الوحيد الذي علقه أمامهم.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٤٢ تم الاتصال بويسلسني ثانية. كمن من الأموال تحتاجون من أجل إنقاذ كل يهود أوربا؟ ذهب إلى برلين وفي أوائل عام ١٩٤٣ جاءت كلمة إلى براتسلافا بأنه يمكنهم الحصول على كل اليهود في أوربا الغربية والبلقان مقابل مليوني دولار. وأرسل فايسماندل رسولاً إلى سويسرا يحاول الحصول على النقود من التبرعات اليهودية. ورفض سالي ماير وهو صناعي صهيوني ومندوب «لجنة التوزيع

المشتركة» في زيوريخ، رفض أن يعطي «مجموعة العمل» في براتسلافا أي أموال، حتى ولو كدفعة أولى لاختبار الاقتراح، لأن «اللجنة المشتركة» لن تخرج على القوانين الأمريكية التي تمنع إرسال الأموال إلى بلاد العدو. وبدلاً من ذلك أرسل ماير إلى فايسماندل إهانة محسوبة: «إن الرسائل التي جمعتها من اللاجئين السلوفاكيين في بولندا هي حكايات مبالغ فيها، لأن هذه هي طريقة «اليهود الشرقيين» (الأوسْت يودِن) الذين يطلبون المال دائماً»(٢٣).

كان مع الرسول الذي أحضر إجابة ماير رسالة أخرى من ناتان شْغَالْب، ممثل «الهجالوتز» في سويسرا. وقد وصف فايسماندل الوثيقة:

> كانت هناك رسالة أخرى داخل المظروف، مكتوبة بلغة أجنبية غريبة بحيث لم يمكنني في البداية أن أعرف أي لغة هي على الإطلاق حتى أيقنت أن تلك كانت عبرية مكتوبة بحروف لاتينية، ومكتوبة لأصدقاء شغالب في بريْسبورج (براتسلافا). . . . لا تزال أمام ناظري كأنني استعدتها مائة مرة ومرة. وفيما يلي محتويات الرسالة:
>
> «لما كانت لدينا فرصة هذا الرسول فإننا نكتب إلى المجموعة التي يجب أن يضع أعضاؤها نصب أعينهم باستمرار أن الحلفاء سيكسبون، وبعد انتصارهم سيقسمون العالم ثانية بين الأمم كما فعلوا عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وعندئذ كشفوا عن خطة الخطوة الأولى، والآن عند نهاية الحرب يجب أن نفعل كل شيء بحيث تصبح أرض إسرائيل هي دولة إسرائيل، وقد اتخذت خطوات هامة بالفعل في هذا الاتجاه. أما عن الصيحات التي تأتي من بلدكم فإننا يجب أن نعرف أن كل الأمم الحليفة تهرق الكثير من دمائها، وإننا إن لم نضحِّ بأي دماء فبأي حق يمكننا أن نحظى بالجلوس إلى طاولة المساومات عندما يقسمون الأمم والأراضي في نهاية الحرب؟ لذلك فإنه لمن السخف بل من الوقاحة أن نطالب من جانبنا هذه الأمم التي تبذل دماءها بأن تسمح بدخول أموالها إلى بلاد العدو لكي تحمي دماءنا ـ لأنه بالدماء فقط سنحصل على الأرض. ولكن فيما يتعلق بكم يا أصدقائي «أتيم تايلو» ولهذا الغرض أرسل لكم نقوداً بشكل غير شرعي مع هذا الرسول»(٢٤).

تأمل الحاخام فايسماندل الرسالة المذهلة:

بعد أن عودت نفسي على هذه الكتابة الغريبة ارتعدت، إذ فهمت معنى الكلمات الأولى وهي «بالدماء فقط سنحصل على الأرض». ولكن أياماً وأسابيع مضت دون أن أعرف معنى الكلمتين الأخيرتين. حتى رأيت من شيء ما قد حدث، أن الكلمتين «أتيم تايلو» كانتا من «تيول» (المشي) وهو تعبيرهم الخاص عن «الانقاذ». بكلمات أخرى: أنتم يا زملائي الأعضاء الـ ١٩ أو ٢٠ صديقاً مخلصاً، أخرجوا من سلوفاكيا وأنقذوا حياتكم، وبدماء من سيتبقى ـ بدماء كل الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والرضع ـ ستكون الأرض لنا ـ لذلك ولكي تنقذ حياتهم، فإن من الجريمة السماح بدخول الأموال إلى داخل مناطق العدو ـ ولكن لانقاذكم أنتم يا أصدقائي الأحباء، ها هي ذي الأموال وقد تم الحصول عليها بشكل غير قانوني.

من المفهوم أن هذه الخطابات ليست لديَّ لأنها بقيت هناك ودُمرت مع كل شيء آخر ضاع[٢٥].

إن فايسماندل يطمئننا على أن جيسي فليْشْمان والصهاينة الآخرين المتفانين العاملين في الإنقاذ داخل مجموعة العمل قد روعهم خطاب شغالب، ولكنه عبر عن الأفكار المريضة لأسوأ عناصر قيادة المنظمة الصهيونية العالمية. لقد انقلبت الصهيونية تماماً فبدلاً من أن تكون الصهيونية أمل اليهود، فإن دماء اليهود كان عليها أن تكون الخلاص السياسي للصهيونية.

أدنى ردّ على الإبادة

حتى بعد إعلان وايز، الذي جاء متأخراً، عن حملة الإبادة فان استجابة المؤسسة اليهودية الأمريكية كانت عند حدها الأدنى. استجابوا لنداء من واحد من رؤساء الحاخامين الصهاينة في فلسطين ليوم من الحداد دعوا إليه يوم ٣ ديسمبر/كانون أول، عام ١٩٤٢ . وأضافت اللجنة العمالية اليهودية المعادية للصهيونية عشر دقائق من وقف العمل اليهودي. ولكن الكثير كان لا بد من فعله قبل أن تقدم إدارة روزفلت على أي عمل أساسي قط. كان لا بد من دفع روزفلت بقوة إذا كان له أن يفعل أي شيء لمساعدة يهود أوربا.

كان لروزفلت مواقف متناقضة تجاه اليهود. كان لديه يهودي في وزارته، وعين آخراً

في المحكمة العليا، وكان لديه عدد منهم بين مستشاريه الموثوقين، ولكنه لم يقم أبداً بأي حركة في الثلاثينات لتعديل قوانين الهجرة المعادية للسامية. وبالرغم من أن اليهود كانوا بارزين في أطر الديمقراطيين في الشمال والغرب فقد كان هناك عدة متحدثين معادين للسامية بين فريق النواب الديمقراطيين الجنوبيين، ولم يفكر روزفلت أبداً في الانفصال عنه. وهو لم يعبر أبداً عن أي مشاعر معادية للسامية علناً، ولكن لا شك أنه كان يحملها. وبعد سنوات نشرت حكومة الولايات المتحدة المذكرات حول مؤتمر الدار البيضاء الذي عقد في يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٣، وقد كشفت عن أنه قال للفرنسيين:

إن عدد اليهود المشتغلين في ممارسة المهن (القانون، الطب إلى آخره) يجب تحديده قطعاً بنسبة مئوية تقابل النسبة المئوية التي يمثلها السكان اليهود في شمال أفريقيا بين مجموع سكان شمال افريقيا. . وبيّن الرئيس أن خطته هي أنه سيواصل إزالة الشكاوى المحددة والمفهومة التي يحملها الألمان تجاه اليهود في المانيا وهي أنهم بينما يمثلون قسماً صغيراً من السكان فإن أكثر من ٥٠٪ من المحامين والأطباء والمدرسين وأساتذة الجامعات الخ في المانيا كانوا يهوداً[٢٦].

كان ضعف استجابة المؤسسة اليهودية مثيراً لدرجة أنه أدى إلى إدانة عنيفة من جانب الصهيوني العمالي القديم حاييم جْرينْبرْج، الذي كتب في عدد فبراير/شباط ١٩٤٣ من مجلة **يديش كمفر** (المقاتل اليديشي):

ان الجاليات اليهودية القليلة الباقية في العالم والتي لا تزال قادرة على أن تُسمع أصواتها وأن تصلي علانية يجب أن تعلن عن يوم من الصيام والصلاة من أجل اليهود الامريكيين. . فهذه الجالية اليهودية الأمريكية قد سقطت إلى أدنى من أي مستوى سقطت اليه أي جالية أخرى في زمننا المعاصر. . إننا لم نُبدِ حتى ما يكفي من القدرة على تكوين نوع ما من الهيئة العامة (بشكل مؤقت ولفترة الطوارىء فقط) تجتمع كل يوم وتفكر وتتشاور وتقلب السبل لكي تستفيد من مساعدة الشعب، الذي قد، وربما، يكون في وضع يسمح له بمساعدتنا. . . زمرة تحاول أن تتفوق على أخرى - الصهاينة والمعادون للصهيونية. . ما دخل عمل مثل الانقاذ بالخلافات السياسية وبكل هذه الفرقعة الأيديولوجية التي انتجناها خلال الجيلين الماضيين[٢٧]؟

لم يوفر هجوم جرينبرج القوي على قيادات اليهود الامريكيين أي واحد، وفي

مقدمتهم زملاؤه الصهاينة الذين كانوا قد أصبحوا القوة الأقوى في الجالية. وبدون أن يذكر أسماء، أدان الانهزامية والهوس بفلسطين اللذين يشاهدان في الكثير من الدوائر الصهيونية القيادية:

بل انه قد ظهر بعض الصهاينة بيننا من الذين أصبحوا معتادين على التفكير بأنه من المستحيل كف يد القاتل، ولذلك، كما يقولون، من الضروري «الاستفادة من هذه الفرصة» لكي يؤكدوا للعالم مأساة التشرد اليهودي، ولتقوية المطالبة بوطن قومي يهودي في فلسطين. (وطن لمن؟ للملايين من الموتى في مقابرهم المؤقتة في أوربا؟).

وهاجم المؤتمر اليهودي الأمريكي التابع لوايز:

في الوقت الذي يستعمل فيه ملاك الموت الطائرات فان المؤتمر اليهودي الامريكي يستعمل عربة سريعة يجرها ثور. . . إنهم يوكلون أعمال الانقاذ في أوربا إلى لجنة خاصة. . هذه اللجنة تسمح لنفسها بترفٍ عدم الاجتماع لأسابيع. . وتظهر عجزاً في شجاعة اليأس، و«عدوانية الروح» التي تميز ساعة الموت، والقدرة على العمل بمبادراتها على نطاق مناسب، أو لجذب أناس من دوائر أخرى وتنشيطهم لمثل هذه القضية التي تبرر نفسها بشكل عام في محاولة لانقاذ أولئك الذين لا يزالون من الممكن انقاذهم.

وجلد جرينبرج بكلماته «لجنة التصحيحيين من أجل جيش يهودي» بسبب نشرها الاعلانات المرتفعة الثمن عن جيش يهودي من ٢٠٠,٠٠٠ يهودي بدون دولة: «وهم يعرفون جيداً أن هذا الرقم رقم خرافي. . فكل اليهود في أوربا، حتى آخر واحد سيقتلون قبل أن يتم تجنيد مثل هذه القوة وتنظيمها وتدريبها بوقت طويل»[٢٨].

لجنة الطوارىء

مجموعة واحدة فقط من المجموعات الصهيونية هي التي فهمت أن الانقاذ يجب أن يكون على رأس أولوياتها. عدد صغير من أعضاء جماعة الأرجون ذهبوا إلى الولايات المتحدة الامريكية لجمع الأموال لهجرتهم غير الشرعية، وعندما اندلعت الحرب أضافوا مطلباً خاصاً «بالفرقة اليهودية» التي اعتبروها الهدف المباشر ـ مثلهم في ذلك مثل المنظمة الصهيونية العالمية. وفي أبريل/نيسان عام ١٩٤١ لفتتهم عدة مقالات بقلم بِنْ هِتْث،

وكان واحداً من أشهر الصحفيين في أمريكا في جريدة **PM**، وهي جريدة يومية ليبرالية كانت تصدر في نيويورك. وقد شجبت المقالات صمت الشخصيات الاجتماعية والسياسية والأدبية اليهودية بشأن وضع يهود أوربا. وأقنع الإرجونيون هيخت ليساعدهم في تكوين «لجنة من أجل جيش يهودي من يهود فلسطين واليهود الذين لا دولة لهم». وقد وافق هيخت على الفكرة لأنه كان بإمكانه أن يرى أنهم يقاتلون، وهذا ما كان يريده: جيش يهودي يقتل الألمان ثأراً لليهود الذين يذلهم هتلر ويقتلهم. في ذلك الحين كان الإرجونيون يلعبون دوراً صغيراً جداً على المسرح السياسي اليهودي، ومع ذلك فقد أصبح التصحيحيون،وهيخت على رأس لجنتهم، قوة شبه خطيرة. كان يعرف كل انسان في هوليود وفي عالم النشر. وعندما ظهرت إعلاناتهم في الصحف الكبرى بدا وكأنهم جزء فعلي من سياسات زمن الحرب.

وبالرغم من أن الإرجونيين قد فاتهم تقدير المغزى الكامل للبيانات الأولى عن المذبحة، فإن بيان وايز أقنع زعيمهم بيتر بِرجْسون بأن عليهم أن يدفعوا من أجل تحرك من جانب الحكومة الأمريكية بشكل خاص لصالح اليهود. وخططوا لعرض مسرحية غنائية كبرى هي، «لن يموتوا ابداً»، في حديقة ماديسون سكوير، في ٩ مارس/آذار عام ١٩٤٣. وبدأ بعض من أشهر رجال المسرح في ذلك الوقت ـ كورْتْ فايْل، وبيلي روز وإدوارج روبنسون مع كثيرين آخرين ـ في تنفيذ ذلك. كان ذلك أكثر مما يطيق وايز الذي كان عازماً على أن لا تجليه عن المسرح أية مجموعة متطفلة فاشية. فجأة أعلنت المؤسسة اليهودية عن مهرجانها الخاص في الحديقة ليوم أول مارس/آذار. وحاولت «لجنة الجيش اليهودي» أن تحقق الوحدة بأن عرضت الانسحاب بوصفها الراعي الوحيد لنشاط يوم ٩ مارس/آذار، إذا ما وافقت المؤسسة على أن تشاركها الرعاية، ولكنها رفضت[٢٩]. والنتيجة أن مهرجانين منفصلين حول نفس المأساة اليهودية حدثا في نفس الحديقة لا يفصلهما سوى تسعة أيام. وقد حظي كلا المهرجانين بحضور جيد. وملأ مهرجان هيخت ـ فايل الساحة بالمتفرجين مرتين في نفس الليلة. والخلاف الوحيد كان أن دائرة الأتباع حول وايز قد حركتهم أساساً معاداتهم للإرجونيين ولم تكن لديهم أية خطط حقيقية لتعبئة مستمرة، بينما طافت «لجنة الجيش اليهودي» بمدن أمريكا الكبرى مع فرقتها الغنائية. وعندما اشتعل المؤتمر اليهودي الأمريكي التابع لوايز غضباً بسبب نجاحهم، أمر فروعه المحلية في أرجاء البلاد بمحاولة إبقائهم بعيداً عن القاعات والصالات حيثما يمكنهم ذلك، وحرمت الفرقة الغنائية من العرض في بتسبورج وبلتيمور

وبافالو على الأقل[٣٠].

ولكن ما الذي حققناه فعلاً، يتساءل كورت فايل؟ «إن الفرقة الغنائية لم تحقق شيئاً. أعرف أن برجسون يسميها نقطة تحول في التاريخ اليهودي، ولكنه متيّم بالمسرح. من الناحية العملية فإن كل ما فعلناه هو أننا جعلنا أعداداً من اليهود يبكون وهو ما لا يعد إنجازاً فريداً»[٣١]. وفي الحقيقة فإن الفرقة الغنائية قد أقامت بالفعل «لجنة الجيش اليهودي» كقوة معترف بها. وبالرغم من ذلك فإن المبرِّر من العصريين، لمؤسسة المحرقة اليهودية، مثل برنارد فاسرشتاين، من برنْديز، ظل يقول:

إن الكونجرس وأغلبية الجمهور العام كانوا صفاً واحداً في رفضهم العنيد التفكير في أي عمل لا طائل من ورائه بشأن التحديد الصارم للقيود النابعة من الحصص المبنية على الأصول القومية. . إن الأمر يتطلب خيالاً حيّاً لكي يمكن الإقتناع بأن حملة من «النشاط» اليهودي يمكن أن تغير تلك الوقائع الفجة. إن المضاعفات الأكثر احتمالاً كان من الممكن أن تكون إثارة المزيد من مشاعر العداء تجاه اليهود. . . ولقد كان قادة اليهود شديدي الانتباه، ومن هنا تشككهم العام بالنسبة لفعالية النشاط[٣٢].

وفي الحقيقة لا يوجد أي دليل يشير إلى أن معاداة السامية إزدادت كنتيجة لنشاطات اللجنة. بل ربما العكس: زاد الزخم في الكونجرس للتحرك. كان الإرجونيون بمن فيهم فايل الملتزم بعمق، قد شعروا أنهم إذا وضعوا كل قوتهم وطاقتهم في الانقاذ فإنهم قد يضطروا الحكومة لأن تبدأ في فعل شيء. ومن ربيع عام ١٩٤٣ حتى نهاية العام فان اللجنة ـ التي أصبح اسمها الآن «لجنة الطوارىء لانقاذ الشعب اليهودي في أوربا» ـ انفردت عملياً بحقل الانقاذ، إذ أن المؤسسة اليهودية كانت لا تفعل شيئاً أو أنها حاولت تخريب عملهم.

وسرعان ما علمتهم تجربتهم العملية في التعبئة أنهم ـ أي اللجنة ـ يتوجب عليهم الابتعاد عن قضية فلسطين. فبحلول عام ١٩٤٣ كان المتعاطفون الصهاينة يزدادون بسرعة بين اليهود، ولكن العناصر المعادية للصهيونية كانت لا تزال قوية، ولم يكن لدى غير اليهودي أدنى مصلحة في إثارة المشاكل لحلفائهم البريطانيين في الشرق الأوسط، بالرغم من أن كثيراً من الامريكيين العاديين كانوا مقتنعين بأن على حكومتهم أن تحاول

إنقاذ اليهود. في ذلك الوقت وجه وايز وجولدمان تهمة جديدة ضد «لجنة الطوارىء»: لقد خانوا قضية فلسطين المقدسة. وحاول برجسون التفاهم مع وايز: «إذا كنت داخل بيت يحترق، هل تريد من الناس الذين هم خارجه أن يصرخوا «انقذوهم» أو أن يصرخوا «انقذوهم بأن تأخذوهم الى والدورف أستوريا؟» ولكن كان كله هباءاً إذ أن وايز لم يذعن أبداً(٣٣).

وعبأت اللجنة ٤٥٠ من الحاخامين الأرثوذوكس لمسيرة في شهر اكتوبر/تشرين أول إلى البيت الأبيض. غير أن روزفلت لم يقابلهم واندفع خارجاً ليدشن أربع قاذفات للقوات الجوية اليوغوسلافية في المنفى. ولكن الحملة استمرت. ويؤكد بيتر برجسون: «إن اليهود الأغنياء والمؤسسة قد حاربونا دائماً. كان اليهود الصغار ـ والأغيار ـ هم على الدوام الذين يرسلون الأموال لإعلاناتنا»(٣٤). وإذ شعروا انه قد وجد الآن تأييد جماهيري للقضية كافٍ بوضوح تقدم أصدقاؤهم القياديون في الكونجرس وهم السناتور جي جيليت والنواب ويل روجرز الابن وجوزيف بالدوين، وقدموا مشروعاً بتكوين لجنة إنقاذ. وقد أكدوا بشكل محدد أن اقتراحهم لا شأن له بالصهيونية. وكانت المناقشات في مجلس الشيوخ في سبتمبر/أيلول ودية ولكن صُول بْلوم رئيس لجنة الشئون الخارجية في مجلس النواب، وهو يهودي ديمقراطي تاماني من بروكلن، هاجم برجسون بمرارة وتحولت المناقشات ضد الاقتراح. وزيادة في الأمر فقد جاء إلى واشنطن الشخصية الأكثر شهرة في الصهيونية الأمريكية وهو الحاخام ستيفن وايز ليدلي بأقواله ضد مشروع قانون الانقاذ لأنه لم يذكر فلسطين.

وتفاخرت مجلة وايز «**كونجرس ويكلي**» بأن المناقشات «قد استعملها الدكتور وايز لكي يرفع الحوار من مستوى الخطط المجردة إلى أكثر الاجراءات عملية وفورية من أجل الانقاذ، وفي المقام الأول لفتح فلسطين». ولكن كان هناك أكثر من ذلك. لقد شجبت المقالة لجنة الطوارىء «لتجاهلها الكامل لكل المنظمات اليهودية ولسنوات الجهد التي بذلتها من خلال الوكالات الحكومية، ومعها، والتي أقيمت للتعامل مع مشكلة الانقاذ»(٣٥). لسنوات كانت الصحافة والسياسيون يشيرون إلى وايز باعتباره الزعيم لليهود الامريكيين، والآن جاء شخص دخيل هو بن هيشت ومجموعة من التصحيحيين المكروهين يحاولون أن يقولوا لروزفلت كيف يُنقذ اليهود.

لم يتمكن موقف بْلوم ضد مشروع القرار من وقف الضغط من أجل قيام لجنة إنقاذ.

وقبل أن تشن لجنة الطوارىء خطة جديدة قدم وزير الخزانة هنري مورِجنْتَاوْ الابن الى روزفلت تقريراً عن مؤامرة من مجموعة من موظفي وزارة الخارجية لإخفاء المعلومات عن المذابح. وقد وجد أن بْرِيكنْرِدج لونْج السفير السابق الى ايطاليا وأحد المعجبين بموسوليني في فترة ما قبل الحرب، والذي عينته الوزارة لتولي مشاكل اللاجئين خلال المذبحة، قد غير في وثيقة أساسية لكي يعرقل انكشافها. وفي أثناء جلسات الاستماع في الكونجرس كان لونج هو شاهد الإدارة الرئيسي ضد اقتراح لجنة الانقاذ، وكان على مورجنتاو الآن أن يحذر الرئيس من ان الوضع يمكن أن «ينفجر في فضيحة كريهة» بسهولة(٣٦). وعرف روزفلت أنه قد هزم. وفي يوم ٢٢ يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٤ أعلن عن تكوين هيئة لاجئي الحرب.

تجادل مؤرخو المحرقة حول فضل إقامة هيئة اللاجئين ولا يزالون. فأولئك الذين يتفقون مع المؤسسة الصهيونية يقللون من قيمة عمل لجنة الطوارىء ويقولون ان الهيئة كانت بمجملها من أعمال مورجنتاو. وهكذا يصر برنارد فاسر شتاين على أن «النشاط» لم يكن له، ولم يكن من الممكن أن يكون له نتائج بالنسبة لليهود، وأن الهيئة كانت نتيجة تدخل مورجنتاو ولا شيء آخر: «إن احتجاجات مورجنتاو أعطت بعض النتائج. . وهي مثل على ما كان مجدياً كنتيجة للتحرك النشط للقادة اليهود خلف الكواليس»(٣٧). ومع ذلك فقد أقر ناحوم جولدمان بأن جون بِيْلِه الذي كتب مسودة تقرير مورجنتاو وأصبح مدير هيئة لاجئي الحرب: «قد اتخذ الموقف الذي كانت لجنة برجسون لانقاذ الشعب اليهودي في أوربا قد أوحت به مع مقدمة قرار جيليت ـ روجرز، والتي أدت بالتالي إلى إنشاء هيئة لاجئي الحرب»(٣٨) ومع ذلك فقد استمر جولدمان ووايز في حملتهما ضد برجسون. وذهب جولدمان الى وزارة الخارجية يوم ١٩ مايو/ايار ١٩٤٤، حيث، كما تقول مذكرة الوزارة «ألح إلىٰ حقيقة أن برجسون ومعاونيه كانوا في هذا البلد بتأشيرات زيارة مؤقتة. . . وأضاف أنه لا يرى لماذا لم تقدم الحكومة على ترحيل برجسون أو تجنيده». . وفي نفس المذكرة يلاحظ كاتبها ان وايز« قد سار إلى أبعد من ذلك بإبلاغه مستر بيله أنه يعتبر برجسون عدواً لليهود على نفس القدر والخطورة مثل هتلر لأن نشاطاته لن تؤدي إلا إلى زيادة معاداة السامية»(٣٩).

واتضح فيما بعد أن الهيئة ـ أي هيئة لاجئي الحرب ـ لم تكن سوى مساعدة في حدها الأدنى لليهود. وقد كتب آرثر مورْس في كتابه «حين مات ستة ملايين»، عن ٥٠,٠٠٠

روماني أنقذوا بشكل مباشر، وأنه بشكل غير مباشر من خلال ضغط الصليب الأحمر والمحايدين ورجال الدين والقوى السرية، أنقذت الهيئة مئات آلاف قليلة أخرى[٤٠]. وتهبط الحسابات الأحدث بالرقم إلى ما يقرب مائة ألف[٤١]. لم تكن الهيئة أبداً وكالة قوية. ولم يكن لديها أبداً أكثر من ٣٠ موظفاً. ولم يكن في إمكانها أن تتخطى وزارة الخارجية في التعامل مع المحايدين أو توابع النازي المنهارين. ولم يكن لديها سلطة ضمان ان اليهود الهاربين سيعطون في نهاية الأمر ملجأ في اميركا حيث الكثيرين لديهم أقارب. وقد أوضح شمويل مِيرلين الذي كان مسئولاً عن العلاقات العامة في عمل لجنة الطوارىء؛ لماذا كانت الهيئة على هذا الضعف النسبي:

عرفنا أننا هُزمنا عندما عرضت المنظمات اليهودية جمع المال للهيئة ومن الطبيعي أننا كنا نتصور برنامجاً جدياً من جانب الحكومة. ذلك معناه انه كان على الحكومة أن تقدم الأموال بنفس الطريقة وبالدقة التي تفعلها مع أي شيء آخر تريده فعلاً. وبدلاً من ذلك فإن المؤسسة اليهودية قد أنزلت روزفلت والكونجرس من فوق الخازوق وعرضت أن تدفع مصروفات الهيئة الأساسية. وخصصوا حوالى أربعة بلايين دولار كاعتماد إجمالي، وما مجموعه ١٥ مليون دولار، خلال فترة وجود هيئة لاجئي الحرب كلها. وكان المبلغ على قدر من التفاهة بحيث أمكنهم دائماً أن يضحكوا ويقولوا «انتظروا حتى يدفع اليهود بعض الأموال الفعلية»[٤٢].

دفعت «لجنة التوزيع المشتركة» ١٥ مليون دولار من العشرين مليون دولار التي أنفقتها الهيئة. وقد أضافت مجموعات يهودية أخرى ١,٣ مليون دولار. ولو كان لدى الهيئة أموال أكثر لكان في إمكانها أن تفعل أكثر بكثير. ولو أن المؤسسة اليهودية كانت قد اتحدت مع الإرجونيين في حملة أخرى لتمويل الحكومة لكان من المرجح لدرجة كبيرة أن تتوفر تلك الأموال. قبل إقامة الهيئة كانت الحكومة ترفض الطلبات لمثل هذا العمل على أساس أن الوكالات الأخرى كانت تفعل كل ما يمكن فعله. وما أن تشكلت الهيئة حتى أصبح هناك التزام حكومي رسمي بالإنقاذ، ومع ذلك ظلت المؤسسة اليهودية تعارض بعناد النشيطين من الإرجون، واستمروا يطلبون ترحيل برجسون بدلاً من التوحد مع لجنة الطوارىء.

وفي عام ١٩٤٦ عاود التصحيحيون الدخول في المنظمة الصهيونية العالمية وأخيراً

تبخرت بعض العداوة، ولكن برجسون ومرلين وبن - آفي وقدامى أعضاء اللجنة لم يكن من الممكن أبداً أن يستمعوا لشخصيات المؤسسة الذين سيطروا على إسرائيل حتى عام ١٩٧٧ بدون ان يتذكروا عرقلاتهم السابقة. وفي السنوات الأخيرة استطاعـوا أن يثبتوا الدور الغادر وراء الستار لوايز وجولدمان وآخرين عن طريق وثائق سرية سابقـة أمكن الحصول عليها طبقاً لقانون حرية المعلومات. وكنتيجة لذلـك فإن الجـدل حول جهـود الانقاذ المتناقضة لن يهدأ أبداً بالفعل. وهكذا يصر فاسرشتاين على أن صمت القادة هو «خرافة»:

ليست صدفة أن هذه الخرافة قد نمت. على العكس انها إدانة سمعت لأول مـرة خلال الحـرب وبعدهـا مبـاشـرة من جـانـب مجمـوعة محددة من الصهاينة التصحيحيين وتفرعاتهم المختلفة. . كـانت تلك صيحتهم التي يتجمعون بهـا والتي استعملوها في محاولاتهم تعبئة الشباب اليهـودي في حملة مضللة ومفسدة أخلاقياً من الذم والإرهاب(٤٣).

وفي الحقيقة فإن أول تفسـير للسبب الذي جعـل المؤسسة لا تفعـل شيئاً جـاء من صحيفة مِيليتَنْتْ» التروتسكية في ١٢ ديسمبر/كانون أول عام ١٩٤٢:

إن الحقيقـة التي يجب أن تقال هي أن هـذه المنظمـات مثل هيئـة التوزيـع المشتركة والمؤتمر اليهودي ولجنة العمل اليهـودية كـانت تخشى أن تجعل نفسهـا مسموعة لأنها كانت تخشى من إثارة موجة من معاداة السامية هنا نتيجة لذلك. كانوا يخشون على جلودهم هم لـدرجة تمنعهم من أن يحـاربوا من أجـل حياة الملايين في الخارج(٤٤).

ومن المؤكد أن القادة السابقين للجنة الطوارىء حـاولوا ومـا زالوا يحـاولون فضـح أعدائهم القدامى، ولكن منذ الحرب كانوا هم أيضاً ينتقدون جهودهم الخاصة. وقـد أقروا بالفعل أنهم قد بدأوا متأخرين جداً. فهم لم يفهموا دلالة تقارير المذبحة حتى بعد إعلان وايز في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٤٢. ومع ذلك فهناك انتقاد أكبر للّجنة يتعلق بمطلبهم الأصلي بجيش يهودي. تلك كانت صهيونية قحة ولا علاقة لها لا بمعاناة اليهود ولا بالحرب ضد النازية. والانتقاد الثاني كان لفشلهم في أن يحركوا اليهـود مباشـرة إلى الشوارع. إن مسيرة جماهيرية إلى مصلحة الهجرة في نيويورك من عدة آلاف من اليهود

كانت ستكون أكثر إقلاقاً بكثير للإدارة من تعبئة ٤٥٠ حاخاماً. وإن إضراباً عن الطعام تنظمه اللجنة كان سيدفع بالحركة إلى الأمام. إن المنشطين ينتقدون اليوم أنفسهم لأنهم لم يفعلوا ذلك ويفسرون هذا التقاعس بأسباب تتعلق بشخصياتهم السياسية. لقد كانوا في أمريكا كممثلين للإرجون وهو تنظيم عسكري يعظ على الدوام ضد «الغاندية اليهودية».

انتفاضة الإرجون في عام ١٩٤٤

ارتكب الإرجونيون الأمريكيون عدداً من الأخطاء الأسوأ عندما بدأت الإرجون انتفاضتها في فلسطين في يناير/كانون الثاني عام ١٩٤٤. فبعد وصول بيجين إلى فلسطين في مايو/آيار عام ١٩٤٢ وجد التصحيحيين في فوضى كاملة. دعا إلى إعادة تنظيم الأرجون وعين في نهاية الأمر قائداً لها. ولم تكن الإرجون في أي وقت من الأوقات ممثلة لأكثر من أقلية صغيرة في فلسطين. كان معظم يهود فلسطين ينظرون إليهم كفاشيين مجانين جاءوا بالدمار إلى القضية الصهيونية بمهاجمتهم بريطانيا بينما هي كانت تحارب هتلر، بل إنهم قد أدينوا من الجهاز السياسي التصحيحي القديم. كانوا قوة ضئيلة، قليل من الأعضاء المتفرغين كل الوقت وبضع مئات أخرى نصف الوقت. وبدأت الهاجاناه ـ التي كانت تنظر إليهم كفاشيين ـ في محاصرتهم بالتعاون مع البريطانيين، بالرغم من أن الإرجون رفض الرد على الهاجاناه لأنهم كانوا يعرفون أنهم بعد الحرب سينضمون لبعضهم بعضاً في محاولة إخراج البريطانيين. كذلك لم يهاجموا الأهداف العسكرية حتى لا يظهروا كمتدخلين في المجهود الحربي.

لذلك كانت الهبّة في معظم جوانبها رمزية إلى حد كبير، ولكنها في الولايات المتحدة وبريطانيا حرفت الانتباه عن يهود أوربا الى يهود فلسطين. وتوفرت لوايز فرصة استعادة المصداقية، واتّهم لجنة الطوارىء بمساندة الإرهاب. ومع ذلك فإن الامريكيين ـ الذين كانوا يسمون أنفسهم في ذلك الوقت «اللجنة العبرية للتحرر الوطني» ـ وكذلك لجنة الطوارىء، لم ينظروا إلى الهبة باعتبارها تحرف الانتباه عن أوربا، وإنما باعتبارها تعزز إدراك المعاناة اليهودية. ولا يزال بيتر برجسون يدافع عن الهبّة وعن علاقة اللجنة بها بشجاعة:

> أعرف أن هناك بعض المؤرخين الذين يقولون أننا لم نكن في نهاية الأمر بأفضل من المؤسسة، وأننا أيضاً حولنا طاقتنا من أعمال الانقاذ إلى تقديم قضية

الإرجون. إنهم على خطأ. فمن المفترض أن تنتفض إن لم ينقذ البريطانيون أهلك في أوربا. إنني أخجل من يهود فلسطين كشعب إن لم يكن هناك في البلاد من يهب منتفضاً[٤٥].

ويستطرد شمويل مرلين قائلاً إن الهبّة ضايقت بعض اليهود أكثر مما ضايقت الأغيار[٤٦]. فقط اليهود هم الذين يقرأون الصحافة اليهودية، وقد كانوا أكثر تأثراً بالدعاية التي قامت بها المؤسسة ضد الإرجون. ومع ذلك فما أن انتفضت الإرجون حتى بدأت اللجنة تعود مرة أخرى إلى طريقها الخاص من التعصب السياسي. وبدأ هيخت وآخرون يلومون بقسوة كل الألمان في أعمدة مجلتهم ذي آنسر (الرد): «حيثما يجلس ألماني أو يقف، يبكي أو يضحك، فهناك أمر بغيض. إن السنوات لن تنظفه أبداً[٤٧]. وأصبح مصدر إلهامهم هو كتاب هيخت المحزن «**دليل المعذب**»:

إنني أعتبر أن الحكومة النازية ليست مناسبة للألمان فقط وإنما هي مثالية أيضاً من وجهة نظر بقية العالم كحكومة ألمانية. يجب أن تترك لهم بعد هزيمتهم كهدية من تانتالوس(*). يجب أن يسمح لهم بالبقاء ألماناً في العلن مع سور مدبب جيد حولهم، كذلك الذي يستخدم لكي يجعل أي حديقة حيوان لا ضرر منها. وداخل حديقة الحيوان النازية هذه والتي يحافظ عليها العالم من اجل تسلية الفلاسفة، يمكن للألمان أن يستمعوا لبيتهوفن وأن يحلموا بقتل وإقلاق لا أحد. . . إن الألمان إذ يغلق عليهم بإحكام في منتصف أوربا كنازيين (مع قوات العاصفة ومعسكرات الاعتقال والجلادين والجستابو سليمة) يجب ان يتعاملوا مع مشاكلهم الخاصة بالإبادة بطريقتهم. لا يجب أن يصبح ذبحهم عبئاً على ضميرنا. . ولكن مثل تلك الأمور الضخمة لا تمر هكذا من العالم أبداً. إن ساستنا سيصرون على. . . ان يستعيد العدو قناعه التنكري كأعضاء في الجنس البشري. وهكذا سننتزع من النصر مكافأة السماح للألمان بأن يخدعونا ثانية[٤٨].

أن يكون الارجونيون الامريكيون قد فعلوا أكثر من كل الصهاينة الآخرين لمساعدة

---

* تانتالوس: ملك تقول الأسطورة أنه غمر في الماء حتى فمه وتدلت أغصان محملة بالثمار فوقه ولكنه لم يكن قادراً على الوصول إليها ولا على الشرب. (م).

اليهود في أوربا المحتلة، فهذا واضح. أن تكون هبّة بيجين لم تفعل أي شيء على الإطلاق لمساعدة نفس اليهود فهذا ايضا واضح. لقد بذل الارجونيون الأمريكيون لكي يبدأ بيجين حملته، ها هنا تكمن قوتهم وضعفهم. لم يتوقعوا أن يعطيهم البريطانيون فلسطين، وهكذا قطعوا صلتهم بهم قبل الحرب، وتوقعوا تماماً أن يحاربوهم خلال الحرب وبعدها. لقد نظروا لأنفسهم بأن عليهم انتزاع ما يريدون من أيدي الامبرياليين وقد حملتهم هذه النفسية الى توجههم للانقاذ. لقد تفوقوا على ستيفن وايز لأنهم كانوا يمثلون «اليهود الصغار». إن اليهودي العادي كان يريد «العمل لا الشفقة» وقد ساندوا لجنة الطوارىء لأنها كانت تعبر عن سخطهم هم على ما يحدث ليهود أوربا. أما في فلسطين، فان بيجين لم يكن يحظى بعطف اليهود العاديين. ولو أن الإرجون عبأت الجماهير في مواجهة مباشرة مع جروينبوم، لكان من المحتمل أن يتمكنوا من الإطاحة بتفوق المنظمة الصهيونية العالمية وسيطرتها. وفي الواقع، كانت قضية فلسطين مرة أخرى تحرف الأنظار.

«يجب أن لا نشوش المجهود الحربي.. باحتجاجات عاصفة»

من المستحيل مسامحة تأخر قادة المنظمة الصهيونية العالمية عن الإقرار علناً بالإبادة النازية، بالرغم من محاولة فاسرشتاين الدفاع عنهم:

> انطلاقاً من طبيعة ومدى الواقع المرعب يكاد يكون مدهشاً أن اليهود في الغرب لم يضعوا أنفسهم في مواجهة الحقيقة التعسة إلا عندما تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك التقاريرُ الأولى غير المؤكدة غير الكاملة[٤٩].

آخرون أقنعوا «أنفسهم» بالتنبؤ باحتمال إبادة الملايين من اليهود حتى قبل الحرب. فبعد «ليلة الكريستال» في ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٨، أصدرت «اللجنة الوطنية لحزب العمال الاشتراكي» بياناً جاء فيه «اسمحوا للاجئين بدخول الولايات المتحدة»، «إن وحوش القمصان البنية لا يهمهم إخفاء هدفهم: الإبادة الفعلية لكل يهودي في ألمانيا العظمى»[٥٠]. ومرة أخرى في ٢٢ ديسمبر / كانون أول عام ١٩٣٨ تنبأ تروتسكي بإبادة اليهود:

> من الممكن أن نتخيل بدون صعوبة ما ينتظر اليهود بمجرد اندلاع الحرب المقبلة. ولكن حتى بدون حرب فإن التطور التالي للرجعية العالمية يشير بالتأكيد

إلى الإبادة الفعلية لليهود. . . فقط بالتعبئة الجريئة للعمال ضد الرجعية، وبإقامة ميليشيا العمال، وبالمقاومة الفعلية المباشرة للعصابات الفاشية، وبزيادة الثقة في النفس وبالنشاط والجرأة من جانب كل المقهورين، يمكن إحداث تغيير في علاقات القوى، ووقف الموجة العالمية للفاشية وفتح فصل جديد في تاريخ البشرية(٥١).

وبينما كان «المؤتمر اليهودي الأمريكي» يتعاون مع وزارة الخارجية في كبت تقرير رايجنر تسرب التقرير من مكتب ستيفن وايز. وفي يوم ١٩ سبتمبر / أيلول عام ١٩٤٢ نشرت الصحيفة التروتسكية «ميلتانت» مقالة من الواضح أنها قامت على هذه المعلومات:

إن وزارة الخارجية قد كتمت ـ كما علمنا ـ في الوقت الحالي معلومات تلقتها من وكلائها القنصليين في سويسرا. وهذه المعلومات تتعلق بمعاملة اليهود في جيتو وارسو. لقد ظهر الدليل على أعمال بالغة الوحشية هناك على علاقة بالحملة التي تجددت لإبادة كل اليهود. بل إن الشائعة تقول إنه لم يعد وجود للجيتو وأنه قد تم القضاء تماماً على اليهود هناك. والسبب الذي جعل وزارة الخارجية تتكتم على هذا التقرير هو أنها لا تريد أي احتجاجات جماهيرية هنا يمكن أن تضغط على السياسة(٥٢).

لم تكن وزارة الخارجية فقط هي التي تتكتم على التقرير، كما لم تكن وزارة الخارجية فقط هي التي لا ترغب في الاحتجاجات في أمريكا. إن الحكم الأخير على سجل الصهاينة في إنقاذ يهود أوربا يجب أن يترك لناحوم جولدمان. ففي مقالته «البطولة اليهودية في الحصار» المنشورة في عام ١٩٦٣ يعترف بأن:

كلنا فشلنا، أنا لا أشير فقط إلى النتائج العملية. فهذه في بعض الأحيان لا تعتمد على قدرات ورغبات أولئك الذين يعملون، ولا يمكن اعتبارهم مسئولين عن الفشل الناتج عن اعتبارات موضوعية. إن فشلنا كان في افتقارنا عزيمة لا تتردد واستعداداً لأخذ الإجراءات الصحيحة المتناسبة مع الأحداث المفزعة في ذلك الوقت. كل ما تم من جانب اليهود في العالم الحر، وبالذات أولئك الذين كانوا في الولايات المتحدة حيث كانت هناك فرص أكبر من أي مكان آخر للعمل، لا

يتخطى حدود السياسات اليهودية في الأوقات العادية: أرسلت الوفود إلى رؤساء الـوزارات، وقدمت طلبـات بالتـدخـل، وكنـا راضـين بـالتجـاوب الضئيـل والأفلاطوني أساساً الذي كانت السلطات الديمقراطية على استعداد للقيام به.

بل إنه يمضي إلى أبعد من ذلك:

لا أشك (وكنت عندئذ وثيق الصلة بنضالنا وبالأحـداث يومـاً بيوم) أن آلاف وعشرات الآلاف من اليهود كان من الممكن إنقاذهم برد فعل أنشط وأقوى من جانب الحكومات الديمقراطية. ولكن وكـما قلت فإن المسئولية الرئيسـة تقع علينا لأننا لم نمض إلى أبعد من المذكرات والطلبات الروتينية، ولأن الجاليـات اليهـودية لم يكن لـديها الشجـاعة والجـرأة لممارسـة الضغط عـلى الحكـومـات الديمقراطية بسبل عنيفة لإجبارهـا على اتخـاذ إجراءات عنيفـة. لن أنسى أبداً ذلك اليوم عندما تسلمت برقية من جيتو وارسو موجهة إلى الحاخام ستيفن وايز والتي تسألنا لماذا لم يقرر القادة اليهود في الولايات المتحدة أن يقيموا يقظين ليلاً ونهاراً عـلى عتبـات البيت الأبيض حتى يقـرر الـرئيس إصـدار الأمـر بقصف معسكرات الإبادة أو قطارات، الموت. ولقد امتنعنا عن فعل ذلك لأن معظم القيادة اليهودية كانت عندئذ من الرأي القائل بأنـه لا يجب أن نشوه المجهـود الحربي للعالم الحر ضد النازية باحتجاجات عاصفة(٥٣).

هوامش الفصل الرابع والعشرين:

1. Robert Sherwood, *Roosevelt and Hopkins*, p. 717.
2. Anthony Howard, 'Duplicity and Prejudice', *New York Times Book Review* (16 September 1979), p. 37.
3. Yoav Gelber, 'Zionist Policy and the Fate of European Jewry (1939–1942)', *Yad Vashem Studies*, vol. XIII, p. 171.
4. Ibid., p. 170.
5. Ibid., p. 192.
6. Shabatei Beit-Zvi, *Post-Ugandan Zionism During the Holocaust*, post p. 251 (unpublished English translation).
7. Joseph Tanenbaum, 'A Final Word Regarding Packages to Poland', *Der Tog* (10 August 1941) (unpublished English translation).
8. Gelber, 'Zionist Policy and the Fate of European Jewry', p. 190.
9. Yehuda Bauer, 'When Did They Know?', *Midstream* (April 1968), p. 51.
10. Gelber, 'Zionist Policy and the Fate of European Jewry', p. 191.
11. Eliyhu Matzozky, 'The Responses of American Jewry and its Representative Organizations, November 24, 1942 and April 19, 1943', unpublished Masters thesis, Yeshiva University, app. II.
12. Walter Laqueur, 'Jewish Denial and the Holocaust', *Commentary* (December 1979), p. 46.

13. Bauer, 'When Did They Know?', p. 53.
14. Laqueur, 'Jewish Denial and the Holocaust', p. 53.
15. Gelber, 'Zionist Policy and the Fate of European Jewry', p. 195.
16. Ibid.
17. Ibid.
18. Beit-Zvi, *Post-Ugandan Zionism During the Holocaust* (unpublished English synopsis), p. 1.
19. Yehuda Bauer, *From Diplomacy to Resistance*, pp. viii–ix.
20. Yitzhak Gruenbaum, *Bi-Mei Hurban ve Sho'ah*, pp. 62–70.
21. Alex Weissberg, *Desperate Mission* (Joel Brand's story as told by Weissberg), p. 206.
22. Michael Dov-Ber Weissmandel, *Min HaMaitzer* (unpublished English translation).
23. Ibid.
24. Ibid. (Hebrew edn), p. 92.
25. Ibid., p. 93.
26. Bernard Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe 1939–1945*, p. 207.
27. Chaim Greenberg, 'Bankrupt', *Midstream* (March 1964), pp. 5–8.
28. Ibid., pp. 7–10.
29. Matzozky, 'The Responses of American Jewry', p. 45.
30. Sarah Peck, 'The Campaign for an American Response to the Nazi Holocaust, 1943–1945', *Journal of Contemporary History* (April 1980), p. 374.
31. Ben Hecht, *A Child of the Century*, p. 540.
32. Wasserstein, 'The Myth of "Jewish Silence" ', *Midstream* (August 1980), p. 14.
33. Peck, 'Campaign for an American Response to the Nazi Holocaust', p. 384.
34. Author's interview with Peter Bergson, 27 February 1981.
35. 'On the Question of Rescue', *Congress Weekly* (10 December 1943), p. 3.
36. Arthur Morse, *While 6 Million Died*, p. 79.
37. Wasserstein, 'The Myth of "Jewish Silence" ', p. 14.
38. 'Attitude of Zionists Toward Peter Bergson', memorandum of conversation, 867N.01/2347, Department of State (19 May 1944), pp. 3–4.
39. Ibid., pp. 2, 4.
40. Morse, *While 6 Million Died*, pp. 257, 307.
41. Eliyhu Matzozky (letter), *Midstream* (March 1982), p. 44.
42. Author's interview with Shmuel Merlin, 16 September 1980.
43. Wasserstein, 'The Myth of "Jewish Silence" ', p. 15.
44. A. Roland, 'The Slaughter of the Jews', *Militant* (12 December 1942), p. 3.
45. Interview with Bergson.
46. Interview with Merlin.
47. Ben Hecht, 'My Dark Prayer', *The Answer* (1 May 1944), p. 7.
48. Ben Hecht, *A Guide for the Bedeviled* (1944), pp. 126–7.
49. Wasserstein, 'The Myth of "Jewish Silence"', p. 10.
50. National Committee of the Socialist Workers Party, 'Let the Refugees into the US!', *Socialist Appeal* (19 November 1938), p. 1.
51. Leon Trotsky, 'Appeal to American Jews Menaced by Fascism and Anti-Semitism', *On the Jewish Question*, pp. 29–30.
52. A. Roland, 'The Plight of the Jews and the Democracies', *Militant* (19 September 1942), p. 3.
53. Nahum Goldmann, 'Jewish Heroism in Siege', *In the Diaspersion* (Winter 1963/4), pp. 6–7.

٢٥ـ المجر، جريمة داخل الجريمة

إن تحطيم يهود المجر يعد واحداً من أكثر الفصول مأساوية في المحرقة. فعندما احتل الألمان المجر في آخر الأمر يوم ١٩ مارس / آذار عام ١٩٤٤ عرف زعماء الجالية اليهودية ما هو متوقع من النازيين، إذ أن المجر كانت قد أصبحت ملجأ لآلاف من اليهود البولنديين والسلوفاكيين، كما كانوا قد حذروا من جانب مجموعة العمل في براتسلافا بأن ويسلسني قد وعد بترحيل الـ ٧٠٠,٠٠٠ يهودي من المجر في نهاية الأمر.

استدعى النازيون زعماء الجالية اليهودية وأبلغوهم أن لا يقلقوا، وأن الأمور لن تكون سيئة جداً إذا تعاون اليهود. وكما كتب رانْدُولْف براهام، «لم يكن التاريخ ولا المؤرخون رحماء بزعماء اليهود المجريين في فترة المحرقة»[1] لأنه كما يقر براهام فإن الكثيرين «حاولوا الحصول على حماية ومزايا خاصة لعائلاتهم»[2]. والبعض لم يكن مضطراً لارتداء النجمة الصفراء، وفيما بعد سُمح لهم بالحياة خارج الجيتوات كما سمح لهم بتسيير ممتلكاتهم. وفي سنوات ما بعد الحرب خضعت الأدوار التي قام بها مجريان من الصهيونيين العماليين ـ هما رِتْزوكَسْتْنَر وجويِّل بُراند، وهما من زعماء لجنة الانقاذ ببودابست ـ خضعت لفحص تفصيلي أمام المحاكم الإسرائيلية. وقد اتهم كَسْتْنَر بخيانة الجماهير اليهودية المجرية.

«إنهم... توسلوا إليهم لِكَتم الموضوع»

في يوم ٢٩ مارس / آذار عام ١٩٤٤ قابل هذان الصهيونيان ويسلسني واتفقا على

أن يدفعا له المليوني دولار التي سبق له أن ذكرها لفايسماندل إن هو لم يضع اليهود المجريين في جيتوات أو يرحلهم. كذلك طلبا أن ينقل عبر نهر الدانوب «بضع مئات من الناس» معهم شهادات فلسطينية، وقالا إن ذلك سيسهل عليهما جمع النقود من جماعتهما في الخارج[٣]. وافق ويسلسني على أخذ رشوتهما وعلى دراسة مسألة النقل، ولكنه كان مهتماً بأن تتم سراً بحيث لا يغضب ذلك المفتي الذي كان لا يريد إطلاق سراح اليهود. وتم دفع المبالغ الأولى من الرشوة ولكن النازيين مع ذلك أقاموا الجيتوات في المقاطعات. وعندئذ، وفي يوم ٢٥ أبريل / نيسان استدعى أيخمان جويل براند وقال له أنه سيرسله لمفاوضة المنظمة الصهيونية العالمية والحلفاء: سيسمح النازيون لمليون يهودي بالرحيل إلى أسبانيا مقابل عشرة آلاف شاحنة صابون وقهوة وإمدادات أخرى. وكانت الشاحنات ستستعمل فقط على الجبهة الشرقية. وكدليل على نية النازي الطيبة سيسمح أيخمان للصهاينة بإطلاق سراح مجموعة أولى في قافلة فلسطين من ٦٠٠ شخص.

وأكدت «لجنة الانقاذ» أن براند هو ممثلها، ونقله الألمان جوا إلى اسطنبول يوم ٢٩ مايو / أيار بصحبة يهودي آخر هو باندي جروتش، وهو عميل ألماني مجري لديه صلات إضافية مع مصالح استخباراتية متعددة للحلفاء. كان جروتش سيجري مفاوضاته هو مع استخبارات الحلفاء حول احتمالات عقد صلح منفرد. وعند وصولهما قابل براند الممثلين المحليين للجنة الانقاذ التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية وطلب اجتماعاً فورياً مع أحد قادة الوكالة اليهودية. ومع ذلك فإن الأتراك رفضوا إعطاء تأشيرة دخول لموشي شرتوك مسؤول الدائرة السياسية بالوكالة. وفي النهاية نصحت لجنة اسطنبول براند بأن يتباحث معه في حلب على الأراضي السورية، وكانت عندئذ تحت السيطرة البريطانية. وفي يوم ٥ يونيه / حزيران عندما مر قطار براند عبر أنقره حذره يهوديان ـ تصحيحي وآخر اتحادي ـ بأنه كان يساق إلى مصيدة وسيلقى القبض عليه. وتلقى براند تطميناً من إيشود أفريل وهو شخصية قيادية من العاملين بالإنقاذ في المنظمة الصهيونية العمالية بأن هذا التحذير زائف ودافعه الحقد الانشقاقي[٤]. ومع ذلك ففي الواقع ألقى البريطانيون القبض على براند.

استجوب شرتوك براند يوم ١٠ يونيو / حزيران في حلب. ووصف براند المقابلة في كتابه، **المهمة اليائسة** (كما رواها لألِكس فايسبرج):

انسحب موشي شرتوك إلى ركن معهم [البريطانيين] وتحدثوا بصوت خافت

ولكن بحماس فيما بينهم. ثم عاد إلى وضع يده على كتفي. . «عليك الآن أن تذهب إلى أبعد في الجنوب . . هذا أمر. . لا يمكنني أن أغيّره. « . . . وصمت» ألا تفهم ما تفعل؟ «هذا قتل صريح، قتل جماعي! . . . ليس لكم الحق في الإمساك برسول. بل إنني لست رسولاً من العدو. . أنا هنا كمبعوث لمليون من الناس محكوم عليهم بالموت».

واجتمع شرتوك مع البريطانيين وعاد مرة أخرى: «أنا لن أبقى حتى يطلق سراحك مرة أخرى. . . سيطلق سراحك»[٥]. وفي الواقع فإن برانت قد اقتيد إلى السجن في مصر بحراسة ضابط بريطاني. توقفا في حيفا حيث تمشيا حول الميناء:

بل إنني فكرت في إمكانية الهرب، لكن فقط أولئك الذين ينتمون إلى حزب تجمعه أقوى الروابط الأيديولوجية هم الذين سيفهمون. . . كنت صهيونياً وعضواً في حزب. . وكنت ملتزماً بانضباط حزبي. شعرت بأنني جد صغير بلا أهمية ـ رجل ألقته الصدفة إلى مرجل التاريخ الذي يغلي ـ حتى أنني لم أجرؤ على أن أحمل على أكتافي مسؤولية مصير مائة ألف من الناس. لقد كانت تنقصني شجاعة تحدي الانضباط وفي ذلك يكمن ذنبي التاريخي الحقيقي[٦].

لم يكن لدى براند أية أوهام بأن يقبل الحلفاء الغربيون اقتراح أيخمان. ومع ذلك فقد اعتقد أنه كما حدث في المفاوضات مع ويسلسني فإن بعض ضباط قوات العاصفة (إس إس) الجديين كانوا يريدون استثمار ذلك لمستقبلهم هم. كان اليهود الأحياء الآن عملة قابلة للتفاوض. وكان براند يأمل أن يكون في الإمكان التفاوض على ترتيبات أكثر واقعية أو على الأقل لدفع النازيين إلى التفكير بأن في الإمكان عقد صفقة. ومن المحتمل أنه كان في الإمكان إبطاء برنامج الإبادة أو حتى تعليقه بينما كان يتم التفاوض على اتفاق. ومع ذلك فإن البريطانيين لم يكونوا مهتمين بتبين احتمالات مشروع أيخمان وأبلغوا موسكو بمهمة براند، ومن الطبيعي أن ستالين أصر على رفض العرض، ووصلت القصة إلى الصحافة. وفي يوم ١٩ يوليو تموز أذان البريطانيون العرض علناً باعتباره خدعة لشق الحلفاء.

وفي يوم ٥ أكتوبر / تشرين أول سمح لبراند أخيراً بمغادرة القاهرة، فأسرع إلى القدس، وحاول الذهاب إلى سويسرا حيث كان رتزو كستنر والكولونيل كورت بيتشر

من قوات العاصفة قد أُرسلا لمزيد من المفاوضات مع سالي ماير من «لجنة التوزيع المشتركة». وكان السويسريون على استعداد للسماح بدخوله شرط أن تكفله الوكالة اليهودية. وقد أعطاه البريطانيون وثيقة سفر تحت اسم أويْجن بانـد، وهو الإسم الـذي أعطاه له أيخمان لأسباب تتعلق بالسرية. ذهب إلى الياهو دوبْكين - رئيس قسم الهجرة في الوكالة اليهودية والذي كان من المفترض أن يمثل المنظمة الصهيونية العالمية في المفاوضات - ليحصل على رسالة الكفالة الخاصة به. ورفض دوبكين:

قال «أنت تدرك يا جُويل.إنني لا يمكن أن أضمن رجلاً يدعى أويجن باند بينما اسمكِ هو جويل براند». «هل تعرف يا الياهو أن كثيرين من اليهود في وسط أوربا أُرسلوا إلى غرف الغاز ببساطة لأن الموظفين رفضوا توقيع وثائق لم تكن صحيحة بشكل مطلق»[٧]؟

فيما بعد، في عام ١٩٤٤، وفي اجتماع للهستدروت في تل أبيب تم تقديم براند باعتباره «جويل براند زعيم حركة العمال اليهود في المجر، وقد جاء معه بتحيات اليهود المجريين . . . وتعجبت أين كان هؤلاء اليهود المجريون». واندفع نحو المجتمعين:

كنتم الأمل الأخير لمئات الألوف التي حكم عليها أن تموت. وقد تخليتم عنهم. لقد كنت رسول هؤلاء الناس ومع ذلك فقد تركتموني أجلس في سجن في القاهرة. . لقد رفضتم أن تنظموا إضراباً عاماً. فإن لم يكن هناك طريق آخر لوجب عليكم استعمال القوة . . . . فأسرعوا إلى المراسلين الذين كانوا حاضرين وتوسلوا إليهم تكتم الموضوع[٨].

وشكلت على عجل لجنة استقصاء لإرضاء براند ولكنها لم تجتمع سوى مرة واحدة ولم تقرر شيئاً. ووصل وايزمان إلى فلسطين وطلب براند مقابلة فورية معه. وتتطلب الأمر من وايزمان أربعة عشر يوماً ليجيب[٩]:

٢٩ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٤، عزيزي مستر براند: . . . كما لا بد وقد رأيت في الصحافة فقد كنت مسافراً لفترة طويلة. وبشكل عام لم يكن لدي ولا لحظة بدون ارتباطات منذ وصولي إلى هنا. لقد قرأت رسالتك ومذكرتك وسأكون سعيداً لرؤياك في وقت ما في الأسبوع بعد القادم - حوالي العاشر من يناير / كانون الثاني[١٠].

وأخيراً التقيا، ووعد وايزمان بمساعدته على العودة إلى أوربا. ولم يسمع براند منه ثانية أبداً.

«من الصعب احتمال أن يحقق خلاص الضحايا»

كان المنحى الذي اتَّبعته المنظمة الصهيونية العالمية تجاه الأزمة في المجر رعديداً في مجمله. في يوم ١٦ مايو / أيار عام ١٩٤٤ أرسل الحاخام فايسماندل رسومات مفصلة لأوشفيتز وخرائط لخطوط السكك الحديدية عبر سلوفاكيا إلى سيليزيا، وذلك إلى المنظمات اليهودية في سويسرا مطالباً بأن يطالبوا الحلفاء «بشكل قاطع وبأقوى الأساليب» بأن يقصفوا معسكر الموت والسكك الحديدية. ووصل اقتراحه إلى وايزمان في لندن الذي تقدم إلى وزير الخارجية البريطانية أنتوني إيدن بأكثر الأساليب تردداً. وكتب إيدن إلى وزير الجو يوم ٧ يوليو / تموز:

> إن الدكتور وايزمان يقر بأنه يبدو بأن ما يمكن أن نفعله لوقف هذه الفظائع هو قليل بما لا يكفي، ولكنه يقترح بأن شيئاً ما يمكن فعله لوقف عمل معسكر الموت بقصف خطوط السكك الحديدية.. وقصف المعسكرات ذاتها[١٢].

وتعكس مذكرة كتبها موشي شرتوك إلى وزارة الخارجية البريطانية بعد أربعة أيام التشكك والتشاؤم المروع نفسه:

> إن قصف معسكرات الموت هو... من الصعب احتمال أن يحقق انقاذ الضحايا بأي مقدار معقول. إن الآثار المادية لن تكون سوى تدمير الزرع والأشخاص، وربما الإسراع بنهاية أولئك الذين حكم عليهم بالموت بالفعل. إن إيقاع الاضطراب المترتب على ذلك في الآلة الألمانية للقتل المنتظم بالجملة يمكن أن يؤدي إلى تأخير إعدام أولئك الذين لا يزالون في المجر (أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ - داخل وحول بودابست)، وهذا في ذاته أمر قيم إذا حدث. ولكن من الممكن ألا يصل إلى هذا الحد طالما أن وسائل إبادة أخرى يمكن ابتداعها بسرعة[١٣].

وبعد أن وضع كل الأسباب التي تبين أن القصف لن يؤدي إلى شيء عاد شرتوك ليتكلم عن مقولة أن «الغرض الرئيسي للقصف سيكون أثره المعنوي متعدد الجوانب وبعيد الأثر»[١٤].

كان اليهود في أوربا المحتلة يتوسلون القيام بعمل فوري من خلال فايسماندل وبراند. وكان قصف أوشفتز ليس فقط ممكناً بل إنه حدث عن طريق الخطأ. ففي ١٣ سبتمبر / أيلول عام ١٩٤٤ كان الطيارون الأمريكيون يستهدفون مصانع بُونا للمطاط وهي مجاورة للمعسكر، فضربوا المعسكر وقتلوا أربعين سجيناً و ٤٥ ألمانياً. وفي يوليو / تموز، عندما سأل إيدن عما إذا كان في الإمكان مناقشة الأمر في اجتماع مجلس الوزراء أجابه تشرشل: «هل هناك أي سبب لإثارة هذه الأمور في الاجتماع؟ أنت وأنا متفقان تماماً. خذ أي شيء من القوات الجوية يمكن أن تحصل عليه واستشهد بي عند الضرورة»(١٥). لم يحدث شيء. كان هناك شعور بأن التكلفة بالنسبة للطائرات المهاجمة كانت ستكون عالية جداً. واستمر وايزمان وشرتوك في التقدم إلى البريطانيين بطلبات لقصف المعسكرات ولكنهما فقدا المبادرة(١٦).

كذلك ترددت القيادة الصهيونية البريطانية في رد فعلها بالنسبة للأزمة المجرية. وعندما احتل الألمان بودابست ذهب ألكس إيسترمان السكرتير السياسي للقسم البريطاني في المؤتمر اليهودي العالمي إلى وزارة الخارجية، وعندما طالبه المسئولون بأن لا تنظم المؤسسة أي مظاهرات في الشارع، وافقهم بالطبع. ومرة أخرى في يوم ١١ يوليو / تموز رفض سِيْلِيْج بْرودتْسكي وهو عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ورئيس هيئة المندوبين، دعوةً من الـ «فاد ليومي الفلسطيني» (المجلس الوطني) بأن ينظموا مسيرة جماهيرية في لندن(١٧). كانت الليدي رِيْدنج، إيفاموند، هي رئيسة القسم البريطاني في المؤتمر اليهودي العالمي وقد تحدثت صراحة ضد «النسق». وقالت ناصحة «دعونا لا ننجرف إلى عادات يهود القارة»، وكان ذلك يوم ٢٣ مايو / أيار، عندما كانت قطارات الموت لا تزال تجري(١٨).

«لقد وافق على المساعدة في إبقاء اليهود بعيداً عن مقاومة الترحيل»

وقع تدمير يهود المجر في وقت كانت بنية النازي تظهر كل علامات الإنهيار. وكانت مخابرات كناريس الحربية قد وصلت إلى استنتاج أن الحرب قد خُسرت، ومن ثم بدأت في إقامة صلاتها الخاصة بالمخابرات الغربية، وكان لا بد من السيطرة عليها بواسطة مصلحة الأمن في قوات العاصفة (إس دي). وجاءت قنبلة الكونت كلاوس فون شْتاوْفِنبرج يوم ٢٠ يوليو / تموز عام ١٩٤٤ في منتصف الأزمة المجرية وحطمت تقريباً الصرح النازي. كان الألمان قد غزوا البلد لأنهم كانوا يعرفون أن الأدميرال مِكْلوسْ

هُورتي كان يخطط لإخراج المجر من الحرب. واحتج المحايدون، تحت إلحاح هيئة لاجئي الحرب، ضد عمليات القتل الجديدة، وقام بعضهم بجهود لكي تشمل الحماية الدبلوماسية بعض اليهود. ومنذ البداية كان أيخمان وهو المسئول عن ترحيل اليهود المجريين قلقاً من أن تؤدي المقاومة اليهودية أو محاولات الهرب عبر الحدود لرومانيا التي كانت عندئذ غير مستعدة لتسليم اليهود للنازيين، إلى إطلاق موجات سياسية عارمة من شأنها الإبطاء من عمليته.

وعندما ذهب أيخمان لأول مرة للعمل مع فون ميلدنشتاين المحب للصهيونية بحماس أعطاه هذا كتاب هرتزل «**دولة اليهود**». وقد أعجبه. وكان أيضاً معجباً بكتاب أدولف بوم «**الحركة الصهيونية**». وذات مرة في فيينا كرر صفحة كاملة كان يحفظها عن ظهر قلب في أثناء اجتماعه مع بعض القادة اليهود من بينهم بوم، المجلل بالعار. بل إنه درس العبرية لمدة عامين ونصف بالرغم من أنه في الواقع، كما أقر، لم يتكلمها قط بشكل جيد. كانت لديه صفقات عديدة مع الصهاينة قبل الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٣٧، تفاوض مع ممثل الهاجاناه فَيْفل بولكسي، وحل ضيفاً عليهم في فلسطين. كذلك كانت لديه صلات وثيقة مع الصهاينة التشيك. والآن، ومرة أخرى كان سيتفاوض مع الصهاينة المحليين.

في عام ١٩٥٣ حاكمت حكومة بن جورين رجلاً مسناً ينشر الكتيِّبات هو مالشيل جرونْوالد لأنه اتهم رتزو كستنر على أنه متعاون، بسبب الصفقات التي عقدها مع أيخمان في عام ١٩٤٤. وحظيت المحاكمة بتغطية دولية كبيرة خلال عام ١٩٥٤. ولا بد أن أيخمان قد تابعها في الصحافة لأنه وصف علاقته مع كستنر مطولاً في مقابلات مسجلة أعطاها للصحفي النازي الهولندي فِليم ساسن في عام ١٩٥٥. وقد نشرت أجزاء منها فيما بعد في مقالتين في مجلة «لايف» بعد اعتقاله في عام ١٩٦٠. كان جرينوالد قد أدان كستنر لأنه بقي صامتاً على أكاذيب الألمان بأن اليهود المجريين كان يُعاد توطينهم فحسب في كِيْنِيرْمِتزو. وبالمقابل سمح له بتنظيم قافلة خاصة أصبحت في النهاية قطاراً إلى سويسرا وضع عليه عائلته وأصدقاءه. والأكثر من ذلك، كما زعم جرينوالد، أن كستنر قد حمى فيما بعد الكولونيل بِشَر من قوات العاصفة من أن يشنق كمجرم حرب بزعمه أنه قد فعل كل شيء ممكن لإنقاذ حياة اليهود. وقد وصف أيخمان كستنر كما يلي:

الدكتور كستنر هذا كان شاباً في مثل عمري، محامياً بارداً كالثلج وصهيونياً

متعصباً. وقد وافق على المساعدة على إبقاء اليهود بعيداً عن مقاومة الترحيل - بل وحفظ النظام في معسكرات التجميع - إذا ما غضضت الطرف وتركت مئات قليلة أو آلافاً قليلة من اليهود الشباب يهاجرون بشكل غير قانوني إلى فلسطين. كانت مساومة جيدة. أن يكون ثمن حفظ النظام في المعسكرات هو ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ يهودي - وربما كانوا أكثر من ذلك في النهاية - فلم يكن هذا مرتفعاً بالنسبة لي. لم يحدث أبداً - ربما باستثناء الاجتماعات القليلة الأولى - أن جاء كستنر إليَّ وهو خائف من رجل الجستابو القوي. لقد تفاوضنا كأنداد تماماً. الناس ينسون ذلك. كنا متعارضين سياسياً نحاول الوصول إلى تسوية، وكنا نثق كل في الآخر بدقة. عندما كان معي، كان كستنر يدخن السجائر كأنه في مقهى. وكان في أثناء حديثنا يدخن سيجارة معطرة يشعلها من أخرى وهو يخرجها من علبة فضية ويشعلها بقداحة فضية صغيرة. لقد كان في إمكانه أن يكون بكياسته الكبيرة وتحفظه ضابط جستابو مثالياً.

كان الاهتمام الرئيسي للدكتور كستنر هو أن يجعل من الممكن اختيار مجموعة من المجريين للهجرة إلى إسرائيل..

وفي الحقيقة كان هناك تشابه قوي جداً بين موافقنا في قوات العاصفة ووجهة نظر أولئك المثاليين جداً من القادة الصهاينة الذين كانوا يحاربون ما قد يكون آخر معاركهم. وكما قلت لكستنر: «نحن أيضاً مثاليون وكان علينا أيضاً أن نضحي بدمائنا قبل أن نصل إلى السلطة». أعتقد أن كستنر كان سيضحي بألف وبمائة ألف من دمائنا لتحقيق هدفه السياسي. لم يكن مهتماً باليهود المسنين أو أولئك الذين أصبحوا متمثّلين في المجتمع المجري. ولكنه كان مصراً بدرجة لا تصدق في محاولة انقاذ الدم اليهودي الثمين بيولوجياً - أي المادة البشرية القادرة على الإنتاج والعمل الشاق. قد يقول «يمكنك أن تأخذ الآخرين ولكن دع لي هذه المجموعة هنا». ولأن كستنر قدم لنا خدمة كبيرة بأن ساعد في المحافظة على معسكرات الترحيل مسالمة، فإنني كنت أسمح لمجموعاته بالهرب. فعلى أي حال لم أكن معنياً بالمجموعات الصغيرة من ألف يهودي أو أكثر(١٩).

وقد كتب أندريه بِسْ وهو ابن عم جويل براند وعمل مع كستنر في بودابست وأيد

سياسته، كتب على الرغم من ذلك يعزز جزئياً ما ذكره أيخمان، وذلك في كتابه، **إنقاذ مليون يهودي**، عندما وصف الذين صعدوا إلى القطار الشهير الذي وصل سويسرا يوم ٦ ديسمبر / كانون أول عام ١٩٤٤ :

> ثم جاءت المجموعة الأكثر عدداً، مفخرة كستنر - الشبيبة الصهيونية. هؤلاء كانوا يتشكلون من مختلف تنظيمات الرواد الزراعيين والتصحيحيين اليمينيين المتطرفين الذين لديهم بالفعل شهادات هجرة، وعدد من اليتامي. . وأخيراً جاء أولئك الذين كانوا قادرين على دفع النقود مقابل رحلتهم لأنه كان علينا أن نجمع المبلغ الذي طلبه الألمان، ولكن من بين ١٦٨٤ في القطار كان هناك ٣٠٠ على أكثر تقدير من هذه النوعية. .

> كان من بين المسافرين والدة كستنر وإخوته وأخواته وأعضاء آخرون من أسرته من كْلاوسنبورج (كلوج). . وأعضاء من عائلات أولئك الذين حاربوا من أجل تشكيل هذه القافلة، وقد شكلوا على أكثر تقدير مجموعة من ٤٠ إلى ٥٠ شخصاً. . . وفي خضم الاضطراب الذي حدث تمكن ٣٨٠ شخصاً من القفز إلى داخل القطار الذي ترك بودابست، لا بألف وثلثمائة مسافر كما كان متوقعاً، ولكنه اكتظ بأكثر من ١٧٠٠ مسافر[٢٠].

وقد حصل حزب العمل الاسرائيلي على أكثر مما ساوم عليه عندما انطلق مدافعاً عن كستنر. وحضر شمويل تامير وهو ارجوني سابق ومحقق لامع نيابة عن جرونوالد. وفيما بعد كتب بن هيخت كتابه، **الغدر**، وهو عرض متميز لفضيحة كستنر وقد قدم صفحات عديدة عن كيفية نسف تامير المتمكن لدفاع كستنر:

> تامير: ماذا تقول في حقيقة أن هناك أناساً تم اختيارهم من كلوج [بلدة كستنر الأصلية] لانقاذهم أكثر مما تم اختياره من أي بلدة مجرية أخرى؟

> كستنر: لا علاقة لذلك بي.

> تامير: أنا أقول لك أنك قد طلبت من أيخمان بشكل خاص محاباة قومك في كلوج.

> كستنر: . . . كانت كل لجان الإنقاذ المحلية تحت سلطاتي.
>
> تامير: لجان! أنت تتحدث بالجمع.

كستنر: نعم ـ حيثما وجدت.

تامير: في أي مكان آخر غير كلوج وجدت مثل هذه اللجنة؟

كستنر: حسنا، أعتقد أن لجنة كلوج كانت الوحيدة في المجر.

تامير: دكتور كاستنر، كان في إمكانك أن تتصل بالمدن الأخرى تليفونياً كما اتصلت بكلوج؟

كستنر: نعم هذا صحيح..

تامير: إذن لماذا لم تتصل باليهود في كل هذه المدن تليفونياً لتحذيرهم؟

كستنر: لم أفعل لأنه لم يكن لدي وقت كاف.

كان هناك ۲۰,۰۰۰ يهودي في كلوج ولم يكن هناك سوى عدد محدود من المقاعد في ذلك القطار. وبدأ القاضي بنيامين هاليفي يضغط على كستنر فأفشى من غير تفكير بمقاييسه لإختيار من يُنقذ:

كستنر:... إن الشهود من كلوج الذين أدلوا بشهاداتهم هنا ـ في رأيي لا أظن أنهم يمثلون يهود كلوج الحقيقيين. لأنه ليس صدفة انه لا يوجد من بينهم شخصية هامة واحدة[٢٢].

كان ليفي بلوم، وهو أيضاً من كلوج، قد حضر عشاء تكريمياً لكستنر في عام ١٩٤٨ رتّبه ركاب القطار، وقد أفسد المناسبة بأن قفز واقفاً فجأة وقال عن الضيف المبجل انه متعاون وتحداه أن يجرؤ على أخذ متهمه إلى المحكمة.

بلوم:... لقد سألته «لماذا وزعت بطاقات بريد من يهود يفترض أن يكونوا في كينيرمتسه وصاح أحدهم «كوهاني هو الذي فعل ذلك، وهو أحد رجال كستنر»، كان كوهاني أيضاً في القاعة فقفز وصاح «نعم لقد حصلت على تلك البطاقات البريدية». سألته «ممن حصلت عليها»؟ فأجاب ليس هذا من شأنك، ليس علي أن أفسر لك ما أفعله».

القاضي هاليفي: كل ذلك حدث في العلن؟

بلوم: نعم عدة مئات من الناس كانوا هناك[٢٣].

كذلك، كان كستنر متورطاً في قضية هنّا زينيس التي وصفت في المحاكمة. كانت زينيس صهيونية شابة شجاعة من المجر سمح لها البريطانيون أخيراً مع واحد وثلاثين آخرين بالقفز بالمظلات داخل أوربا المحتلة لتنظيم الإنقاذ والمقاومة اليهوديتين. هبطت في يوغوسلافيا يوم ١٨ مارس/آذار قبل يوم واحد من الغزو الألماني للمجر. وهربت نفسها إلى المجر في يونيو/حزيران فأمسكت بها شرطة هورتي على الفور. تبعها إلى المجر بيرتز جولدْشْتَاين و جويْل نوسْبِشَر ـ بالْجِي واتصلا بكستنر الذي وجههما نحو تسليم نفسيهما للألمان والمجريين من أجل خاطر القطار. وأُرسل كلاهما إلى أوشفتز، بالرغم من أن نوسبشر ـ بالجي تمكن من نشر بعض قضبان قطاره وهرب(٢٤). أما زينيس فقد أعدمت رمياً بالرصاص على يد فصيل إعدام مجري. إن إقرار كستنر في المحكمة أنه لم يبلغ السويسريين الذين كانوا يمثلون المصالح البريطانية في بودابست عن اعتقال المجريين لضابط وجاسوس بريطاني ـ «أعتقد أنه كانت لديّ أسبابي» ـ استنفر الجمهور الاسرائيلي الذي قرأ كثيرون منهم أشعار هنّا زينيس وعلم بشجاعتها في السجون المجرية(٢٥).

هل نُدعى لذلك خونة؟

في يوم ٢١ يونيو/حزيران عام ١٩٥٥ وجد القاضي هاليفي أنه لا يوجد تشهير بكستنر بصرف النظر عن حقيقة أنه لم تكن تحركه اعتبارات الربح المالي. إن تعاونه قد ساعد النازيين بشكل أساسي في قتل ٤٥٠,٠٠٠ يهودي، وبعد الحرب ضاعف من ذنبه بالذهاب للدفاع عن بِشَر.

> إن حماية النازيين لكستنر وموافقتهم على السماح له بإنقاذ ٦٠٠ يهودي بارز كان جزءاً من خطة لإبادة اليهود. وقد أعطى كستنر فرصة لإضافة عدد قليل آخر لهذا العدد. وقد جذبه الطعم أن فرصة إنقاذ أناس بارزين قد راقت له بدرجة كبيرة. واعتبر أن إنقاذ اليهود الأكثر أهمية هو نجاح شخصي عظيم ونجاح للصهيونية(٢٦).

وظلت حكومة العمال الاسرائيلية وفيّة لرفيقها الحزبي واستأنفت القضية. ورفع المدعي العام حاييم كوهين القضية الأساسية أمام المحكمة العليا وقدمها بحججه التالية:

> إن كستنر لم يفعل شيئاً أكثر أو أقل مما فعلناه نحن بإنقاذ اليهود وإحضارهم إلى فلسطين. . مسموح لك ـ. وفي الحقيقة هو واجبك ـ ان تخاطر بفقد

الكثيرين لكي تنقذ القليلين. . لقد كان اتجاهنا الصهيوني دائماً هو اختيار القلة من بين الكثرة في ترتيب الهجرة الى فلسطين. هل نُدعى لذلك خونة؟

وقد أقر كوهين بوضوح أن:

كان أيخمان الجلاد الرئيسي يعرف أن اليهود سيكونون مسالمين ولن يقاوموا إذا سمح هو بإنقاذ البارزين. وان «قطار البارزين» تم تنظيمه بأوامر من أيخمان لتسهيل إبادة الشعب كله.

ولكن كوهين أصر:

لم يكن هناك مجال لأي مقاومة للألمان في المجر، وقد سمح لكستنر بأن يستخلص أنه إذا كان كل يهود المجر سيرسَلون الى حتفهم فانه مخولٌ بتنظيم قطار إنقاذ لستمائة شخص. انه لم يكن مخولاً فحسب ان يفعل ذلك، ولكنه كان حرياً به أيضاً أن يعمل على هذا النحو[٢٧].

في يوم ٣ مارس/آذار أُردي كستنر قتيلاً بالرصاص وأدين زئيف إكْشْتَين بالاغتيال. كما وجد جوزيف مِيْنِكسْ ودان شِيْمر مذنبان باعتبارهما شريكين على أساس اعتراف إكشتين. وزعم القاتل أنه كان عميلاً للحكومة وقد تسلل داخل مجموعة إرهابية يمينية يرأسها اسرائيل شَايب (إلداد)، وهو يميني متطرف معروف[٢٨]. ومع ذلك لم ينته الأمر بموت كستنر. ففي يوم ١٧ يناير/كانون الثاني عام ١٩٥٨ أصدرت المحكمة العليا قرارها في قضية كستنر ـ جرينفالد.

حكمت المحكمة بأغلبية خمسة إلى لا شيء أن كستنر قد حلف يميناً كاذباً لصالح الكولونيل بشر. ثم استخلصت بأغلبية ٣ : ٢ بأن ما فعله خلال الحرب لا يمكن أن يعد تعاوناً مع العدو من الناحية القانونية. وكانت أقوى حجة لدى الأغلبية هي التي قدمها القاضي شْلوموشِسِيْن:

إنه لم يحذر يهود المجر بالخطر الذي يواجههم لأنه لم يظن ان ذلك سيكون مفيداً، ولأنه ظن أن أي أعمال تترتب على المعلومات المعطاة لهم ستضر أكثر مما تفيد. . . ولقد تحدث كستنر بالتفصيل عن الوضع قائلاً؛ «إن اليهودي المجري كان فرعاً جف منذ وقت طويل فوق الشجرة» وهذا الوصف الحي يتطابق مع شهادة شاهد آخر عن اليهود المجريين: «لقد كانت جالية يهودية كبيرة في المجر

ولكن بدون أي أساس أيديولوجي يهودي» والسؤال ليس هو ما إذا كان مسموحاً لرجل أن يقتل الكثيرين لكي ينقذ القليلين أو العكس. إن السؤال بمجمله هو في دائرة أخرى ويجب تحديده كما يلي: رجل يدرك أن جالية بأكملها تنتظر حتفها. وسُمح له أن يقوم بجهود لإنقاذ قلة، بالرغم من أن جزءاً من هذه الجهود يشمل إخفاء الحقيقة عن الكثيرين، أم أن عليه أن يكشف الحقيقة للكثيرين بالرغم من أن رأيه المفضل هو أنه بهذه الطريقة سيهلك الكل. أعتقد أن الإجابة واضحة، ما الفائدة التي ستأتي بها دماء القلة إذا كان كل انسان سيهلك(٢٩).

رفض قسم كبير من الجمهور الاسرائيلي قبول الحكم الجديد. ولو أن كستنر كان لا يزال حياً لواجهت حكومة العمال المصاعب، فهو لم يحنث بيمينه فقط لصالح بشر ولكن حدث أيضاً في فترة ما بين المحاكمة وصدور قرار المحكمة العليا ان كشف تامير عن أدلة أخرى تبين أن كستنر قد تدخل أيضاً في قضية الكولونيل هيرمان كُرومي من قوات العاصفة. ولقد أرسل له أثناء انتظاره المحاكمة في نوريمبرج(*) شهادة خطية موثقة تعلن: «لقد أدى كرومي واجباته بروح من النية الطيبة الجديرة بالثناء، وذلك في وقت كانت فيه حياة وموت الكثيرين تعتمد عليه»(٣٠).

وفيما بعد، خلال محاكمة أيخمان في الستينات عرض أندريه بِسْ أن يتقدم للشهادة. وبسبب تورطه مع كستنر كان لديه اتصال أكبر مع أيخمان من أي شاهد يهودي آخر ـ ٩٠ من ١٠٢ لم يكونوا قد رأوا أيخمان أبداً ـ وكان من الواضح أن شهادته ستكون مهمة. وتم تحديد موعد له ولكن جديون هَوسْنَر الذي كان مدّعياً وقتذاك اكتشف أن بس ينوي الدفاع عن نشاطات كستنر. وكان هوسنر يعرف أنه بالرغم من قرار المحكمة العليا في القضية فإن بِسْ لو حاول الدفاع عن كستنر فسيثير ضجة إحتجاج شديدة. وكان هوسنر يعرف من تسجيلات ساسين لمقابلات أيخمان كيف يمكن لأيخمان أن يورط كستنر. لقد كسبت اسرائيل سمعة كبيرة من أسر أيخمان ولم تكن الحكومة تريد أن تتحول بؤرة المحاكمة بعيداً عن أيخمان إلى إعادة فحص السجل الصهيوني خلال المحرقة. وطبقاً لما يرويه بس فان هَوسنر «طلب مني أن أُسقط من أدلتي أي ذكر لنشاطنا في بودابست،

---

* محاكمات نوريمبرج؛ محاكمة مجرمي الحرب الألمان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. (م).

وبشكل خاص، أن أمَرِّر بصمت ما كان يسمى في اسرائيل عند ذلك «قضية كستنر»[٣١]. ورفض بس واستُبعد كشاهد.

من الذي ساعد على قتل ٤٥,٠٠٠ يهودي؟

أن يخون صهيوني اليهود، فذلك لا يعد شيئاً على الإطلاق: لا توجد حركة مسئولة عن المرتدين عنها. ومع ذلك فإن كستنر لم يعتبر خائناً قط من جانب الصهيونيين العماليين. على العكس، فهم يصرون على أنه إذا كان مذنباً، فهم أيضاً مذنبون. ومن المؤكد أن كستنر قد خان اليهود الذين كانوا ينظرون اليه كواحد من قادتهم بالرغم من رأي القاضي ساسين:

> لا يوجد قانون وطني أو دولي يحدد واجبات أي زعيم في ساعة الطوارىء - ء أولئك الذين يثقون بقيادته ويخضعون لتعليماته[٣٢].

ومع ذلك فإن أهم جوانب قضية كستنر - جرونفالد حتى الآن هو كشفها الكامل لفلسفة العمل للمنظمة الصهيونية العالمية خلال كل مرحلة النازيين: تبرير خيانة الكثيرين لمصلحة الهجرة المختارة إلى فلسطين.

هوامش الفصل الخامس والعشرين

1. Randolph Braham, 'The Official Jewish Leadership of Wartime Hungary', (unpublished manuscript), p. 1.
2. Randolph Braham, 'The Role of the Jewish Council in Hungary: A Tentative Assessment', *Yad Vashem Studies*, vol. X, p. 78.
3. Alex Weissberg, *Desperate Mission* (Joel Brand's story as told by Weissberg), p. 75.
4. Ibid., p. 158.
5. Ibid., pp. 163–5.
6. Ibid., pp. 165–6.
7. Ibid., p. 207.
8. Ibid., p. 210.
9. Ibid., pp. 208–9.
10. Moshe Shonfeld, *The Holocaust Victims Accuse*, p. 38.
11. Michael Dov-Ber Weissmandel, 'Letters from the Depths' in Lucy Dawidowicz (ed.), *A Holocaust Reader*, p. 326.
12. Bernard Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe 1939–1945*, p. 311.
13. Ibid., p. 310.
14. Ibid.
15. Ibid., p. 311.
16. Ibid., p. 313.
17. Meir Sompolinsky, 'Anglo-Jewish Leadership and the British Government', *Yad Vashem Studies*, vol. XIII, p. 213.
18. Ibid., pp. 217–18.
19. Adolf Eichmann, 'I Transported Them to the Butcher', *Life* (5 December 1960), p. 146.
20. André Biss, *A Million Jews to Save*, pp. 92–4.
21. Ben Hecht, *Perfidy*, pp. 112–14.
22. Ibid., p. 118.
23. Ibid., p. 110.
24. Weissberg, *Desperate Mission*, pp. 236–47.
25. Hecht, *Perfidy*, p. 129.
26. Ibid., p. 180.
27. Ibid., pp. 194–5, 268.
28. Yitzhak Heimowitz, 'On the Kastner Case', *Middle East and the West* (31 January 1958), p. 3; Mordechai Katz, 'As I See It', ibid., (24 January 1958), p. 3; Katz, 'On Kastner and his Assassins', ibid., (7 February 1958), p. 3.
29. Hecht, *Perfidy*, pp. 270–1.
30. Ibid., p. 199.
31. Biss, *A Million Jews to Save*, p. 231.
32. Hecht, *Perfidy*, p. 272.

٢٦ ـ عصابة شتيرن

حتى انتصار بيجين في الانتخابات في عام ١٩٧٧ كان معظم المؤرخين المؤيدين للصهيونية يرفضون التصحيحية باعتبارها هامشاً متعصباً من الصهيونية. ومن المؤكد أن «عصابة شتيرن» الأكثر تطرفاً، كما يدعوهم أعداؤهم (وهم «المحاربون من أجل حرية اسرائيل» بقيادة أبراهام شِتيرن) كان ينظر إليها باعتبارها ذات أهمية للعالِم النفسي أكثر منها للعالِم السياسي. ومع ذلك فإن الرأي تجاه بيجين كان لا بد أن يتغير عندما وصل إلى السلطة. وعندما عين في آخر الأمر إسحاق شامير كوزير للخارجية في وزارته، استُقبل ذلك بهدوء بالرغم من أن شامير كان مسئول العمليات في عصابة شتيرن.

«الدولة اليهودية التاريخية على أسس قومية وشمولية»

في ليلة ٣١ أغسطس/آب ـ ١ سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٩ ألقت المخابرات الحربية البريطانية القبض على كل قيادة الارجون بمن في ذلك شتيرن. وعندما أطلق سراحه في يونيو/حزيران عام ١٩٤٠ وجد شتيرن تركيبة سياسية جديدة تماماً. كان جابوتنسكي قد دعا الى وقف كل العمليات العسكرية ضد البريطانيين خلال فترة الحرب. وكان شتيرن نفسه مستعداً للتحالف مع البريطانيين طالما أن لندن كانت ستعترف بسيادة الدولة اليهودية على جانبي نهر الأردن. وإلى أن يحدث ذلك كان لا بد ان يستمر النضال المعادي لبريطانيا. وعرف جابوتنسكي انه لا شيء يمكن أن يجعل بريطانيا تعطي اليهود دولة في عام ١٩٤٠، ورأى أن تكوين فرقة يهودية أخرى داخل الجيش البريطاني ستكون هي

المهمة الأساسية. كان هـذان التوجهـان غير متوافقين. وبحلول ستبمبر/أيلول عام ١٩٤٠ انشق الارجون بلا رجعة، وانضمت الأغلبية سواء في القيادة أو في القـواعد الى شتيرن وخرجت من الحركة التصحيحية.

وكانت المجموعة الجديدة عند ولادتها في أعلى درجات قوتها لأنه عنـدما أصبحت سياسات شتيـرن أكثر وضـوحاً بـدأت القواعـد تتحول عـائدة إلى الإرجـون أو تلتحق بالجيش البريطاني. وبدأ شتيرن أو «يائير» كما أصبح يسمى نفسه الآن (على اسم اليعازر بن يائير قائد السادة خلال الانتفاضة ضد روما) في تحديـد أهدافـه الكاملة. وتضمنت مبادئه الثمانية عشر، دولة يهودية حدودها كما حددت في **سفر التكوين**: ١٥ : ١٨ «من غدير مضر إلى النهر الكبير، نهر الفرات»، و«مبادلة سكان» وهو تعبير ملطف عن طـرد العرب، وأخيراً بناء الهيكل الثالث في القدس[١]. كانت مجموعة شتيرن في ذلك الوقت أغلبية ضئيلة جداً للجناح العسكري للتصحيحية، ولكنها لم تكن بأي حال ممثلة ليهود الطبقة الوسطى في فلسطين الذين ساندوا جابوتنسكي. كذلك كانت الدعـوة المتغصبة للهيكل الجديد أقل جاذبية بالنسبة للصهاينة العاديين.

كانت الحرب ومترتباتها تخيم على تفكير كل انسان، وبدأت عصابة شتيـرن تشرح موقفها المتفرد في سلسلة من الإذاعات عبر إذاعة سرية:

> هناك فرق بين الجلاد والعدو. لقد قام جلادون ضد اسرائيل في كل الأجيال وفي كل فترات مهاجرنـا، بدءاً من هـامان وانتهـاءً بهتلر. . . إن مصدر كـل مصائبنا هو بقاؤنا في المنفى وغياب الوطن والدولة لذا فإن عدونا هو الأجنبي، حاكم أرضنا الذي يقف في طريق عودة الشعب إليها. إن العدو هو البريطانيون الذين فتحوا الأرض، بمعونتنا وهم يبقون هنا بموافقاتنا، وهم الذين خـانونـا ووضعوا إخوتنا في أوربا في أيدي الجلاد[٢].

وتحول شتيرن بعيداً عن أي نوع من أنواع النضال ضد هتلر، بل بدأ يتصور إرسال مجموعة من رجال العصابات إلى الهند لمساعدة القوميين هناك ضد بريطانيا[٣]. وهاجم التصحيحيـين لتشجيعهم اليهود الفلسـطينيين عـلى الالتحاق بـالجيش البريـطاني حيث سيعاملون كقوات المستعمرات «حتى الى درجة انه لا يسمح لهم بـاستعمال الحمـامات المحجوزة للجنود الأوربيين»[٤].

كان للاعتقاد الأحادي الجانب لدى شتيرن، بأن الحل الوحيد للكارثة اليهودية في أوربا هو إنهاء السيطرة البريطانية على فلسطين خلاصة منطقية. لم يكن في امكانهم إيقاع الهزيمة ببريطانيا بقواتهم التافهة، وهكذا تطلعوا لاعدائها من أجل الخلاص. وتمكنوا من الاتصال بعميل إيطالي في القدس وهو يهودي كان يعمل مع الشرطة البريطانية. وفي سبتمبر/أيلول عام ١٩٤٠ توصلوا إلى اتفاق يعترف موسوليني بمقتضاه بدولة صهيونية مقابل تعاون شتيرن مع الجيش الايطالي عندما يغزو البلاد(٥). إن مدى الجدية التي أخذ بها شتيرن أو العمل الايطالي هذه المناقشات كانت ولا تزال محل جدل. فلقد خشي شتيرن أن يكون الاتفاق جزءاً من استفزاز تآمري بريطاني(٦). وكإجراء احتياطي أرسل شتيرن نفتالي لوبنشتيك الى بيروت التي كانت لا تزال تحت سيطرة الفيشي لكي يتفاوض مباشرة مع المحور. لا يعرف شيء عن معاملاته لا مع الفيشي ولا مع الايطاليين، ولكن في يناير/كانون الثاني عام ١٩٤١ قابل لونستيك ألمانيين - رودولف روزين وأوتوفون هنتيج، محب الصهاينة والذي كان عندئذ مسئول الادارة الشرقية في وزارة الخارجية الألمانية. واكتشفت بعد الحرب نسخة من اقتراح شتيرن لاقامة تحالف بين حركته وبين الرايخ الثالث وذلك في أوراق السفارة الألمانية في تركيا. كانت وثيقة أنقرة تسمي نفسها «اقتراح من المنظمة العسكرية القومية (إرجون زفاي ليومي) يتعلق بحل المسألة اليهودية في أوربا، ومشاركة المنظمة العسكرية القومية في الحرب إلى جانب الألمان» (إن تاريخ وثيقة أنقرة هو ١١ يناير/كانون الثاني ١٩٤١. وفي ذلك الوقت كان الشتيرنيون لا يزالون يعتبرون أنفسهم الارجون «الحقيقي»، ولم يتبنوا اسم «المقاتلين من أجل حرية اسرائيل - ليومي حيروت يسرائيل - إلا فيما بعد). وفي تلك الوثيقة قالت مجموعة شتيرن للنازيين:

> إن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية، ولكن ذلك لا يمكن أن يصبح ممكناً وكاملاً إلا من خلال توطين هذه الجماهير في وطن الشعب اليهودي، فلسطين، ومن خلال إقامة الدولة اليهودية في حدودها التاريخية... إن المنظمة القومية العسكرية التي تعرف جيداً النوايا الحسنة لحكومة الرايخ الألماني وسلطاتها تجاه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وتجاه خطط الهجرة الصهيونية، من رأيها:
>
> ١ - إن المصالح المشتركة يمكن أن تقوم بين إقامة نظام جديد في أوربا متسق مع المفهوم الألماني، والطموحات القومية للشعب اليهودي كما تجسدها المنظمة

العسكرية القومية.

٢ ـ إن التعاون بين ألمانيا الجديدة وبين عبرانية شعبية متجددة ممكن.

٣ ـ إن إقامة الدولة اليهودية التاريخية على أسس قومية وشمولية ومرتبطة بمعاهدة مع الرايخ الألماني ستكون في مصلحة الحفاظ على موقع نفوذ الماني مستقبلي في الشرق الأوسط وتقويته.

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات فإن المنظمة العسكرية القومية في فلسطين تحت شرط الاعتراف بالطموحات القومية المذكورة أعلاه والخاصة بحركة الحرية الاسرائيلية، من جانب الرايخ الألماني، تعرض أن تشارك بنشاط في الحرب إلى جانب ألمانيا.

هذا العرض الذي تقترحه المنظمة العسكرية القومية.. يتصل بالتدريب العسكري وتنظيم الطاقة البشريةاليهودية في أوربا تحت زعامة وقيادة المنظمة العسكرية القومية. وستشارك هذه الوحدات العسكرية في الحرب لفتح فلسطين إذا ما تقرر فتح تلك الجبهة..

إن المشاركة غير المباشرة لحركة الحرية الاسرائيلية في النظام الجديد في أوربا، وهو الآن في مرحلة تحضير بالفعل، سترتبط بحل جذري إيجابي للمشكلة اليهودية الأوربية باتساق مع الطموحات القومية المذكورة عالية للشعب اليهودي. وذلك سيقوّي بشكل غير عادي الأسس المعنوية للنظام الجديد في عيون كل الإنسانية.

وأكد الشتيرنيون مرة أخرى: «أن المنظمة القومية العسكرية وثيقة الصلة بالحركات الشمولية في أوربا في أيديولوجيتها وبنيتها»(٧).

وقال لوبنتشيك لفون هنتيج إنه إذا لم يكن النازيون مستعدين سياسياً لإقامة دولة صهيونية فوراً في فلسطين فإن الشيترنيين مستعدون للعمل مؤقتاً على أساس خطة مدغشقر. كانت فكرة المستعمرات اليهودية على الجزيرة واحدة من الأفكار الأكثر غرابة للمعادين للسامية الأوربية قبل الحرب. ومع هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ جدد الألمان الفكرة كجزء من رؤيتهم لامبراطورية ألمانية في أفريقيا. وقد ناقش شتيرن وحركته مشروع

مدغشقر النازي وخلصوا إلى أنه من الواجب تأييده، تماماً كما أيد هرتزل في البداية العرض البريطاني في عام ١٩٠٣ بإقامة مستعمرة يهودية مؤقتة في مرتفعات كينيا(٨).

لم تكن هناك متابعة ألمانية لهذه الاقتراحات التي لا تصدق، ولكن الشتيرنيين لم يفقدوا الأمل. ففي ديسمبر/كانون أول عام ١٩٤١ وبعد إستيلاء البريطانيين على لبنان، أرسل شتيرن ناتان يالين ـ مور لمحاولة الاتصال بالنازيين في تركيا المحايدة ولكنه ألقي القبض عليه في الطريق. ولم يكن هناك مزيد من المحاولات للاتصال بالنازيين.

كانت خطة شتيرن دائماً غير واقعية. وكان من أساسات التحالف الايطالي الألماني ان شاطىء شرق المتوسط ستشمله دائرة النفوذ الايطالية. بالإضافة إلى ذلك وفي يوم ٢١ نوفمبر عام ١٩٤١ قابل هتلر المفتي وقال له: إنه بالرغم من أن ألمانيا لا يمكنها أن تدعو علناً لاستقلال أي من الممتلكات العربية الخاصة بالبريطانيين أو الفرنسيين ـ إنطلاقاً من الرغبة في عدم إغضاب حكومة فيشي التي كانت لا تزال تسيّر شمال افريقيا ـ فانه عندما يجتاح الألمان القوقاز فانهم سيهبطون الى فلسطين بسرعة ويدمرون الاستيطان الصهيوني.

بل إنه يوجد المزيد مما يتعلق بنظرة شتيرن لنفسه كشمولي. ففي أواخر الثلاثينيات أصبح شتيرن واحداً من قادة حلقات التصحيحيين الساخطين الذين كانوا ينظرون إلى جابوتنسكي باعتباره ليبرالياً لديه تحفظات أخلاقية حول إرهاب الارجون ضد العرب. وشعر شتيرن ان الخلاص الوحيد لليهود هو في انتاج نموذجهم الصهيوني الخاص من الشمولية، والقطع تماماً مع بريطانيا التي تخلت على أي حال عن الصهيونية بالكتاب الأبيض في عام ١٩٣٩. وكان قد شاهد المنظمة الصهيونية العالمية وهي تقيم توفيقاتها الخاصة مع النازية عن طريق «الهاآفارا»، وشاهد جابوتنسكي يورط نفسه مع ايطاليا، وكان هو نفسه متورطاً بشكل وثيق في صفقات التصحيحيين مع البولنديين المعادين للسامية. ومع ذلك فان شتيرن كان يعتقد أن كل هذا هو مجرد أنصاف حلول.

كان شتيرن واحداً من التصحيحيين الذين شعروا أن الصهاينة واليهود هم الذين خانوا موسوليني وليس العكس. وكان على الصهيونيين أن يظهروا للمحور انهم جادون بالدخول في نزاع عسكري مباشر مع بريطانيا، بحيث يمكن للشموليين أن يروا ميزة عسكرية محتملة في تحالفهم مع الصهيونية. وكانت حجة شتيرن أنهم لكي يكسبوا كان عليهم أن يتحالفوا مع الفاشيين والنازيين على السواء: إن المرء لا يمكن أن يتعامل مع أمثال بتليورا أو أمثال موسوليني ثم يتراجع عن ذلك مع أمثال هتلر.

هل كان اسحاق يزرتنْسْكي - أو الحاخام شامير - كما كان اسمه التنظيمي السري، والذي هو الآن وزير خارجية اسرائيل يعرف شيئاً عن الكونفدرالية التي اقترحتها حركته مع أدولف هتلر؟ في السنوات الأخيرة بحثت بشكل شامل نشاطات زمن الحزب التي قامت بها عصابة شتيرن على يد شاب انضم اليها في فترة ما بعدالحرب عندما لم تعد مؤيدة للنازية. إن باروخ نادل متأكد بشكل مطلق ان يزرتنسكي - شامير كان يعلم تماماً خطة شتيرن: «كلهم عرفوا بها»(٩).

وعندما عين شامير وزيراً للخارجية ركز الرأي العام العالمي على حقيقة أن بيجين قد اختار منظم أشهر عمليتي اغتيال: مقتل اللورد موين، وهو الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط يوم ٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٤، واغتيال الكونت فولك برنادوت، الوسيط الخاص بفلسطين من قبل الأمم المتحدة يوم ١٧ سبتمبر/أيلول عام ١٩٤٨. وسمح الاهتمام بماضيه الارهابي بإضفاء الفكرة الأكثر جسامة وهي أن حليفاً محتملاً لأدولف هتلر يمكن أن يصعد إلى قيادة الدولة الصهيونية. وعندما عين بيجين شامير، وكرّم شتيرن بأن أصدر طوابع بريد تحمل صورته، فقد فعل ذلك وهو يعرف تمام المعرفة ماضيهما. ولا يمكن أن يكون هناك برهان أفضل من هذا البرهان على أن تركة التواطؤ الصهيوني مع الفاشيين والنازيين، والفلسفات التي تقف وراء ذلك لا تزال تجري في اسرائيل المعاصرة.

هوامش الفصل السادس والعشرين

1. Norman and Helen Bentwich, *Mandate Memories, 1918-1948*, p. 150.
2. Elis Lubrany, 'Hitler in Jerusalem', *Weltbuhne* (Berlin, 31 May 1932), p. 835.
3. 'Jerusalem or Moscow – Herzl or Lenin', *Betar Monthly* (15 August 1931), pp. 2, 5-6.
4. Ben Frommer, 'The Significance of a Jewish State', *Jewish Call* (Shanghai, May 1935), pp. 10-11.
5. Richard Lichtheim, *Die Geschichte des Deutschen Zionismus*, pp. 258-9.
6. Author's interview with Shmuel Merlin 16 September 1980.
7. 'Grundzuege des Vorschlages der Nationalen Militaerischen Organisation in Palastina (Irgun Zwei Leumi) betreffend der Loesung der juedischen Frage Europas und der aktiven Teilnahme der NMO am Kriege an der Seite Deutschlands', David Yisraeli, *The Palestine Problem in German Politics 1889-1945*, Bar Ilan University (Ramat Gan, Israel) (1974), pp. 315-17.
8. Kanaan, *Germany and the Middle East*, pp. 165-6.
9. Interview with Nadel.

الفهرس

صدر أيضاً عن مؤسسة الأبحاث العربية :

* روز ماري صايغ
- **الفلاحون الفلسطينيون : من الاقتلاع الى الثورة**

* يوسف رجب الرضيعي
- **ثورة ١٩٣٦ في فلسطين: دراسة عسكرية**

* إيلان هاليفي
- **اسرائيل: من الإرهاب إلى مجازر الدولة.**

* مجموعة من الكتاب
- **شارون، هذا الرجل وحياته**

* * *



الصهيونية في زمن الديكتاتورية

* يفتش ليني برينر في تاريخ الصهيونية وسجلاته، منذ أيام هرتزل، ويجد الوثائق التي تبرهن أن الحركة الصهيونية ـ بأجنحتها المختلفة ـ سعت للحصول على رعاية موسوليني وهتلر، وأنها عقدت اتفاقات وصفقات عدة مع الفاشيين والنازيين.

* ويبيّن المؤلف، وهو نفسه يهودي متمسك بيهوديته، في بحث دقيق كيف أن القادة الصهاينة كانوا منذ البداية على استعداد للتواطؤ مع النازيين الى حد تفضيل أن يُقتل يهود مقابل دفع اليهود الآخرين نحو فلسطين.

* ويسوق المؤلف الأفكار الصهيونية التي تظهر التطابق مع أفكار النازيين والفاشيين، في الجوهر كما في الأسلوب، ويجيب عن السؤال الهام حول طبيعة الحركة الصهيونية: هل هي نتاج للتطور الاجتماعي للمجتمع الرأسمالي، شأنها في ذلك شأن الحركة الفاشية والحركة النازية، أم هي «تقليد» لهما «وتوحُّد» بهما؟

* أثار هذا الكتاب عند صدوره ما يستحقه من اهتمام، وحاربه الصهاينة بشتى الوسائل. وهو بما فيه من حقائق موثقة لم تكن معروفة من قبل سلاح لا غنى عنه لكل باحث ولكل مناضل ضد الصهيونية.

* ويكتسب نشر هذا الكتاب بالعربية أهمية خاصة في ضوء ما يشهده التجمع الاسرائيلي من اتجاه «نحو اليمين» ونحو الفاشية بالمقياس الأوروبي، وما يحمله ذلك من أخطار الإبادة بالقتل والتهجير للعرب، وتغذية الاقتتال الطائفي والإقليمي.

* ليني برينر: صحفي حر، نشرت مقالاته في صحف عديدة منها «ميد انترناشيونال»، و«انترناشيونال سوشالست ريڤيو»، ؛ و«جويش جار وغيرها.





مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧ـ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان